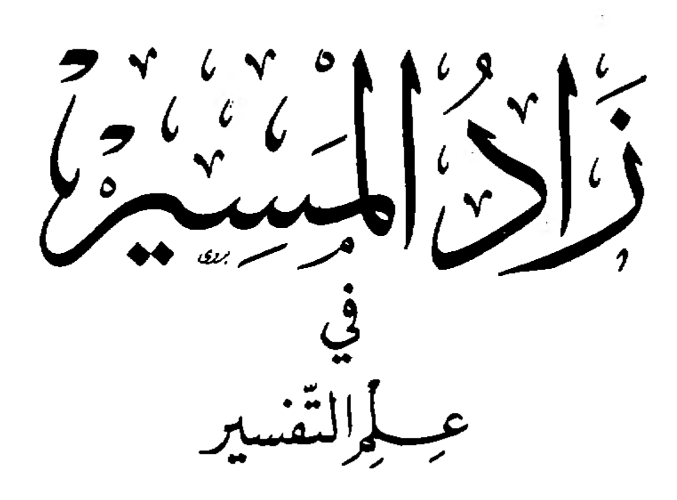


زاد المسير في علم التفسير

تأليف

الامام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

الجزء السابع

المكتب الاسلامي

حقوق الطبع محفوظة
للمكتب الإسلامي
لصاحبه
زهير الشاويش

الطبعة الثالثة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

سورة يس

وفيها قولان .

أحدهما : أنها مكيَّة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، والجمهور . وروي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إنها مكيَّة إلّا آية منها ، وهي قوله : (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) [يس : ٤٥] .

والثاني : أنها مدنية ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ، وقال : ليس بالمشهور .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾

وفي قوله : (يسٓ) خمسة أقوال .

أحدها : أن معناها : يا إنسان ، بالحبشية ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومقاتل .

والثاني : أنها قَسَم أقسم اللهُ به ، وهو من أسمائه ، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن معناها : يا محمد ، قاله ابن الحنفية ، والضحاك .

والرابع : أن معناها : يارجُل ، قاله الحسن .

والخامس : اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة (١) .

وقرأ الحسن ، وأبو الجوزاء : « يسَنِ » بفتح الياء وكسر النون . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو رجاء ، وابن أبي عبلة : بفتح الياء والنون جميعاً . وقرأ أبو حصين الأسدي : بكسر الياء وإظهار النون . قال الزجاج : والذي عند أهل العربية أن هذا بمنزلة افتتاح السُّوَر ، وبعض العرب يقول : « يسَنَ والقرآن » بفتح النون ، وهذا جائز في العربية لوجهين . أحدهما : أن « يس » اسم للسورة ، فكأنه قال : اتلُ يس ، وهو على وزن هابيل وقابيل لاينصرف والثاني : أنه فُتح لالتقاء الساكنين ، والتسكين أجود ، لأنه حرف هجاء .

قوله تعالى : (والقرآنِ الحكيمِ) هذا قَسَم ، وقد سبق معنى « الحكيم » [البقرة : ٣٢] ، قال الزجّاج : وجوابه : (إنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) ؛ وأحسنُ ماجاء في العربيّة أن يكون « لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » خبر « إنَّ » ، ويكون قوله : (على صِراطٍ مستقيمٍ) خبراً ثانياً ، فيكون المعنى : إنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِين ، إنَّكَ على صِراطٍ مستقيم ويجوز أن يكون « على صِراطٍ » من صلة « الْمُرْسَلِين » ، فيكون المعنى : إنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ الذين أُرسِلوا على طريقة مستقيمة .

قوله تعالى : (تنزيلَ العزيزِ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « تنزيلُ »

---

(١) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة (البقرة) ، وسورة (طه) وانظر التعليق الذي في أول سورة (العنكبوت) . وكلمة (يس) هنا من الحروف المقطعة أمثال (طه) وغيرها ، وقد قال ابن جرير الطبري في تفسير كلمة (طه) بعدما ذكر في معناها عدة أقوال : والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه ، قول من قال : معناه : يارجل ، وتأويل الكلام : يارجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، ما أنزلناه عليك فتكلّفك مالاطاقة لك به من العمل . اهـ . وكلمة (يس) هنا معناها قريب من (طه) كأنه قال : يارجل والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين بوحي الله عز وجل إلى عباده ، يريد به محمداً ﷺ .

برفع اللام . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « تنزيلَ » بنصب اللام . وعن عاصم كالقراءتين . قال الزجاج : من قرأ بالنصب ، فعلى المصدر ، على معنى : نزَّل اللهُ ذلك تنزيلاً ، ومن قرأ بالرفع ، فعلى معنى : الذي أُنزلَ إليكَ تنزيلُ العزيز . وقال الفراء : من نصب ، أراد : إنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ تنزيلاً حَقّاً مُنزَلاً ويكون الرفع على الاستئناف ، كقوله : ذلك تنزيل العزيز . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو رزين ، وأبو العالية ، والحسن ، والجحدري : « تنزيلِ » بكسر اللام . وقال مقاتل : هذا القرآن تنزيل العزيز في ملكه ، الرحيم بخلقه .

قوله تعالى : (لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤهم) في « ما » قولان .

أحدهما : أنها نفي ، وهو قول قتادة والزجاج في الأكثرين .

والثاني : أنها بمعنى « كما » ، قاله مقاتل . وقيل : هي بمعنى « الذي » .

قوله تعالى : (فَهُمْ غافلون) أي : عن حُجَج التوحيد وأدلة البعث .

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾

(لقد حَقَّ القولُ) فيه قولان . أحدهما : وجب العذاب . والثاني : سبق القول بكفرهم .

قوله تعالى : (على أكثرهم) يعني أهل مكة ، وهذه إشارة إلى إرادة الله تعالى السابقة لكفرهم (فهم لايؤمِنون) لِمَا سبق من القَدَر بذلك .

(إنَّا جَعَلْنا في أعناقهم أغلالاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها مَثَلٌ ، وليس هناك غُلٌّ حقيقة ، قاله أكثر المحقّقين ، ثم لهم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنها مَثَل لمنعهم عن كل خير ، قاله قتادة . والثاني : لحبسهم عن الإنفاق في سبيل الله بموانع كالأغلال ، قاله الفراء ، وابن قتيبة . والثالث : لمنعهم من الإيمان بالله ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والقول الثاني : أنها موانع حسّيَّة مَنَعَتْ كما يَمنع الغُلُّ ؛ قال مقاتل بن سليمان : حلف أبو جهل لئن رأى النبيَّ ﷺ يصلّي لَيَدْمَغَنَّهُ ، فجاءه وهو يصلّي ، فرفع حجراً فيَبِسَتْ يدُه والتصق الحجر بيده ، فرجَع إلى أصحابه فأخبرهم الخبر ، فقام رجل منهم فأخذ الحجر ، فلمّا دنا من رسول الله ﷺ طَمَسَ اللهُ على بصره فلم يره ، فرجَع إلى أصحابه فلم يُبْصِرهم حتى نادَوْه ، فنزل في أبي جهل : (إنّا جَعَلْنا في أعناقهم أغلالاً . . .) الآية ، ونزل في الآخر : (وجَعَلْنا مِنْ بين أيديهم سَدّاً) [1] .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٣٩ ، ١٤٠ : رواه ابن إسحاق في « السيرة » في كلام طويل ، قال : ورواه أبو نعيم في « الدلائل » من طريق ابن إسحاق : حدثني محمد بن محمد بن سعيد ، أو عكرمة عن ابن عباس ، أن أبا جهل قال : « إني أعاهد الله لأجلسنّ غداً لمحمد بحجر ما أطيق حمله ، فاذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ... » فذكر نحوه إلى قوله : « قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر بين يديه » . وقد ذكر سبب النزول هذا مختصراً الطبري عن عكرمة قال : قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلنّ ولأفعلنّ ، فأنزلت : (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً) إلى قوله : (فهم لايبصرون) قال : فكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو ؟ أين هو ؟ لايبصره . اهـ . وأصله في البخاري : ٥٥٧/٨ في سورة (اقرأ) عند قوله تعالى : (كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة) عن —

والقول الثالث : أنه على حقيقته ، إلا أنَّه وَصْفٌ لِمَا سيُنْزِلُه اللهُ تعالى بهم في النار ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (فهي إلى الأذقان) قال الفراء : « فهي » كناية عن الأيمان ، ولم تُذْكَر ، لأن الغُلّ لايكون إلا في اليمين والعنق جامعاً لهما ، فاكتُفي بذكر أحدهما عن صاحبه . وقال الزجّاج : « هي » كناية عن الأيدي ، ولم يذكرها إيجازاً ، لأن الغُلّ يتضمن اليد والعنق ، وأنشد :

وما أدري إذا يَمَّمْتُ أرضاً أُريدُ الخَيْرَ أيُّهُما يَلِيني [1]

وإنما قال : أيُّهما ، لأنه قد علم أن الخير والشرّ معرَّضان للانسان . قال الفراء : والذَّقَن : أسفل اللَّحْيَيْن ، والمُقْمَحُ : الغاضّ بصره بعد رفع رأسه . قال أبو عبيدة : كُلُّ رافعٍ رأسَه فهو مُقَامِح وقَامِح ، والجمع : قِماح ، فإن فُعل ذلك بإنسان فهو مُقْمَح ، ومنه هذه الآية . وقال ابن قتيبة : يقال : بعيرٌ قامِحٌ ، وإبلٌ قِماحٌ : إذا رَوِيَتْ من الماء فقَمَحَتْ ، قال الشاعر ـ وذكر سفينة ـ :

ونحنُ على جَوانِبِها قُعُودٌ نَغُضُّ الطَّرْفَ كالإبِلِ القِماحِ [2]

وقال الأزهري : المُراد أنَّ أيديهم لمّا غُلَّت عند أعناقهم ، رَفَعَتْ الأغلالُ أذقانَهم ورؤوسَهم ، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إيَّاها .

ــ عكرمة قال ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأنَّ على عنقه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : « لو فعله لأخذته الملائكة » ، وسيأتي ذلك في محله من سورة (إقرأ) إن شاء الله تعالى .

(١) تقدم البيت في الجزء : ١/١٨٣ وتخريجه : ١/٤٤٣ ، وهو أيضاً في « معاني القرآن » : ٢٣١ ، و « مشكل القرآن » : ١٧٦ ، و « الطبري » : ٢٢/١٥١ .

(٢) البيت لبِشْر بن أبي خازم الأسدي ، وهو في « مجاز القرآن » : ٢/١٥٧ ، و « غريب القرآن » : ٣٦٣ ، و « القرطبي » : ١٥/٨ ، و « البحر المحيط » : ٧/٣٢٤ ، و « روح المعاني » : ٢٢/١٩٧ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : قمح .

قوله تعالى : (وجَعَلْنا مِنْ بينِ أيديهم سَدّاً) قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بفتح السين ، والباقون : بضمها ، وقد تكلَّمنا على الفَرْق [بينهما] في (الكهف : ٩٤) . وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : منعناهم عن الإيمان بموانع ، فهم لايستطيعون الخروج عن الكفر .

والثاني : حجبناهم عن أذى رسول الله ﷺ بالظُّلمة لمّا قصدوه بالأذى .

قوله تعالى : (فأَغشيناهم) قال ابن قتيبة : أغشينا عيونَهم وأعميناهم عن الهُدَى . وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، ويحيى بن يعمر : « فأعشيناهم » بعين غير معجمة . ثم ذكر أن الإنذار لاينفعهم لإضلاله إيَّاهم بالآية التي بعد هذه . ثم أخبر عمَّن ينفعُه الإنذارُ بقوله : (إنَّما تُنْذِرُ) أي : إنَّما يَنفع إنذارُك (مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) وهو القرآن ، فعمل به (وخَشِيَ الرَّحمنَ بالغَيب) وقد شرحناه في (الأنبياء : ٤٩) ، والأجر الكريم : الحَسَن ، وهو الجنة . (إنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتى) للبعث (ونَكْتُبُ ماقدَّموا) من خير وشرٍّ في دنياهم . وقرأ النخعي ، والجحدري : « ويُكْتَبُ » بياء مرفوعة وفتح التاء « وآثارُهم » برفع الراء .

وفي آثارهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها خُطاهم بأرجُلهم ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة . قال أبو سعيد الخدري : شَكَتْ بنو سَلِمَةَ إلى رسول الله ﷺ بُعْدَ منازلهم من المسجد ، فأنزل الله تعالى : (ونَكْتُبُ ما قدَّموا وآثارهم) ، فقال النبي ﷺ : « عليكم منازلكم ، فانَّما تُكتَبُ آثارُكم »[1] ، وقال قتادة وعمر بن عبد العزيز : لو كان الله مُغْفِلاً شيئاً ، لأغفل ماتعفّي الرِّياحُ من أثر قَدَم ابن آدم .

(١) رواه الترمذي ١٥٥/٢ وقال : هذا حديث حسن غريب ، ورواه الطبري : ١٥٤/٢٢ ، ـــ

والثاني : أنها الخُطا إلى الجمعة ، قاله أنس بن مالك [١] .

والثالث : ما أثَروا من سُنَّة حسنة أو سيئة يُعْمَل بها بعدهم ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره الفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج [٢] .

قوله تعالى : (وكُلَّ شيءٍ) وقرأ ابن السميفع ، وابن أبي عبلة : « وكُلُّ » برفع اللام ، أي : مِنَ الأعمال (أحصيناه) أي : حَفِظْناه (في إمامٍ مُبينٍ) وهو اللوح المحفوظ .

ـــ والحاكم : ٤٢٨/٢ وصححه ووافقه الذهبي ، ورواه الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠٩ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٦٠/٥ ، وزاد نسبته لعبد الرزاق ، والبزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . قال ابن كثير : وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم . اهـ .

والحديث رواه مسلم في « صحيحه » : ٤٦٢/١ دون سبب النزول من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سَلِمَةَ أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : « إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ؟ » قالوا : نعم يارسول الله قد أردنا ذلك ، فقال : « يابني سَلِمَةَ دياركم تكتبْ آثارُكم ، دياركم تكتبْ آثارُكم » .

(١) قال الحافظ السيوطي في « الدر » ٢٦٠/٥ : أخرج ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه في قوله : (ونكتب ماقدموا وآثارهم) قال : هذا في الخطو يوم الجمعة . اهـ . وروى الترمذي في « جامعه » عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من غسَّل يوم الجمعة واغتسل ، وبكَّر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الامام واستمع ولم يلغُ ، كان له بكل خطوة يخطوها عمل سنة ، أجر صيامها وقيامها » وقال : حديث حسن . ورواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، وابن خزيمة وابن حبان في « صحيحيهما » وهو حديث صحيح .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » : ٧٠٥/٢ عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سنَّ في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سنَّ في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ـــ

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (واضرب لهم مَثَلاً) المعنى : صف لأهل مكة مثلاً ؛ أي : شِبْهاً . وقال الزجاج : المعنى : مَثِّل لهم مَثَلاً (أصحابَ القرية) وهو بدل من مَثَل ، كأنه قال : اذكُرْ لهم أصحابَ القرية . وقال عكرمة ، وقتادة : هذه القرية هي أنطاكية [١] .

(إذ أرسَلْنَا إليهم اثنين) وفي اسميهما ثلاثة أقوال . أحدها : صادق وصدوق ، قاله ابن عباس ، وكعب . والثاني : يوحنا وبولس ، قاله وهب بن منبه . والثالث : تومان وبولس ، قاله مقاتل .

ـــ ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » . وروى مسلم في « صحيحه » : ٣/١٢٥٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الانسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

(١) قال ابن كثير : ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، قال : ذكروه عند قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) قال : فعلى هذا يتعيَّن أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف ، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فان هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . اهـ .

قوله تعالى : (فعزَّزْنا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « فعزَّزْنا » بتشديد الزاي ، قال ابن قتيبة : المعنى : قوَّينَا وشدَّدْنَا ، يقال : تعزَّز لحمُ النَّاقة : إذا صَلُبَ . وقرأ أبو بكر ، والمفضَّل عن عاصم : « فعَزَزْنا » خفيفة ، قال أبو علي : أراد : فغَلَبْنا . قال مقاتل : واسم هذا الثالث شمعون ، وكان من الحواريِّين ، وهو وصيُّ عيسى عليه السلام . قال وهب : وأوحى اللهُ إلى شمعون يُخبره خبر الاثنين ويأمره بنُصرتهما ، فانطلق يؤمُّهما . وذكرَ الفراء أن هذا الثالث كان قد أُرسل قبلَهما ؛ قال : ونراه في التنزيل كأنه بعدها ، وإنما المعنى : فعزَّزنا بالثالث الذي قبلها ، والمفسرون على أنه إنما أُرسل لنُصرتهما ، ثُمَّ إنَّ الثالث إنما يكون بعد ثانٍ ، فأمَّا إذا سبق الاثنين فهو أوَّل ؛ وإنّي لأَتعجب من قول الفراء .

واختلف المفسِّرون فيمن أَرسلَ هؤلاء الرُّسل على قولين .

أحدهما : أن الله تعالى أرسلهم ، وهو ظاهر القرآن ، وهو مرويٌّ عن ابن عباس ، وكعب ، ووهب .

والثاني : أن عيسى أَرسلهم ، وجاز أن يُضاف ذلك إلى الله تعالى لأَنهم رسل رسوله ، قاله قتادة ، وابن جريج [1] .

قوله تعالى : (قالوا ما أنتم إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا) أي : مالكم علينا فضل في شيء (وما أَنزل الرَّحمنُ مِنْ شيءٍ) أي : لم يُنزِل كتاباً ولم يُرسِل رسولاً .

---

(١) قال ابن كثير : ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل ، لا من جهة المسيح عليه السلام ، كما قال تعالى : (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزَّزنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون) إلى أن قالوا : (ربُّنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين) قال : ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام ، والله تعالى أعلم ، قال : ثم لو كانوا رسل المسيح ، لما قالوا : (ما أنتم إلا بشر مثلنا) . اهـ .

وما بعده ظاهر إلى قوله : (قالوا إنَّا تطيَّرْنا بكم) وذلك أن المطر حُبس عنهم ، فقالوا : إنَّما أصابنا هذا من قِبلكم (لئن لم تنتهوا) أي : تسكتوا عنَّا (لنرجمنَّكم) أي : لنقتلنَّكم .

(قالوا طائرُكم معكم) أي : شؤمُكم معكم بكفركم ، لا بنا (أئن ذُكِّرتُم) قرأ ابن كثير : « أين ذُكّرتم » بهمزة واحدة بعدها ياء ؛ وافقه أبو عمرو ، إلاّ أنه كان يَمُدُّ . قال الأخفش : معناه : حيث ذُكّرتم ، أي : وُعِظتم وخُوِّفتم ، وهذا استفهام جوابه محذوف ، تقديره : أئن ذُكّرتم تطيَّرتم بنا ؟! وقيل : أئن ذُكِّرتم قلتم هذا القول ؟ والمسرفون هاهنا : المشركون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَايَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَالِي لَاأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لَاتُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ . قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾

قوله تعالى : (وجاءَ مِنْ أقصى المدينة رَجُلٌ يسعى) واسمه حبيب النجّار ، وكان مجذوماً ، وكان قد آمن بالرُّسل لمَّا وردوا القرية ، وكان منزلُه عند أقصى باب من أبواب القرية ، فلمَّا بلغه أنَّ قومه قد كذَّبوا الرُّسل وهمُّوا بقتلهم ، جاء يسعى ، فقال ما قصَّه اللهُ علينا إلى قوله : (وهم مُهتَدون) يعني

الرُّسل ، فأخذوه ورفعوه إلى الملك ، فقال له الملك : أفأنت تتبعهم ؟ فقال : (ومالِيَ) أسكن هذه الياء حمزة ، وخلف ، ويعقوب (لا أعبُدُ الذي فطرني) أي : وأيُّ شيء لي إذا لم أعبُد خالقي (وإليه تُرْجَعونَ) عند البعث ، فيجزيكم بكفركم ؟ !

فان قيل : لِمَ أضاف الفِطرةَ إلى نفسه والبعثَ إليهم وهو يعلم أنَّ الله قد فطرهم جميعاً كما يبعثهم جميعاً ؟

فالجواب : أن إيجاد الله تعالى نِعمه يوجب الشُّكر ، والبعثُ في القيامة وعيدٌ يوجب الزَّجر ، فكانت إضافةُ النِّعمة إلى نفسه أظهرَ في الشُّكر ، وإضافةُ البعث إلى الكافر أبلغ في الزَّجر .

ثم أنكر عبادة الأصنام بقوله : (أأتَّخِذُ مِنْ دونه آلهة) .

قوله تعالى : (لا تُغْنِ عنّي شفاعتُهم) يعني أنه لا شفاعة لهم فتُغْني ، (ولا يُنْقِذونِ) أثبت هاهنا الياء في الحالين يعقوب ، وورش ، والمعنى : لا يخلّصوني من ذلك المكروه . (إنّي إذاً) فتح هذه الياء نافع ، وأبو عمرو .

قوله تعالى : (إنّي آمنتُ بربّكم) فتح هذه الياء أهل الحجاز وأبو عمرو .

وفيمن خاطبهم بإيمانه قولان . أحدهما : أنه خاطب قومه بذلك ، قاله ابن مسعود . والثاني : أنه خاطب الرُّسل .

ومعنى (فاسمَعونِ) : اشهَدوا لي بذلك ، قاله الفراء . وقال أبو عبيدة : المعنى : فاسمَعوا مِنّي . وأثبت ياء « فاسمَعوني » في الحالين يعقوب . قال ابن مسعود : لمّا خاطب قومه بذلك ، وطئوه بأرجُلهم . وقال السدي : رمَوْه بالحجارة ، وهو يقول : اللهم اهْدِ قومي .

قوله تعالى : (قيل ادخُلِ الجنَّة) لمّا قتلوه فاتي الله ، قيل له : « ادخُل الجنّة » ،

فلمّا دخلها (قال ياليت قَوْمِي يَعْلَمونَ ، بِما غَفَرَ لي ربّي) ، وفي « ما » قولان .

أحدهما : أنها مع « غَفَرَ » في موضع مصدر ؛ والمعنى : بغُفران الله لي .

والثاني : أنها بمعنى « الذي » ، فالمعنى : ليتهم يَعلمون بالذي غَفَرَ لي [به] ربّي فيؤمنون ، فنصحهم حيّاً وميتاً .

فلمّا قتلوه عجّل اللهُ لهم العذاب ، فذلك قوله : (وما أَنْزَلْنا على قومه) يعني قوم حبيب (مِنْ بَعْدِه) أي : مِنْ بَعْدِ قتله (مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ) يعني الملائكة ، أي : لم ينتصر منهم بجُند من السَّماء (وما كُنَّا) نُنْزِلهم على الأُمم إذا أهلكناهم . وقيل : المعنى : مابعثْنا إليهم بعده نبيّاً ، ولا أنزلنا عليهم رسالة .

(إنْ كانت إلاّ صيحةً واحدةً) قال المفسّرون : أخذ جبريل عليه السلام بعِضَادَتَي باب المدينة ، ثم صاح بهم صيحة واحدة ، فاذا هم ميّتون لايُسْمَع لهم حِسٌّ ، كالنّار إذا طُفئت ، وهو قوله : (فاذاهم خامدون) أي : ساكنون كهيأة الرّماد الخامد [(١)] .

﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَايَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ . أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَايَرْجِعُونَ . وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ . وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَايَعْلَمُونَ ﴾

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (فاذا هم خامدون) : فاذا هم هالكون .

قوله تعالى : (ياحَسْرَةً على العِبَاد) قال الفراء : المعنى : يالها حَسْرَةً على العباد . وقال الزجاج : الحَسْرَةُ أن يَرْكَبَ الإنسان من شِدَّة النَّدم مالا نهاية له حتى يبقى قلبُه حَسِيراً . وفي المتحسِّر على العباد قولان .

أحدها : أنهم يتحسَّرون على أنفسهم ، قال مجاهد والزجاج : استهزاؤهم بالرُّسل كان حسرةً عليهم في الآخرة . وقال أبو العالية : لمَّا عايَنوا العذاب ، قالوا : ياحسرتنا على المرسَلين ، كيف لنا بهمُ الآن حتى نؤمِن .

والثاني : أنه تحسُّر الملائكة على العباد في تكذيبهم الرُّسل ، قاله الضحاك .

ثم خوَّف كُفَّارَ مكَّة فقال : (ألم يَرَوا) أي : ألم يَعْلَموا (كم أهلكْنا قبلهم من القرون) فيعتبروا ويخافوا أن نعجِّل لهم الهلاك كما عجِّل لمن أُهلك قبلهم ولم يرجعوا إلى الدنيا ؟ ! . قال الفراء : وألِف (أنَّهم) مفتوحة ، لأن المعنى : ألم يَرَوا أنَّهم إليهم لايرجِعون وقد كسرها الحسن ، كأنه لم يُوقِع الرؤية على « كم » ، فلم يوقِعها على « أنّ » ، وإن استأنفتَها كسرتَها .

قوله تعالى : (وإنْ كُلٌّ لَمَا) وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة : « لَمَّا » بالتشديد ، (جميعٌ لدينا مُحضَرون) أي : إن الأُمم يُحضَرون يوم القيامة ، فيجازَون بأعمالهم [1] . قال الزجاج : من قرأ « لَمَا » بالتخفيف ، فـ « ما » زائدة مؤكِدة ، والمعنى : وإنْ كُلٌّ لَجميعٌ ، ومعناه : وما كُلٌّ إلَّا جميع لدينا مُحضَرون . ومن قرأ « لَمَّا » بالتشديد ، فهو بمعنى « إلَّا » ، تقول : « سألتُكَ لَمَّا فعلتَ » و « إلَّا فعلتَ » .

---

(١) قال ابن كثير : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلّها خيرها وشرها ، قال : ومعنى هذا كقوله جل وعلا : (وإن كلاًّ لمَّا ليوفينّهم ربك أعمالهم) . اهـ .

(وآيةٌ لهم الأرضُ المَيْتَةُ) وقرأ نافع : « المَيِّتَةُ » بالتشديد ، وهو الأصل ، والتخفيف أكثر ، وكلاهما جائز ؛ و « آيةٌ » مرفوعة بالابتداء ، وخبرها « لهم » ، ويجوز أن يكون خبرها « الأرضُ الميتةُ » ؛ والمعنى : وعلامةٌ تدلُّهم على التوحيد وأنَّ الله يَبعَثُ الموتى أحياءَ الأرضُ الميتةُ .

قوله تعالى : (فمِنْهُ يأكُلونَ) يعني مايُقتات من الحبوب .

قوله تعالى : (وجَعَلْنَا فيها) وقوله : (وفجَّرنا فيها) يعني في الأرض .

قوله تعالى : (ليأكُلوا مِنْ ثَمَره) يعني النخيل ، وهو في اللفظ مذكَّر .

(وما عَمِلَتْهُ أيديهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « عَمِلَتْهُ » بهاء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « عَمِلَتْ » بغير هاء . والهاء مُثْبَتة في مصاحف مكة والمدينة والشام والبصرة ، ومحذوفة من مصاحف أهل الكوفة . قال الزجاج : موضع « ما » خفض ؛ والمعنى : ليأكُلوا من ثمره ومِمَّا عملَتْه أيديهم ؛ ويجوز أن يكون « ما » نفياً ؛ المعنى : ولم تعمله أيديهم ، وهذا على قراءة من أثبت الهاء ، فاذا حُذفت الهاء ، فالاختيار أن تكون « ما » في موضع خفض ، وتكون بمعنى « الذي » ، فيَحْسُن حذف الهاء ؛ وكذلك ذكر المفسِّرون القولين ، فمن قال بالأول ، قال : ليأكُلوا ممَّا عملتْ أيديهم ، وهو الغُروس والحُروث التي تعبوا فيها ، ومن قال بالثاني ، قال : ليأكُلوا ما ليس مِنْ صُنعهم ، ولكنه مِنْ فِعل الحق عز وجل (أفلايشكُرون) الله تعالى فيوحِّدوه ؟ ! .

ثم نزَّه نفسه بقوله : (سبحانَ الذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها) يعني الأجناس كلَّها (مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ) من الفواكه والحبوب وغير ذلك

(ومِنْ أنفُسِهِم) وهم الذكور والإناث (ومِمَّا لا يَعْلَمُونَ) من دوابِّ البَرِّ والبحر وغير ذلك ممّا لم يَقِفوا على عِلْمه .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

قوله تعالى : (وآيةٌ لهم الليلُ نَسْلَخُ منه النَّهار) أي : وعلامة لهم تَدُلُّ على توحيدنا وقدرتنا الليلُ نَسلخ منه النهار ؛ قال الفراء : نَرمي بالنهار عنه ، و « منه » بمعنى « عنه » . وقال أبو عبيدة : نُخْرِجُ منه النهار ونُمَيِّزه منه فتجيء الظُّلمة ، قال الماوردي : وذلك أنّ ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء ، فاذا خرج منه أظلم . وقوله : (فاذا هم مُظْلِمونَ) أي : داخلون في الظَّلام .

(والشَّمْسُ) أي : وآيةٌ لهم الشمس (تَجري لِمُسْتَقَرٍّ لها) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : إلى موضع قرارها ؛ روى أبو ذر قال : سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله : « لِمُستَقَرٍّ لها » قال : « مُستَقَرُّها تحت العَرْش » ، وقال : « إنَّها تذهب حتى تسجُد بين يَدَي ربِّها ، فتَستأذِنُ في الطُّلوع ، فيؤذَنُ لها » (1) .

---

(1) رواه البخاري في « صحيحه » : ٦/٢١٤ و ٨/٤١٦ و ١٣/٣٥٠ ، ومسلم : ١/١٣٩ ، والترمذي : ٢/١٥٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/٢٦٣ —

. . . .

ـــ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ في « العظمة » ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » عن أبي ذر رضي الله عنه .

قال ابن كثير : في معنى قوله تعالى : « لمستقر لها » قولان ، أحدهما : أن المراد مستقرها المكاني ، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات ، لأنه سقفها ، والقول الثاني : أن المراد بمستقرها ، هو منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكوّر وينتهي هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزماني .

وقال الامام النووي في « شرح مسلم » ٢/١٩٥ : وأما قوله ﷺ في الحديث الآخر في الشمس : « مستقرها تحت العرش فتخرُّ ساجدة » : فهذا مما اختلف المفسرون فيه ، فقال جماعة بظاهر الحديث ، قال الواحدي : وعلى هذا القول ، إذا غربت كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع من مغربها ، وقال قتادة ومقاتل : معناه : تجري إلى وقت لها وأجل لاتتعداه ، قال الواحدي : وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا ، وهذا اختيار الزجاج ، وقال الكلبي : تسير في منازلها حتى تنتهيَ إلى آخر مستقرها الذي لاتجاوزه ثم ترجع إلى أول منازلها ، واختار ابن قتيبة هذا القول ، والله أعلم .

وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : قال الخطابي : يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش : أنها تستقر تحته استقراراً لانحيط به نحن ، ويحتمل أن يكون المعنى : أو علم ماسألت عنه من مستقرها تحت العرش في كتاب فيه ابتداء أمور العالم ونهايتها ، فينقطع دوران الشمس وتستقر عند ذلك ويبطل فعلها ، وليس في سجودها كل ليلة تحت العرش مايعيق عن دورانها في سيرها . قلت (أي الحافظ ابن حجر) : وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار : وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها ، ومقابل الاستقرار السير الدائم المعبّر عنه بالجري ، والله أعلم .

قال الامام النووي في « شرح مسلم » : وأمـا سجود الشمس ، فهو بتمييز وإدراك يخلق الله تعالى فيها . وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : قال ابن العربي : أنكر قوم سجودها ، وهو صحيح ممكن ، وتأوّله قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم ، قال ابن حجر : ويحتمل أن يكون المراد بالسجود سجود من هو موكل بها من الملائكة ، أو تسجد بصورة الحال ، ـــ

والثاني : أنَّ مُسْتَقَرَّها مَغْرِبُها لاتجاوزُه ولاتقصر عنه ، قاله مجاهد .

والثالث : لِوقت واحدٍ لا تعدُوه ، قاله قتادة . وقال مقاتل : لِوقت لها إلى يوم القيامة .

والرابع : تسير في منازلها حتى تنتهيَ إلى مُسْتَقَرِّها الذي لا تجاوزُه ، ثم ترجِع إلى أوَّل منازلها ، قاله ابن السائب . وقال ابن قتيبة : إلى مُسْتَقَرٍّ لها ، ومُسْتَقَرُّها : أقصى منازلها في الغُروب ،[وذلك] لأنها لا تزال تتقدَّم إلى أقصى مغاربها ، ثم ترجع .

وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، وعليّ بن الحسين ، والشيزري [1] عن الكسائي : « لا مُسْتَقَرَّ لها » والمعنى أنها تجري أبداً ، لاتثبُت في مكان واحد .

قوله تعالى : (ذلك) الذي ذُكِر من أمر الليل والنهار والشمس (تقديرُ العزيزِ) في مُلكه (العليمِ) بما يقدِّر .

قوله تعالى : (والقَمَرَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « والقَمَرُ » بالرفع . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « والقَمَرَ » بالنصب . قال الزجاج : من قرأ بالنصب . فالمعنى : وقدَّرْنا القمر قدَّرناه منازل ، ومن قرأ بالرفع ، فالمعنى : وآيةٌ لهم القمرُ قدَّرْناه ، ويجوز أن يكون على الابتداء ،

ـــ فيكون عبارة عن الزيادة في الانقياد والخضوع في ذلك الحين . وقال ابن حجر : قال ابن بطال : استئذان الشمس معناه أن يخلق فيها حياة يوجد القول عندها ، لأن الله قادر على إحياء الجماد والموات ، قال : وقال غيره : يحتمل أن يكون الاستئذان أسند إليها مجازاً ، والمراد من هو موكل بها من الملائكة . اهـ .

(١) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي المعروف بالشيزري الحنفي ، قال ابن الجزري في « طبقات القراء » : أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي ، وله عنه انفرادات .

و « قدَّرْناه » الخبر [١] .

قال المفسِّرون : ومنازلُ القمر ثمانيةٌ وعشرون منزِلاً ينزِلها من أوَّل الشَّهر إلى آخره ، وقد سمَّيناها في سورة (يونس : ٥) ، فاذا صار إلى آخر منازله ، دَقَّ فصار كالعُرجون ، وهو عود العِذْق الذي تركته الشماريخ [٢] ، فاذا جفَّ وقَدُم يُشبه الهلال . قال ابن قتيبة : و « القديم » هاهنا : الذي قد أتى عليه حَوْلٌ ، شُبِّه القمرُ آخِرَ ليلةٍ يطلُع به . قال الزجاج : وتقدير « عُرجون » : فُعْلون ، من الانعراج .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، والضحاك ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : « كالعِرْجَوْن » ، بكسر العين .

قوله تعالى : (لا الشَّمس ينبغي لها أن تُدْرِك القمر) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهما إذا اجتمعا في السماء ، كان أحدهما بين يَدَي الآخر ، فلايشتركان في المنازل ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا يُشبِه ضوءُ أحدهما ضوءَ الآخر ، قاله مجاهد .

والثالث : لا يجتمع ضوءُ أحدهما مع الآخر ، فاذا جاء سُلطان أحدهما ذهب سُلطان الآخر ، قاله قتادة ؛ فيكون وجه الحكمة في ذلك أنه لو اتصل الضوء ، لم يُعرف الليل .

قوله تعالى : (ولا اللَّيلُ سابِقُ النَّهارِ) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ،

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان مشهورتان صحيحتا المعنى ، فبأيهما قرأ القارىء فمصيب .

(٢) الشماريخ : الشعب التي على العذق ، واحدها شِمراخ وشُمروخ ، وكل غصن له شعب فهي شماريخ ، والشمراخ : الذي عليه بسر وأصله في العذق .

وأبو عمران ، وعاصم الجحدري : « سابِقٌ » بالتنوين « النَّهارَ » بالنصب ، وفيه قولان .

أحدهما : لايتقدَّم الليلُ قبل استكمال النهار .

والثاني : لا يأتي ليل بعد ليل من غير نهارٍ فاصلٍ بينهما . وباقي الآية مفسَّر في سورة (الأنبياء : ٣٣) .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَايَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَابَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

قوله تعالى : (وآيةٌ لهم أنّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ) قرأ نافع ، وابن عامر : « ذُرِّيَّاتِهِمْ » على الجمع ؛ وقرأ الباقون من السبعة : « ذُرِّيَّتَهُمْ » على التوحيد . قال المفسِّرون : أراد : في سفينة نوح ، فنسب الذُّرِّيَّة إلى المخاطَبين ، لأنهم من جنسهم ، كأنه قال : ذُرِّيَّة الناس . وقال الفراء : أي : ذُرِّيَّة مَنْ هو منهم ، فجعلها ذُرِّيَّةً لهم ، وقد سبقَتْهم . وقال غيره : هو حَمْلُ الأنبياء في أصلاب الآباء حين رَكِبوا السفينة ، ومنه قول العباس :

بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وقَدْ أَلْجَمَ نَسْراً وأَهْلَهُ الغَرَقُ [١]

قال المفضّل بن سلمة : الذُّرِّيَّة : النَّسْل ، لأنهم مَنْ ذرأهم اللهُ منهم ، والذُّرِّيَّة

---

(١) البيت للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ في شعر يمدح به رسول الله ﷺ ، وهو في « اللسان » و « التاج » : نسر . قال ابن الأثير : يريد (أي بالنسر) الصنم الذي كان يعبده قوم نوح ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

أيضاً : الآباء ، لأن الذَّرَّ وقع منهم ، فهو من الأضداد ، ومنه هذه الآية ، وقد شرحنا هذا في قوله : (ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْض) [آل عمران : ٣٤] ؛ والمشحون : المملوء .

قوله تعالى : (وخَلَقْنا لهم مِنْ مِثْلِه) فيه قولان .

أحدهما : مِثْل سفينة نوح ، وهي السُّفُن ، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ، وأبو مالك ، وأبو صالح ، والمراد بهذا ذِكْر مِنَّته بأن خَلَق الخشب الذي تُعْمَل منه السُّفُن .

والثاني : أنها الإبل ، خَلَقها لهم الرُّكوب في البرِّ مثل السُّفُن المركوبة في البحر ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وعن الحسن وقتادة كالقولين [(١)] .

قوله تعالى : (فلا صَريخَ لهم) أي : لا مُغيثَ ولا مُجير (ولا هُمْ يُنْقَذُون) أي : ينجون من الغرق ، يقال : أنقذه واستنقذه : إذا خلَّصه من المكروه ، (إلاَّ رَحْمةً مِنَّا) المعنى : إلا أن نرحمهم ونمتِّعهم إلى آجالهم .

قوله تعالى : (وإذا قيل لهم) يعني الكُفَّار (اتَّقُوا مابين أيديكم وما خلفكم) فيه أربعة أقوال .

أحدها : « مابين أيديكم » : مامضى من الذُّنوب ، « وما خَلْفَكم » : مايأتي من الذُّنوب ، قاله مجاهد .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأشبه القولين بتأويل ذلك قول من قال : عنى بذلك السفن ، وذلك لدلالة قوله : (وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم) على أن ذلك كذلك ، وذلك أن الغرق معلوم أنه لايكون إلا في الماء ، ولا غرق في البرّ . اهـ . وقال ابن كثير : ويقوّي هذا المذهب في المعنى قوله جل وعلا : (إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) . اهـ .

والثاني : [« مابين أيديكم »] (١) ماتقدَّم من عذاب الله الأُمم ، « وما خلفكم » من أمر الساعة ، قاله قتادة .

والثالث : « مابين أيديكم » من الدنيا ، « وما خَلْفكم » من عذاب الآخرة . قاله سفيان .

والرابع : « مابين أيديكم » من أمر الآخرة ، « وما خَلْفكم » من أمر الدنيا فلا تغترّوا بها ، قاله ابن عباس والكلبي .

(لعلكم تُرْحَمون) أي : لتكونوا على رجاء الرحمة من الله . وجواب « إذا » محذوف ، تقديره : إذا قيل لهم هذا ، أعرضوا ؛ ويدُلُّ على هذا المحذوف قوله : (وما تأتيهم مِنْ آيةٍ) أي : من دلالة تدل على صدق الرسول .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . مَايَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَاوَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ . فَالْيَوْمَ لَاتُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ . هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ . لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَايَدَّعُونَ . سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾

(١) زيادة ليست في الأصل .

قوله تعالى : (وإذا قيل لهم أنفِقوا) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال . أحدها : في اليهود ، قاله الحسن . والثاني : في الزنادقة ، قاله قتادة . والثالث : في مشركي قريش ، قاله مقاتل ؛ وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة : أنفقوا على المساكين النصيب الذي زعمتم أنه لله من الحرث والأنعام ، فقالوا : (أَنُطْعِمُ من لو يشاءُ اللهُ أطعمه) . وقال ابن السائب : كان العاص بن وائل إذا سأله مسكين ، قال : اذهب إلى ربّك فهو أولى بك مني ، ويقول : قد منعه الله ، أُطعمه أنا ؟ ![1]
ومعنى الكلام أنهم قالوا : لو أراد اللهُ أن يرزقهم لرزقهم ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم فلا نُطْعِمهم ؛ وهذا خطأٌ منهم ، لأن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضاً ، ليبلوَ الغنيَّ بالفقير فيما فرض له في ماله من الزكاة ، والمؤمن لا يعترض على المشيئة ، وإنما يوافق الأمر . وقيل : إنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء .

وفي قوله : (إن أنتم إلا في ضلال مبين) قولان . أحدهما : أنه من قول الكفار للمؤمنين ، يعنون : إنكم في خطأٍ من اتّباع محمد . والثاني : أنه من قول الله للكفار لما ردّوه من جواب المؤمنين .

قوله تعالى : (متى هذا الوعد ؟) يعنون القيامة ؛ والمعنى : متى إنجاز هذا الوعد (إن كنتم صادقين) ؟ يعنون محمداً وأصحابه .

(ما ينظُرون) أي : ما ينتظرون (إلاّ صيحةً واحدةً) وهي النفخة الأولى . و (يَخِصّمُونَ) بمعنى يختصمون ، فأُدغمت التاء في الصاد . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « يَخَصّمُونَ » بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد . وروي عن أبي عمرو اختلاس حركة الخاء . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، والكسائي :

(١) ذكر هذا المعنى الخازن في « تفسيره » ، ولم ينسبه لابن السائب ولا غيره ، بل قال : قيل : كان العاص بن وائل إذا سأله مسكين . . . الخ ، والله أعلم . قال الآلوسي : وظاهر ما تقدم يقتضي أنها نزلت في كفار مكة أمروا بالانفاق مما رزقهم الله تعالى ، وهو عام في الاطعام وغيره ، فأجابوا بنفي الاطعام الذي لم يزالوا يفتخرون به ، دلالة على نفي غيره بالطريق الأَولى . اهـ .

« يَخِصِّمُونَ » بفتح الياء وكسر الخاء . وعن عاصم كسر الياء والخاء . وقرأ نافع بسكون الخاء وتشديد الصاد . وقرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد ، أي : يَخْصِمُ بعضهم بعضاً . وقرأ أُبيّْ بن كعب : « يختصمون » بزيادة تاء ؛ والمعنى أن الساعة تأتيهم أغفلَ ماكانوا عنها وهم متشاغلون في متصرَّفاتهم وبيعهم وشرائهم ، (فلا يستطيعون توصيةً) قال مقاتل : أُعجلوا عن الوصية فماتوا ، (ولا إلى أهلهم يَرْجِعُونَ) أي : لا يعودون من الأسواق إلى منازلهم ؛ فهذا وصف ما يلْقَون في النفخة الأولى . ثم ذكر ما يلْقَون في النفخة الثانية فقال : (ونُفِخَ في الصُّور فاذا هم من الأجداث) يعني القبور ؛ (إلى ربهم يَنْسِلُونَ) أي : يخرُجون بسرعة [١] ، وقد شرحنا هذا المعنى في سورة (الأنبياء : ٩٦) . (قالوا يا ويلنا مَنْ بعَثَنا من مرقدنا) [٢] وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو رزين ، والضحاك ، وعاصم الجحدري : « مِن بعثِنا » بكسر الميم والثاء وسكون العين . قال المفسرون : إنما قالوا هذا ، لأن الله تعالى رفع عنهم العذاب فيما بين النفختين . قال أُبيّْ بن كعب : ينامون نومة قبل البعث ، فاذا بُعثوا قالوا هذا .

(١) روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون » قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوماً ؟ قال : أبَيْتُ ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيتُ ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيتُ ، « ثم يُنزِل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل » قال : « وليس من الانسان شيء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً وهو عَجْب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، ومعنى قول أبي هريرة : « أبيتُ » : امتنعت عن الجواب لأني لاأدري ماهو الصواب . و « عجب الذنب » هو العظم الذي في أسفل الصلب ، وهو رأس العُصعص ، ويقال له : « عجم » بالميم ، وهو أول مايخلق من الآدمي ، وهو الذي يبقى من الانسان ليعاد تركيب الخلق عليه .

(٢) قال ابن كثير : يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذّبوا به في محشرهم (قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟) قال : وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى مابعده في الشدة كالرقاد . اهـ .

قوله تعالى : (هذا ما وعد الرحمنُ) في قائلي هذا الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قول المؤمنين ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن أبي ليلى . قال قتادة : أول الآية للكافرين ، وآخرها للمؤمنين .

والثاني : أنه قول الملائكة لهم ، قاله الحسن .

والثالث : أنه قول الكافرين ، يقول بعضهم لبعض : هذا الذي أخبرَنا به المرسَلون أننا نُبعث ونجازى ، قاله ابن زيد [١] .

قال الزجاج : « من مرقدنا » هو وقف التمام ، ويجوز أن يكون « هذا » من نعت « مرقدنا » على معنى : مَنْ بعثَنا مِنْ مرقدنا هذا الذي كنّا راقدين فيه ؟ ويكون في قوله : « ما وعد الرَّحمنُ » أحد إضمارين ، إما « هذا »، وإما « حق » ، فيكون المعنى : حقٌّ ما وَعد الرَّحمنُ [٢] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والقول الأول أشبه بظاهر التنزيل ، وهو أن يكون من كلام المؤمنين ، لأن الكفار في قيلهم : (من بعثنا من مرقدنا هذا ؟) دليل على أنهم كانوا بمن بعثهم من مرقدهم جهّالاً ، ولذلك من جهلهم استثبتوا ، ومحال أن يكونوا استثبتوا ذلك إلا من غيرهم ممن خالفت صفته صفتهم في ذلك . اهـ . قال ابن كثير : وهذا أصح ، وذلك كقوله تبارك وتعالى في (الصافات) : (وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين . هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) وقال الله عز وجل : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون) . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وفي قوله : « هذا » وجهان ، أحدهما : أن تكون إشارة إلى « ما » ، ويكون ذلك كلاماً مبتدءاً بعد تناهي الخبر الأول بقوله : « مَن بعثنا من مرقدنا ؟ » فتكون « ما » حينئذ مرفوعة بـ « هذا » ، ويكون معنى الكلام : هذا وَعْدُ الرحمن ، وصدق المرسلون ؛ والوجه الآخر : أن تكون من صفة المرقد ، وتكون خفضاً ردّاً على المرقد ، وعند تمام الخبر الأول ؛ فيكون معنى الكلام : مَن بعثنا من مرقدنا هذا ؟ ثم يبتدأ الكلام ــــ

ثم ذكر النفخة الثانية ، فقال : ﴿ إن كانت إلاّ صيحةً واحدةً ﴾ ، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : ﴿ إنّ أصحاب الجنة اليوم ﴾ يعني في الآخرة ﴿ في شُغُلٍ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « في شُغْلٍ » بإسكان الغين . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « في شُغُلٍ » بضم الشين والغين . وقرأ أبو هريرة ، وأبو رجاء ، وأيوب السختياني : « في شَغَلٍ » بفتح الشين والغين . وقرأ أبو مجلز ، وأبو العالية ، وعكرمة ، والضحاك ، والنخعي ، وابن يعمر ، والجحدري : « في شَغْلٍ » بفتح الشين وسكون الغين [1] ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن شغلهم اقتضاض العذارى ، رواه شقيق عن ابن مسعود ، ومجاهد عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن المسيّب ، وقتادة ، والضحاك .

والثاني : ضربِ الأوتار ، رواه عكرمة عن ابن عباس [2] ؛ وعن عكرمة كالقولين ، ولا يثبت هذا القول .

والثالث : النِّعمة ، قاله مجاهد . وقال الحسن : شغلهم : نعيمهم عمَّا فيه أهل النار من العذاب .

ـــ فيقال : ماوعد الرحمن ، بمعنى : بعثكم وَعْدُ الرحمن ، فتكون « ما » حينئذٍ رفعاً على هذا المعنى . اهـ .

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب في ذلك عندي قراءته بضم الشين والغين ، أو بضم الشين وسكون الغين ، بأي ذلك قرأه القارىء فهو مصيب ، لأن ذلك هو القراءة المعروفة في قرّاء الأمصار مع تقارب معنييها ، قال : وأما قراءته بفتح الشين والغين ، فغير جائزة عندي ، لاجماع الحجة من القرّاء على خلافها . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه : ﴿ في شُغْلٍ فاكهون ﴾ أي : بسماع الأوتار ، قال : وقال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار . اهـ . والاقتضاض والافتضاض بمعنى واحد .

قوله تعالى : (فَاكِهُونَ) وقرأ ابن مسعود ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو المتوكل ، وقتادة ، وأبو الجوزاء ، والنخعي ، وأبو جعفر : « فَكِهُون » . وهل بينهما فرق ؟ فيه قولان .

أحدهما : أن بينهما فرقاً .

فأما « فاكهون » ففيه أربعة أقوال . أحدها : فَرِحون ، قاله ابن عباس . والثاني : مُعْجَبُون ، قاله الحسن ، وقتادة . والثالث : ناعمون ، قاله أبو مالك ، ومقاتل . والرابع : ذوو فاكهة ، كما يقال : فلانٌ لابِنٌ تامِرٌ ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

وأما « فَكِهون » ففيه قولان . أحدهما : أن الفَكِه : الذي يتفكَّه ، تقول العرب الرجل إذا كان يتفكَّه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس : إن فلاناً لفَكِهٌ بكذا ، ومنه يقال المُزاح : فُكاهَة ، قاله أبو عبيدة . والثاني : أن فَكِهين بمعنى فَرِحين ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والقول الثاني : أن فاكِهين وفَكِهين بمعنى واحد ، كما يقال : حاذِرٌ وحَذِرٌ ، قاله الفراء . وقال الزجاج : فاكِهون وفكِهون بمعنى فَرِحين . وقال أبو زيد : الفَكِه : الطيِّب النَّفْس الضَّحوك ، يقال : رجل فاكِه وفَكِه [1] .

قوله تعالى : (هم وأزواجهم) يعني حلائلهم (في ظِلال) وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « في ظُلَلٍ » . قال الفراء : الظِّلال جمع ظِلٍّ ، والظُّلَل جمع ظُلَّة ، وقد تكون الظِّلال جمع ظُلَّة أيضاً ، كما يقال : خُلَّة وخِلال ؛ فإذا كثرت فهي الحِلال والجِلال والقِلال . قال مقاتل : والظِّلال : أكنان القصور .

---

(١) قال ابن جرير : والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من قرأه بالألف (فاكهون) ، لأن ذلك هو القراءة المعروفة . اهـ .

قال أبو عبيدة : والمعنى أنهم لا يَضْحَوْنَ . فأما الأرائك ، فقد بيَّنَّاها في سورة (الكهف : ٣١) .

قوله تعالى : (ولهم ما يَدَّعون) قال ابن قتيبة : ما يَتَمَنَّوْنَ ، ومنه يقول الناس : هو في خيرٍ ما ادَّعى ، أي : ما تَمَنَّى ، والعرب تقول : ادَّعِ ما شئتَ ، أي : تَمَنَّ ما شئتَ . وقال الزجاج : هو مأخوذ من الدُّعاء ؛ والمعنى : كلُّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم . وقوله : (سلامٌ) بدل من « ما » ؛ المعنى : لهم ما يتمنَّون سلام ، أي : هذا مُنى أهل الجنة أن يُسلِّم اللهُ عليهم [١] . و (قولاً) منصوب على معنى : سلامٌ يقوله اللهُ قولاً . قال أبو عبيدة : « سلامٌ » رفع على « لهم » ؛ فالمعنى : لهم فيها فاكهة ولهم فيها سلام . وقال الفراء : معنى الكلام : لهم ما يدَّعون مسلَّم خالص ، ونصب القول ، كأنكَ قلتَ : قاله قولاً ، وإن شئتَ جعلتَه نصباً من قوله : ولهم ما يدَّعون قولاً ، كقولكَ : عِدَةً من الله . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيُّ بن كعب ، والجحدري : « سلاماً قولاً » بنصبهما جميعاً .

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ . هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والذي هو أولى بالصواب على ماجاء به الخبر عن محمد بن كعب القرظي أن يكون (سلامٌ) خبراً لقوله : (ولهم مايدَّعون) فيكون معنى ذلك : ولهم فيها مايدَّعون ، وذلك هو سلام من الله عليهم . اهـ .

قوله تعالى : (وامتازوا اليومَ أيُّها المُجْرِمون) قال ابن قتيبة : أي : انقطِعوا عن المؤمنين وتميَّزوا منهم ، يقال : مِزتُ الشيءَ من الشيء : إذا عزلتَه عنه ، فانماز وامتاز ، وميّزتُه فتميَّز .

قال المفسرون : إذا اختلط الإنس والجن في الآخرة ، قيل : « وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون » ، فيقال للمجرمين : (ألم أعهد إليكم ؟) أي : ألم آمركم ، ألم أوصِكم ؟ و « تعبُدوا » بمعنى تُطيعوا ، والشيطان هو إبليس ، زيَّن لهم الشِّرك فأطاعوه ، (إنَّه لكم عدوٌّ مُبِينٌ) ظاهر العداوة ، أخرج أبويكم من الجنة .

(وأنِ اعبُدوني) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي : « وأنُ اعبُدوني » بضم النون . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة : « وأنِ اعبُدوني » بكسر النون ؛ والمعنى : وحِّدوني (هذا صراطٌ مستقيمٌ) يعني التوحيد .

(ولقد أضَلَّ منكم جِبِلاًّ) قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : « جُبُلاً » بضم الجيم والباء وتخفيف اللام . وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر : « جُبْلاً » بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام . وقرأ نافع ، وعاصم : « جِبِلاًّ » بكسر الجيم والباء مع تشديد اللام . وقرأ علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والزهري ، والأعمش : « جُبُلاًّ » بضم الجيم والباء مع تشديد اللام . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وابن السميفع : « جِبْلاً » بكسر الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام . وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو المتوكل ، ومعاذ القارىء : « جُبَلاً » برفع الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام . وقرأ أبو العالية : وابن يعمر : « جِبَلاً » بكسر الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام . وقرأ أبو عمران الجوني ، وعمرو بن دينار : « جِبَالاً » مكسورة الجيم مفتوحة الباء وبألف .
ومعنى الكلمة كيف تصرَّفت في هذه اللغات : الخَلْق والجماعة ؛ فالمعنى :

ولقد أضلَّ منكم جِبِلًّا كثيراً (أفلم تكونوا تَعْقِلونَ ؟) ؛ فالمعنى : قد رأيتم آثار الهالكين قبلكم بطاعة الشيطان ، أفلم تعقلوا ذلك ؟! وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي ، وأبو رجاء ، ومجاهد ، وابن يعمر : « أفلم يكونوا يعقلون » بالياء فيهما ، فاذا أُدْنُوا إِلى جهنم قيل لهم : (هذه جهنَّمُ التي كنتم توعدون) بها في الدنيا (اصْلَوها) أي : قاسُوا حَرَّها .

﴿ اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ . وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (اليومَ نَخْتِمُ على أفواههم) وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء : « يُخْتَمُ » بياء مضمومة وفتح التاء (وتُكَلِّمُنا) قرأ ابن مسعود : « ولِتُكَلِّمَنا » بزيادة لام مكسورة وفتح الميم وواو قبل اللام . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن أبي عبلة : « لِتُكَلِّمَنا » بلام مكسورة من غير واو قبلها وبنصب الميم ؛ وقرأوا جميعاً : « ولِتَشْهَدَ أرجلُهم » بلام مكسورة وبنصب الدال .

ومعنى « نَخْتِمُ » : نَطبع عليها ، وقيل : منعُها من الكلام هو الختم عليها ، وفي سبب ذلك أربعة أقوال .

أحدها : أنهم لمّا قالوا : (واللهِ ربِّنا ما كُنَّا مشركِينَ) [الأنعام : ٢٣] خَتَم اللهُ على أفواههم ونطقت جوارحُهم ، قاله أبو موسى الأشعري .

والثاني : ليَعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم على المعاصي صارت شهوداً [عليهم] .

والثالث : ليعرفهم أهل الموقف ، فيتميَّزوا منهم بذلك .

والرابع : لأن إقرار الجوارح أبلغ في الإقرار من نُطْق اللسان ، ذكرهنّ الماوردي .

فان قيل : ما الحكمة في تسمية نُطق اليد كلاماً ونطقِ الرِّجْل شهادةً ؟

فالجواب : أن اليد كانت مباشِرة والرِّجل حاضرة ، وقول الحاضر على غيره شهادةٌ بما رأى ، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما فعل .

قوله تعالى : (ولو نشاءُ لطَمَسْنا على أعيُنهم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ولو نشاء لأذهبْنا أعيُنَهم حتى لا يبدوَ لها شَقٌّ ولا جَفْن . والمطموس : الذي لا يكون بين جفنيه شَقّ ، (فاستَبَقوا الصِّراط) أي : فتبادروا إلى الطريق (فأنّى يُبْصِرونَ) [أي] : فكيف يُبْصِرون وقد أعمينا أعيُنَهم ؟! وقرأ أبو بكر الصِّدِّيق ، وعروة بن الزبير ، وأبو رجاء : « فاستَبِقوا » بكسر الباء « فأنَّى تُبْصِرونَ » بالتاء . وهذا تهديد لأهل مكة ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : ولو نشاء لأضلَلْناهم وأعميناهم عن الهُدى ، فأنّى يُبصِرون الحقّ ؟! رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : ولو نشاء لفقأْنا أعيُنَ ضلالتهم وأعميناهم عن غيِّهم وحوَّلْنا أبصارهم من الضلالة إلى الهُدى فأبصروا رشدهم ، فأنّى يُبصِرونَ ولم أفعل ذلك بهم ؟! روي عن جماعة منهم مقاتل .

قوله تعالى : (ولو نشاء لَمَسَخْناهم على مكانتهم) وروى أبو بكر عن عاصم : « على مكاناتهم » ؛ وقد سبق بيان هذا [البقرة : ٦٥] ،

وفي المراد بقوله : « لَمَسَخْنَاهُم » أربعة أقوال . أحدها : لأهلكناهم ، قاله ابن عباس . والثاني : لأقعدناهم على أرجلهم ، قاله الحسن ، وقتادة . والثالث : لجعلناهم حجارة ، قاله أبو صالح ، ومقاتل . والرابع : لجعلناهم قردةً وخنازيرَ لا أرواح فيها ، قاله ابن السائب .

وفي قوله : (فما استطاعوا مُضِيّاً ولا يَرْجِعونَ) ثلاثة أقوال . أحدها : فما استطاعوا أن يتقدَّموا ولا أن يتأخَّروا ، قاله قتادة . والثاني : فما استطاعوا مُضِيّاً عن العذاب ، ولا رجوعاً إلى الخِلقة الأُولى بعد المسخ ، قاله الضحاك . والثالث : مُضِيّاً من الدنيا ولا رجوعاً إليها ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى : (ومَنْ نُعَمِّرْهُ نَنكِّسْهُ في الخَلْق) قرأ حمزة : « نُنَكِّسْهُ » مشددة مع ضم النون الأُولى وفتح الثانية ؛ والباقون : بفتح النون الأولى وتسكين الثانية من غير تشديد[1] ؛ وعن عاصم كالقراءتين . ومعنى الكلام : من نُطِلْ عمره ننكِّس خَلْقَه ، فنجعل مكان القوَّة الضَّعف ، وبدل الشباب الهرم ، فنردُّه إلى أرذل العمر . (أفلا يَعْقِلونَ) قرأ نافع ، وأبو عمرو : « أفلا تعقلون » بالتاء ، والباقون بالياء . والمعنى : أفلا يعقلون أنَّ مَنْ فعل هذا قادر على البعث ؟!

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وما علَّمْناه الشِّعر) قال المفسرون : إن كفار مكة قالوا : إنَّ

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قرّاء الأمصار ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب ، غير أن التي عليها عامة قرّاء الكوفيين أعجب إليَّ ، لأن التنكيس من الله في الخلق إنما هو حال بعد حال ، وشيء بعد شيء ، فذلك تأييد للتشديد . اهـ .

هذا القرآن شعر وإن محمداً شاعر ، فقال الله تعالى : « وما علَّمْناه الشِّعر » (وما ينبغي له) أي : ما يتسهَّل له ذلك . قال المفسرون : ما كان يتَّزن له بيتُ شعر ، حتى إنه روي عنه ﷺ أنه تمثَّل يوماً فقال :

« كَفَى بالإسلامِ والشَّيْبِ لِلْمَرْءِ ناهِياً »

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنما قال الشاعر :

كَفَى الشَّيْبُ والإسلامُ لِلْمَرْءِ نَاهِياً [١]

أَشهدُ أنَّكَ رسولُ الله ، ما علَّمكَ اللهُ الشِّعر ، وما ينبغي لك [٢] . ودعا يوماً بعباس بن مرداس فقال : « أنت القائل :

أَتَجْعَلُ نَهْبِي ونَهْبَ العبيـ . . . ـدِ بين الأَقْرَعِ وعُيَيْنَةَ » ؟ [٣]

فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي ، لم يقل كذلك ، فأنشده أبو بكر ، فقال

(١) البيت لسحيم عبد بني الحسحاس ، وهو في ديوانه : ١٦ ، و « مجمع البيان » : ٣٧/٢٣ ، و « البحر المحيط » : ٣٤٥/٧ ، و « القرطبي » : ٥٢/١٥ ، و « اللسان » : نهى ، وهو بتمامه :

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إن تَجَهَّزْتَ غادياً كَفَى الشَّيْبُ والاسلامُ المرءِ ناهِياً

(٢) ذكر هذا الحديث ابن كثير في « التفسير » من رواية ابن أبي حاتم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن البصري قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثَّل بهذا البيت « كفى بالاسلام والشيب المرء ناهياً » فقال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله « كفى الشيب والاسلام المرء ناهياً » قال أبو بكر أو عمر رضي الله عنهما : أشهد أنك رسول الله ، يقول تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) . اهـ . وهذا الحديث مرسل ، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف . والحديث ذكره السيوطي في « الدر » : ٢٦٨/٥ من رواية ابن أبي حاتم ، وزاد نسبته لابن سعد ، والمرزباني في « معجم الشعراء » عن الحسن رضي الله عنه مرسلاً أن النبي ﷺ كان يتمثل بهذا البيت .

(٣) البيت لعباس بن مرداس ، وهو في « البحر المحيط » : ٣٤٥/٧ ، و « القرطبي » : ٥٢/١٥ ، و « روح المعاني » : ٤٥/٢٣ ، و « اللسان » ، و « التاج » : نهب ، وصوابه موزوناً :

أَتَجْعَلُ نَهْبِي ونَهْبَ العبيـ ـدِ بـين عُيَيْنَةَ والأَقْـرَعِ ؟

رسول الله ﷺ : « لايَضُرُّكَ بأيّهما بدأتَ » ، فقال أبو بكر : والله ماأنت بشاعر ، ولا ينبغي لك الشِّعر [١] . وتمثّل يوماً ، فقال :

« ويأتيكَ مَنْ لم تُزَوِّدْهُ بالأَخْبارِ » [٢]

فقال أبو بكر : ليس هكذا يا رسول الله ، فقال : « إنّي لستُ بشاعر ، ولاينبغي لي » [٣] . وإنما مُنِعَ من قول الشِّعر ، لئلا تدخُل الشُّبهة على قوم فيما أتى به من القرآن فيقولون : قوي على ذلك بما في طَبْعه من الفطنة للشِّعر .

---

(١) ذكره ابن كثير في « التفسير » من رواية البيهقي في « الدلائل » ، وأورده السيوطي في « الدر » ٥/٢٦٨ من رواية ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال للعباس بن مرداس : « أرأيت قولك » : « أصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة » . . . الخ ، وفيه انقطاع ، وعبد الرحمن بن أبي الزناد ، ويقال له : عبد الله بن ذكوان المدني ، صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد كما قال الحافظ بن حجر في « التقريب » .

(٢) البيت لطرفة بن العبد البكري ، وهو في « مختار الشعر الجاهلي » : ١/٣٢٣ ، و « مجمع البيان » : ٢٣/٤٥ ، و « البحر المحيط » : ٧/٣٤٥ ، و « القرطبي » : ١٥/٢١ ، ونصه بتمامه :

سَتُبْدي لَكَ الأيامُ ماكُنْتَ جاهِلاً ويأتيك بالأخبـار مَنْ لم تُزَوِّدِ

(٣) رواه الامام أحمد في « المسند » من حديث هشيم عن مغيرة عن الشعبي عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثّل فيه ببيت طرفة « ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد » ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٦٨ من رواية ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها بهذا اللفظ . قال ابن كثير : وهكذا رواه النسائي في « اليوم والليلة » من طريق إبراهيم بن مهاجر عن الشعبي عنها ، قال : ورواه الترمذي والنسائي أيضاً من حديث المقدام بن شريح ابن هانئ عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها كذلك ، ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . اهـ . والحديث رواه الطبري في « التفسير » : ٢٣/٢٧ ، من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : قيل لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث اليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل آخره أوله ، وأوله آخره ، فقال له أبو بكر : إنه ليس هكذا ، فقال نبي الله : « إني والله ماأنا بشاعر —

. . . .

ـــ ولا ينبغي لي » وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٦٨ بهذا اللفظ عن عائشة وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأورده أيضاً من رواية ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يتمثل من الاشعار « ويأتيك بالاخبار من لم تزود » . اه .

قال ابن كثير : وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثّل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، ولكن تبعاً لقول أصحابه رضي الله عنهم ، فانهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون :

لاهُمّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلنْ سكينةً علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا

ويرفع صوته ﷺ بقوله : « أبينا » ويمدّها . . . قال : وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقاً من غير قصدٍ لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد اليه ، قال : وكذلك ما ثبت في « الصحيحين » عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غارٍ فنكبت أصبعه ، فقال ﷺ :

هل أنتِ إلا أصبع دُميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

قال ابن كثير : وكل هذا لاينافي كونه ﷺ ما علم شعراً ولا ينبغي له ، فان الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم (الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ولا مفتعل ، ولا سحر يؤثر كما تنوعت فيه أقوال الضلاّل وآراء الجهّال ، قال : وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً . ثم قال ابن كثير : على أن الشعر فيه ماهو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الاسلام ، كحسان بن ثابت رضي الله عنه ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين ، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية ، ثم قال : وقد روى أبو داود ، من حديث أبي بن كعب ، وبريدة بن الحصيب ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكماً » . اه .

قوله تعالى : (إنْ هو) يعني القرآن (إلاّ ذِكْرٌ) إلا موعظة (وقرآنٌ مُبينٌ) فيه الفرائض والسُّنن [والأحكام] .

قوله تعالى : (لِيُنْذِرَ) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « لِيُنْذِرَ » بالياء ، يعنون القرآن . وقرأ نافع ، وابن عامر ، ويعقوب : « لِتُنْذِرَ » بالتاء ، يعنون النبيَّ ﷺ ، أي : لِتُنْذِرَ يا محمَّدُ بما في القرآن . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن السميفع : « لِيُنْذَرَ » بياء مرفوعة وفتح الذال والراء جميعاً .

قوله تعالى : (مَنْ كان حَيّاً) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : حيّ القلب حيّ البصر ، قاله قتادة .

والثاني : من كان عاقلاً ، قاله الضحاك . قال الزجاج : من كان يَعْقِل ما يُخاطَب به ، فان الكافر كالميت في ترك النذير .

والثالث : مهتدياً ، قاله السدي وقال مقاتل : من كان مهتدياً في عِلْم الله .

والرابع : من كان مؤمناً ، قاله يحيى بن سلام ؛ وهذا على المعنى الذي قد سبق في قوله : (إنَّما تُنْذِرُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم) [فاطر : ١٨] ، ويجوز أن يريد : إنما يَنفع إنذارُك مَنْ كان مؤمناً في علم الله .

قوله تعالى : (ويحقَّ القول على الكافرين) معناه : يجب . وفي المراد بالقول قولان . أحدهما : أنه العذاب . والثاني : الحُجَّة .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ . لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ

جُنْدٌ مُحْضَرُونَ . فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

ثم ذكَّرهم قُدرته فقال : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لهم مِمَّا عَمِلَتْ أيدينا أنعاماً) قال ابن قتيبة : يجوز أن يكون المعنى : ممّا عَمِلْناه بقوّتنا وقدرتنا ، وفي اليد القُدرةُ والقُوَّةُ على العمل ، فتُستعارُ اليدُ فتُوضَع موضعها ، هذا مَجازٌ للعرب يحتملُه هذا الحرف ، والله أعلم بما أراد . وقال غيره : ذِكْر الأيدي هاهنا يدلُّ على انفراده بما خَلَق ، والمعنى : لم يشارِكْنا أحد في إنشائنا ؛ والواحدُ مِنّا إذا قال : عملتُ هذا بيدي ، دلَّ ذلك على انفراده بعمله . وقال أبو سليمان الدمشقي : معنى الآية : ممّا أوجدْناه بقُدرتنا وقوّتنا ؛ وهذا إجماعٌ أنه لم يُرِد هاهنا إلا ما ذكرْنا .

قوله تعالى : (فهُم لها مالكونَ) فيه قولان .

أحدهما : ضابطون ، قاله قتادة ، ومقاتل . قال الزجاج : ومثله في الشِّعر :

أصبحتُ لاأحمِلُ السِّلاحَ ولا أملكُ رأسَ البعيرِ إنْ نَفَرا (١)

أي : لا أضبِط رأس البعير .

والثاني : قادرون عليها بالتسخير لهم ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وذلَّلْناها لهم) أي : سخَّرْناها ، فهي ذليلة لهم (فمنها رَكُوبُهم) قال ابن قتيبة : الرَّكُوب : ما يَرْكَبون ، والحَلوب : ما يَحْلُبُون . قال الفراء : ولو قرأ قارئ : « فمنها رُكُوبُهم » ، كان وجهاً ، كما تقول : منها أكلهم وشُربهم ورُكوبهم . وقد قرأ بضم الراء الحسن ، وأبو العالية ،

(١) البيت للربيع بن منيع الفزاري ، وهو في « البحر المحيط » : ٣٤٧/٧ ، و « روح المعاني » : ٤٧/٢٣ .

والأعمش، وابن يعمر في آخرين. وقرأ أُبيُّ بن كعب، وعائشة: «رَكُوبَتُهم» بفتح الراء والباء وزيادة تاء مرفوعة. قال المفسرون: يركبون من الأنعام الإبل، ويأكلون الغنم، (ولهم فيها مَنافعُ) من الأصواف والأوبار والأشعار والنَّسْل (ومَشاربُ) [من] ألبانها، (أفَلا يَشْكُرونَ) ربَّ هذه النِّعم فيوحِّدونه؟!.

ثم ذكر جهلهم فقال: (واتَّخَذوا مِنْ دون الله آلهةً لعلَّهم يُنْصَرون) أي: لتمنَعهم من عذاب الله؛ ثم أخبر أن ذلك لا يكون بقوله: (لايستطيعون نَصْرَهم) أي: لا تَقْدِرُ الأصنامُ على منعهم من أمْرٍ أراده اللهُ بهم (وهُمْ) يعني الكفار (لَهُمْ) يعني الأصنام (جُنْدٌ مُحْضَرونَ) وفيه أربعة أقوال.

أحدها: جُنْدٌ في الدنيا مُحْضَرونَ في النار، قاله الحسن.

والثاني: مُحْضَرونَ عند الحساب، قاله مجاهد.

والثالث: المشركون جُنْدٌ للأصنام، يَغضبون لها في الدنيا، وهي لاتسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شرّاً، قاله قتادة [1]. وقال مقاتل: الكفار يَغضبون للآلهة ويَحْضُرونها في الدنيا. وقال الزجاج: هم للأصنام ينتصرون، وهي لا تستطيع نصرهم.

والرابع: هم جُنْدٌ مُحْضَرون عند الأصنام يعبدونها، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: (فلا يَحْزُنْكَ قولُهم) يعني قول كفار مكة في تكذيبك (إنّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ) في ضمائرهم من تكذيبك (وما يُعْلِنونَ) بألسنتهم من ذلك؛ والمعنى: إنا نُثيبك ونجازيهم.

---

(١) قال ابن جرير الطبري: وهذا الذي قاله قتادة أولى عندنا بالصواب في تأويل ذلك، لأن المشركين عند الحساب تتبرأ منهم الأصنام وما كانوا يعبدونه، فكيف يكونون لها جنداً حينئذ؟! ولكنهم في الدنيا لهم جند يغضبون لهم ويقاتلون دونهم، وقال ابن كثير: وهكذا قال الحسن البصري، وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى. اهـ.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أنّا خَلَقْنَاه مِنْ نُطْفة) اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية والتي بعدها على خمسة أقوال .

أحدها : أنه العاص بن وائل السهمي ، أخذ عَظْماً من البطحاء ففتّه بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أيُحْيِي اللهُ هذا بعد ما أرى ؟ فقال : « نعم ، يُميتُك اللهُ ثمَّ يُحْيِيكَ ثمَّ يُدخلكَ نار جهنّم » ، فنزلت هذه الآيات ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس [1] .

والثاني : أنه عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، جرى له نحو هذه القصة ، رواه العوفي عن ابن عباس [2] .

(١) رواه ابن جرير الطبري : ٣٠/٢٣ من رواية سعيد بن جبير مرسلاً ، ورواه ابن أبي حاتم من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه الحاكم عن ابن عباس وصححه ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣٦٩/٥ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، والاسماعيلي في « معجمه » ، وابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » ، والضياء في « المختارة » عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه الطبري : ٣١/٢٣ من رواية عطية العوفي عن ابن عباس ، قال ابن كثير : وهذا منكر ، لأن السورة مكية ، وعبد الله بن أُبيّ بن سلول إنما كان بالمدينة .

والثالث : أنه أبو جهل ابن هشام، وأن هذه القصة جرت له ، رواه الضحاك عن ابن عباس [١] .

والرابع : أنه أُميَّةُ بن خلَف ، قاله الحسن [٢] .

والخامس : أنه أُبيُّ بن خلَف الجُمَحي [٣] ، وهذه القصة جرت له ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والجمهور ، وعليه المفسّرون .

ومعنى الكلام : التعجُّب مِنْ جهل هذا المخاصِم في إنكاره البعث ؛ والمعنى : ألا يَعلم أنه مخلوق فيتفكر في بدء خلقه فيترك خصومته؟! وقيل : هذا تنبيه له على نعمة الله عليه حيث أنشأه من نطفة فصار مجادلاً .

(وضرب لنا مثلاً) في إنكار البعث بالعَظْم البالي حين فتَّه بيده ، وتعجَّب ممن يقول : إن الله يُحْييه (ونَسِيَ خَلْقَهُ) أي : نَسِيَ خَلْقَنا له ، أي :

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٧٠ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس . والله أعلم .

(٢) وهكذا ذكره الشوكاني في « فتح القدير » عن الحسن ولم يسنده لأحد .

(٣) رواه الطبري : ٢٣/٣٠ عن مجاهد وقتادة ، والواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠٩ من طريق حصين عن أبي مالك ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : ١٤٠ ، ورواه البيهقي في « الشعب » من طريق حصين عن أبي مالك ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/٢٦٩ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس ، ومن رواية سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والبيهقي في « البعث » عن أبي مالك ، ومن رواية عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ، ومن رواية عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة ، ومن رواية ابن أبي حاتم عن السدي ، ومن رواية ابن أبي حاتم عن عكرمة .

قال ابن كثير : وعلى كل تقدير ، سواء كانت هذه الآيات نزلت في أُبيّ بن خلف ، أو العاص بن وائل ، أو فيهما ، فهي عامة في كل من أنكر البعث ، قال : والألف واللام في قوله تعالى : (أولم ير الانسان) للجنس ، يعم كل منكر للبعث . اهـ .

تَرَكَ النَّظَرَ في خَلْق نفسه إذ خُلِق من نُطْفة (قال من يُحْيِي العِظَامَ وهي رَميمٌ ؟!) أي : بالية ، يقال : رَمَّ العَظْمُ ، إذا بَلِيَ ، فهو رَمِيمٌ ، لأنه معدول عن فاعله ، وكل معدول عن وجهه ووزنه فهو مصروف عن إعرابه ، كقوله : (وما كانتْ أُمُّكِ بَغِيّاً) [مريم : ٢٨] ، فأسقط الهاء لأنها مصروفة عن « باغية » ؛ فقاس هذا الكافر قُدرة الله تعالى بقُدرة الخَلْق ، فأنكر إحياء العظم البالي لأن ذلك ليس في مقدور الخَلْق . (قُلْ يُحْيِيهَا الذي أنشأَهَا) أي : ابتدأ خَلْقها (أوَّلَ مَرَّةٍ وهو بِكُلِّ خَلْقٍ) من الابتداء والإعادة (عليمٌ) .

(الذي جَعَلَ لكم مِنَ الشَّجر الأخضر ناراً) قال ابن قتيبة : أراد الزُّنُودَ التي تُورِي بها الأعرابُ من شجر المَرْخِ والعَفَار .

فان قيل : لِمَ قال : « الشَّجَرِ الأَخضرِ » ، ولم يقل : الشَّجَرِ الخُضْر ؟

فالجواب : أن الشجر جمع ، وهو يؤنَّث ويذكَّر ، قال الله تعالى : (فمالئون منها البُطونَ) [الواقعة : ٥٣] ، وقالَ : (فاذا أنتم منه توقِدونَ) .

ثم ذكر ما هو أعظم من خَلْق الإنسان ، فقال : (أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بِقادِرٍ) وقرأ أبو بكر الصِّدِّيق ، وعاصم الجحدري : « يَقْدِرُ » بياء من غير ألف (على أن يَخْلُقَ مِثْلَهم ؟!) وهذا استفهام تقرير ؛ والمعنى : مَنْ قَدَرَ على ذلك العظيم ، قَدَرَ على هذا اليسير [1] . وقد فسرنا

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : (لَخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقال عز وجل هاهنا : (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟!) أي : مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ؟! قال : وهذه —

معنى « أن يَخلُقَ مثلَهم » في (بني إسرائيل : ٩٩) ؛ ثم أجاب هذا الاستفهام فقال : (بلى وهو الخلاّقُ) يخلُق خلْقاً بعْدَ خلْق . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والحسن ، وعاصم الجحدري : « وهو الخالقُ » (العليمُ) بجميع المعلومات . والمَلَكوتُ والمُلْكُ واحد . وباقي السورة قد تقدم شرحه[1] [البقرة:١١٧، ٣٢ ، الأنعام : ٧٥] .



ـــ الآية الكريمة ، كقوله عز وجل : (أولم يَرَوا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه كان على كل شيء قدير) وقال تبارك وتعالى هاهنا : (بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول كن فيكون) أي : إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً لايحتاج إلى تكرار وتأكيد . اهـ .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) أي : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحيّ القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يُرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم المعاد فيجازي كل عامل بعمله ، وهو العادل المنعم المتفضّل . اهـ .

سورة الصافات

وهي مكيَّة كُلُّها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفّاً . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً . إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ . رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾

قوله تعالى : (والصّافّاتِ صفّاً) فيها قولان .

أحدهما : أنها الملائكة ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور . قال ابن عباس : هم الملائكة صُفوفٌ في السماء ، لايَعرِفُ مَلَكٌ منهم مَنْ إلى جانبه ، لم يَلتَفِتْ منذ خَلَقَه اللهُ عزّ وجلّ . وقيل : هي الملائكة تصُفُّ أجنحتها في الهواء واقفة إلى أن يأمرها الله عز وجل بما يشاء .

والثاني : أنها الطَّير ، كقوله : (والطَّيْرُ صافّاتٍ) [النور : ٤١] ، حكاه الثعلبي .

وفي الزاجرات قولان .

أحدهما : أنها الملائكة التي تزجُر السَّحاب ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنها زواجر القرآن وكلُّ ماينهى ويزجُر عن القبيح ، قاله قتادة [١] .

وفي التّاليات ذِكْراً ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الملائكة تقرأ كتب الله تعالى ، قاله ابن مسعود ، [والحسن] ، والجمهور .

والثاني : أنهم الرسل ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : مايُتلى في القرآن من أخبار الأُمم ، قاله قتادة .

وهذا قَسَمٌ بهذه الأشياء ، وجوابه : (إنَّ إلهكم لوَاحِدٌ) [٢] . وقيل : معناه : وربِّ هذه الأشياء إنّه واحد .

قوله تعالى : (وربُّ المَشارق) قال السدي : المَشارق ثلاثمائة وستون مَشْرِقاً ، والمغارب مِثْلُها ، على عدد أيام السَّنة .

فان قيل : لِمَ ترك ذِكْر المَغارب ؟

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والذي هو أولى بتأويل الآية عندنا ، ماقال مجاهد ومن قال : هم الملائكة ، لأن الله تعالى ابتدأ ذِكْره ابتدأ القَسَم بنوعٍ من الملائكة ، وهم الصافّون باجماعٍ من أهل التأويل ، فلأن يكون الذي بعده قسماً بسائر أصنافهم أشبه . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض وما بينهما ، أي : من المخلوقات ، ورب المشارق ، أي : هو المالك المتصرّف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب ، قال : واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه ، وقد صرح بذلك في قوله عز وجل : (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون) وقال تعالى في الآية الأخرى : (رب المشرقين ورب المغربين) يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر . اهـ .

فالجواب : أن المشارق تَدُلُّ على المَغارب ، لأن الشروق قَبْل الغُروب .

﴿ إنّا زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنيا بِزِينةٍ الكَواكِبِ . وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ . لايَسَّمَّعُونَ إلى المَلأ الأعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ . إلّا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ ﴾

قوله تعالى : (إنّا زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنيا) يعني التي تلي الأرض ، وهي أدنى السموات إلى الأرض (بِزينةِ الكواكب) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، والكسائي : « بزينةِ الكواكب » مضافاً ، أي : بحُسنها وضوئها . وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : « بزينةٍ » منوّنةً وخفض « الكواكبِ » [وجعل « الكواكب »] بدلاً من الزينة لأنها هي ، كما تقول : مررتُ بأبي عبد الله زيدٍ ؛ [فالمعنى : إنّا زيّنّا السماء الدُّنيا بالكواكب . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « بزينةٍ » بالتنوين وبنصب « الكواكبَ »] ؛ والمعنى : زيَّنّا السَّماء الدُّنيا بأن زيَّنّا الكواكب فيها حين ألقيناها في منازلها وجعلناها ذات نور . قال الزجاج : ويجوز أن يكون « الكواكبَ » في النَّصب بدلاً من قوله : « بزينة » لأن قوله : « بزينة » في موضع نصب . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، ومعاذ القارىء ، وأبو نهيك ، وأبو حصين الأسدي في آخرين : « بزينةٍ » بالتنوين « الكواكبُ » برفع الباء ؛ قال الزجاج : والمعنى : إنّا زيَّنّا السَّماء الدُّنيا بأن زيَّنتها الكواكبُ وبأن زيّنتِ الكواكب . (وحِفْظاً) أي : وحَفِظْناها حفْظاً . فأمّا المارد ، فهو العاتي ، وقد شرحنا هذا في قوله : (شيطاناً مَريداً) [النساء : ١١٧] .

قوله تعالى : (لايَسْمَعُونَ) قال الفراء : « لا » هاهنا كقوله : (كذلكَ

سَلَكْناهُ في قُلوبِ المُجْرِمِينَ . لايؤمِنونَ به) [الشعراء : ٢٠٠ ، ٢٠١] ؛ ويصلح في « لا » على هذا المعنى الجزم ، فان العرب تقول : ربطتُ الفرس لايَنْفَلِتْ . وقال غيره : لكي لايَسَّمَّعوا إلى الملإِ الأعلى ، وهم الملائكة الذين في السماء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم وخلف : « لايَسَّمَّعُونَ » بتشديد السين ، وأصله : يتسمَّعون ، فأُدغمت التاء في السين . وإنما قال : (إلى الملإِ الأعلى) لأن العرب تقول : سمعتُ فلاناً ، وسمعتُ من فلان ، وإلى فلان .

(ويُقْذَفون مِنْ كُلِّ جانِبٍ) بالشُّهُب (دُحُوراً) قال قتادة : أي قذفاً بالشُّهُب . وقال ابن قتيبة : أي : طَرْداً ، يقال : دَحَرْتُه دَحْراً ودُحُوراً ، أي : دفعتُه . وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وأبو رجاء ، وأبو عبد الرحمن ، والضحاك ، وأيوب السختياني ، وابن أبي عبلة : « دَحُوراً » بفتح الدال .

وفي « الواصب » قولان .

أحدهما : أنه الدائم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه المُوجِع ، قاله أبو صالح ، والسدي .

وفي زمان هذا العذاب قولان . أحدهما : أنه في الآخرة . والثاني : [أنه] في الدنيا ، فهم يُخْرَجون بالشُّهُب ويُخبَلُون إلى النَّفْخة الأولى في الصُّور .

قوله تعالى : (إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفة) قرأ ابن السميفع : « خَطِّفَ » بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها . وقرأ أبو رجاء ، والجحدري : بكسر الخاء والطاء جميعاً والتخفيف . قال الزجاج : خَطَفَ وخَطِفَ ، بفتح الطاء وكسرها ، يقال : خَطَفْتُ أَخْطِفُ ، وخَطِفْتُ أَخْطَفُ : إذا أخذت الشيء بسرعة ،

ويجوز « إلاّ مَنْ خَطَّف » بفتح الخاء وتشديد الطاء، ويجوز « خِطَفَ » بكسر الخاء وفتح الطاء؛ والمعنى: اختطف، فأدغمت التاء في الطاء، وسقطت الألف لحركة الخاء؛ فمن فتح الخاء، ألقى عليها فتحة التاء التي كانت في « اختطف »، ومن كسر الخاء، فلِسكونها وسُكون الطاء. فأما من روى [« خِطِف »] بكسر الخاء والطاء، فلاوجه لها إلا وجهاً ضعيفاً جداً، وهو أن يكون على إتباع الطاء كسرة الخاء. قال المفسرون: والمعنى: إلاّ مَن اختطف الكلمة من كلام الملائكة مُسارَقةً (فأَتبعَهُ) أي: لَحِقَهُ (شِهابٌ ثاقبٌ) قال ابن قتيبة: أي كوكبٌ مُضيء، يقال: أَثقِبْ نارَك، أي: أَضِئْها، والثُّقوب: ماتُذْكى به النّارُ.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ . بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا لايَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ . وَقَالُوا إِنْ هٰذَا إِلّا سِحْرٌ مُبِينٌ . ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ . قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ . وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هٰذَا يَوْمُ الدِّينِ . هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ . مَالَكُمْ لاتَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾

قوله تعالى: (فاسْتَفْتِهِمْ) أي: فَسَلْهُمْ سؤالَ تقرير (أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً) أي: أَحْكَمُ صَنْعةً (أَمْ مَنْ خَلَقْنَا) فيه قولان.

أحدهما : أن المعنى : أمْ مَنْ عدَدْنا خَلْقه من الملائكة والشياطين والسموات والأرض ، قاله ابن جرير .

والثاني : أمْ مَنْ خلَقْنا قبلهم من الأمم السالفة ، والمعنى : إنهم ليسوا بأقوى من أولئك وقد أهلكناهم بالتكذيب ، فما الذي يؤمِّن هؤلاء؟!

ثم ذكر خَلْق الناس فقال : (إنّا خلَقْناهم مِنْ طينٍ لازِبٍ) قال الفراء ، وابن قتيبة : أي : لاصقٍ لازمٍ ، والباء تُبدلُ من الميم لقُربِ مَخرَجَيْهما . قال ابن عباس : هو الطّين الحُرُّ الجيِّد اللزِقُ . وقال غيره : هو الطّين الذي يَنْشَف عنه الماءُ وتبقى رطوبتُه في باطنه فيَلْصَق باليد كالشمع . وهذا إخبار عن تساوي الأصل في خَلْقهم وخَلْق مَن قَبْلَهم ؛ فمن قدَر على إهلاك الأقوياء ، قَدَر على إهلاك الضُّعفاء .

قوله تعالى : (بل عَجِبْتَ) « بل » معناه : تركُ الكلام الأول والأخذُ في الكلام الآخَر ، كأنه قال : دع يا محمد ما مضى .

وفي « عَجِبْتَ » قراءتان قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « بل عَجِبْتَ » بفتح التاء . وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وعكرمة ، وقتادة ، وأبو مجلز ، والنخعي ؛ وطلحة بن مصرف ، والأعمش ، وابن أبي ليلى ، وحمزة ، والكسائي في آخرين : « بل عَجِبْتُ » بضم التاء ، [واختارها الفراء] . فمن فتح ، أراد : بل عَجِبْتَ يا محمد ، (ويَسْخَرونَ) هم . قال ابن السائب : أنتَ تَعْجَبُ منهم ، وهم يَسْخَرون منك . وفي ما عجِبَ منه قولان ، أحدهما : من الكفار إذ لم يؤمِنوا بالقرآن ، والثاني : إذ كفروا بالبعث . ومن ضَمَّ ، أراد الإخبار عن الله عز وجل

أنه عَجِبَ ، قال الفراء : وهي قراءة عليّ ، وعبد الله ، وابن عباس ، وهي أحبُّ إليّ ؛ وقد أنكر هذه القراءة قوم ، منهم شريح القاضي ، فانه قال : إن الله لا يَعْجَب ، إنما يَعْجَب مَنْ لا يَعْلَم . قال الزجاج : وإنكار هذه القراءة غلط ، لأن العَجَبَ من الله خلاف العَجَب من الآدميين ، وهذا كقوله : (ويَمْكُرُ اللهُ) [الأنفال : ٣٠] وقوله : (سَخِرَ اللهُ منهم) [التوبة : ٧٩] ، وأصل العَجَب في اللغة : أن الإنسان إذا رأى ما يُنْكِرُه ويَقِلُّ مِثْلُه ، قال : قد عَجِبْتُ من كذا ، وكذلك إذا فَعَلَ الآدميون ما يُنْكِره اللهُ عز وجل ، جاز أن يقول : عَجِبْتُ ، واللهُ قد عَلِم الشيءَ قبل كونه . وقال ابن الأنباري : المعنى : جازيتُهم على عجبهم من الحق ، فسمّى الجزاء على الشيء باسم الشيء الذي له الجزاء ، فسمّى فعله عَجَباً وليس بعَجَب في الحقيقة ، لأن المتعجِّب يدهش ويتحيَّر ، واللهُ عز وجَلّ قد جَلّ عن ذلك ؛ وكذلك سُمِّي تعظيم الثواب عَجَباً ، لأنه إنما يُتعجَّب من الشيء إذا كان في النهاية ، والعرب تسمي الفعل باسم الفعل إذا داناه من بعض وجوهه وإن كان مخالفاً له في أكثر معانيه ، قال عديّ :

ثُمَّ أَضْحَوْا لَعِبَ الدَّهْرُ بِهِمْ [وكَذاكَ الدَّهْرُ يُودِي بالرِّجالِ] [1]

فجعل إهلاك الدهر وإفساده لَعِباً . وقال ابن جرير : من ضم التاء ، فالمعنى : بل عَظُم عندي وكَبُر اتّخاذُهم لي شريكاً وتكذيبُهم تنزيلي . وقال غيره : إضافة العَجَب إلى الله على ضربين ، أحدهما : بمعنى الإنكار والذمّ ، كهذه الآية ، والثاني : بمعنى الاستحسان والإخبار عن تمام الرضى ، كقوله عليه السلام : « عَجِبَ ربُّكَ مِنْ شابٍّ ليست له صَبوةٌ » [2] .

---

(١) البيت لعديّ بن زيد العِبادي ، وهو في « الأغاني » طبعة الدار : ٢/١٣٥ .

(٢) روى أحمد في « المسند » : ٤/١٥١ من حديث ابن لهيعة عن أبي عشانة عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » ، قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » : ولتمّام في « فوائده » ـــ

قوله تعالى : (وإذا ذُكِّروا لا يَذْكُرونَ) أي : إذا وُعِظوا بالقرآن لا يَذَّكَّرون ولا يَتَّعظون . وقرأ سعيد بن جبير ، والضحاك ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري ، وأبو عمران : « ذُكِروا » بتخفيف الكاف .

(وإذا رأَوْا آيةً) قال ابن عباس : يعني انشقاق القمر (يَسْتَسْخِرونَ) قال أبو عبيدة : يَسْتَسْخِرونَ ويَسْخَرونَ سواء . قال ابن قتيبة : يقال : سَخِرَ واسْتَسْخَرَ ، كما يقال : قَرَّ واسْتَقَرَّ ، وعَجِبَ واسْتَعْجَبَ ، ويجوز أن يكون : يسألون غيرَهم من المشركين أن يَسْخَروا من رسول الله [١] ، كما يقال : اسْتَعْتَبْتُه ، أي : سألتُه العُتْبَى ، واسْتَوْهَبْتُه ، أي : سألتُه الهِبَة ، واسْتَعْفَيْتُه : سألتُه العَفْوَ .

(وقالوا إنْ هذا) يعنون انشقاق القمر (إلاّ سِحْرٌ مُبينٌ) أي : بَيِّنٌ لِمَنْ تأمَّله أنه سِحْر .

(أإذا مِتْنا) قد سبق بيان [هذه] الآية [مريم : ٦٦] .

ـــ والقضاعي في « مسنده » من حديث ابن لهيعة : حدثنا أبو عشانة عن عقبة بن عامر مرفوعاً « إن الله ليعجب من الشاب الذي ليست له صبوة » قال : وكذا هو عند أحمد وأبي يعلى ، وسنده حسن ، قال : وضعفه شيخنا (يعني الحافظ ابن حجر) في فتاويه لأجل ابن لهيعة . اهـ . والحديث ذكره الحافظ السيوطي في « الجامع الصغير » من رواية أحمد والطبراني عن عقبة بن عامر ، قال الحافظ المناوي في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » : وكذا رواه أبو يعلى عن عقبة بن عامر (أي الجهني) قال : قال الهيثمي : وإسناده حسن ، وضعفه ابن حجر في فتاويه لضعف ابن لهيعة . اهـ .

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وإذا رأوا آية يستسخرون) يقول : وإذا رأوا حجةً من حجج الله عليهم ودلالة على نبوّة نبيّه محمد ﷺ يستسخرون ، يقول : يسخرون ويستهزؤون . اهـ .

(أوَ آباؤنا) هذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف، كقوله : (أوَأمِنَ أهْلُ القُرى [الاعراف : ٩٨] . وقرأ نافع ، وابن عامر : « أوْ آباؤنا الأوَّلُونَ » بسكون الواو هاهنا وفي (الواقعة : ٤٨) .

(قُلْ نَعَمْ) أي : نَعَمْ تُبعثون (وأنتُمْ داخِرونَ) أي : صاغِرونَ .

(فانّما هي زَجْرَةٌ واحدةٌ) أي : فانّما قِصّة البعث صيحةٌ واحدة من إسرافيل ، وهي نفخة البعث ، وسُمّيتْ زجرةً ، لأنّ مقصودها الزّجْر (فاذا هُمْ يَنْظُرونَ) قال الزجاج : أي : يُحْيَوْن ويُبعَثونَ بُصَراءَ ينظُرون ، فاذا عايَنوا بعثهم ، ذكروا إخبار الرُّسل عن البعث ، (وقالوا ياويلَنا هذا يومُ الدّين) أي : يوم الحساب والجزاء ، فتقول الملائكة : (هذا يومُ الفَصْل) أي : يوم القضاء الذي يُفصَل فيه بين المُحْسِن والمُسيء ؛ ويقول الله عز وجل يومئذ للملائكة : (أحشُروا) أي : اجْمَعوا (الذين ظَلَموا) من حيث هم ، وفيهم قولان . أحدها : أنهم المشركون . والثاني : أنه عامٌّ في كل ظالم . وفي أزواجهم أربعة أقوال .

أحدها : أمثالهم وأشباههم ، وهو قول عمر ، وابن عباس ، والنعمان بن بشير ، ومجاهد في آخرين . وروي عن عمر قال : يُحشَر صاحبُ الرّبا مع صاحب الرِّبا ، وصاحبُ الزّنا مع صاحب الزّنا ، وصاحب الخمر مع صاحب الخمر .

والثاني : أنّ أزواجَهم : المشركاتُ ، قاله الحسن .

والثالث : أشياعهم ، قاله قتادة .

والرابع : قُرَناؤهم من الشّياطين الذين أضلّوهم ، قاله مقاتل .

وفي قوله : (وما كانوا يعبُدون) ثلاثة أقوال . أحدها : الأصنام ، قاله عكرمة ، وقتادة . والثاني : إبليس وحده ، قاله مقاتل . والثالث : الشياطين ، ذكره الماوردي وغيره .

[قوله تعالى : (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أي : دُلّوهم على طريقها ؛ والمعنى : اذهبوا بهم إليها . قال الزجاج : يقال : هَدَيْتُ الرَّجُل : إذا دَلَلْتَه ، وهَدَيْتُ العروس إلى زوجها ، وأهديتُ الهديَّة ، فاذا جعلتَ العروس كالهدية ، قلتَ : أهديتُها] .

قوله تعالى : (وَقِفُوهُمْ) أي : احْبِسوهم (إنّهم مسؤولونَ) وقرأ ابن السميفع : « أنَّهم » بفتح الهمزة . قال المفسرون : لمَّا سِيقوا إلى النار حُبِسوا عند الصراط ، لأن السؤال هناك . وفي هذا السؤال ستة أقوال .

أحدها : أنهم سئلوا عن أعمالهم وأقوالهم في الدنيا . والثاني : عن « لا إله إلا الله » ، رويا جميعاً عن ابن عباس . والثالث : عن خطاياهم ، قاله الضحاك والرابع : سأَلَهُمْ خزَنةُ جهنم : (ألَمْ يَأْتِكم نَذيرٌ) [الملك : ٨] ونحو هذا ، قاله مقاتل والخامس : أنهم يُسألون عمّا كانوا يعبُدون ، ذكره ابن جرير . والسادس : أن سؤالهم قوله : (ما لكم لا تَنَاصَرونَ ؟ !) ، [ذكره الماوردي] . قال المفسّرون : المعنى : ما لكم لا ينصُر بعضُكم بعضاً كما كنتم في الدنيا ؟ ! وهذا جواب أبي جهل حين قال يوم بدر : (نَحْنُ جميعٌ مُنْتَصِرٌ) [القمر : ٤٤] ، فقيل لهم ذلك يومئذ توبيخاً . والمُسْتَسْلِم : المُنقاد الذّليل ؛ والمعنى أنهم منقادون لاحيلة لهم .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ . فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ .

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ . إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ . أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ . فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾

قوله تعالى : (وأقبَلَ بَعضُهم على بَعْضٍ) فيهم قولان . أحدهما : الإنس على الشياطين . والثاني ، الأتباع على الرؤساء (يتساءلُونَ) تسآل توبيخ وتأنيب ولَوْم ، فيقول الأتباع للرؤساء : [لِمَ] غررتمونا ؟ ويقول الرؤساء : لِمَ قَبِلْتُمْ مِنّا ؟ فذلك قوله : (قالوا) يعني الأتباع المتبوعين (إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : كنتم تَقهَروننا بقُدرتكم علينا ، لأنّكم كنتم أعزَّ مِنّا ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : من قِبَل الدِّين فتُضِلُّونا عنه ، قاله الضحاك . وقال الزجاج : تأتوننا من قِبَل الدِّين فتخدعونا بأقوى الأسباب .

والثالث : كنتم تُوثِقون ما كنتم تقولون بأَيْمانكم ، فتأتوننا من قِبَل الأَيْمان التي تَحْلِفونها ، حكاه عليّ بن أحمد النيسابوري . فيقول المتبوعون لهم : (بل لم تكونوا مؤمِنِينَ) أي : لم تكونوا على حَقّ فنُضِلّكم عنه ، إنما الكفر من قِبَلكم .

(وما كان لنا عليكم من سُلطان) فيه قولان . أحدهما : أنه القَهْر . والثاني : الحُجّة . فيكون المعنى على الأول : وما كان لنا عليكم من قُوّة نقهَرُكم بها

ونُنكِرهُكم على مُتابعتنا ، وعلى الثاني : لم نأتكم بحُجَّة على ما دعَوْناكم إليه كما أتت الرُّسل .

قوله تعالى : (فحَقَّ علينا قولُ ربِّنا) أي : فوجبت علينا كلمةُ العذاب ، وهي قوله : (لأَمْلأَنَّ جهَنَّمَ) [الاعراف : ١٨] (إنّا لذائقونَ) العذاب جميعاً نحن وأنتم ، (فأَغويناكم) أي ، أضلَلْناكم عن الهُدى بدعائكم إلى ما نحن عليه ، وهو قوله : (إنّا كُنّا غاوِينَ) .

ثم أخبر عن الأتباع والمتبوعين بقوله:(فانّهم يومئذٍ في العذاب مُشترِكونَ) ، والمجرمون هاهنا : المشركون ، (إنّهم كانوا) في الدُّنيا (إذا قيل لهم لا إله إلاّ اللهُ) أي : قولوا هذه الكلمة (يَستكبِرون) أي : يَتعَظَّمُون عن قولها ، (ويقولون أئنّا لَتارِكو آلهتِنا) المعنى : أنَتْرُكُ عبادة آلهتنا (لِشاعرٍ) أي : لاتِّباع شاعر ؟ ! يعنون رسولَ الله ﷺ ، فردَّ اللهُ عليهم فقال : (بل) أي : ليس الأمر على ما قالوا ، بل (جاءَ بالحَقِّ) وهو التوحيد والقرآن ، (وصدَّق المُرسَلينَ) الذين كانوا قبله ؛ والمعنى أنه أتى بما أتَوْا به . ثم خاطب المُشركين بما بعد هذا إلى قوله : (إلاّ عبادَ الله المُخْلَصِينَ) يعني الموحِّدين . قال أبو عبيدة : والعرب تقول : إنكم لَذاهبون إلاّ زيداً . وفي ما استثناهم منه قولان .

أحدهما : من الجزاء على الأعمال ، فالمعنى : إنّا لا نؤاخذهم بسوء أعمالهم ، بل نَغفِرُ لهم ، قاله ابن زيد .

والثاني : من دون العذاب ؛ فالمعنى : فانهم لا يذوقون العذاب ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (أولئك لهم رِزْقٌ معلومٌ) فيه قولان . أحدهما : أنه الجنة ، قاله قتادة . والثاني : أنه الرِّزق في الجنة ، قاله السدي .

فعلى هذا ، في معنى « معلوم » قولان . أحدها : أنه بمقدار الغَداة والعَشِيّ ، قاله ابن السائب . والثاني : أنهم حين يشتهونه يُؤتَون به ، قاله مقاتل .

ثم بيَّن الرِّزق فقال : (فواكهُ) [وهي جمع فاكهة] وهي الثِّمار كلُّها ، رَطْبها ويابسها (وهم مُكرَمون) بما أعطاهم الله . وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الحجر:٤٧] إلى قوله : (يُطافُ عليهم بكأسٍ مِنْ مَعينٍ) قال الضحاك : كلُّ كأس ذُكِرتْ في القرآن ، فانما عُنِيَ بها الخمر ، [قال أبو عبيدة : الكأس : الإناء بما فيه ، والمَعِين : الماء الطَّاهر الجاري . قال الزجاج : الكأس : الإناء الذي فيه الخمر] ، ويقع الكأسُ على كل إناء مع شرابه ، فان كان فارغاً فليس بكأس . والمَعين : الخمر تجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العُيون .

قوله تعالى : (بيضاء) قال الحسن : خمر الجنة أشدُّ بياضاً من اللَّبَن . قال أبو سليمان الدمشقي : ويدل على أنه أراد بالكأس الخمر ، أنه قال : « « بيضاء » ، فأنَّث ، ولو أراد الإناء على انفراده ، أو الإناء والخمر ، لقال : أبيض . وقال ابن جرير : إنما أراد بقوله : « بيضاء » الكأس ، ولتأنيث الكأس أنّثت البيضاء .

قوله تعالى : (لَذَّةٍ) قال ابن قتيبة : أي : لذيذة ، يقال : شرابٌ لِذاذ : إذا كان طيِّباً . وقال الزجاج : أي : ذات لَذَّة [1] .

(لافيها غَوْلٌ) فيه سبعة أقوال .

أحدها : ليس فيها صُداع ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : ليس فيها وجع بطن ، [رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وابن زيد] .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (لذَّةٍ للشاربين) أي : طعمها طيِّب كلونها ، قال : وطيب الطعم دليل على طيب الريح ، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك . اهـ .

والثالث : ليس فيها صُداع رأس ، قاله قتادة .

والرابع : ليس فيها أذى ولا مكروه ، قاله سعيد بن جبير .

والخامس : لاتَغتال عقولهم ، قاله السدي . وقال الزجاج : لاتَغْتالُ عقولَهم فتذهب بها ولا يُصيبهم منها وجع .

والسادس : ليس فيها إثم ، حكاه ابن جرير .

والسابع : ليس فيها شيء من هذه الآفات ، لأن كُلَّ مَنْ ناله شيء من هذه الآفات ، قيل : قد غالَتْه غُولْ ، فالصواب أن يكون نفي الغَوْل عنها يَعُمُّ جميع هذه الأشياء ، هذا اختيار ابن جرير .

قوله تعالى : (ولا هم عنها يُنْزَفونَ) قرأ حمزة ، والكسائي : بكسر الزاي هاهنا وفي (الواقعة : ١٩) . وفتح عاصم الزاي هاهنا ، وكسرها في (الواقعة : ١٩) . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : بفتح الزّاي في السُّورتين . قال الفراء : فمن فتح ، فالمعنى : لاتذهبُ عقولهم بشُربها . يقال للسكران : نَزيف ومَنْزوف ؛ [ومن][1] كسر ، ففيه وجهان . أحدهما : لايُنْفِدون شرابهم ، أي : هو دائم أبداً . والثاني : لايَسْكَرون ، قال الشاعر :

لَعَمْري لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أو صَحَوْتُمُ
لَبِئْسَ النَّدامَى كُنْتُمُ آلَ أَبْجَرَا[2]

قوله تعالى : (وعندهم قاصراتُ الطَّرْفِ) فيه قولان .

أحدها : أنهنَّ النِّساءُ قد قصرن طَرْفهنَّ على أزواجهنَّ فلا يَنْظُرْنَ إلى غيرهم . وأصل القَصْر : الحبس ، قال ابن زيد : إنَّ المرأة منهنَّ لَتقولُ

(١) زيادة ليست في الأصل .

(٢) البيت للأُبَيْرِد الرياحي من بني مِحْجل ، كما في « مجاز القرآن » : ٢/١٦٩ ، و « الطبري » : ٢٣/٥٥ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : نزف .

لزوجها : وعِزَّةِ ربّي ما أرى في الجنَّة شيئاً أحسنَ منكَ ، فالحمد لله الذي جعلني زوجكَ وجعلكَ زوجي .

والثاني : أنهنَّ قد قصَرن طَرْف الأزواج عن غيرهنَّ ، لكمال حُسنهنَّ ، سمعتُه من الشيخ أبي محمد ابن الخشّاب النحوي .

وفي العين ثلاثة أقوال . أحدها : حِسانُ العُيون ، قاله مجاهد . والثاني : عِظام الأعيُن ، قاله السدي ، وابن زيد . والثالث : كِبار العُيون حِسانُها ، وواحدُتهنَّ عَيْناء ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (كأنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنونٌ) في المراد بالبَيْض هاهنا ثلاثة أقوال . أحدها : أنه اللؤلؤ ، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال أبوعبيدة .

والثاني : بَيْضُ النَّعام ، قاله الحسن ، وابن زيد ، والزجاج . قال جماعة من أهل اللغة : والعرب تُشبِّه المرأةَ الحسناء في بياضها وحُسْن لونها ببَيْضَة النَّعامة ، وهو أحسن ألوان النساء ، وهو أن تكون المرأة بيضاءَ مُشرَبةً صُفْرةً .

والثالث : أنه البَيْض حين يُقْشَر قبل أن تَمَسَّه الأيدي ، قاله السدي ، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن جرير [1] .

فأما المكنون ، فهو المصون . فعلى القول الأول : هو مكنون في صَدَفِه ، وعلى الثاني : هو مكنون بريش النَّعام ، وعلى الثالث : هو مكنون بقشره .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال : شبَّههُنَّ في بياضهنَّ وأنهن لم يمسَّهنَّ قبل أزواجهنَّ إنس ولا جانّ ببياض البَيض الذي هو داخل القشر ، وذلك هو الجلدة الملبسة المخّ قبل أن تمسَّه يد أو شيء غيرها ، وذلك لاشك هو المكنون ، فأما القشرة العليا ، فان الطائر يمسّها ، والأيدي تباشرها ، والعشّ يلقاها ، والعرب تقول لكل مصون : مكنون ، ما كان ذلك الشيء ، لؤلؤاً كان ، أو بيضاً ، أو متاعاً . اهـ .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ ءَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ . ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَدِينُونَ . قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ . فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ . وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (فأقبلَ بعضُهم على بعض) يعني أهل الجنة (يتساءلون) عن أحوال كانت في الدنيا [1] .

(قال قائل منهم إنّي كانَ لي قَرِينٌ) فيه أربعة أقوال . أحدها : أنه الصّاحب في الدنيا . والثاني : أنه الشريك ، رويا عن ابن عباس . والثالث : أنه الشيطان ، قاله مجاهد . والرابع : أنه الأخ ؛ قال مقاتل : وهما الأخوان المذكوران في سورة (الكهف : ٣٢) في قوله : (واضْرِب لهم مَثَلاً رَجُلَيْنِ) ؛ والمعنى : كان لي صاحب أو أخ يُنْكِر البعث ، (يقول أئنّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ) قال الزجاج : هي مخففة الصاد ، من صدّق يصدِّق فهو مصدِّق ، ولا يجوز هاهنا تشديد الصاد . قال المفسرون : والمعنى : أئنَّكَ لَمِن المُصَدِّقِين بالبعث ؟ وقرأ بكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة : « المُصَّدِّقِينَ » بتشديد الصاد .

---

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضُهم على بعض يتساءلون ، أي : عن أحوالهم ، وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا كانوا يعانون منها ، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السُّرُر والخدمُ بين أيديهم يَسْعَون ويجيؤون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . اهـ .

قوله تعالى : (أَئِنا لَمَدِينُونَ) أي : مَجْزِيُّون بأعمالنا ؛ يقال : دِنْتُهُ بما صنع ، أي : جازيته . فأَحبَّ المؤمنُ أن يَرى قرينَه الكافر ، فقال لأهل الجنَّة : (هل أنتم مُطَّلِعُونَ) أي : هل تحبُّون الاطِّلاع إلى النَّار لِتَعْلَمُوا أين منزلتُكم من منزلة أهلها ؟ وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، وأبو عمران ، وابن يعمر : « هل أنتم مُطْلِعُونَ » باسكان الطاء وتخفيفها (فأُطْلِعَ) بهمزة مرفوعة وسكون الطاء . وقرأ أبو رزين ، وابن أبي عبلة : « مُطلِعونِ » بكسر النون . قال ابن مسعود : اطَّلع ثم التفت إلى أصحابه فقال : لقد رأيتُ جماجم القوم تغلي ؛ قال ابن عباس : وذلك أن في الجنة كُوىً يَنظُر منها أهلُها إلى النار .

قوله تعالى : (فرآه) يعني قرينه الكافر (في سَواءِ الجحيم) أي : في وسَطها . وقيل : إنما سمي الوسَط سَواءً ، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب . قال خُليد العَصَري : والله لولا أنَّ الله عرَّفه إيَّاه ، ما عرفه ، لقد تغيَّر حِبْرُهُ وسِبْرُهُ[1] . فعند ذلك (قال تالله إنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ) قال المفسرون : معناه : والله ما كِدْتَ إلاّ تُهلِكني ؛ يقال : أرديتُ فلاناً ، أي : أهلكْته . (ولولا نِعْمةُ ربّي) أي : إنعامه عليَّ بالإسلام (لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ) معك في النّار .

قوله تعالى : (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إذا ذُبح الموت[2] ، قال أهل الجنة : « أَفَما نحن بِمَيِّتِينَ ،

---

(١) قال في « اللسان » : أي : لونه وهيئته .

(٢) روى البخاري في « صحيحه » : ٨/٣٢٥ ، ومسلم في « صحيحه » : ٤/٢١٨٨ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُجاءُ بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبّون (أي يرفعون رؤوسهم إلى المنادي) وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، قال : ويقال : يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبّون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، قال : ـــ

إلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولى » التي كانت في الدنيا (وما نحن بمعذَّبِين) ؟ فيقال لهم : لا ؛ فعند ذلك قالوا : (إنَّ هذا لَهُوَ الفَوْزُ العظيمُ) ، فيقول الله تعالى : (لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العامِلونَ) ، قاله ابن السائب . وقيل : يقول ذلك الملائكة .

والثاني : أنه قول المؤمن لأصحابه ، فقالوا له : إنك لا تموت ، فقال : « إنَّ هذا لَهُوَ الفَوْزُ العَظيمُ » ، قاله مقاتل . وقال أبو سليمان الدمشقي : إنما خاطب المؤمنُ أهلَ الجنة بهذا على طريق الفرح بدوام النَّعيم ، لا على طريق الاستفهام ، لأنه قد عَلِمَ أنَّهم ليسوا بميِّتين ، ولكن أعاد الكلام ليزداد بتكراره على سمعه سروراً .

والثالث : أنه قول المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ بما كان يُنكِره ، ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : (لِمثل هذا) يعني النعيم الذي ذَكَره في قوله : « أولئك لهم رزق معلوم » [الصافات : ٤١] (فَلْيَعْمَلِ العامِلُونَ) ، وهذا ترغيب في طلب ثواب الله عز وجل بطاعته [١] .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ

ـــ فيؤمَر به فيُذْبَح ، قال : ثم يقال : يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت ، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت ، قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضيَ الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) وأشار بيده إلى الدنيا ، واللفظ لمسلم .

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (لمثل هذا فليعمل العاملون) يقول تعالى ذِكره : لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة ، فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم .

رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ . وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾

(أَذَلِكَ خَيْرٌ) يشير إلى ما وصف لأهل الجنة (نُزُلاً) قال ابن قتيبة : أي : رزقاً ، ومنه : إقامةُ الأَنزال ، وأنزال الجنود : أرزاقها . وقال الزجاج : النُّزل هاهنا : الرَّيْع [1] والفضل ، يقال : هذا طعام له نُزْل ونُزُل ، بتسكين الزاي وضمها ؛ والمعنى : أذلك خير في باب الأَنزال التي يُتقوَّت ويمكن معها الإقامة ، أم نُزُل أهل النار ؟! وهو قوله : (أَمْ شجرةُ الزَّقُّومِ) ؟ [2]

واختلف العلماء هل هذه الشجرة في الدنيا ، أم لا ؟

فقال قطرب : هي شجرة مُرَّة تكون بأرض تهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : الزَّقُّوم : ثمرة شجرة كريهة الطَّعم . وقيل : إنها لا تُعرف في شجر الدنيا ، وإنما هي في النار ، يُكرَه أهلُ النار على تناولها .

قوله تعالى : (إنّا جعلْناها فتنة للظالمين) يعني للكافرين . وفي المراد بالفتنة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه لمّا ذكر أنها في النار ، افتُتنوا وكذَّبوا ، فقالوا : كيف يكون

---

(١) قال في « اللسان » : الرَّيع : النماء والزيادة .

(٢) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره : أهذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين الذين وصفت صفتهم من كرامتي في الجنة ، ورزقتهم فيها من النعيم ، خير ، أو ما أعددت لأهل النّار من الزقّوم ؟!

في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ؟ ! فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة [١] . وقال السدي : فتنة لأبي جهل وأصحابه .

والثاني : أن الفتنة بمعنى العذاب ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن الفتنة بمعنى الاختبار ، اختُبروا بها فكذَّبوا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (تَخرُجُ في أَصْلِ الجَحيمِ) أي : في قَعْر النَّار . قال الحسن : أَصلُها في قَعْر النّار ، وأغصانها ترتفع إلى دَرَكاتها . (طَلْعُها) أي : ثمرها ، وسُمِّي طَلْعاً ، لطلوعه (كَأَنَّهُ رُؤوسُ الشياطينِ) .

فان قيل : كيف شبَّهها بشيء لم يُشاهَد ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه قد استقرَّ في النفوس قُبح الشياطين ـ وإن لم نُشاهَد ـ فجاز تشبيهها بما قد عُلِمَ قُبحه ، قال امرؤ القيس :

أيَقْتُلُني والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي
ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأَنْياب أَغْوالِ [٢]

قال الزجاج : هو لم ير الغُول ولا أنيابها ، ولكن التمثيل بما يُستقبَح أبلغ في باب المذكَّر أن يُمثَّل بالشياطين ، وفي باب المؤنَّث أن يشبَّه بالغُول .

والثاني : أن بين مكة واليمن شجر يسمى : رؤوس الشياطين ، فشبَّهها بها ، قاله ابن السائب .

---

(١) روى ابن جرير الطبري عن قتادة قال : لمّا ذكر شجرة الزَّقّوم افتتن الظَّلَمة فقالوا : ينبئكم صاحبكم هذا أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر ؟ ! فأنزل الله ماتسمعون أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم غُذيَتْ بالنـار ومنها خلقت . وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/٢٧٧ ، وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

(٢) ديوانه : ٣٣ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١/٣٩ ، و « مجمع البيان » : ٢٣/٦٢ ، و « روح المعاني » : ٢٣/٨٧ ، و « اللسان » : غول .

والثالث : أنه أراد بالشياطين: حيّات لها رؤوس ولها أعراف ، فشبَّه طلعها برؤوس الحيّات ، ذكره الزجاج . قال الفراء : والعرب تسمّي بعض الحيّات شيطاناً ، وهو حيّة ذو عُرْف قبيحُ الوجه .

قوله تعالى : (فإنَّهم لآكلون منها) أي : من ثمرها (فمالئون منها البُطونَ) وذلك أنهم يُكرَهون على أكلها حتى تمتلىء بطونهم [١] .

(ثُمَّ إنَّ لهم عليها لَشَوْباً من حَميمٍ) قال ابن قتيبة : أي : خَلْطاً من الماء الحارّ يشربونه عليها . قال أبو عبيدة : تقول العرب : كلُّ شيء خلَطْتَه بغيره فهو مشوب . قال المفسرون : إذا أكلوا الزَّقّوم ثم شربوا عليه الحميم ، شابَ الحميمُ الزَّقّوم في بطونهم فصار شَوْباً له .

(ثُمَّ إنَّ مَرْجِعهم) أي: بعد أكل الزَّقّوم وشُرب الحميم (لَإلى الجحيم) وذلك أن الحميم خارج من الجحيم ، فهُم يورَدونه كما تورَد الإبلُ الماءَ ، ثم يُرَدُّون إلى الجحيم ؛ ويدُلُّ على هذا قولُه : (يَطُوفون بَيْنَها وبَيْنَ حَميمٍ آنٍ) [الرحمن : ٤٤] . و (أَلْفَوْا) بمعنى وَجَدوا . و (يُهْرَعُونَ) مشروح في (هود : ٧٨) ، والمعنى أنهم يتَّبِعون آباءَهم في سرعة [٢] . (ولقد ضَلَّ (قَبْلَهم) أي : قَبْلَ هؤلاء المشركين (أكثرُ الأوَّلِينَ) من الأُمم الخالية .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون) ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لاأبشع منها ، ولا أقبح من منظرها ، مع ماهي عليه من سوء الطعم والريح والطبع ، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم لايجدون إلا إياها وما هو في معناها ، كما قال تعالى : (ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لايسمن ولا يغني من جوع) . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (إنهم ألفوا آباءهم ضالّين) يقول : إن هؤلاء المشركين الذين إذا قيل لهم : قولوا : لا إله إلا الله يستكبرون ، وجدوا آباءهم ضلاّلاً عن قصد السبيل ، غير سالكين محجّة الحق (فهم على آثارهم يُهرعون) يقول : فهؤلاء يسرع بهم في طريقهم ليقتفوا آثارهم وسنَّتهم . اهـ .

قوله تعالى : (إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) يعني الموحِّدين ، فإنهم نجوا من العذاب قال ابن جرير : وإنما حَسُن الاستثناء ، لأنَّ المعنى : فانْظُرْ كيف أهلكْنا المُنْذَرِين إلاَّ عباد الله .

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾

(ولقد نادانا نوحٌ) أي : دعانا . وفي دعائه قولان . أحدهما : أنه دعا مستنصِراً على قومه . والثاني : أن[1] ينجيَه من الغرق (فلَنِعْمَ المُجِيبونَ) نحن ؛ والمعنى : إنّا أَنجيناه وأهلكنا قومه .

وفي (الكَرْب العظيم) قولان : أحدهما : [أنه] الغرق . والثاني : أذى قومه .

(وجعلْنا ذُرِّيَّتَه هُمُ الباقين) [وذلك] أن نسل [أهل] السفينة انقرضوا غير نسل ولده ، فالناس كلُّهم من ولد نوح[2] ، (وتَرَكْنا عليه) أي : تَرَكْنا عليه ذِكْراً جميلاً (في الآخِرِين) وهم الذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة . قال الزجاج : وذلك الذِّكْر الجميل قولُه : (سلامٌ على نوحٍ في العالَمِينَ) وهم الذين جاؤوا

(١) في الأصل : « أنه » .

(٢) قال ابن كثير : لمّا ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يبيِّن ذلك مفصَّلاً فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقيَ من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم ، ولهذا قال عز وجل : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) أي : فلنعم المجيبون له ، (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو التكذيب والأذى ، (وجعلنا ذريته هم الباقين) . اهـ .

من بعده ؛ والمعنى : تركنا عليه أن يُصلَّى عليه في الآخرين إلى يوم القيامة .
(إنّا كذلك نَجْزي المُحْسنين) قال مقاتل : جزاه اللهُ بإحسانه الثَّناءَ الحَسَنَ في العالَمين .

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ . فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ . فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ . فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ . مَالَكُمْ لاَتَنْطِقُونَ . فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ . فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ . قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَاتَنْحِتُونَ . وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ . قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ . وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (وإنَّ مِنْ شيعته لَإبراهيمَ) أي : مِنْ أهل دِينه ومِلَّته . والهاء في « شيعته » عائدة على نوح في قول الأكثرين ؛ وقال ابن السائب : تعود إلى محمد ﷺ ، واختاره الفراء [1] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى ذلك : وإن من شيعة محمد لَأبراهيم ، وقال : ذلك مثل قوله : (وآية لهم أنّا حملنا ذريّتهم) بمعنى أنا حملنا ذرية من هم منه ، فجعلها ذرية لهم وقد سبقتهم . اهـ .

وقال الآلوسي : (وإن من شيعته) أي : ممن شايع نوحاً وتابعه في أصول الدين (لَأبراهيم) وإن اختلفت فروع شريعتيهما ، أو ممن شايعه في التصلّب في دين الله تعالى ومصابرة المكذّبين ، قال : ونقل هذا عن ابن عباس . قال : وذهب الفراء إلى أن ضمير « شيعته » لنبينا محمد ﷺ ، قال : والظاهر ما أشرنا إليه ، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ، قال : وقلّما يقال للمتقدّم : هو شيعة للمتأخر . اهـ .

فإن قيل : كيف يكون من شيعته ، وهو قبله ؟

فالجواب : أنه مثل قوله : (حَمَلْنا ذُرِّيَّتهم) [يس : ٤١] ، فجعلها ذُرِّيَّتهم وقد سبقَتْهم ، وقد شرحنا هذا فيما مضى [يس : ٤١] .

قوله تعالى : (إذ جاءَ ربَّه) أي : صدَّق اللهَ وآمَنَ به (بقَلْبٍ سَليمٍ) من الشِّرك وكلِّ دَنَس ، وفيه أقوال ذكرناها في (الشعراء : ٨٩) .

قوله تعالى : (ماذا تعبُدونَ ؟) هذا استفهام توبيخ ، كأنه وبَّخهم على عبادة غير الله . (أإفكاً ؟ !) أي : أتأفِكون إفكاً وتعبُدون آلهةً سوى الله ؟ ! (فما ظنُّكم بربِّ العالَمينَ) إذا لقيتمُوه وقد عَبَدتُم غيره ؟ ! كأنه قال : فما ظنُّكم أن يصنع بكم ؟

(فنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجومِ) فيه قولان .

أحدهما : [أنه] نظر في عِلم النجوم ، وكان القومُ يتعاطَوْن عِلْم النُّجوم ، فعاملهم من حيث هم ، وأراهم أنِّي أعلمُ من ذلك ما تعلَمونَ ، لئلا يُنْكِروا عليه ذلك . قال ابن المسيّب : رأى نجماً طالعاً ، فقال : إنِّي مريض غداً .

والثاني : أنه نظر إلى النجوم ، لا في عِلْمها .

فإن قيل : فما كان مقصوده ؟

فالجواب أنه كان لهم عيد ، فأراد التخلُّفَ عنهم ليَكيدَ أصنامَهم ، فاعتَلَّ بهذا القول .

قوله تعالى : (إنِّي سقيم) من معاريض الكلام . ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن معناه : سأَسْقَمُ ، قاله الضحاك . قال ابن الأنباري : أعْلَمَه اللهُ عز وجل أنَّه يَمْتَحِنُهُ بالسقم إذا طلع نجمٌ يعرفه ، فلمّا رأى النَّجم ، عَلِم أنه سيَسْقُم .

والثاني : إنّي سقيم القلب عليكم إذ تكهّنتم بنجوم لا تضُرُّ ولا تَنْفَع ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : أنه سَقُمَ لِعِلَّةٍ عرضتْ له ، حكاه الماوردي . وذكر السديّ أنه خرج معهم إلى يوم عيدهم ، فلمّا كان ببعض الطريق ، ألقى نفسه وقال : إني سقيم أشتكي رِجلي [١] ، (فتولّوا عنه مُدْبِرِينَ ، فراغَ إلى آلهتهم) أي : مال إليها - وكانوا قد جعلوا بين يديها طعاماً لتبارك فيه على زعمهم - (فقال) إبراهيم استهزاءً بها (ألا تأكُلونَ ؟) .

وقوله : (ضَرْباً باليمين) في اليمين ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها اليد اليمنى ، قاله الضحاك [٢] .

---

(١) قال ابن كثير : إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فانه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختليَ بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى مايعتقدونه (فتولّوا عنه مدبرين) قال : قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم ، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال : (إني سقيم) أي : ضعيف ، قال ابن كثير : فأما الحديث الذي رواه ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات ، ثنتين في ذات الله تعالى ، قوله : (إني سقيم) وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله في سارة : « هي أختي » قال : فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يُذَمُّ فاعله ، حاشا وكلاّ ولمّا ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوّزاً ، وإنما هو من المعاريض لمقصد شرعي ديني ، كما جاء في الحديث : « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب » . اه .

(٢) قال ابن كثير : وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى ، ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ، كما تقدم في سورة (الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك . اه .
وقال الآلوسي : فراغ عليهم ضرباً باليمين ، أي : باليد اليمنى كما روي عن ابن عباس ، قال : وتقييد الضرب باليمين ، للدلالة على شدته وقوته ، لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما في الغالب ، قال : وقوة الآلة تقتضي شدة الفعل وقوّته . اه .

والثاني : بالقُوَّة والقُدرة ، قاله السدي ، والفراء .

والثالث : باليمين التي سبقت منه ، وهي قوله : « وتالله لأكيدَنَّ أصنامكم » [الأنبياء : ٥٧] ، حكاه الماوردي .

قال الزجاج : « ضَرْباً » مصدر ؛ والمعنى : فمال على الأصنام يضربها ضَرْباً باليمين ؛ وإنما قال : « عليهم » ، وهي أصنام ، لأنهم جعلوها بمنزلة مايُمَيِّز .

(فأقبَلُوا إليه يَزِفُّون) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : « يَزِفُّونَ » بفتح الياء وكسر الزاي وتشديد الفاء . وقرأ حمزة ، والمفضَّل عن عاصم : « يُزِفُّونَ » برفع الياء وكسر الزاي وتشديد الفاء . وقرأ ابن السّميفع ، وأبو المتوكل ، والضحاك : « يَزِفُونَ » بفتح الياء وكسر الزاي وتخفيف الفاء . وقرأ ابن أبي عبلة ، وأبو نهيك : « يَزْفُونَ » بفتح الياء وسكون الزاي وتخفيف الفاء (١) . قال الزجاج : أعربُ القراءات فتح الياء وتشديد الفاء ، وأصله من زفيف النَّعام ، وهو ابتداء عَدْوِ النَّعام ، يقال : زَفَّ النَّعامُ يَزِفُّ ؛ وأمَّا ضم الياء ، فمعناه : يصيرون إلى الزَّفيف ، وأنشدوا :

[تَمَنَّى حُصَيْنٌ أن يَسُودَ جِذاعَه]

فأضحى حُصَيْنٌ قد أذَلَّ وأقْهَرَا (٢)

أي : صار إلى القَهْر . وأمّا كَسْرُ الزّاي مع تخفيف الفاء ، فهو من : وَزَفَ يَزِفُ ، بمعنى أسْرَعَ يُسْرِع ، ولم يَعْرِفه الكسائي ولا الفراء ، وعَرَفه غيرهما .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القراءة في ذلك عندنا قراءة من قرأه بفتح الياء وتشديد الفاء ، لأن ذلك هو الصحيح المعروف من كلام العرب والذي عليه قراءة الفصحاء من القرّاء . اهـ .

(٢) البيت المُخَبَّل السَّعْدي كما في « الطبري » : ٧٤/٢٣ . و « اللسان » و « التاج » : قهر ، جذع ، وروي : قد أُذِلَّ وأُقْهِرَا ، مبنياً للمجهول .

قال المفسّرون : بلغهم ماصنع إبراهيم ، فأسرعوا ، فلمّا انتهَوْا إليه ، قال لهم محتجّاً عليهم:(أتَعبُدونَ ماتَنْحِتُونَ) بأيديكم(واللهُ خلقَكم وماتَعمَلونَ ؟!)، قال ابن جرير : في « ما » وجهان .

أحدهما : أن تكون بمعنى المصدر ، فيكون المعنى : واللهُ خلقَكم [وعَمَلَكم .

والثاني : أن تكون بمعنى « الذي » ، فيكون المعنى : واللهُ خلقَكم] وخلَقَ الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام [1] ؛ وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة [لله] .

فلمّا لزِمَتْهم الحُجَّة (قالوا ابنوا له بُنْياناً) وقد شرحنا قصته في سورة (الأنبياء : ٥٢ - ٧٤) ، وبيَّنّا معنى الجحيم في (البقرة : ١١٩) ، والكَيْدُ الذي أرادوا به : إحراقُه .

ومعنى قوله : (فجعلْنام الأسفَلينَ) أن إبراهيم علاهم بالحُجَّة حيث سلّمه اللهُ من كيدهم وحلَّ الهلاكُ بهم [2] .

(وقال) يعني إبراهيم (إنّي ذاهبٌ إلى ربّي) في هذا الذَّهاب قولان .

أحدهما : أنه ذاهب حقيقة ، وفي وقت قوله هذا قولان . أحدهما : أنه حين أراد هِجرة قومه ؛ فالمعنى : إنّي ذاهب إلى حيث أمرني ربّي عز وجل (سيَهدينِ) إلى حيث أمرني ، وهو الشام ، قاله الأكثرون . والثاني : حين أُلقي في النّار ، قاله سليمان بن صُرَد ؛ فعلى هذا ، في المعنى قولان . أحدهما : ذاهب إلى الله بالموت ،

---

(١) قال ابن كثير : والأول أظهر ، لما رواه البخاري في كتاب « أفعال العباد » عن علي بن المديني عن مروان بن معاوية عن أبي مالك عن ربعي بن حراش عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال : « إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته » . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : يقول الله : (فجعلناهم) أي : فجعلنا قوم إبراهيم (الأسفلين) يعني الأذلّين حجة ، وغلّبنا إبراهيم عليهم بالحجة ، وأنقذناه مما أرادوا به من الكيد . اهـ .

سيَهدينِ إلى الجنَّة . والثاني : [ذاهب] إلى ماقضى [به] ربي ، سيَهدين إلى الخلاص من النّار .

والقول الثاني : إنّي ذاهب إلى ربّي بقلبي وعملي ونيّتي ، قاله قتادة [١] .

فلما قدِم الأرض المقدَّسة ، سأل ربَّه الولدَ فقال : (ربِّ هَبْ لي من الصَّالحِينَ) أي : ولداً صالحاً من الصّالحِين ، فاجتزأ بما ذكر عمّا ترك ، ومثله : (وكانوا فيه من الزاهدين) [يوسف : ٢٠] ، فاستجاب له ، وهو قوله : (فبشَّرْناه بغُلامٍ حليمٍ) وفيه قولان . أحدهما : أنه إسحاق . والثاني : أنه إسماعيل . قال الزجاج . هذه البِشارة تَدُلُّ على أنه مبشَّر بابنٍ ذَكَر ، وأنه يبقى حتى ينتهيَ في السنّ ويوصَف بالحِلم .

﴿ فَلَمَّا بلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إنّي أرىٰ فِي المَنَامِ أنّي أذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرىٰ قَالَ يَاأبَتِ افْعَلْ مَاتُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أنْ يَاإبْرٰهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ . إنَّ هٰذَا لَهُوَ البَلٰؤُا المُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلامٌ عَلَى إبْرٰهِيمَ . كَذٰلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ . إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بِإسحٰقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إسحٰقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين) يقول : وقال إبراهيم لمّا أفلجه الله على قومه ونجّاه من كيدهم : (إني ذاهب إلى ربي) يقول : إني مهاجر من بلدة قومي إلى الله ، أي : إلى الأرض المقدسة ، ومفارقهم فمعتزلهم لعبادة الله . اهـ .

قولهتعالى : (فلمّا بَلَغَ معه السَّعي) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المراد بالسعي هاهنا : العمل ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه المشي ، والمعنى : مشى مع أبيه ، قاله قتادة . قال ابن قتيبة : بلغ أن يَنْصرفَ معه ويُعِينَه . قال ابن السائب : كان ابن ثلاث عشرة سنة .

والثالث . أن المراد بالسعي : العبادة ، قاله ابن زيد ؛ فعلى هذا ، يكون قد بلغ .

قولهتعالى : (إنّي أرى في المنام أنّي أذْبَحُكَ) أكثر العلماء على أنه لم ير أنه ذبحه في المنام ، وإنما المعنى أنه أُمِرَ في المنام بذبحه ، ويدُل عليه قوله : (افعل ماتُؤْمَر) . وذهب بعضهم إلى أنه رأى أنه يعالج ذبحه ، ولم يَرَ إراقة الدَّم . قال قتادة : ورؤيا الأنبياء حَقٌّ ، إذا رأَوا شيئاً ، فعلوه . وذكر السدي عن أشياخه أنه لمّا بشَّر جبريلُ سارة بالولد ، قال إبراهيم : هو إذاً لله ذبيح ، فلمّا فَرَغ من بُنيان البيت ، أُتي في المنام ، فقيل له : أَوْفِ بنَذْرِك [١] . واختلفوا في الذَّبيح على قولين .

أحدها : [أنه] إسحاق ، قاله عمر بن الخطاب ، وعليّ بن أبي طالب ، والعباس ابن عبد المطلب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعري ، وأبو هريرة ، وأنس ، وكعب الأحبار، ووهب بن منبّه ، [ومسروق] ، وعبيد بن عُمير ، والقاسم ابن أبي بَزّة، ومقاتل بن سليمان ، واختاره ابن جرير . وهؤلاء يقولون : كانت هذه القصة بالشام . وقيل : طويت له الأرضُ حتى حمله إلى المَنْحَر بِمِنىً في ساعة .

والثاني : أنه إسماعيل ، قاله ابن عمر ، وعبدالله بن سلام ، والحسن البصري ، وسعيد بن المسيّب ، والشعبي ، ومجاهد ، ويوسف بن مهران ، وأبو صالح ،

(١) ذكر ذلك البغوي في « تفسيره » بدون سند والله أعلم .

ومحمد بن كعب القرظي ، والربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن سابط [١] . واختلفت الراوية عن ابن عباس ، فروى عنه عكرمة أنه إسحاق ، وروى عنه عطاء ، ومجاهد ، والشعبي ، وأبو الجوزاء ، ويوسف بن مهران أنه إسماعيل ، وروى عنه سعيد بن جبير كالقولين . وعن سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والزهري ، وقتادة ، والسدي روايتان . وكذلك عن أحمد رضي الله عنه روايتان . ولكلٍّ قومٍ حجَّة ليس هذا موضعها ، وأصحابنا ينصُرون القول الأول [٢] .

الإشارة إلى قصة الذَّبْح

ذكر أهل العِلْم بالسِّيَر والتفسير أن إبراهيم لمَّا أراد ذبح ولده ، قال له : انطلِق فنُقرِّب قرباناً إلى الله عز وجل ، فأخذ سكِّيناً وحَبْلاً ، ثم انطلق ، حتى إذا ذهبا بين الجبال ، قال له الغلام : يا أبتِ أين قُربانُك ؟ قال : يا بُني إنِّي رأيتُ في المنام أني أذبحُك ، فقال له : اشْدُد رِباطي حتى لا أضطرب ، واكْفُف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليك من دمي فتراه أُمِّي فتحزن ، وأسْرِع مَرَّ السِّكِّين على حَلْقِي ليكون أهون الموت عليَّ ، فاذا أتيتَ أُمِّي فاقرأ عليها السلام منِّي ؛ فأقبل عليه إبراهيم يقبّله ويبكي ويقول : نِعْمَ العونُ أنت يابُنيَّ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته في « تقريب التهذيب » : عبد الرحمن بن سابط ، ويقال : ابن عبد الله بن سابط ، وهو الصحيح . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : قال الله تعالى : (فبشرناه بغلام حليم) وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فانه أول ولد بُشِّر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، قال : بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام وُلِد ولإبراهيمَ عليه السلام ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعُمْر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة ، —

. . . .

ـــ قال : وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفي نسخة أخرى : « بِكْرَه » قال : فأقحموا هاهنا كذباً وبهتاناً إسحاق ، قال : ولا يجوز هذا ، لأنه مخالف لنص كتابهم ، قال : وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب ، فحسدوهم فزادوا ذلك ، وحرّفوا « وحيدك » بمعنى « الذي ليس عندك غيره » ، - فان إسماعيل كان ذُهِب به وبأمّه إلى مكة - ، وهو تأويل وتحريف باطل ، فانه لايقال : وحيدك إلا لمن ليس له غيره ، قال : وأيضاً فان أول ولد ، له معزّة ماليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار ، قال : وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكي ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً . ثم قال : وليس ذلك في كتاب ولا سنّة ، وما أظنّ ذلك تُلُقّي إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وأُخذ ذلك مُسَلّماً من غير حجة ، قال : وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فانه ذكر البشارة بغلام حليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) وقال : ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : (إنا نبشرك بغلام عليم) . وقال ابن كثير في قوله تعالى عن امرأة إبراهيم عليه السلام : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) من سورة (هود : ٧١) أي : يولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ، فان يعقوب ولد إسحاق ، قال : ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ، لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، قال : فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعدُ يعقوبُ الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لاخلف فيه ؟ ! قال : فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، قال : فتعين أن يكون هو إسماعيل ، قال : وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه ، ولله الحمد . اهـ .

وقد قال الحافظ ابن قيم الجوزية في « الهدي النبوي » : إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وأما القول بأنه إسحاق ، فمردود بأكثر من عشرين وجهاً ، ونقل عن شيخه شيخ الاسلام ابن تيمية أن هذا القول متلقىً من أهل الكتاب مع أنه باطل في كتابهم ، فان فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بِكْرَه ، وفي لفظ : « وحيده » وقد حرّفوا ذلك في التوراة التي بأيديهم . اهـ .

على أمر الله عز وجل، ثم [إنه] أمَرَّ السِّكِّين على حَلْقه فلم يَحُكْ شيئاً [(١)] .
وقال مجاهد : لمَّا أمَرَّها على حَلْقه انقلبتْ ، فقال : مالكَ ؟ قال : انقلبتْ ، قال : اطْعَنْ بها طَعْناً . وقال السدي : ضرب اللهُ على حَلْقِهِ صفيحة من نُحاس ؛ وهذا لا يُحتاج إليه ، بل منعُها بالقُدرة أَبلَغ . قالوا : فلمَّا طَعَنَ بها ، نَبَتْ ، وعَلِم اللهُ منهما الصِّدق في التسليم ، فنودي : يا إبراهيمُ قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا ، هذا فداء ابنك ؛ فنظر إبراهيم ، فاذا جبريل معه كبش أملح .

قوله تعالى : (فانْظُرْ ماذا تَرَى) لَمْ يَقُل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله عز وجل ، ولكن أراد أن يَنْظُر ما عنده من الرَّأي . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « ماذا تُرِي » بضم التاء وكسر الراء ؛ وفيهما قولان . أحدهما : ماذا تُريني من صبرك أو جزَعك ، قاله الفراء . والثاني : ماذا تُبين ، قاله الزجاج . وقال غيره : ماذا تُشير .

قوله تعالى : (افْعَلْ ما تُؤمَر) قال ابن عباس : افْعَلْ ما أُوحي إليك من ذبحي (سَتَجِدُني إن شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) على البلاء .

قوله تعالى : (فلمَّا أسْلَما) أي : استسلما لأمر الله عز وجل فأطاعا ورضيا .
وقرأ عليّ ، وابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : « فلمَّا سَلَّما » بتشديد اللام من غير همز قبل السين ؛ والمعنى : سَلَّما لأمر الله عز وجل .

وفي جواب قوله : « فلمَّا أسلَما » قولان .

أحدهما : أن جوابه : « وناديناه » ، والواو زائدة ، قاله الفراء .

والثاني : أن الجواب محذوف لأن في الكلام دليلاً عليه ؛ والمعنى : فلمَّا فعل ذلك ، سَعِدَ وأُجْزِلَ ثوابُه ، قاله الزجاج .

---

(١) ذكر نحو هذا المعنى البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وتَلَّهُ للجَبِين) قال ابن قتيبة : أي : صَرَعه على جبينه فصار أحد جبينيه على الأرض ، وهما جبينان ، والجبهة بينهما ، وهي ما أصاب الأرضَ في السجود ، والناس لا يكادون يفرِّقون بين الجبين والجبهة ، فالجبهة مسجد الرجل الذي يصيبه نَدَبُ السُّجود ، والجبينان يكتنفانها ، من كل جانب جبين .

قوله تعالى : (وناديناه) قال المفسرون : نودي من الجبل : (ياإبراهيم قد صدَّقتَ الرُّؤيا) وفيه قولان .

أحدهما : قد عَمِلْتَ ما أُمِرْتَ ، وذلك أنه قصد الذَّبح بما أمكنه ، وطاوعه الابن بالتمكين من الذَّبح ، إلاّ أن الله عز وجل صرف ذلك كما شاء ، فصار كأنه قد ذَبَح وإن لم يتحقَّق الذَّبح .

والثاني : أنه رأى في المنام معالجة الذَّبح ، ولم ير إراقة الدَّم ، فلمّا فَعَلَ في اليقظة ما رأى في المنام ، قيل له : « قد صدَّقْتَ الرُّؤيا » .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران ، والجحدري : « قد صَدَقْتَ الرُّؤيا » بتخفيف الدال ، وهاهنا تم الكلام . ثم قال تعالى : (إنّا كذلك) أي : كما ذَكَرْنا من العفو من ذبح ولده (نَجْزِي المُحْسِنِينَ) [1] .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (إنا كذلك نجزي المحسنين) أي : هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ، كقوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً) قال : وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكّن من الفعل ، خلافاً لطائفة من المعتزلة ، قال : والدلالة من هذه ظاهرة ، لأن الله تعالى شرع لابراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، قال : وإنما كان المقصود من شرعه أولاً ، إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ، قال : ولهذا قال تعالى : (إن هذا لهو البلاء المبين) أي : الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده ، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى ، منقاداً لطاعته ، قال : ولهذا قال الله تعالى : (وإبراهيم الذي وفّى) . اه .

(إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المُبِينُ) في ذلك قولان . أحدهما : النّعمة البيّنة ، قاله ابن السائب ، ومقاتل . والثاني : الاختبار العظيم ، قاله ابن زيد ، وابن قتيبة . فعلى الأول ، يكون قوله هذا إشارة إلى العفو عن الذَّبح . وعلى الثاني ، يكون إشارة إلى امتحانه بذبح ولده .

قوله تعالى : (وفَدَيْناه) يعني : الذَّبيح (بِذِبْحٍ) وهو بكسر الذال : اسم ما ذُبِحَ ، وبفتح الذال : مصدر ذَبَحْتُ ، قاله ابن قتيبة . ومعنى الآية : خلَّصْناه من الذَّبح بأن جعلنا الذِّبح فداءً له . وفي هذا الذِّبح ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان كبشاً أقرن قد رعى في الجنة قبل ذلك أربعين عاماً ، قاله ابن عباس في رواية مجاهد ، وقال في رواية سعيد بن جبير : هو الكبش الذي قرَّبه ابنُ آدم فتُقُبِّل منه ، كان في الجنة حتى فُدي به .

والثاني : أن إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أعينين أقرنين ، رواه أبو الطفيل عن ابن عباس [1] .

والثالث : [أنه] ما فُدي إلاّ بتيس من الأَرْوَى [2] ، أُهبط عليه من ثَبِير ، قاله الحسن [3] .

وفي معنى (عظيم) أربعة أقوال .

أحدها : لأنه كان قد رعى في الجنة ، قاله ابن عباس ، وابن جبير .

---

(١) الذي في الطبري وابن كثير من رواية أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه قال : كبش أبيض أقرن أعين .

(٢) الأروى : الوعول .

(٣) قال ابن كثير في « التاريخ » بعد أن ذكر نحواً من هذا : ثم غالب ماهاهنا من الآثار مأخوذ من الاسرائيليات ، وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر ، وأنه فدي بذبح عظيم ، قال : وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً . اه . وقال في التفسير : والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه يفدى بكبش . اه . و « ثبير » : جبل بمكة .

والثاني : لأنه ذُبح على دِين إبراهيم وسُنَّته ، قاله الحسن .

والثالث : لأنه مُتَقَبَّلٌ ، قاله مجاهد . وقال أبو سليمان الدمشقي : لمّا قرّبَه ابنُ آدم ، رُفِع حيّاً ، فرعى في الجنة ، ثم جُعل فداء الذّبيح ، فقُبِل مرتين .

والرابع : لأنّه عظيم الشّخص والبَرَكة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وتَرَكْنا عليه) قد فسرناه في هذه السورة [الصافات : ٧٨] .

قوله تعالى : (وبشّرْناه باسحاق) من قال : إن إسحاق الذّبيحُ ، قال : بُشّر إبراهيم بنبوّة إسحاق ، وأُثيب إسحاق بصبره النبوّةَ ، وهذا قول ابن عباس في رواية عكرمة ، وبه قال قتادة ، والسدي (١) . ومن قال : الذّبيح إسماعيل ، قال : بشّر اللهُ إبراهيم بولد يكون نبيّاً بعد هذه القصة ، جزاءً لطاعته وصبره ، وهذا قول سعيد ابن المسيب .

قوله تعالى : (وباركْنا عليه وعلى إسحاق) يعني بكثرة ذُرِّيَّتهما ، وهم الأسباط كلّهم (ومِنْ ذُرِّيَّتهما مُحْسِنٌ) أي : مطيع لله (وظالمٌ) وهو العاصي له . وقيل : المُحْسِنُ : المؤمِن ، والظالم : الكافر .

---

(١) قال ابن كثير في « التاريخ » : وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، قال : وإنما أخذوه ـ والله أعلم ـ من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب ، قال : وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ، قال : ولايُفهم هذا القرآنُ ، بل المفهوم ، بل المنطوق ، بل النص عند التأمّل على أنه إسماعيل ، قال : وما أحسن مااستدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس باسحاق من قوله تعالى : (فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) قال : فكيف البشارة باسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له ؟ ! هذا لايكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة ، والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَٰرُونَ . وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ . وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَٰرُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ . أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد مَنَنّا على موسى وهارون) أي : أنعمنا عليهما بالنبوّة .

وفي (الكَرْبِ العظيم) قولان . أحدهما : استعباد فرعون وبلاؤه ، وهو معنى قول قتادة . والثاني : الغرق ، قاله السدي .

قوله تعالى : (ونَصَرْناهم) فيه قولان . أحدهما : [أنه] يرجع إلى موسى وهارون وقومهما . والثاني : [أنه] يرجع إليهما فقط ، فجُمعا ، لأن العرب تذهب بالرئيس إلى الجمع ، لجنوده وأتباعه ، ذكرهما ابن جرير . وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الأنبياء : ٤٨] إلى قوله : (وإنّ إلياس لَمِنَ المُرْسَلِينَ) فيه قولان .

أحدهما : أنه نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه إدريس ، قاله ابن مسعود ، وقتادة ، وكذلك كان يقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، وأبو عثمان النهدي : « وإن إدريس » مكان « إلياس » .

قوله تعالى : (إذ قال لقومه ألا تتَّقون) أي : ألا تخافون الله فتوحِّدونه وتعبدونه ؟! (أتَدْعونَ بَعْلاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه بمعنى الرَّبّ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة . وقال الضحاك : كان ابن عباس قد أعياه هذا الحرف ، فبينا هو جالس ، إذ مرّ أعرابيّ قد ضلَّت ناقتُه وهو يقول : من وجد ناقة أنا بعلُها ؟ فتبعه الصّبيان يصيحون به : يازوج النّاقة ، يازوج النّاقة ، فدعاه ابن عباس فقال : ويحك ، ماعنيتَ ببعلها ؟ قال : أنا ربُّها ، فقال ابن عباس : صدق الله « أتَدْعون بَعْلاً » : ربّاً . وقال قتادة : هذه لغة يمانية .

والثاني : أنه اسم صنم كان لهم ، قاله الضحاك ، وابن زيد . وحكى ابن جرير أنه به سُمّيت « بعلبكّ » .

والثالث : أنها امرأة كانوا يعبدونها ، حكاه محمد بن إسحاق [١] .

قوله تعالى : (اللهَ ربَّكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « اللهُ ربُّكم » بالرفع . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف ، ويعقوب : « اللهَ » بالنصب .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (لمن المرسلين) يقول جل ثناؤه : لمرسل من المرسلين (إذ قال لقومه ألا تتقون) ؟ يقول حين قال لقومه من بني إسرائيل : ألا تتقون الله أيها القوم فتخافونه وتحذرون عقوبته على عبادتكم ربّاً غير الله وإلهاً سواه (وتذرون أحسن الخالقين ؟ !) يقول : وتدَعون عبادة أحسن من قيل له خالق ؟ ! ثم قال ابن جرير : وللبعل في كلام العرب أوجه ، يقولون لرب الشيء : هو بَعْله ، يقال : هذا بعل هذه الدار ، يعني ربّها ، ويقولون لزوج المرأة : بعلها ، ويقولون لما كان من الغروس والزروع مستغنياً بماء السماء ولم يكن سقيّاً : بعل . اهـ . وقال ابن كثير : وقوله : (أتدْعون بعلاً) أي : أتعبدون صنماً (وتذرون أحسن الخالقين ، اللهَ ربكم ورب آبائكم الأولين ؟ !) أي : هو المستحق للعبادة وحده لاشريك له .

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبوه فإنَّهم لمُحضَرونَ ﴾ النارَ ، ﴿ إلاّ عبادَ الله المُخْلَصِينَ ﴾ الذين لم يكذِّبوه ، فإنهم لا يُحْضَرونَ النّار .

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل العلم بالتفسير والسِّيَر أنه لمّا كَثُرت الأحداث بعد قبض حزقيل النبيّ عليه السلام ، وعُبِدت الأوثانُ ، بَعَثَ اللهُ تعالى إليهم إلياس . قال ابن إسحاق : وهو إلياس بن تشبي بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران ، فجعل يدعوهم فلا يسمعون منه ، فدعا عليهم بحبس المطر ، فجُهِدوا جَهداً شديداً ، واستخفى إلياس خوفاً منهم على نفسه . ثم إنه قال لهم يوماً : إنكم قد هَلَكْتُم جَهْداً ، وهَلَكَت البهائمُ والشجر بخطاياكم ، فاخرُجوا بأصنامكم وادْعُوها ، فان استجابت لكم ، فالأمر كما تقولون ، وإن لم تفعل ، علِمتم أنكم على باطل فنَزَعتُم عنه ، ودعوتُ اللهَ ففرَّج عنكم ، فقالوا : أنصفتَ ، فخرجوا بأصنامهم وأوثانهم ، فدعَوْا فلم يُستجب لهم ، فعرفوا ضلالهم ، فقالوا : ادْعُ اللهَ لنا ، فدعا لهم ، فأرسل المطر وعاشت بلادهم ، فلم ينْزِعوا عمّا كانوا عليه ، فدعا إلياس ربَّه أن يَقْبِضه إليه ويُريحَه منهم ، فقيل له : اخرُج يومَ كذا إلى مكان كذا ، فما جاءك من شيء فاركَبْه ولا تَهَبْهُ ، فخرج ، فأقبل فَرَسٌ من نار ، فوثب عليه ، فانطلق به ، وكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذَّة المَطْعَم والمَشْرَب ، فطار في الملائكة ، فكان إنسيّاً مَلَكيّاً ، أرضيّاً سماويّاً [1] .

---

(١) ذكر نحو هذا المعنى مطولاً الطبري في « تفسيره » من رواية ابن إسحاق عن وهب ابن منبه وغيره ، وذكر نحوه ابن كثير في « التفسير » و « التاريخ » وقال في « التفسير » : هكذا ـــ

قوله تعالى : (سلامٌ على إلياسينَ) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « إلياسينَ » موصولة مكسورة الألف ساكنة اللام ، فجعلوها كلمة واحدة ؛ وقرأ الحسن مثلهم ، إلاّ أنه فتح الهمزة . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعبد الوارث ، ويعقوب إلاّ زيداً : « إلْ ياسينَ » مقطوعة ، فجعلوها كلمتين .

وفي قراءة الوصل قولان .

أحدهما : أنه جَمْعٌ لهذا النبيّ وأُمّته المؤمنين به ، وكذلك يُجمع ما يُنْسَب إلى الشيء بلفظ الشيء ، فتقول : رأيت المهالبة ، تريد : بني المهلَّب ، والمسامعة ، تريد : بني مسمع .

والثاني : أنه اسم النبيّ وحده ، وهو اسمٌ عبرانيٌّ ، والعجمي من الأسماء قد يُفْعَل به هكذا ، [كما] تقول : ميكال وميكائيل ، ذكر القولين الفراء والزجاج .

فأمّا قراءة من قرأ : « إلْ ياسينَ » مفصولة ، ففيها قولان .

أحدهما : أنهم آل هذا النبي المذكور ، وهو يدخل فيهم ، كقوله عليه السلام : « اللهم صلِّ على آل أبي أوفى » (١) ، فهو داخل فيهم ، لأنه هو المراد بالدعاء .

ـــ حكاه وهب بن منبه عن أهل الكتاب ، والله أعلم بصحته . وقال في « التاريخ » : في هذا نظر ، وهو من الاسرائيليات التي لاتصدَّق ولا تكذَّب ، بل الظاهر أن صحتها بعيدة ، والله أعلم . اهـ .

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ٣/٢٨٦ باب صلاة الامام ودعائه لصاحب الصدقة ، وهو في البخاري أيضاً : ١١/١٤٥ باب هل يصلّى على غير النبي ﷺ ، ورواه مسلم : ٢/٧٥٧ ولفظه بتمامه عن عمرو بن مرّة عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صلّ على آل أبي أوفى » . ـــ

. . . .

— قال الحافظ بن حجر في « الفتح » : ٣/٢٨٦ : قوله « على آل أبي أوفى » يريد أبا أوفى نفسه ، لأن الآل يطلق على ذات الشيء ، كقوله (ﷺ) في قصة أبي موسى (الأشعري) « لقد أوتيَ مزماراً من مزامير آل داود » قال : واسم أبي أوفى : علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمي ، شهد هو وابنه عبد الله بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وعمّر عبد الله إلى أن كان آخر من مات من الصحابة بالكوفة ، وذلك سنة سبع وثمانين (هجرية) . قال ابن حجر : واستدل به (أي الحديث) على جواز الصلاة على غير الأنبياء ، قال : وكرهه مالك والجمهور ، قال : قال ابن التين : وهذا الحديث يعكّر عليه ، قال : وقد قال جماعة من العلماء : يدعو آخذ الصدقة للمتصدّق بهذا الدعاء ، لهذا الحديث ، قال : وأجاب الخطابي عنه قديماً بأن أصل الصلاة : الدعاء ، إلا أنه يختلف بحسب المدعوّ له ، فصلاة النبي ﷺ على أمته : دعاء لهم بالمغفرة ، وصلاة أمته عليه : دعاء له بزيادة القربى والزلفى ، ولذلك كان لا يليق بغيره انتهى. قال : واستدل به على استحباب دعاء آخذ الزكاة لمعطيها ، قال : وأوجبه بعض أهل الظاهر ، وحكاه الحناطي وجهاً لبعض الشافعية ، وتُعقّب بأنه لو كان واجباً لعلّمه النبي ﷺ السعاةَ ، ولأن سائر مايأخذه الامام من الكفارات والديون وغيرها لايجب عليه فيها الدعاء ، فكذلك الزكاة ، قال : وأما الآية (يريد قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ») فيحتمل أن يكون الوجوب خاصاً به (ﷺ) لكون صلاته سكناً لهم ، بخلاف غيره . اهـ .

هذا وقد اختلف العلماء في الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً ، فقال الامام النووي في « شرح مسلم » ٧/١٨٥ : قال أصحابنا : لا يصلّى على غير الانبياء إلا تبعاً ، لان الصلاة في لسان السلف مخصوصة بالأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، قال : واختلف أصحابنا في النهي عن ذلك هل هو نهي تنزيه ، أم محرّم ، أو مجرد أدب ؟ على ثلاثة أوجه ، الأصح الأشهر أنه مكروه ، قال : واتفقوا على أنه يجوز أن يجعل غير الأنبياء تبعاً لهم في ذلك ، فيقال : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريّته وأتباعه » لان السلف لم يمنعوا منه ، وقد أمرنا به في التشهد وغيره . اهـ .

وقال ابن حجر في « الفتح » : ١١/١٤٦ ، في حكم الصلاة على الأنبياء من المؤمنين : —

والثاني : أنهم آل محمد ﷺ ، قاله الكلبي . وكان عبد الله بن مسعود يقرأ : « سلامٌ على إدْراسِينَ » وقد بيَّنّا مذهبه في أن إلياس هو إدريس .

فإن قيل : كيف قال : « إدراسين » وإنما الواحد إدريس ، والمجموع إدريسيٌّ ، لا إدراسٌ ولا إدراسيٌّ ؟

فالجواب : أنه يجوز أن يكون لغة ، كابراهيم وإبراهام ، ومثله :

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِي (١)

وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو نهيك : « سلام على ياسين » بحذف الهمزة واللام (٢) .

— اختلف فيه ، فقيل : لا تجوز إلا على النبي ﷺ خاصة ، وحكي عن مالك ، قال : وقالت طائفة : لا تجوز مطلقاً استقلالاً ، وتجوز تبعاً فيما ورد فيه النص أو ألحق به ، لقوله تعالى : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) قال : ولأنه لما علَّمهم السلام قال : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ولما علَّمهم الصلاة قصر ذلك عليه وعلى أهل بيته . قال : وهذا القول اختاره القرطبي في « المفهم » وأبو المعالي من الحنابلة ، قال : وقالت طائفة : تجوز تبعاً مطلقاً ، ولا تجوز استقلالاً ، قال : وهذا قول أبي حنيفة وجماعة ، قال : وقالت طائفة : تكره استقلالاً لا تبعاً ، قال : وهي رواية عن أحمد ، قال : وقال النووي : هو خلاف الأولى ، قال : وقالت طائفة : تجوز مطلقاً ، قال : وهو مقتضى صنيع البخاري ، فانه صدَّر بالآية ، وهي قوله تعالى : (وصلِّ عليهم) ، ثم علَّق الحديث الدال على الجواز مطلقاً ، وعقَّبه بالحديث الدَّال على الجواز تبعاً ، ثم قال الحافظ ابن حجر : وقال ابن القيم : المختار أن يصلَّى على الأنبياء والملائكة وأزواج النبي ﷺ وآله وذرِّيَّته وأهل الطاعة على سبيل الاجمال ، وتكره في غير الأنبياء لشخص مفرد بحيث يصير شعاراً ، ولا سيما إذا ترك في حق مثله أو أفضل منه ، كما يفعله الرافضة ، فلو اتفق وقوع ذلك مفرداً في بعض الأحايين من غير أن يتخذ شعاراً ، لم يكن به بأس ، ولهذا لم يرد في حق غير مَن أمر النبيُّ ﷺ بقول ذلك لهم وهم من أدَّى زكاته إلا نادراً . اهـ .

(١) الرجز لحميد الأرقط كما في « الصحاح » و « اللسان » : قدد ، و « القرطبي » : ١١٨/١٥ .

(٢) قال الطبري : والصواب من القراءة في ذلك عندنا قراءة من قرأه (سلام على إلياسين) —

﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ . وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إذ نجّيناه) « إذ » هاهنا لا يتعلق بما قبله ، لأنه لم يُرسَل إذ نُجّيَ ، ولكنه يتعلق بمحذوف ، تقديره : واذكُر يا محمد إذ نجّيناه[1]. وقد تقدم تفسير ما بعد هذا [الشعراء:١٧١] إلى قوله : (وإنكم لتمرُّونَ عليهم مُصبِحينَ) هذا خطاب لأهل مكة ، كانوا إذا ذهبوا إلى الشام وجاؤوا ، مرُّوا على قرى قوم لوط صباحاً ومساءً ، (أفلا تعقلون) فتعتبرون ؟!

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ . فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

ـــ بكسر ألفها ، على مثال « إدراسين » ، لأن الله تعالى ذكره إنما أخبر عن كل موضع ذكر فيه نبيّاً من أنبيائه صلوات الله عليهم في هذه السورة ، بأن عليه سلاماً ، لا على آله ، فكذلك السلام في هذا الموضع ، ينبغي أن يكون على إلياس ، كسلامه على غيره من أنبيائه ، لا على آله على نحو ما بينا من معنى ذلك ، ثم قال : فان ظن ظان أن إلياسين غير إلياس ، فان فيما حكينا من احتجاج من احتج بأن إلياسين هو إلياس غنيّ عن الزيادة فيه . اهـ .

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه الى قومه فكذّبوه ، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فانها هلكت مع من هلك من قومها ، فان الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلّتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم يمرُّ بها المسافرون ليلاً ونهاراً ، ولهذا قال تعالى : (إنكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ؟!) أي : أفلا تعتبرون بهم كيف دمّر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها ؟!

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ . وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾

قوله تعالى : (إذ أَبَقَ) [1] قال المبرّد : تأويل « أَبَقَ » : تباعد ؛ وقال أبو عبيدة : فَزِعَ ؛ وقال الزجّاج : هرب ؛ وقال بعض أهل المعاني : خرج ولم يُؤذَن له ، فكان بذلك كالهارب من مولاه . قال الزجاج : والفُلْك : السفينة ، والمشحون : المملوء ، وساهم بمعنى [قارع] ، (من المُدْحَضِينَ) أي : المغلوبين ؛ قال ابن قتيبة : يقال : أدْحَضَ اللهُ حُجَّتَهُ ، فَدَحَضَتْ ، أي : أزالها [فزالت] ، وأصل الدَّحْض : الزَّلَق .

الإشارة إلى قصته

قد شرحنا بعض قصته في آخر (يونس) وفي (الأنبياء : ٨٦) على قدر ما تحتمله الآيات ، ونحن نذكر هاهنا ما تحتمله . قال عبد الله بن مسعود : لمّا وعد يونسُ قومَه بالعذاب بعد ثلاث ، جأروا إلى الله عز وجل واستغفروا ، فكفّ عنهم العذاب ، فانطلق مغاضباً حتى انتهى إلى قوم في سفينة ، فعرفوه فحملوه ، فلمّا رَكِبَ السفينةَ وقَفَتْ ، فقال : مالسفينتكم ؟ قالوا : لاندري ، قال : لكنّي أدري ، فيها عبد آبق من ربّه ، وإنها والله لا تسير حتى تُلْقُوه ، فقالوا : أمّا أنت يا نبيّ الله فوالله لا نُلْقِيك ، قال : فاقترِعوا ، فمن قرع فَلْيَقَع ، فاقترَعوا ، فقرع يونس ، فأبَوا أن يُمكّنوه من الوُقوع ، فعادوا إلى القُرعة حتى قرع يونس ثلاث مرات . وقال طاووس: إن صاحب السفينة هو الذي قال: إنّما يمنعُها أن تسير

(١) قال ابن جرير الطبري : وان يونس لمرسل من المرسلين إلى أقوامهم إذ أبق إلى الفلك المشحون . اهـ .

أنَّ فيكم رجلاً مشؤوماً ، فاقترِعوا لنُلقيَ أحدنا ، فاقترعوا ، فقرع يونس ثلاث مرات .

قال المفسرون : ... ل اللهُ به حوتاً ، فلمّا ألقى نفسه في الماء التقمه ، وأُمر أن لا يضُرَّه ولا يكلِمَه ، وسارت السفينة حينئذ . ومعنى التقمه : ابتلعه .

(وهو مُليمٌ) قال ابن قتيبة : أي : مُذنِبٌ ، يقال : ألامَ الرجلُ : إذا أتى ذَنْباً يُلامُ عليه ، قال الشاعر :

[تَعُدُّ مَعاذِراً لا عُذْرَ فيها] ومَنْ يَخْذُلْ أخاهُ فَقَدْ ألاَما[1]

قوله تعالى : (فلولا أنّه كان مِنَ المُسَبِّحِينَ) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : مِنَ المُصَلِّين ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير . والثاني : من العابدِين ، قاله مجاهد ، ووهب بن منبه . والثالث : قول (لا إله إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ)[الأنبياء : ٨٧] ، قاله الحسن . وروى عمران القطّان عن الحسن قال : والله ما كانت إلاّ صلاة أحدثها في بطن الحوت ؛ فعلى هذا القول ، يكون تسبيحُه في بطن الحوت . وجمهور العلماء على أنه أراد : لولا ما تقدَّم له قبل التقام الحوت إيّاه من التسبيح ، (لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) قال قتادة : لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة ، ولكنه كان كثير الصلاة في الرَّخاء ، فنجّاه اللهُ تعالى بذلك[2] .

---

(١) البيت لأم عمير بن سلمى الحنفي ، وهو في « غريب القرآن » : ٤٢٢ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : لوم .

(٢) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره : (فلولا أنه) يعني يونس (كان) من المصلّين لله قبل البلاء الذي ابتُلِيَ به من العقوبة بالحبس في بطن الحوت (للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) يقول : لبقي في بطنه إلى يوم القيامة يوم يبعث الله فيه خلقه محبوساً ، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء ، فذكَره الله في حال البلاء فأنقذه ونجّاه . اهـ .

وفي قَدْر مكثه في بطن الحوت خمسة أقوال . أحدها : أربعون يوماً ، قاله أنس بن مالك ، وكعب ، وأبو مالك ، وابن جريج ، والسدي . والثاني : سبعة أيام ، قاله سعيد بن جبير ، وعطاء . والثالث : ثلاثة أيام ، قاله مجاهد ، وقتادة . والرابع : عشرون يوماً ، قاله الضحاك . والخامس : بعض يوم ، التقمه ضحىً ، ونبذه قبل غروب الشمس ، قاله الشعبي (١) .

قوله تعالى : (فَنَبَذْنَاهُ) قال ابن قتيبة : أي : أَلْقَيْنَاه (بالعراء) وهي الأَرضُ التي لا يُتَوارَى فيها بشجر ولا غيره ، وكأنَّه مِنْ عَرِيَ الشَّيْءُ .

قوله تعالى : (وَهُوَ سَقِيمٌ) أي : مريض ؛ قال ابن مسعود : كهيأة الفرخ الممعوط الذي ليس له ريش . وقال سعيد بن جبير : أوحى الله تعالى إلى الحوت أن أَلْقِه في البَرّ ، فألقاه لا شَعْر عليه ولا جِلْد ولا ظُفر .

قوله تعالى : (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) قال ابن عباس : هو القرع ، وقد قال أميَّة بن أبي الصلت قبل الإسلام :

فأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لَوْلا اللهُ أُلْفِيَ ضَاحِيا (٢)

قال الزجاج : كل شجرة لا تنبت على ساق وإنما تمتدّ على وجه الأرض نحو القرع والبطيخ والحنظل ، فهي يقطين ، واشتقاقه من : قَطَنَ بالمكان : إذا أقام ، فهذا الشجر ورقه كلّه على وجه الأرض ، فلذلك قيل له : يقطين . قال ابن مسعود : كان يستظلّ بها ويصيب منها فيبست فبكى عليها ، فأوحى الله إليه : أتبكي على شجرة أن يبست ، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردتَ أن تُهلكهم ؟! قال يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط : قيَّض [الله] له أروية من الوحش تروح عليه بُكرة وعشيّاً فيشرب من لبنها حتى نبت لحمه .

---

(١) قال ابن كثير : بعد أن ذكر هذه الأقوال : والله أعلم بمقدار ذلك . اهـ .

(٢) البيت في « الطبري » : ٢٣/١٠٣ ، و « مجمع البيان » : ٢٣/٨٤، و « البحر المحيط » : ٧/٣٧٥ .

فان قيل : ما الفائدة في إنبات شجرة اليقطين عليه دون غيرها ؟

فالجواب : أنه خرج كالفرخ على ما وصفنا ، وجلده قد ذاب ، فأدنى شيء يَمرّ به يؤذيه ، وفي ورق اليقطين خاصيّةٌ ، وهو أنه إذا تُرك على شيء ، لم يَقربه ذباب ، فأنبته الله عليه ليغطيه ورقُها ويمنع الذبابَ ريحه أن يسقط عليه فيؤذيَه [1] .

قوله تعالى : (وأرسلْناه إلى مائةِ ألفٍ) اختلفوا ، هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إيّاه ، أم بعد ذلك ؟ على قولين .

أحدهما : أنها كانت بعد نبذ الحوت إيّاه ، على ماذكرنا في (يونس : ٩٨) ، وهو مروي عن ابن عباس .

والثاني : أنها كانت قبل التقام الحوت له ، وهو قول الأكثرين ، منهم الحسن ، ومجاهد ، وهو الأصح ، والمعنى : وكنّا أرسلناه إلى مائة ألف ، فلمّا خرج من بطن الحوت ، أُمِر أن يرجع إلى قومه الذين أُرسِل إليهم [2] .

وفي قوله : (أو) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بمعنى « بل » قاله ابن عباس ، والفراء .

والثاني : أنها بمعنى الواو ، قاله ابن قتيبة . وقد قرأ أُبيّ بن كعب ، ومعاذ القارىء ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران الجوني : « ويزيدون » من غير ألف .

---

(١) قال ابن كثير : وذكر بعضهم في القرع فوائد : منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته ، وأنه لايقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبّه وقشره أيضاً ، قال : وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدُّبّاء ويتتبعه من حواشي الصحفة . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : قلت : ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً ، أمر بالعَوْد إليهم بعد خروجه من الحوت فصدّقوه كلّهم . اهـ .

والثالث : أنها على أصلها ، والمعنى : أو يزيدون في تقديركم ، إذا رآهم الرائي قال : هؤلاء مائة ألف أو يزيدون .

وفي زيادتهم أربعة أقوال . أحدهـا : أنهم كانوا مائة ألف يزيدون عشرين ألفـاً ، رواه أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ [١] . والثاني : أنهم كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً . والثالث : مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً ، رويا عن ابن عبـاس . والرابع : أنهم كانوا يزيدون سبعين ألفاً ، قاله سعيد بن جبير ، ونوف .

قوله تعالى : (فآمنوا) في وقت إيمانهم قولان . أحدهما : عند معاينة العذاب . والثاني : حين أُرسل إليهم يونس (فمتَّعناهم إلى حين) إلى منتهى آجالهم .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ . فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ . فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾

قوله تعالى : (فاستفتهم) أي : سل أهل مكة سؤال توبيخ وتقرير ، لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله . (وهم شاهدون) أي : حاضرون . (ألا إنَّهم من إفكهم) أي : كذبهم (ليقولون ، ولد اللهُ) حين زعموا أن الملائكة بناته .

(١) رواه ابن جرير الطبري : ٢٣/١٠٤ ، والترمذي : ٢/١٥٥ وقال : حديث غريب ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢١٩ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه .

قوله تعالى : (أَصطفى البناتِ) قال الفراء : هذا استفهام فيه توبيخ لهم ، وقد تُطرح ألف الاستفهام من التوبيخ ، ومثله : (أذهبتم طيّباتكم) [الأحقاف: ٢٠] ، و « أَذْهبتم » يُستفهم بها ولا يُستفهم ، ومعناهما واحد . وقرأ أبو هريرة ، وابن المسيّب ، والزهري ، وابن جماز عن نافع ، وأبو جعفر ، وشيبة : « وإنهم لكاذبون اصْطفى » بالوصل غير مهموز ولا ممدود ؛ قال أبو علي : وهو على [وجه] الخبر ، كأنه قال : اصْطفى البناتِ على البنين كما يقولون ، كقوله : (ذُقْ إنّكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ) [الدخان : ٤٩] .

قوله تعالى : (ما لكم كيف تحكُمون) لله بالبنات ولأنفسكم بالبنين ؟ ! (أم لكم سُلطانٌ مُبينٌ) أي : حُجَّة [بيّنة] على ما تقولون ، (فائتوا بكتابكم) الذي فيه حُجّتكم .

(وجَعَلوا بينه وبين الجِنَّة نَسَباً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قالوا : هو وإبليس أخَوان ، رواه العوفي عن ابن عباس ؛ قال الماوردي : وهو قول الزنادقة والذين يقولون : الخير مِنَ الله ، والشرّ من إبليس .

والثاني : أن كفار قريش قالوا : الملائكة بنات الله ، والجِنَّة صِنف من الملائكة يقال لهم : الجِنَّة ، قاله مجاهد .

والثالث : أن اليهود قالت : إن الله تعالى تزوّج إلى الجن فخرجت من بينهم الملائكة ، قاله قتادة ، وابن السائب .

فخرج في معنى الجِنَّة قولان . أحدهما : أنهم الملائكة . والثاني : الجن .

فعلى الأول ، يكون معنى قوله : (ولقد عَلِمَتِ الجِنَّةُ) أي : عَلِمَت الملائكةُ (إنهم) أي : إن هؤلاء المشركين (لَمُحْضَرُونَ) النار .

وعلى الثاني ، [« ولقد علمت الجِنّةُ] إنهم » أي : إن الجن أنفسها « لَمُحْضَرونَ » الحساب [(١)] .

قوله تعالى : (إلاّ عبادَ الله المُخْلَصين) يعني الموحِّدين . وفيما استُثنوا منه قولان .

أحدهما : أنهم استُثنوا من حضور النار ، قاله مقاتل . والثاني : ممّا يصف أولئك ، وهو معنى قول ابن السائب .

قوله تعالى : (فانّكم) يعني المشركين (وما تعبُدونَ) من دون الله ، (ما أنتم عليه) أي : على ما تعبُدونَ (بِفاتنينَ) أي : بمُضِلّينَ أحداً ، (إلاّ مَنْ هو صالِ الجحيمِ) أي : مَنْ سبق له في عِلْم الله أنه يدخل النار .

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ . وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ . فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ . وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ . أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ . وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

ثم أخبر عن الملائكة بقوله : (وما مِنّا) والمعنى : ما مِنّا مَلَك (إلاّ له

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : إنهم لمحضرون العذاب ، لأن سائر الآيات التي ذُكِر فيها الاحضار في هذه السورة إنما عُنِيَ به الاحضار في العذاب ، فكذلك في هذا الموضع . اهـ .

(مقامٌ معلومٌ) أي: مكان في السموات مخصوص يعبُد اللهَ فيه، (وإنّا لنحنُ الصّافّون) قال قتادة: صفوف في السماء. وقال السدي: هو الصلاة. وقال ابن السائب: صفوفهم في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض[1].

قوله تعالى: (وإنّا لنحنُ المُسبّحون) فيه قولان. أحدهما: المُصلّون. والثاني: المنزّهون لله عز وجل عن السّوء. وكان عمر بن الخطاب إذا أُقيمت الصلاة أقبل على الناس بوجهه وقال: يا أيها الناس استوُوا، فإنما يريد اللهُ بكم هَدْيَ الملائكة، وإنّا لنحنُ الصّافّون، وإنّا لنحنُ المُسبّحون.

ثم عاد إلى الإخبار عن المشركين، فقال: (وإنْ كانوا ليقُولون) اللام في «ليقُولونَ» لام توكيد؛ والمعنى: وقد كان كفار قريش يقولون قبل بعثة النبيّ ﷺ: (لو أنّ عندنا ذِكْراً) أي: كتاباً (من الأوّلين) أي: مثل كتب الأولين، وهم اليهود والنصارى، (لكُنّا عبادَ الله المُخْلَصين) أي: لأخلصْنا العبادة لله عز وجل.

(فكفَروا به) فيه اختصار، تقديره: فلمّا آتاهم ما طلبوا، كفروا به، (فسوف يعْلَمونَ) عاقبة كفرهم، وهذا تهديد لهم.

(ولقد سبَقتْ كلِمَتُنا) أي: تقدَّم وَعْدُنا للمرسَلين بنصرهم والكلمة قوله: (كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنّ أنا ورُسُلي) [المجادلة: ٢١]، (إنّهم لَهُمُ المنصُورون) بالحُجّة، (وإنّ جُندنا) يعني حزبنا المؤمنين (لَهُمُ الغالِبونَ) بالحُجّة أيضاً والظّفَر. (فتَوَلَّ عنهم) أي: أعرِض عن كفار مكة (حتى حِينٍ) أي: حتى تنقضيَ مُدّةُ إمهالهم. وقال مجاهد: حتى نأمرَك بالقتال؛

(١) روى مسلم في «صحيحه» ١/٣٧١: عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضّلنا على الناس بثلاثٍ: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلّها مسجداً، وجعلتْ تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء».

فعلى هذا ، الآية مُحْكَمة . وقال في رواية : حتى الموت ؛ وكذلك قال قتادة . وقال ابن زيد : حتى القيامة ؛ فعلى هذا ، يتطرّق نسخُها . وقال مقاتل بن حيّان : نسخَتْها آيةُ القتال .

قوله تعالى : (وأَبْصِرْهُمْ) أي : انْظُرْ إليهم إذا نزل العذاب . قال مقاتل بن سليمان : هو العذاب يبدر ؛ وقيل : أَبْصِر حالَهم بقلبك (فسوف يُبْصِرونَ) ما أنكروا ، وكانوا يستعجلون بالعذاب تكذيباً به ، فقيل : (أَفَبِعذابنا يستَعْجِلونَ ؟!) .

(فاذا نَزَلَ) يعني العذاب . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران ، والجحدري ، وابن يعمر : « فاذا نُزِّل » برفع النون وكسر الزاي وتشديدها (بِساحتهم) أي : بفِنائهم وناحيتهم . والسّاحة : فِناء الدّار . قال الفراء : العرب تكتفي بالساحة والعَقْوة من القوم ، فيقولون : نزل بك العذاب وبساحتك . قال الزجاج : فكان عذابُ هؤلاء القتل (فَساءَ صباحُ المُنْذَرِينَ) أي : بِئْسَ صباحُ الذين أُنذروا العذاب [1] .

ثم كرّر ما تقدم توكيداً لوعده بالعذاب ، فقال : (وتَولَّ عنهم ...) الآيتين .

ثم نزّه نفسَهُ عن قولهم بقوله : (سُبْحانَ ربِّكَ ربِّ العِزَّةِ) قال مقاتل : يعني عِزَّةَ مَنْ يتعزّز من ملوك الدنيا .

قوله تعالى : (عَمَّا يَصِفُونَ) أي : من اتّخاذ النساء والأَولاد .

---

(١) قال ابن كثير : (فساء صباح المنذَرين) أي : فبئس مايصبحون ، أي : بئس الصباح صباحهم ، قال : ولهذا ثبت في « الصحيحين » عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صبَّح رسول الله ﷺ خيبر ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون : محمد والله ، محمد والخميس ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين » . اهـ .

(وسَلاَمٌ على المُرْسَلِينَ) فيه وجهان . أحدهما : تسليمُه عليهم إكراماً لهم . والثاني : إخباره بسلامتهم .

(والحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ) على هلاك المُشْرِكِينَ ونُصرة الأنبياء والمرسلين [1] .

★ ★ ★

(١) قال ابن جرير الطبري : (والحمد لله رب العالمين) يقول تعـــالى ذِكره : والحمد لله ربّ الثقلَيْن الجنِ والانسِ خالصاً دون ماسواه ، لأن كل نعمة لعباده ، فمنه ، فالحمد له خالص لاشريك له ، كما لاشريك له في نِعَمه عندهم ، بل كلُّها من قِبَله ومن عنده . اهـ .

سورة ص

ويقال لها : سورة داود ، وهي مكيّة [كُلُّها] باجماعهم

فأمّا سبب نزول أولها ، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن قريشاً شَكَوْا رسولَ الله ﷺ إلى أبي طالب ، فقال: يا ابن أخي ، ما تريد من قومك؟ فقال : « ياعمّ ، إنما أُريد منهم كلمة تَذِلُّ لهم بها العرب وتؤدّي إليهم الجزية بها العجم » ، قال : كلمة؟ قال : « كلمة واحدة » ، قال : ماهي؟ قال : « لا إله إلا الله » ، فقالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! فنزلت فيهم : (صَ والقرآنِ) إلى قوله : (إنْ هذا إلّا اختلاق) [1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾

(١) رواه أحمد ، والترمذي : ٢/١٥٥ عن ابن عباس رضي الله عنها ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم في « مستدركه » : ٢/٤٣٢ وصححه ، —

واختلفوا في معنى « صَ » على سبعة أقوال .

أحدها : أنه قَسَم أقسم اللهُ به ، وهو من أسمائه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه بمعنى : صَدَقَ محمدٌ ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : صَدَقَ اللهُ ، قاله الضحاك . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : معناه : صادق فيما وَعَدَ . وقال الزجاج : معناه : الصادقُ اللهُ تعالى .

والرابع : أنه اسم من أسماء القرآن ، أقسَمَ اللهُ به ، قاله قتادة .

والخامس : أنه اسم حيَّة رأسُها تحت العرش وذَنَبُها تحت الأرض السُّفلى ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ، وقال : أظنه عن عكرمة .

والسادس : أنه بمعنى : حادِث القرآن ، أي : انظُر فيه ، قاله الحسن ، وهذا على قراءة من كسروا ، منهم ابن عباس ، [والحسن] ، وابن أبي عبلة . قال ابن جرير : فيكون المعنى : صادِ بِعَمَلِكَ القُرآنَ [١] ، أي : عارِضْه . وقيل : اعْرِضْه على عملك [١] ، فانظُر أين هو [منه] .

والسابع : أنه بمعنى : صادَ محمدٌ قلوبَ الخَلْق واستمالها حتى آمَنوا به وأحَبُّوه ، حكاه الثعلبي [٢] ، وهذا على قراءة من فتح ، وهي قراءة أبي رجاء ، وأبي الجوزاء ،

ـــ ووافقه الذهبي . ورواه الطبري : ٢٣/١٢٥ ، والواحدي : ٢٠٩ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٩٥ ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(١) في الأصل : صاد بعلمك القرآن ، ولعله سهو من الناسخ ، وقد كتب على الصواب بعد قليل ، وما أثبتناه من الطبري وكتب التفسير و « اللسان » : صدي .

(٢) تقدم الكلام على الحروف التي في أوائل السور في التعليق الذي في أول سورة (العنكبوت) وغيرها بما أغنى عن إعادته هاهنا ، وقد تكلم المصنف على ذلك في أول سورة (البقرة) .

وحميد ، ومحبوب عن أبي عمرو . قال الزجاج : والقراءة « صادْ » بتسكين الدال ، لأنها من حروف التَّهجّي . وقد قُرئتْ بالفتح وبالكسر ؛ فمن فتحها ، فعلى ضربين . أحدهما : لالتقاء الساكنين . والثاني : على معنى : أُتْلُ « صاد » ، ويكون [صاد] اسماً للسورة لاينصرف ؛ ومن كسر ، فعلى ضربين . أحدهما : لالتقاء الساكنين أيضاً . والثاني : على معنى : صادِ القرآن بعملك ، من قولك : صَادَى يُصَادِي : إذا قابَل وعادَل ، يقال : صادَيْتُه : إذا قابَلْته (١) .

قوله تعالى : (ذِي الذِّكْرِ) في المراد بالذِّكْر ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الشَّرَف ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والسدي . والثاني : البيان ، قاله قتادة . والثالث : التذكير ، قاله الضحاك (٢) .

فان قيل : أين جواب القسَم بقوله : « صٓ والقرآنِ ذِي الذِّكْرِ » ؟ فمنه خمسة أجوبة .

أحدها : أن « صٓ » جواب لقوله : « والقرآن » ، فـ « ص » في معناها ، كقولك : وَجَبَ واللهِ ، نَزَلَ واللهِ ، حَقٌّ واللهِ ، قاله الفراء ، وثعلب .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القراءة في ذلك عندنا السكونُ في كل ذلك ، لأن ذلك القراءةُ التي جاءت بها قرّاءُ الأمصار مستفيضة فيهم ، وأنها حروف هجاء لأسماء المسميات ، فيُعْرَبْنَ إعراب الأسماء والأدوات والأصوات ، فيُسلَكُ بهنْ مسالكهنَّ ، فتأويلها إذ كانت كذلك تأويل نظائرها التي قد تقدم بيانها فيما مضى . اهـ .

(٢) رجح الطبري القول الثالث ، وهو أنه بمعنى التذكير ، قال : لأن الله تعالى أتبع ذلك قوله : (بل الذين كفروا في عزّة وشقاق) فكان معلوماً بذلك أنه إنما أخبر عن القرآن أنه أنزله ذِكراً لعباده ذَكّرهم به ، وأن الكفّار من الايمان به في عزّة وشقاق . اهـ . وقال ابن كثير : إن في هذا القرآن لذكرى لمن يتذكّر وعبرة لمن يعتبر ، وإنما لم ينتفع به الكافرون ، لأنهم (في عزة) أي : استكبار عنه وحميَّة (وشقاق) أي : ومخالفة له ومعاندة ومفارقة . اهـ .

والثاني : أن جواب « صٓ » قوله : « كَمْ أهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ » ، ومعناه : لَكَمْ ، فلمّا طال الكلام ، حُذفت اللامُ ، ومِثله : (والشَّمْسِ وضُحاها) (قد أفْلَحَ) [الشمس : ١ و ٩] ، فان المعنى : لقد أفْلَحَ ، غير أنه لمّا اعترض بينهما كلام ، تبعه قوله : « قد أفْلَحَ » ، حكاه الفراء ، وثعلب أيضاً .

والثالث : أنه قوله : « إنْ كُلٌّ إلاّ كَذَّبَ الرُّسُلَ » [صٓ : ١٤] ، حكاه الأخفش .

والرابع : أنه قوله : « إنَّ ذلكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أهْلِ النّارِ » [صٓ : ٦٤] ، قاله الكسائي ، وقال الفراء : لا نجده مستقيماً في العربية ، لِتأخُّره جداً عن قوله : « والقرآنِ » .

والخامس : أن جوابه محذوف ، تقديره : والقرآنِ ذي الذِّكْر ما الأَمْرُ كما يقول الكُفّار ، ويدل على هذا المحذوف قولُه : (بَلِ الذين كَفَروا في عِزَّةٍ وشِقاقٍ) ، ذكره جماعة من المفسرين ، وإلى نحوه ذهب قتادة [1] . والعِزَّةُ : الحَمِيَّةُ والتكبُّر عن الحَقّ . وقرأ عمرو بن العاص ، وأبو رزين ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري ، ومحبوب عن أبي عمرو : « في غِرَّةٍ » بغين معجمة وراء غير معجمة . والشِّقاق : الخِلاف والعداوة لرسول الله ﷺ ، وقد سبق بيان الكلمتين مشروحاً [البقرة : ٢٠٦ ، ١٣٨] .

ثم خوَّفهم بقوله : (كم أهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ) يعني الأُمم الخالية (فنادَوْا) عند وقوع الهلاك بهم . وفي هذا النداء قولان أحدهما : أنه الدُّعاء . والثاني : الاستغاثة .

---

(١) وهو الذي رجحه الطبري في « تفسيره » .

قوله تعالى : (ولاتَ حينَ مَنَاصٍ) وقرأ الضحاك ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري ، وابن يعمر : « ولاتَ حينُ » بفتح التاء ورفع النون . قال ابن عباس : ليس حين يروه فِرار . وقال عطاء : في لغة أهل اليمن « لاتَ » بمعنى « ليس » . وقال وهب بن منبه : هي بالسريانية . وقال الفراء : « لاتَ » بمعنى « ليس » ، والمعنى : ليس بحينِ فِرار . ومن القرّاء من يَخفضُ « لاتِ » ، والوجه النَّصْب ، لأنها في معنى « ليس » ، أنشدني المفضَّل :

تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى لاتَ حِينا وأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ القَرِينا[1]

قال ابن الأنباري : كان الفراء والكسائي والخليل وسيبويه والأخفش وأبو عبيدة يذهبون إلى أن التاء في قوله : « ولاتَ » منقطعة من « حين » ، قال : وقال أبو عبيدة : الوقف عندي على هذا الحرف « ولا » ، والابتداء « تحين » لثلاث حُجج .

إحداهن : أن تفسير ابن عباس يشهد لها ، لأنه قال : ليس حِينَ يَرَوْه فِرار ؛ فقد عُلِم أنّ « ليس » هي أخت « لا » وفي معناها .

والحُجة الثانية : أنّا لانَجِدُ في شيء من كلام العرب « ولات » ، إنما المعروفة « لا » .

والحجة الثالثة : أن هذه التاء ، إنما وجدناها تلحق مع « حين » ومع « الآن » ومع الـ « أوان » ، فيقولون : كان هذا تحين كان ذلك ، وكذلك : « تأوان » ، ويقال : اذهب تَلانَ ، ومنه قول أبي وجزة السعدي :

---

(١) البيت في « الطبري » : ١٢٢/٢٣ ، و « مجمع البيان » : ٩٥/٢٣ ، و « القرطبي » : ١٤٧/١٥ .

العَــاطِفُونَ تَحِينَ مَــا مِنْ عَــاطِفٍ
والمُطْعِمُونَ زَمَانَ مَا مِنْ مُطْعِمِ [(١)]

وذكر ابن قتيبة عن ... الأعرابي أن معنى هذا البيت : « العاطفونة » بالهاء، ثم تبتدىء : « حين ... عاطِفٍ » ؛ قال ابن الأنباري : وهذا غلط ، لأن الهاء إنما تُقحَم على النُّون في مواضع القَطْع والسُّكون ، فأمّا مع الانصال، فانه غير موجود . وقال عليّ بن أحمد النيسابوري : النحويُّون يقولون في قوله : « ولاتَ » : هي « لا » زيدت فيها التاء ، كما قالوا : ثُمَّ وثُمَّتْ ، ورُبَّ ورُبَّتْ ، وأصلها هاء وُصِلَتْ بـ « لا » ، فقالوا : « لاه » ، فلمّا وَصَلُوها ، جعلوها تاءً ؛ والوقف عليها بالتاء عند الزجاج ، وأبي عليّ ، وعند الكسائي بالهاء ، وعند أبي عبيد الوقف على « لا » [(٢)] .

فأما المَناص ، فهو الفرار . قال الفراء : النَّوْص في كلام العرب : التأخُّر ؛ والبَوْصُ : التقدُّم ، قال امرؤ القَيْس :

أَمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى إذْ نَأَتْكَ تَنُوصُ
فتَقْصُرُ عَنْها خَطْوَةً وتَبُوصُ [(٣)]

(١) البيت في « مشكل القرآن » : ٤٠٤ ، و « الطبري » : ١٢٣/٢٣ ، و « اللسان » و « التاج » : حين .

(٢) قال ابن كثير : وهذه الكلمة ، وهي « لات » ، هي « لا » التي للنفي زيدت معها التاء ـ كما تزاد في « ثم » فيقولون : « ثمت » ، و « رب » فيقولون : « ربَت » ـ وهي مفصولة (يعني كلمة « لا ») ، والوقف عليها ، قال : ومنهم من حكى عن المصحف الامام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بـ « حين » « ولا تحين مناص » قال : والمشهور الأول ، قال : ثم قرأ الجمهور بنصب « حين » تقديره : وليس الحين حين مناص . اهـ .

(٣) ديوانه : ١٧٧ ، و « غريب القرآن » : ٣٧٦ ، و « الطبري » : ١٢٠/٢٣ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١٢٧/١ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » بوص .

وقال أبو عبيدة : المَنَاصُ : مصدر نَاصَ يَنُوصُ ، وهو المنجى والفوز .

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ . أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ . جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾

قوله تعالى : (وعَجِبوا) يعني الكفار (أنْ جاءَم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) يعني رسولاً من أنفُسهم يُنْذِرُهم النَّارَ .

(أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً) لأنه دعاهم إلى الله وحده وأبطل عبادة آلهتهم ؛ وهذا قولهم لمّا اجتمعوا عند أبي طالب ، وجاء رسولُ الله ﷺ فقال : « أتُعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ، وهي « لا إله إلا الله » ، فقاموا يقولون : « أجَعَلَ الآلهةَ إلٰهاً واحداً » ، ونزلت هذه الآية فيهم[1] . (إنَّ هذا) [الذي] يقول محمد من أن الآلهة إله واحد (لَشَيْءٌ عُجابٌ) أي : لأمرٌ عَجَبٌ . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن السميفع :

(١) تقدم تخريج الحديث في أول السورة حيث ذكر المصنف هناك سبب نزول هذه الآيات من أول السورة إلى هنا ، وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٤١ : وروى الترمذي والنسائي وابن حبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاء النبي ﷺ . . . الحديث .

« عُجّابٌ » بتشديد الجيم . قال اللغويون : العُجَاب والعُجّاب والعجيب بمعنى واحد ، كما تقول : كَبِيرٌ و كُبَارٌ و كُبّارٌ ، و كَرِيمٌ و كُرامٌ و كُرّامٌ ، وطَوِيلٌ وطُوَالٌ وطُوّالٌ ؛ وأنشد الفراء :

جاؤوا بِصَيْدٍ عَجَبٍ مِنَ العَجَبْ أُزَيْرِقِ العينينِ طُوّالِ الذَّنَبْ [1]

قال قتادة : عجب المشركون أن دُعي اللهُ وَحْدَه ، وقالوا : أَيَسْمَعُ لِحاجاتنا جميعاً إِلهٌ واحد ؟!

قوله تعالى : (وانْطَلَقَ المَلأُ منهم) قال المفسرون : لمّا اجتمع أشراف قريش عند أبي طالب وَشكَوا إليه رسولَ الله ﷺ على ماسبق بيانه ، نفروا من قول : « لا إله إلا الله » ، وخرجوا من عند أبي طالب ، فذلك قوله : « وانْطَلَقَ الملأُ منهم » . والانطلاق : الذَّهَابُ بسهولة ، ومنه طَلاَقَةُ الوَجْه . والملأُ : أشراف قريش . فخرجوا يقول بعضهم لبعض : (امْشُوا) . و (أن) بمعنى « أي » ؛ فالمعنى : أي : امْشُوا . قال الزجاج : ويجوز أن يكون المعنى : انْطَلِقوا بأن امْشُوا ، أي : انْطَلَقوا بهذا القول . وقال بعضهم : المعنى : انْطَلَقوا يقولون : امْشُوا إلى أبي طالب فاشْكُوا إليه ابنَ أخيه ، (واصبروا على آلهتكم) أي : اثبُتوا على عبادتها (إنّ هذا) الذي نراه من زيادة أصحاب محمد (لَشَيءٌ يُراد) أي : لأمرٌ يُرادُ بِنا .

(ما سَمِعْنا بهذا) الذي جاء به محمدٌ من التوحيد (في المِلَّة الآخِرةِ) وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : النصرانية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وإبراهيم بن المهاجر عن مجاهد ، وبه قال محمد بن كعب القرظي ، ومقاتل .

---

(١) البيت في « مجمع البيان » : ٢٣/٩٤ .

والثاني : أنها مِلـَّة قريش ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال قتادة .

والثالث : اليهودية والنصرانية ، قاله الفراء ، والزجاج ؛ والمعنى أن اليهود أشركت بعُزَير ، والنصارى قالت : ثالث ثلاثة ، فلهذا أنْكَرَتِ التوحيدَ .

(إنْ هذا) الذي جاء به محمدٌ ﷺ (إلا اختلاقٌ) أي : كذب . (أأنزل عليه الذِّكر) يعنون القرآن . « عليه » يعنون رسول الله ﷺ ، (مِنْ بينِنا) أي : كيف خُصَّ بهذا دوننَا وليس بأعلانا نَسَباً ولا أعظمِنا شَرَفاً ؟ ! قال الله تعالى : (بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْ ذِكْري) أي : من القرآن ؛ والمعنى أنهم ليسوا على يقين ممّا يقولون ، إنما هم شاكُّون (بَلْ لمّا) قال مقاتل : « لمّا » بمعنى « لم » كقوله : (ولمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قلوبكم) [الحجرات : ١٤] . وقال غيره : هذا تهديد لهم ؛ والمعنى أنه لو نزل بهم العذاب ، علموا أن ماقاله محمدٌ حقٌّ . وأثبت ياء (عذابي) في الحالين يعقوب .

قال الزجاج : ولما دَلَّ قولـُهم : « أأنْزِلَ عليه الذِّكْرُ » على حسدهم له ، أعلم اللهُ عز وجل أن المُلْك والرِّساله إليه ، فقال : (أمْ عِنْدَهم خزائنُ رَحْمَةِ ربِّكَ) ؟ ! قال المفسرون : ومعنى الآية : أبأيديهم مفاتيحُ النبوَّة فيضعونها حيث شاؤوا ؟ ! والمعنى : ليست بأيديهم ، ولا مُلْكُ السموات والأرض لهم ، فإن ادَّعَوْا شيئاً من ذلك (فلْيَرْتَقُوا في الأسبابِ) قال سعيد بن جبير : أي : في أبواب السماء . وقال الزجاج : فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء .

قوله تعالى : (جُنْدٌ) أي : هُمْ جُنْدٌ . والجُند : الأتباع ؛ فكأنه قال : هُمْ أتبـاعٌ مقلِّدون ليس فيهم عالِمٌ راشد . و (ما) زائدة ، و (هنـالك) إشارة إلى بدر . والأحزاب : جميع مَنْ تقدَّمهم من الكفار الذين تحزَّبوا على

الأنبياء . قال قتادة : أخبر اللهُ نبيَّه وهو بمكة أنه سيهزِمُ جُند المشركين ، فجاء تأويلُها يومَ بدر .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ . وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ . إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ . وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾

قوله تعالى : (كذَّبتْ قبلَهم قومُ نُوحٍ) [١] قال أبو عبيدة : قَوْمٌ من العرب يؤنِّثون « القوم » ، وقوم يذكِّرون ، فان احتُجَّ عليهم بهذه الآية ، قالوا : وقع المعنى على العشيرة ، واحتجُّوا بقوله : (كَلاَّ إنَّها تَذْكِرَةٌ) [عبس:١١] ، قالوا : والمُضْمَر مذكَّر .

قوله تعالى : (وفرعونُ ذو الأوتاد) فيه ستة أقوال .

أحدها : أنه كان يعذِّب الناس بأربعة أوتاد يَشُدُّهم فيها ، ثُمَّ يرفع صخرة فتُلقى على الإنسان فتَشْدَخُه ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وكذلك قال الحسن ، ومجاهد : كان يعذِّب الناسَ بأوتاد يُوتِدُها في أيديهم وأرجُلهم .

والثاني : أنه ذو البِناء المُحْكَم ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الضحاك ، والقرظي ، واختاره ابن قتيبة ، قال : والعرب تقول : هُمْ في عِزٍّ ثابتِ الأوتاد ، ومُلك ثابتِ الأوتاد ، يريدون أنه دائم شديد ، وأصل هذا ، أن البيت [من بيوتهم] يثبتُ بأوتاد ، قال الأسود بن يَعْفُرَ :

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حلَّ بهم من العذاب والنَّكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال : وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة . اهـ .

[ولقد غَنَوْا فيها بِأَنعَمِ عِيشَةٍ] في ظِلِّ مُلْكٍ ثابِتِ الأَوْتادِ [١]

والثالث : أن المراد بالأوتاد : الجنودُ ، رواه عطية عن ابن عباس ، وذلك أنهم كانوا يَشُدُّونَ مُلكه ويُقَوُّون أمره كما يقوِّي الوَتِدُ الشيءَ .

والرابع : أنه كان يبني مَناراً يذبح عليها الناس .

والخامس : أنه كان له أربع أُسطوانات ، فيأخذ الرَّجُلَ فيمُدُّ كلَّ قائمة إلى أُسْطوانة فيعذِّبه ، روي القولان عن سعيد بن جبير .

والسادس : أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يُلعَب له عليها ، قاله عطاء ، وقتادة [٢] .

ولمّا ذكر المكذّبين ، قال : (أُولئك الأَحزابُ) فأعلَمنا أن مشركي قريش من هؤلاء ، وقد عذّبوا وأُهلكوا ، (فَحَقَّ عِقَابِ) [٣] ، أثبت الياء في الحالين

---

(١) البيت في « غريب القرآن » : ٣٧٧ ، و « البحر المحيط » : ٣٨٦/٧ ، و « القرطبي » : ١٥٥/١٥ ، و « المفضليات » : ٢١٧ . ومعنى « غَنَوْا » : أقاموا ، يقال : غَنِينا بمكان كذا وكذا .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عُنِيَ بذلك الأوتاد ، إما لتعذيب الناس ، وإما لِلَّعب كان يُلْعَبُ له بها ، وذلك أن ذلك هو المعروف من معنى الأوتاد (وثمود وقوم لوط) وقد ذكرنا أخبار كلِّ هؤلاء فيما مضى قبلُ من كتابنا هذا ، قال : (وأصحاب الأيكة) يعني : وأصحاب الغيضة . اهـ .

(٣) في الأصل : فكيف كان عقاب ، ولعل المصنف رحمه الله اشتبهت عليه هذه الآية بآية سورة (الرعد : ٣٢) . قال ابن جرير الطبري : وقوله : (أولئك الأحزاب) يقول تعالى ذِكره : هؤلاء الجماعات المجتمعة والأحزاب المتحزّبة على معاصي الله والكفر به ، الذين منهم يامحمد مشركو قومك ، وهم مسلوكٌ بهم سبيلهم (إن كلٌّ إلا كذَّب الرُّسُلَ) يقول : ما كل هؤلاء الأمم إلا كذب رسل الله (فحق عقاب) يقول : فوجب عليهم عقاب الله إياهم . اهـ . وقال ابن كثير : وقوله تعالى : (أولئك الأحزاب) أي : كانوا أكثر منكم ، وأشد قوة ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لمَّا جاء أمر ربك ، قال : ولهذا قال عز وجل : (إن كلٌّ إلا كذب الرسل فحق عقاب) فجعل علّة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر . اهـ .

يعقوب . (وما ينظُر) أي : وما يَنتظر (هؤلاء) يعني كفار مكة (إلا صَيْحَةً واحدة) وفيها قولان . أحدها : أنها النفخة الأولى ، قاله مقاتل . والثاني : النفخة الأخيرة ، قاله ابن السائب [١] .

وفي الفَواق قراءتان . قرأ حمزة ، وخلف ، والكسائي : بضم الفاء . وقرأ الباقون : بفتحها . وهل بينهما فرق ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدها : أنهما لغتان بمعنى واحد ، وهو معنى قول الفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج . قال الفراء : والمعنى : مالها من راحة ولا إفاقة ، وأصله من الإفاقة في الرضاع إذا ارتضعت البهيمة أُمَّها ثم تركتْها حتى تنزل شيئاً من اللَّبَن ، فتلك الإفاقة . وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « العِيادةُ قَدْرُ فُواق ناقة » [٢] . ومن يفتح الفاء ، فهي لغة جيدة عالية . وقال ابن قتيبة : الفُواق والفَواق واحد ، وهو أن تُحلَبَ النّاقةُ وتُترَكَ ساعةً حتى تُنزل شيئاً من اللَّبَن ، ثم تُحلَب ، فما بين الحَلْبتين فواق ، فاستعير الفواق في موضع المكث والانتظار . وقال الزجاج : الفُواق : مابين حلبتَي النّاقة ، وهو مشتق من الرُّجوع ، لأنه يَعُودُ اللَّبَن إلى الضّرع بين الحَلْبتين ، يقال : أفاق من مرضه ، أي : رَجع إلى الصِّحَّة .

والثاني : أن مَنْ فتحها ، أراد : مالَها مِنْ راحة ، ومن ضمَّها ، أراد : فُواق الناقة ، قاله أبو عبيدة .

---

(١) قال ابن كثير : وهذه الصيحة ، هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطوّلها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع ، إلا من استثنى الله عز وجل . اه .

(٢) هذا الحديث ذكره الحافظ السيوطي في « الجامع الصغير » من رواية البيهقي في « شعب الايمان » عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « العيادة فُوَاق ناقة » ولم يتكلم عليه الحافظ المناوي في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » بشيء ، بل قال : ورواه عنه الديلمي بلا سند . اه .

وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : مالها من رجعة ، ثم فيه قولان . أحدهما : مالها من ترداد ، قاله ابن عباس ، والمعنى أن تلك الصيحة لاتُكَرَّرُ . والثاني : مالها من رجوع إلى الدنيا ، قاله الحسن ، وقتادة ، والمعنى أنهم لايعودون بعدها إلى الدنيا .

والثاني : مالهم منها من إفاقة ، بل تُهلِكهم ، قاله ابن زيد .

والثالث : مالها من فُتور ولا انقطاع ، قاله ابن جرير .

والرابع : مالها من راحة ، حكاه جماعة من المفسرين .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ . اِصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ . وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا ربَّنا عجِّلْ لَنا قِطَّنا) في سبب قولهم هذا قولان .

أحدهما : أنه لمّا ذُكِر لهم مافي الجنّة ، قالوا هذا ، قاله سعيد بن جبير ، والسدي .

والثاني : أنه لمّا نزل قوله : (فأمّا مَنْ أُوتيَ كتابَه بيمينه . . .) الآيات [الحاقة : ١٩ - ٢٧] ، قالت قريش : زعمتَ يامحمد أنّا نُؤتَى كتبنا بشمائلنا !! فعجِّل لنا قِطَّنا ، يقولون ذلك تكذيباً له ، قاله أبو العالية ، ومقاتل [(١)] .

وفي المراد بالقِطِّ أربعة أقوال .

أحدها : أنه الصحيفة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال الفراء : القِطُّ

(١) ذكر هذين القولين الطبرسي في « مجمع البيان » كما هما هنا بدون سند ، وكذلك ذكر هذا المعنى البغوي والخازن بدون سند .

في كلام العرب : الصَّكّ وقال أبو عبيدة : القِطُّ : الكتاب ، والقُطُوط : الكتب بالجوائز ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، ومقاتل ، وابن قتيبة .

والثاني : أن القِطّ : الحساب ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أنه القضاء ، قاله عطاء الخراساني ، والمعنى أنهم لمّا وُعِدوا بالقضاء بينهم ، سألوا ذلك .

والرابع : أنه النصيب ، قاله سعيد بن جبير (١) . [قال الزجاج : القِطُّ : النصيب ، وأصله : الصحيفة يُكْتَب للانسان (٢) فيها شيء يَصِل إليه ، واشتقاقه من قَطَطْتُ ، أي : قَطَعْتُ ، فالنَّصيب : هو القطعة من الشيء . ثم في هذا القول للمفسرين قولان . أحدهما : أنهم سألوه نصيبهم من الجنة ، قاله سعيد بن جبير] . والثاني : سألوه نصيبهم من العذاب ، قاله قتادة . وعلى جميع الأقوال ، إنما سألوا ذلك استهزاءً ، لتكذيبهم بالقيامة .

(إصْبِرْ على مايقولونَ) أي : من تكذيبهم وأذاهم ؛ وفي هذا قولان .

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال : إن القوم سألوا ربهم تعجيل صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيَهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا ، استهزاءً بوعيد الله ، قال : وإنما قلنا : إن ذلك كذلك ، لأن القط هو ماوصفتُ من الكتب بالجوائز والحظوظ ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيل ذلك لهم ، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه : (إصبر على مايقولون) فكان معلوماً بذلك أن مسألتهم ماسألوا النبي ﷺ ، لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم ، لم يكن بالذي يتبع الأمر بالصبر عليه ، ولكن لما كان ذلك استهزاءً ، وكان فيه لرسول الله ﷺ أذىً أمره الله بالصبر عليه منهم حتى يأتيَه قضاؤه فيهم ، ولما لم يكن في قوله : (عجل لنا قطنا) بيان أي القطوط إرادتهم ، لم يكن لنا توجيه ذلك إلى أنه معنيّ به القطوط ببعض معاني الخير أو الشر ، فلذلك قلنا : إن مسألتهم كانت بما ذكرت من حظوظهم من الخير والشر . اهـ .

(٢) في الأصل : الانسان .

أحدهما : أنه أُمِر بالصبر ، سلوكاً لطريق أُولي العزم ، وهذا مُحْكَم .

والثاني : أنه منسوخ بآية السيف فيما زعم الكلبي .

قوله تعالى : (واُذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ) في وجه المناسبة بين قوله : « إصبر » وبين قوله : « واُذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ » قولان .

أحدهما : أنه أُمِرَ أن يتقوّى على الصَّبر بذِكْر قُوَّة داوُد على العبادة والطاعة .

والثاني : أن المعنى : عرِّفهم أن الأنبياء عليهم السلام - مع طاعتهم - كانوا خائفين منّي ، هذا داوُد مع قوّته على العبادة ، لم يزل باكياً مستغفراً ، فكيف حالُهم مع أفعالهم ؟!

فأمّا قوله : (ذَا الأَيْدِ) فقال ابن عباس : هي القُوَّة في العبادة . وفي « الصحيحين » من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال لي رسول الله ﷺ : « أَحَبُّ الصِّيام إلى الله صيامُ داوُدَ ، كان يصومُ يوماً ويُفْطِر يوماً ، وأَحَبُّ الصَّلاة إلى الله صلاةُ داوُد ، كان ينام نِصْفَ الليل ويقومُ ثُلثه وينامَ سُدسه » [١] .

وفي الأَوّاب أقوال قد ذكرناها في (بني اسرائيل : ٢٥) .

(إنّا سَخَّرْنا الجبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ) قد ذكرنا تسبيح الجبال معه في (الأنبياء : ٧٩) ، وذكرنا معنى العَشِيّ في مواضع مما تقدم [آل عمران : ٤١، الأنعام : ٥٣] ، وذكرنا معنى الإشراق في (الحِجْر : ٧٣) عند قوله : (مُشْرِقِين) . قال الزجاج : الإشراق : طلوعُ الشمس [وإضاءتُها] . وروي عن ابن عباس

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » : ٣/١٤ ، ومسلم : ٢/٨١٦ باختلاف يسير في ألفاظه ، والحديث رواه أيضاً أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه وغيرهم .

أنه قال : طَلَبْتُ صلاةَ الضُّحى ، فلم أَجِدْها إلاّ في هذه الآية . وقد ذكرنا عنه أن صلاة الضُّحى مذكورة في (النور : ٣٦) في قوله : (بالغُدُوِّ والآصال) .

قوله تعالى : (والطَّيْرَ مَحْشُورَةً) وقرأ عكرمة ، وأبو الجوزاء ، والضحاك ، وابن أبي عبلة : « والطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ » بالرفع فيهما ، أي : مجموعة إليه ، تسبِّح اللهَ معه (كُلٌّ له) في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى داوُد ، أي : كُلٌّ لداود (أَوَّابٌ) أي : رَجّاعٌ إلى طاعته وأَمْره ، والمعنى : كُلٌّ له مُطيع بالتسبيح معه ، هذا قول الجمهور .

والثاني : [أنها] ترجع إلى الله تعالى ، فالمعنى : كُلٌّ مسبِّحٌ لله ، قاله السدي .

قوله تعالى : (وشدَدْنا مُلْكَه) أي : قوَّيناه . وفي ما شُدَّ به مُلْكُه قولان .

أحدهما : أنه الحَرَسُ والجنود ؛ قال ابن عباس : كان يحرُسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل .

والثاني : أنه هَيْبَةٌ أُلْقِيَتْ له في قلوب الناس ؛ وهذا المعنى مرويٌّ عن ابن عباس أيضاً .

قوله تعالى : (وآتيناه الحكمة)وفيها أربعة أقوال أحدها:أنها الفَهْم ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد . والثاني : الصَّواب ، قاله مجاهد . والثالث : السُّنَّة ، قاله قتادة . والرابع : النُّبُوَّة ، قاله السدي .

وفي فصل الخطاب أربعة أقوال .

أحدها : عِلْمُ القضاء والعدلُ ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : بيان الكلام ، روي عن ابن عباس أيضاً . وذكر الماوردي أنه البيان الكافي في كل غرض مقصود .

والثالث : قوله : «أما بعد» ، وهو أول من تكلّم بها ، قاله أبوموسى الأشعري ، والشعبي .

والرابع : تكليف المدّعي البيّنة ، والمدّعى عليه اليمين ، قاله شريح ، وقتادة ؛ وهو قولٌ حسنٌ ، لأن الخُصومة إنما تُفصَل بهذا .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَاتَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَاهُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ . فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ . يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾

قوله تعالى : (وهل أتاكَ نبأُ الخَصْمِ) قال أبو سليمان : المعنى : قد أتاكَ فاستَمِعْ له نَقْصُصْ عليكَ .

واختلف العلماء في السبب الذي امتُحِن لأجْله داوُد عليه السلام بما امتُحن به على خمسة أقوال .

أحدها : أنه قال : يا ربِّ قد أَعطيتَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذِّكْر ما لو ودِدْتُ أنَّك أعطيتني مِثْلَه ، فقال الله تعالى : إنِّي ابتليتُهم بما لم أَبْتَلِكَ به ، فان شئتَ ابتليتُكَ بِمثْلِ ما ابتليتُهم به وأعطيتُك كما أعطيتُهم ؟ قال : نعم ، فبينما هو في محرابه إذ وقعتْ عليه حمامة ، فأراد أن يأخذها فطارت ، فذهب ليأخذها ، فرأى امرأة تغتسل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال السدي [1] .

والثاني : أنه ما زال يجتهد في العبادة حتى برَزَ له قرناؤه من الملائكة وكانوا يصلُّون معه ويُسْعِدونه بالبُكاء ، فلمّا استأنس بهم ، قال : أَخبِروني بأيِّ شيء أنتم موكَّلون ؟ قالوا : ما نَكْتُب عليكَ ذَنْباً ، بل نكتب صالح عملك ونثبِّتُك ونوفِّقُك ونَصرِف عنك السُّوء ، فقال في نفسه : ليت شِعري ، كيف أكون لو خلَّوني ونفسي ؟ وتمنَّى أن يُخلَّى بينه وبين نفسه ليَعْلَم كيف يكون ، فأمر اللهُ تعالى قُرَناءه أن يعتزلوه ليَعْلَم أنه لا غَناءَ به عن الله [عز وجل ، فلمّا فقدهم ، جَدَّ واجتهد ضِعْفَ عبادته إلى أن ظَنَّ أنه قد غَلَب نَفْسَه ، فأراد اللهُ تعالى] أن يُعرِّفَه ضَعْفَه ، فأرسلَ إليه طائراً من طيور الجنة ، فسقط في محرابه ، فقطع صلاته ومَدَّ يده إليه ، فتنحّى عن مكانه ، فأتْبَعَه بَصَرَه ، فاذا امرأة أوريا ، هذا قول وهب بن منبِّه [2] .

(١) رواه الطبري من رواية العوفي عن ابن عباس : ٢٣/١٤٦ والعوفي ضعيف ، ورواه عن السدي بنحوه : ٢٣/١٤٧ .

(٢) ذكره الطبري : ٢٣/١٤٩ بسند فيه جهالة من رواية ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه ، والله أعلم .

والثالث : أنه تَذاكَرَ هو وبنو إسرائيل ، فقالوا : هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذَنباً ؟ فأضمر داودُ في نفسه أنه سيُطيق ذلك ، فلمّا كان يوم عبادته ، أغلق أبوابه وأمَرَ أن لا يدخُل عليه أحد وأكبَّ على قراءة الزَّبور ، فاذا حمامة من ذهب ، فأهوى إليها فطارت ، فتَبِعها فرأى المرأة ، رواه مطر عن الحسن [١] .

والرابع : أنه قال لبني إسرائيل حين ملك : والله لأَعْدِلَنَّ بينكم ، ولم يستثن ، فابتُلِيَ ، رواه قتادة عن الحسن .

والخامس : أنه أعجبه كثرة عمله ، فابتُلِيَ ، قاله أبو بكر الورّاق [٢] .

الإشارة إلى قصة ابتلائه

قد ذكرنا عن وهب أنه قال : كانت الحمامة من طيور الجنة . وقال السدي : تصوَّر له الشيطان في صورة حمامة . قال المفسرون : إنه لمّا تبع الحمامة ، رأى امرأة في بستان على شطِّ بِرْكة لها تغتسل ، وقيل : بل على سطح لها ، فعجب

(١) رواه الطبري : ١٤٨/٢٣ من رواية مطر عن الحسن ، ومطر هو ابن طهمان الورّاق ، أبو رجاء ، قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » : صدوق كثير الخطأ .

(٢) قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، قال : ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ، ويزيد وإن كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ، قال : فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يُردَّ علمها إلى الله عز وجل ، فان القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً . اهـ . وخبر يزيد الرقاشي ، ذكره بطوله الطبري في « تفسيره » من رواية ابن لهيعة عن أبي صخر عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو خبر لا يصح سنده كما قال الحافظ ابن كثير .

من حسنها ، فحانت منها التفاتة فرأت ظِلَّه ، فنقضت شعرها ، فغطّى بدنها ، فزاده ذلك إعجاباً بها ، فسأل عنها ، فقيل : هذه امرأة أوريا ، وزوجها في غزاة ، فكتب داود إلى أمير ذلك الجيش أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا ، وقدّمه قبل التابوت ، وكان مَنْ قُدِّم على التابوت لا يَحِلُّ له أن يرجع حتى يُفتَح عليه أو يستشهد ، ففعل ذلك ، ففُتِح عليه ، فكتب إلى داود يخبره ، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدوِّ كذا وكذا ، ففُتِح له ، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدوِّ كذا وكذا ، فقُتِل في المرَّة الثالثة ، فلمّا انقضت عِدَّة المرأة تزوَّجها داوُد ، فهي أمُّ سليمان ، فلمّا دخل بها ، لم[1] يلبث إلّا يسيراً حتى بعث اللهُ عز وجل مَلَكين في صورة إنسيَّين ، وقيل : لم يأته المَلَكان حتى جاء منها سليمان وشَبَّ ، ثم أتياه فوجداه في محراب عبادته ، فمنعهما الحرس من الدُّخول إليه ، فتسوروا المحراب عليه ؛ وعلى هذا الذي ذكرناه من القصة أكثر المفسرين[2] ، وقد روى نحوه العوفي عن ابن عباس ، وروي عن الحسن ، وقتادة ، والسدي ، ومقاتل في آخرين . وذكر جماعة من المفسرين أن داوُد لمّا نظر إلى المرأة ، سأل عنها ، وبعث زوجَها إلى الغَزاة مَرَّة بعد مَرَّة إلى أن قُتل ، فتزوَّجها ؛ وروي مثلُ [هذا] عن ابن عباس ، ووهب ، والحسن في جماعة . قال المصنِّف : وهذا لا يصح من طريق النقل ، ولا يجوز من حيث المعنى ، لأن الأنبياء منزَّهون عنه .

وقد اختلف المحقِّقون في ذَنْبه الذي عُوتب عليه على أربعة أقوال .

أحدها : أنه لمّا هَوِيَها ، قال لزوجها : تحوَّل لي عنها ، فعُوتب على ذلك . وقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مازاد داوُد على أن قال لصاحب

(١) في الأصل : فلم .

(٢) وقد رأيت قول ابن كثير قبل قليل : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتّباعه .

المرأة : أكْفِلْنِيهَا وتحوّلْ لي عنها ؛ ونحو ذلك روي عن ابن مسعود [١] . وقد حكى أبو سليمان الدمشقي أنه بعث إلى أوريا فأقدمه من غَزاته ، فأدناه وأكرمه جداً ، إلى أن قال له يوماً : انزِلْ لي عن امرأتك ؛ وانظُر أيَّ امرأة شئتَ في بني إسرائيل أزوِّجكها ، أو أيَّ أمَة شئتَ أبتاعُها لكَ ، فقال : لا أريد بامرأتي بديلاً ؛ فلمّا لم يُجِبْه إلى ما سأل ، أمَرَه أن يَرْجِع إلى غَزاته .

والثاني : أنه تمنّى تلك المرأة حلالاً ، وحدَّث نفسه بذلك ، فاتفق غزوُ أوريا وهلاكُه من غير أن يسعى في سبب قتله ولا في تعريضه للهلاك ، فلمّا بلغه قتلُه ، لم يَجْزَعْ عليه كما جَزِع على غيره مِنْ جُنْده ، ثُمَّ تزوّج امرأتَه ، فعُوتب على ذلك . وذُنوبُ الأنبياء عليهم السلام وإن صَغُرَتْ ، فهي عظيمةٌ عند الله عز وجل .

والثالث : أنه لمّا وقع بصرُه عليها ، أشبع النَّظر إليها حتى عَلِقَتْ بقلبه [٢] .

والرابع : أن أوريا كان قد خطب تلك المرأة ، فخطبها داودُ مع علمه بأن أوريا قد خطبها ، فتزوَّجَها ، فاغتمّ أوريا ، وعاتب اللهُ تعالى داوُدَ إذْ لم يترُكْها لخاطبها الأوَّل ؛ واختار القاضي أبو يعلى هذا القول ، واستدل عليه بقوله : (وعَزَّني في الخِطاب) ، قال : فدلَّ هذا على أن الكلام إنما كان بينهما في الخِطْبة ، ولم يكن قد تقدَّم تزوُّج الآخَر ، فعُوتب داوُدُ عليه السلام لشيئين ينبغي للأنبياء التَّنَزُّه عنهما ، أحدهما : خِطْبته على خِطْبته غيره ، والثاني : إظهار الحِرْص على التزويج مع كثرة نسائه ، ولم يعتقد ذلك معصية ، فعاتبه الله تعالى عليها ؛ قال : فأمّا ما رُوي أنه نظر إلى المرأة فهَوِيَها وقدَّم زَوْجَها للقتل ،

---

(١) «الطبري» : ١٤٤/٢٣ ، وذكره السيوطي في «الدر» : ٣٠٣/٥ من رواية عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، ومن رواية ابن جرير عن ابن مسعود .
(٢) وكذلك ينزه عن مثل هذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كما قال المصنف قبل قليل .

فانه وجهٌ لا يجوز على الأنبياء ، لأن الأنبياء لا يأتون المعاصي مع العلم بها [1] .

قال الزجاج : إنما قال : « الخَصْمِ » بلفظ الواحد ، وقال : « تَسَوَّرُوا المِحْرابَ » بلفظ الجماعة ، لأن قولك : خصم ، يَصْلُحَ للواحد والاثنين والجماعة والذكر والأنثى ، تقول : هذا خصم ، وهي خصم ، وهما خصم ، وهم خصم ؛ وإنما يصلح لجميع ذلك لأنه مصدر ، تقول : خَصَمْتُه أخْصِمُه خَصْماً . والمحراب هاهنا كالغُرفة ، قال الشاعر :

---

(١) قال القاضي عياض في « الشفا » : وأما قصة داود عليه السلام ، فلا يجب أن يلتفت إلى ماسطَّره الاخباريون على أهل الكتاب الذين بدَّلوا وغيَّروا ، ونقله بعض المفسرين ، قال : ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح ، قال : والذي نص الله عليه قوله : (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعاً وأناب) وقوله فيه : (أوَّاب) ، فمعنى (فتنَّاه) أي : اختبرناه ، و (أوَّاب) قال قتادة : مطيع ، قال : وهذا التفسير أولى ، قال : قال ابن عباس وابن مسعود : مازاد على أن قال للرجل : انزل لي عن امرأتك وأكفلنيها ، فعاتبه الله على ذلك ونبَّهه عليه ، وأنكر عليه شغله بالدنيا . ثم قال : وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك ذهب أحمد بن نصر ، وأبو تمام وغيرهما من المحققين ، قال : قال الداودي : ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت ، ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم . اهـ .

وقال الخازن في « تفسيره » : اعلم أن من خصه الله بنبوَّته ، وأكرمه برسالته ، وشرَّفه على كثير من خلقه ، وائتمنه على وحيه ، وجعله واسطة بينه وبين خلقه ، لايليق أن يُنسب إليه مالو نسب إلى آحاد الناس لاستنكف أن يحدَّث به عنه ، فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء والصفوة الأمناء ذلك . اهـ . قال الخازن : وقال الامام فخر الدين الرازي : حاصل القصة يرجع إلى أمرين : إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق ، وإلى الطمع في زوجته ، قال : وكلاهما منكر عظيم ، فلا يليق بعاقل أن يظن بداود عليه السلام هذا . اهـ . وقال القاضي البيضاوي : وما قيل : أنه أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً ، وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها (يعني امرأته) ، هراء وافتراء . اهـ .

رَبَّةُ مِحْرابٍ إذا جِئْتُها لَمْ أَلْقَها أو أَرْتَقي سُلَّماً [١]

و « تسوّروا » يدل على علوّ .

قال المفسرون : كانا مَلَكين ، وقيل : هما جبريل وميكائيل عليهما السلام ، أتياه لينبّهاه على التوبة . وإنما قال : « تسوَّروا » وهما اثنان ، لأن معنى الجمع ضمُّ شيء إلى شيء ، والاثنان فما فوقهما جماعة .

قوله تعالى : (إِذْ دَخَلُوا على داوُدَ) قال الفراء : يجوز أن يكون معنى « تسوَّرُوا » : دَخَلوا ، فيكون تكراراً ؛ ويجوز أن تكون « إذ » بمعنى « لمّا » ، فيكون المعنى : إذ تسوَّروا المحراب لمّا دَخَلوا ، ولمّا تسوّروا إذ دخلوا .

قوله تعالى : (ففَزِع منهم) وذلك أنهما أتيا على غير صفة مجيء الخُصوم ، وفي غير وقت الحُكومة ، ودخلا تَسَوُّراً من غير إذن [٢] . وقال أبو الأحوص : دَخَلا عليه وكُلٌّ واحد منهما آخذٌ برأس صاحبه . و (خَصْمانِ) مرفوع بإضمار « نَحْنُ » ، قال ابن الأنباري : [المعنى] : نحن كخصمين ، ومِثْلُ خصمين ، فسقطت الكاف ، وقام الخصمان مقامهما ، كما تقول العرب : عبد الله القمرُ حُسْناً ، وهم يريدون : مِثْل القمر ، قالت هند بنت عتبة ترثي أباها وعمَّها :

مَنْ حَسَّ لي الأَخَوَيْنِ كالـ غُصْنَيْنِ أَوْ مَنْ راهُما
أَسَدَيْنِ في غِيلٍ يَحيدُ الـ قَوْمُ عَنْ عُرْواهُما

(١) البيت لوضاح اليمن ؛ وهو في « مجاز القرآن » : ١٤٤/٢ ، و « الأغاني » : ٢٣٧/٦ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : حرب . وقد سبق البيت في الجزء ١ صفحة ٣٨٠ .

(٢) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (ففزع منهم) إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره ، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسوّرا عليه المحراب ، أي : احتاطا به يسألانه عن شأنهما . اهـ .

صَقْـرَيْـنِ لا يَتَـذَلَّلا نِ ولا يُبـاحُ حِماهُـما
رُمْحَيْـنِ خَطِّيَّيْـنِ في كَبِـدِ السَّماءِ تَـراهُـما [١]

أرادت : مِثْلَ أسدين ، ومثل صقرين ، فأسقطت مِثْلاً وأقامت الذي بعده مقامه . ثم صرف اللهُ عز وجل النون والألف في « بَعْضُنا » إلى « نحن » المضمر ، كما تقول العرب : نحن قوم شَرُفَ أبونا ، ونحن قوم شَرُفَ أبوهم ، والمعنى واحد . والحق هاهنا : العدل .

(ولا تُشْطِطْ) أي : لا تَجُرْ ، يقال : شَطَّ وأشَطَّ : إذا جار . وقرأ ابن أبي عبلة : « ولا تَشْطُطْ » بفتح التاء وضم الطاء . قال الفراء : وبعض العرب يقول : شَطَطْتَ عليَّ في السَّوْم ، وأكثر الكلام « أشططتَ » بالألف ، وشَطَّت الدّارُ : تباعدتْ .

قوله تعالى : (واهْدِنا إلى سَواءِ الصِّراطِ) أي : إلى قَصْدِ الطَّريق [٢] ؛ والمعنى : احْمِلْنا على الحق . فقال داوُد : تَكَلَّما ، فقال أحدُهما : (إنَّ هذا أخي) قال ابن الأنباري : المعنى : قال أحد الخصمين اللَّذين شُبِّه المَلَكان بهما : إنَّ هذا أخي ، فأضمر القول لوضوح معناه (له تِسْعٌ وتِسْعونَ نَعْجَةً) قال الزجاج : كُني عن المرأة بالنَّعْجة . وقال غيره : العرب تشبِّه النِّساء بالنعاج ، وتورِّي عنها بالشاء والبقر . قال ابن قتيبة : ورّى عن ذِكر النساء بذِكر النعاج ، كما قال عنترة :

---

(١) الأبيات في « شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام » : ١٣٠ ، و « الأغاني » « ثقافة » : ٤/٢١٢ . حَسَّ ، من باب نصر ، كأحَسَّ ، وأصل « راها » : رآها ، فخففت فيه الهمزة .

(٢) أي : بحيث لاتميل عن الحق أصلاً .

ياشاةَ ماقَنَصٍ لِمَنْ حلَّتْ لهُ حَرُمَتْ عَلَيَّ وليْتَها لَمْ تَحْرُمِ (١)

يعرِّض بجارية ، يقول : أيّ صيد أنتِ لِمَنْ حَلَّ له أن يَصيدَكِ ! فأمّا أنا ، فانَّ حُرْمَةَ الجوار قد حرَّمتْكِ عَليَّ . وإنما ذَكَرَ المَلَكُ هذا العدد لأنه عدد نساء داوُد .

قوله تعالى : (وَلِيَ نَعْجَةٌ واحدةٌ) فتح الياء حفص عن عاصم ، وأسكنها الباقون .

(فقال أَكْفِلْنِيها) قال ابن قتيبة : أي : ضُمَّها إليَّ واجعلْني كافِلَها . وقال الزجاج : انزِلْ أنتَ عنها واجعلْني أنا أَكْفُلُها .

قوله تعالى : (وعَزَّني في الخِطاب) أي : غَلَبني في القول . وقرأ عمر بن الخطاب ، وأبو رزين [العقيلي] ، والضحاك ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : « وعازَّني » بألف ، أي : غالَبَني . قال ابن مسعود ، وابن عباس في قوله « وعَزَّني في الخطاب » : ما زاد على أن قال : انزِلْ لي عنها . وروى العوفي عن ابن عباس قال : إن دعوتُ ودعا كان أكثر ، وإن بَطَشْتُ وبَطَشَ كان أشدَّ مني .

فان قيل : كيف قال المَلَكان هذا ، وليس شيء منه موجوداً عندهما ؟

فالجواب : أن العلماء قالوا : إنما هذا على سبيل المَثَل والتشبيه بقصة داوُد ، وتقدير كلامهما : ماتقولُ إن جاءك خصمان فقالا كذا وكذا ؟ وكان داوُد لايرى أن عليه تَبِعَةً فيما فَعَلَ ، فنبَّهه اللهُ بالمَلَكين . وقال ابن قتيبة : هذا مَثَل ضربه اللهُ [له] ونبَّهه على خطيئته . وقد ذكرنا آنفاً أن المعنى : نحنُ كخَصْمَين .

قوله تعالى : (قال) يعني داود (لقد ظَلَمَكَ بسؤال نَعْجتكَ إلى نِعاجِهِ)

(١) البيت من معلقته ، وهو في ديوانه : ١٥٢ ، و « مشكل القرآن » : ٢٠٦ ، و « العمدة » : ١/٢٨١ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١/٣٧٨ ، و « شرح شواهد المغني » : ٢٥٢ .

قال الفراء : أي : بسؤاله نعجتك ، فاذا أُلقيتَ الهاءَ من السؤال ، أُضفتَ الفعل إلى النَّعْجة ، ومِثلُه : (لايَسْأَمُ الإنسانُ مِنْ دُعَاءِ الخَيْرِ) [فصلت : ٤٩] ، أي : من دعائه بالخير ، فلمّا ألقى الهاء ، أضاف الفعل إلى الخير ، وألقى من الخير الباء ، وأنشدوا :

فَلَسْتُ مُسَلِّماً مادُمْتُ حَيّاً على زَيْدٍ بتسليمِ الأَميرِ (١)

أي : بتسليم على الأمير .

قوله تعالى : (إلى نِعاجه) أي : لِيَضُمَّها إلى نِعاجه . قال ابن قتيبة : المعنى : بسؤال نعجتك مضمومةً إلى نعاجه ، فاختُصر . قال : ويقال « إلى » بمعنى « مع »

فان قيل : كيفَ حكم داود قبل أن يَسمع كلامَ الآخر ؟

فالجواب : أن الخصم الآخر اعترف ، فحكم عليه باعترافه ، وحذف ذِكر الاعتراف اكتفاءً بفهم السامع ، والعرب تقول : أمرتُك بالتجارة فكسبتَ الأموال ، أي : فاتَّجرتَ فكسبتَ ، ويدُلُّ عليه قولُ السدي : إن داوُد قال للخصم الآخر : ماتقول ؟ قال : نعم ، أريد أن آخذها منه فأُكمل بها نعاجي وهو كاره ، قال : إذاً لاندعُك ، وإن رُمتَ هذا ضربْنا منكَ هذا ـ ويشير إلى أنفه وجبهته ـ فقال : أنت ياداوُدُ أحقُّ أن يُضرب هذا منكَ حيث لك تسع وتسعون امرأة ، ولم يكن لأُوريا إلّا واحدة ، فنظر داوُد فلم يرَ أحداً ، فعَرَف ماوقع فيه .

قوله تعالى : (وإنَّ كثيراً من الخُلَطاء) يعني الشركاء ، واحدهم : خليط ، وهو المُخالِط في المال وإنما قال هذا ، لأنه ظنَّهما شريكين ، (إلّا الذين آمنوا)

---

(١) البيت غير منسوب في « معاني القرآن » : ١٠٠ ، وانظر خبر الأعرابي قائل البيت لمعن بن زائدة في « بحر الآداب » : ٣/٢٦٣ .

أي : فانهم لايَظْلِمون أحداً ، (وقليلٌ ماهم) « ما » زائدة ، والمعنى : وقليل هم ، وقيل : المعنى : هم قليل ، يعني الصالحين الذين لايَظلِمونَ .

قوله تعالى : (وظَنَّ داوُدُ) أي : أيقن وعَلِم (أنَّما فَتَنَّاه) فيه قولان . أحدها : اختبرناه . والثاني : ابتليناه بما جرى له من نظره إلى المرأة وافتتانه بها[١] . وقرأ عمر بن الخطاب : « أنّما فتَّنّاهُ » بتشديد التاء والنون جميعاً . وقرأ أنس بن مالك ، وأبو رزين ، والحسن ، وقتادة ، وعليّ بن نصر عن أبي عمرو : « أنَّما فَتَنَاهُ » بتخفيف التاء والنون جميعاً ، يعني المَلَكين ، قال أبوعلي الفارسي : يريد : صَمَدا له . وفي سبب عِلْمه وتنبيهه على ذلك ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المَلَكين أفصحا له بذلك ، على ماذكرناه عن السدي .

والثاني : أنهما عَرَّجا وهما يقولان : قضى الرجلُ على نفسه ، فعَلِم أنه عُني بذلك ، قاله وهب .

والثالث : أنه لمّا حكم بينهما ، نظر أحدُهما إلى صاحبه وضحك ، ثم صَعِدا إلى السماء وهو ينظُر ، فعلم أن الله تعالى ابتلاه بذلك ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فاستغْفَرَ ربَّه) قال المفسرون : لمّا فطن داوُدُ بذَنْبه خَرَّ راكعاً ، قال ابن عباس : أي : ساجداً ، وعبّر عن السجود بالركوع ، لأنهما بمعنى الانحناء . وقال بعضهم : المعنى : فخَرَّ بعد أن كان راكعاً .

فصل

واختلف العلماء هل هذه من عزائم السجود ؟ على قولين . أحدها : ليست

---

(١) تقدم القول في أن مثل هذا لايليق بالأنبياء عليهم السلام ، والصواب هو القول الأول وهو أنه بمعنى اختبرناه .

من عزائم السجود ، قاله الشافعي . والثاني : أنها من عزائم السجود ، قاله أبو حنيفة . وعن أحمد روايتان [١] . قال المفسرون : فبقي في سجوده أربعين ليلة ، لا يرفع رأسه إلّا لوقت صلاة مكتوبة أو حاجة لابُدَّ منها ، ولا يأكل ولا يشرب ، فأكلتِ الأرضُ من جبينه ، ونَبَتَ العُشْبُ من دموعه ، ويقول في سجوده : ربِّ داود ، زَلَّ داودُ زَلَّة أبعدَ ممّا بين المشرق والمغرب . قال مجاهد : نبت البقلُ من دموعه حتى غطّى رأسَه ، ثم نادى : ربِّ قَرِحَ الجبين وجَمَدت العينُ وداوُدُ لم يَرْجِع إليه في خطيئته شيء ، فنودي : أجائع فتُطْعَم ، أم مريض فتُشْفَى ، أم مظلومٌ فيُنتصَر لكَ ؟ فنَحَبَ نَحيباً هاج كلَّ شيء نَبَتَ ، فعند ذلك غفر له [٢] . وقال ثابت البناني : اتخذ داوُدُ سبع حشايا من شَعْر وحشاهُنَّ من الرَّماد ، ثم بكى حتى أنفذها دموعاً ، ولم يشرب شراباً إلا ممزوجاً بدموع عينيه [٣] . وقال وهب بن منبه : نودي : يا داود ارفع رأسك فانّا قد غفَرْنا لكَ ، فرفع رأسه وقد زَمِن وصار مرعشاً .

---

(١) قال ابن كثير : اختلف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود ؟ على قولين ، الجديد من مذهب الشافعي رضي الله عنه : أنها ليست من عزائم السجود ، بل هي سجدة شكر ، قال : والدليل على ذلك مارواه الامام أحمد من حديث أيوب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في السجدة في (ص) : ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها ، قال : ورواه البخاري ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي في « تفسيره » من حديث أيوب به ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٢) ذكر هذا المعنى السيوطي في « الدر » : ٣٠٣/٥ من رواية أحمد وعبد بن حميد عن يونس بن خباب رضي الله عنه ، قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » : يونس بن خبَّاب الأسدي الكوفي : صدوق يخطيء ورمي بالرفض . اهـ .

(٣) ذكره السيوطي من رواية أحمد عن ثابت البناني ، والله أعلم .

فأمّا قوله : (وأنابَ) فمعناه : رَجَعَ مِنْ ذَنْبِه تائباً إلى ربّه ،(فغَفَرْنا له ذلكَ) يعني الذّنب (وإنّ له عِنْدَنا لَزُلْفَى) [قال ابن قتيبة] : أي : تقدُّمٌ وقُرْبة .

قوله تعالى : (وحُسْنَ مَآبٍ) قال مقاتل : حُسْنَ مَرْجِع ، وهو ما أعدَّ الله له في الجنة .

قوله تعالى : (يا داوُدُ) المعنى : وقلنا له يا داود (إنّا جعَلْناكَ) أي : صيّرْناكَ (خليفةً في الأرض) أي : تُدبّرُ أَمْرَ العباد مِنْ قِبَلنا بأمرنا ، فكأنك خليفة عنّا (فاحْكُم بين النّاس بالحق) أي : بالعدل (ولا تَتَّبِعِ الهوى) أي : لا تَمِلْ مع ما تشتهي إذا خالف أَمْرَ الله عز وجل (فيُضِلَّكَ عن سبيل الله) أي : عن دينه [1] (إنّ الذين يَضِلُّونَ) وقرأ أبو نهيك ، وأبو حيوة ، وابن يعمر : « يُضِلُّونَ » بضم الياء .

قوله تعالى : (بما نَسُوا يومَ الحساب) فيه قولان .

أحدها : بما تَرَكُوا العمل ليوم الحساب ، قاله السدي قال الزجاج : لمّا تركوا العمل لذلك اليوم ، صاروا بمنزلة الناسين .

والثاني : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : لهم عذاب شديد يومَ الحساب بما نَسُوا ، أي : تَرَكُوا القضاء بالعدل ، وهو قول عكرمة [2] .

---

(١) قال ابن كثير : هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، قال : وقد توعَّد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) يقول تعالى ذِكره : وإن الذين يميلون عن سبيل الله وذلك الحق الذي شرعه لعباده وأمرهم بالعمل به فيجورون عنه في الدنيا ، لهم في الآخرة يوم الحساب عذاب شديد على ضلالهم عن سبيل الله بما نسوا أمر الله . اهـ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ . أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

قوله تعالى : (وما خَلَقْنا السماءَ والأَرْضَ وما بينهما باطلاً) أي : عَبَثاً (ذلكَ ظَنُّ الذين كَفَروا) أن ذلك خُلِقَ لِغَيْرِ شيء ، وإنما خُلِقَ للثواب والعقاب .

(أَمْ نَجْعَلُ الذين آمنوا) قال مقاتل : قال كفار قريش للمؤمنين : إنّا نُعْطَى في الآخرة مثل ما تُعْطَوْن ، فنزلت هذه الآية [1] . وقال ابن السائب : نزلت في الستة الذين تبارزوا يوم بدر ، عليٍّ رضي الله عنه ، وحمزة رضي الله عنه ، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنه ، وعتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة [2] ، فذكر أولئك بالفساد في الأرض لِعَمَلِهم فيها بالمعاصي ، وسمَّى المؤمنين بالمتّقين لاتّقائهم الشِّرك ، وحُكْمُ الآية عامٌّ .

قوله تعالى : (كِتابٌ) أي : هذا كتاب ، يعني القرآن ، وقد بيَّنّا معنى بَرَكَته في سورة (الأنعام : ٩٢) .

---

(١) ذكر سبب النزول هذا البغوي عن مقاتل بدون سند ، وكذلك ذكره الخازن والآلوسي بدون سند ولم ينسباه لأحد ، قال الآلوسي : وأنت تعلم أن العبرة لعموم اللفظ ، لا لخصوص السبب .

(٢) ذكر سبب النزول هذا السيوطي في « الدر » ٣٠٨/٥ من رواية ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنها في قوله : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض) قال : « الذين آمنوا » : علي ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث ، و « المفسدين في الأرض » : عتبة ، وشيبة ، والوليد ، قال : وهم الذين تبارزوا يوم بدر .

(لِيَدَّبَّروا آياتِه) وقرأ عاصم في رواية : « لِتَدَبَّروا آياتِه » بالتاء خفيفة الدال ، أي : ليتفكروا فيها فيتقرر عندهم صحتُها (ولِيَتَذكَّرَ) بما فيه من المواعظ (أُولُوا الألباب) ، وقد سبق بيان هذا [الرعد : ١٩] [1] .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ . وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . هَـٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ . وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

قوله تعالى : (نِعْمَ العَبْدُ) يعني به سليمان [2] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : (وليتذكر أولو الألباب) يقول : وليعتبر أولو العقول والحجا مافي هذا الكتاب من الآيات فيرتدعوا عما هم عليه مقيمين من الضلالة ، وينتهوا إلى مادلهم عليه من الرشاد وسبيل الصواب . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره : (ووهبنا لداود سليمان) ابنه ولداً ـــ

وفي الأَوَّاب أقوال قد تقدمت في (بني إسرائيل : ٢٥) أَلْيَقُها بهذا المكان أنه رَجّاعٌ بالتَّوبة إلى الله تعالى ممّا يقع منه من السَّهو والغَفْلة .

قوله تعالى : (إذ عُرِضَ عليه بالعَشِيّ) وهو ما بعد الزَّوال (الصّافناتُ) وهي الخيل . وفي معنى الصّافنات قولان .

أحدها : أنها القائمة على ثلاث قوائم ، وقد أقامت الأُخرى على طرف الحافر من يد أو رِجْل ؛ وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد ، وابن زيد ، واختاره الزجاج ، وقال : هذا أَكْثَرُ قيام الخيل إذا وقفتْ كأنَّها تَراوح بين قوائمها ، قال الشاعر :

أَلِفَ الصُّفُونَ فما يَزالُ كأَنَّهُ ممّا يَقومُ على الثَّلاثِ كَسيرا [1]

والثاني : أنها القائمة ، سواء كانت على ثلاث أو غير ثلاث ، قال الفراء : على هذا رأيت العرب ، وأشعارهم تَدُلُّ على أنه القيام خاصة . وقال ابن قتيبة : الصافن في كلام العرب : الواقفُ من الخيلِ وغيرها ، ومنه قوله ﷺ : « مَنْ سَرَّه أن يقومَ له الرجال صُفُوناً ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّار » [2] ،

— (نعم العبد) يقول : نعم العبد سليمان (إنه أواب) يقول : إنه رجّاع إلى طاعة الله ، تواب إليه مما يكرهه منه ، وقيل : إنه عُنِيَ به أنه كثير الذكر لله والطاعة . اهـ وقال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان ، أي نبياً ، كما قال عز وجل : (وورث سليمانُ داودَ) أي في النبوة ، وإلا فقد كان له بنون غيره ، فانه قد كان عنده مائة امرأة حرائر . اهـ .

(١) البيت في « مجمع البيان » : ٢٣/١١١ ، و « البحر المحيط » : ٧/٣٨٨ ، و « القرطبي » : ١٥/١٩٣ ، و « روح المعاني » : ٢٣/١٧٢ ، و « اللسان » ، و « التاج » : صفن .

(٢) لم نره بهذا اللفظ ، ورواه الترمذي : ٢/١٠٠ من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بلفظ : « من سرَّه أن يتمثّل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » وقال : هذا حديث حسن ، قال : وفي الباب عن أبي أمامة . ورواه أبو داود رقم (٥٢٢٩) من حديث معاوية بلفظ : « من أحب أن يمثّل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » ورواه أحمد في « المسند » : ٤/٩١ بلفظ : « من أحب أن يمثّل له عباد الله قياماً فليتبوأ مقعده من النار » ، وهو حديث صحيح .

أي : يُديمون القيام له [١] .

فأمّا الجِياد ، فهي السِّراعُ في الجَرْيِ . وفي سبب عرضها عليه أربعة أقوال .

أحدها : أنه عَرَضَها لأنه أراد جهاد عدوٍّ له ، قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

والثاني : أنها كانت من دوابّ البحر . قال الحسن : بلغني أنها كانت خيلاً خرجتْ من البحر لها أجنحة . وقال إبراهيم التيمي : كانت عشرين فرساً ذات أجنحة . وقال ابن زيد: أخرجتْها له الشياطين من البحر .

والثالث : أنه وَرِثَها من أبيه داوُدَ عليه السلام ، فعُرِضَتْ عليه ، قاله وهب بن منبّه ، ومقاتل .

والرابع : أنه غزا جيشاً ، فظَفِر به وغنمها ، فدعا بها فعُرِضَتْ عليه ، قاله ابن السائب .

وفي عددها أربعة أقوال . أحدها : ثلاثة عشر ألفاً ، قاله وهب . والثاني : عشرون ألفاً ، قاله سعيد بن مسروق . والثالث : ألف فرس ، قاله ابن السائب ، ومقاتل . والرابع : عشرون فرساً ، وقد ذكرناه عن إبراهيم التيمي [٢] .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد) أي : إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات ، قال : قال مجاهد : وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، قال : والجياد : السراع ، قال : وكذا قال غير واحد من السلف . اهـ .

(٢) ذكر القول الرابع الطبري : ٢٣/١٥٤ عن إبراهيم التيمي ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٣٠٩ ، وزاد نسبته للفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه .

قال المفسرون : ولم تزل تُعْرَض عليه إلى أن غابت الشمس ، ففاتته صلاة العصر ، وكان مَهِيباً لا يبتدئه أحد بشيء ، فلم يذكِّروه ، ونسي هو ، فلمّا غابت الشمسُ ذكر الصلاة ، (فقال إنّي أحْبَبْتُ) فتح الياء [1] أهل الحجاز وأبو عمرو (حُبَّ الخَيْرِ) وفيه قولان . أحدهما : أنه المال، قاله سعيد بن جبير، والضحاك . والثاني : حُبُّ الخيل ، قاله قتادة ، والسدي . والقولان يرجعان إلى معنى واحد ، لأنه أراد بالخير الخيلَ ، وهي مال . وقال الفراء : العرب تسمّي الخيل : الخير . قال الزجاج : وقد سمّى رسولُ الله ﷺ زَيْدَ الخيل : زَيْدَ الخير [2] ، ومعنى « أحْبَبْتُ » : آثرتُ حُبَّ الخَيْر على ذِكْر ربّي ؛ وكذلك قال غير الزجاج : « عن » بمعنى « على » . وقال بعضهم : يحتمل المعنى : فشَغَلَني عن ذِكْر ربّي . وقال أبو عبيدة : ومعنى [الكلام] : أَحْبَبْتُ حُبّاً ، ثم أضاف الحُبَّ إلى الخير . وقال ابن قتيبة : سمّى الخَيْل خَيْراً ، لِما فيها من الخَيْر . والمفسرون على أن المراد بذِكْر ربّه : صلاةُ العصر ، قاله عليّ ، وابن مسعود ، وقتادة في آخرين . وقال الزجاج : لا أدري هل كانت صلاةُ العصر مفروضةً ، أم لا ! ، إلاّ أنّ اعتراضه الخيل شَغَلَه عن وقتٍ كان يذكُر الله فيه (حتى توارت بالحجاب)

---

(١) يعني الياء من كلمة « إنيَ » .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « الاصابة » في ترجمة زيد الخيل : وفد في سنة تسع ، وسماه النبي ﷺ : زيد الخير ، قال : وروى ابن شاهين من طريق بشير مولى بني هاشم عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال : كنا عند النبي ﷺ ، فأقبل راكب حتى أناخ ، فقال : يارسول الله إني أتيتك من مسيرة تسع أسألك عن خصلتين ، فقال : « ما اسمك ؟ » قال : أنا زيد الخيل ، قال : « بل أنت زيد الخير ، سل » قال : أسألك عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد . . . » الحديث . قال ابن حجر : وأخرجه ابن عدي في ترجمة بشير (يعني بشير مولى بني هاشم) وضعفه . اهـ . وكان زيد الخيل شاعراً خطيباً شجاعاً كريماً ، يكنى أبا مكنف رضي الله عنه .

قال المصنف : وأهل اللغة يقولون : يعني الشمس ، ولم يَجْرِ لها ذِكْر ، ولا أحسبهم أعطَوا في هذا الفِكْر حقَّه ، لأن في الآية دليلاً على الشمس ، وهو قوله : « بالعشيِّ » ومعناه : عُرِضَ عليه بعد زوال الشمس حتى توارت الشمس بالحجاب ، ولا يجوز الإضمار إلّا أن يجريَ ذِكْر ، أو دليل ذِكْر فيكون بمنزلة الذِّكْر ؛ وأما الحِجَاب ، فهو ما يحجُبها عن الأبصار (١) .

قوله تعالى : (رُدُّوها عَلَيَّ) قال المفسرون : لمّا شغله عَرْضُ الخَيْل عليه عن الصلاة ، فصلاّها بعد خروج وقتها ، اغتمّ وغضب ، وقال : « رُدُّوها عَلَيَّ » ، يعني : أعيدوا الخيْلَ عَلَيَّ (فطَفِقَ) قال ابن قتيبة : أي : أقبل (مَسْحاً) قال الأخفش : أي : يَمْسَحُ مَسْحاً .

فأمّا السُّوق ، فجمع ساق ، مثل دُور ودار . وهمز السُّؤْق ابن كثير ، قال أبو علي : وغيرُ الهمز أحسنُ منه . وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن محيصن : « بالسُّؤوق » مثل الرُّؤوس . وفي المراد بالمسح هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ضربها بالسيف . روى أُبيُّ بن كعب عن رسول الله ﷺ في

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تبارك وتعالى : (فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب) ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، ثم قال ابن كثير : والذي يُقطَع به أنه لم يتركها عمداً ، بل نسياناً ، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، قال : وذلك ثابت في « الصحيحين » من غير وجه ، قال : من ذلك حديث جابر رضي الله عنه قال : جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعدما غربت الشمس ، فجعل يسبُّ كفار قريش ويقول : يارسول الله ، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقال رسول الله ﷺ : « والله ماصليتها » فقال : فقمنا إلى بطحان ، فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة ، وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب . اهـ .

قوله : « فطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوق والأَعناق » قال : « بالسيف »[(١)] . وروى مجاهد عن ابن عباس قال : مسح أعناقها وسوقها بالسيف . وقال الحسن، وقتادة، وابن السائب : قطع أعناقها وسُوقها ، وهذا اختيار السدي ، ومقاتل ، والفراء ، وأبي عبيدة ، والزجاج ، وابن قتيبة ، وأبي سليمان الدمشقي ، والجمهور[(٢)] .

والثاني : أنه جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حُبّاً لها ، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال مجاهد : مسحها بيده ، وهذا اختيار ابن جرير[(٣)] ، والقاضي أبي يعلى .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٣٠٩/٥ من رواية الطبراني في « الأوسط » ، والاسماعيلي في « معجمه » ، وابن مردويه عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه . قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٩٩/٨ : رواه الطبراني في « الأوسط » وفيه سعيد بن بشير ، وثقه شعبة وغيره ، وضعفه ابن معين وغيره ، قال : وبقية رجاله ثقات . اهـ . وقد ضعف سعيدَ بن بشير الحافظُ ابن حجر في « التقريب » .

(٢) قال البغوي في « تفسيره » : (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) فجعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، قال : هذا قول ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومقاتل ، وأكثر المفسرين ، قال : وكان ذلك مباحاً له ، لأن نبي الله لم يكن يقدم على محرَّم ، ولم يكن يتوب عن ذنب بذنب آخر . اهـ . وقال ابن كثير : قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ، قال : ولهذا لمّا خرج عنها لله تعالى عوّضه الله عز وجل ماهو خير منها ، وهو الريح التي تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب ، غدوّها شهر ورواحها شهر ، قال : فهذا أسرع وخير من الخيل . اهـ . وقال الشوكاني في « فتح القدير » عن هذا القول : وهذا أولى بسياق الكلام ، فانه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر ، ثم أمرهم بردها عليه ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك ، وما صده عن عبادة ربه ، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه . اهـ . وقال آخرون غير هذا ، منهم ، الامام أبو جعفر ابن جرير الطبري ، وسيأتي في التعليق الذي بعد هذا ، والله أعلم .

(٣) قال ابن جرير الطبري ١٥٦/٢٣ : حدثني علي قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية عن علي (يعني ابن أبي طلحة) عن ابن عباس قوله : (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) يقول : —

والثالث : أنه كَوَى سُوقها وأعناقها وحبسها في سبيل الله تعالى ، حكاه الثعلبي .

والمفسّرون على القول الأول ، وقد اعترضوا [على] القول الثاني ، وقالوا : أيّ مناسبة بين شغلِها إيّاه عن الصلاه وبين مَسْح أعرافها حُبّاً لها ؟ ! ولا أعلم قوله : « حُبّاً لها » يثبت عن ابن عباس . وحملوا قول مجاهد « مَسَحها بيده » أي : تولّى ضَرْبَ أعناقها .

فان قيل : فالقول الأول يفسُد بأنه لاذَنْب للحيوان ، فكيف وجّه العقوبة إليه وقصد التّشفّي بقتله ، وهذا يشبه فِعْلَ الجبّارين ، لا فِعْلَ الأنبياء ؟

فالجواب : أنه لم يكن لِيَفْعَلَ ذلك إلّا وقد أُبيح له ، وجائز أن يُباح له مايُمنَع منه في شرعنا ، على أنه إذا ذبحها كانت قرباناً ، وأكلُ لحمها جائز ، فما وقع تفريط . قال وهب بن منبّه : لمّا ضَرَبَ سوقها وأعناقها ، شكر اللهُ تعالى له ذلك ، فسخّر له الرّيح مكانها ، وهي أحْسَنُ في المنظر ، وأسْرَعُ في السَّيْر ، وأعْجَبُ في الأُحْدُوثة .

قوله تعالى : (ولقد فَتَنّا سُلَيْمانَ) أي : ابتليناه وامْتَحَنّاه بِسَلْبِ مُلْكه (وألْقَيْنا على كُرْسيّه) أي : على سريره (جَسَداً) وفيه قولان .

أحدهما : أنه شيطان ، قاله ابن عباس ، والجمهور . وفي اسم ذلك الشيطان ثلاثة أقوال . أحدها : صخر ، رواه العوفي عن ابن عباس . وذكر العلماء أنه كان شيطاناً مَرِيداً لم يُسَخَّر لسليمان . والثاني : آصف ، قاله مجاهد ، إلّا أنه ليس بالمُؤْمِن الذي عنده الاسم الأعظم ، إلّا أنّ بعض ناقِلِي التفسير حكى أنه

ـــ جمل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها ، قال الطبري : وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس ، أشبه بتأويل الآية ، لأن نبي الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة (يعني ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف) ويهلك مالاً من ماله بغير سبب ، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها . اهـ .

آصف الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب ، وأنه لمّا فُتن سليمان سقط الخاتم من يده فلم يثبُت ، فقال آصف : أنا أقوم مقامَك إلى أن يتوبَ الله عليك ، فقام في مقامه ، وسار بالسِّيرة الجميلة ، وهذا لايَصِحُّ ، ولا ذكره مَنْ يوثَق به . والثالث : حبقيق ، قاله السدي ؛ والمعنى : أجلسْنا على كرسيِّه في مُلْكه شيطاناً . (ثم أناب) أي : رَجَع . وفيما رجع إليه قولان . أحدهما : تاب من ذَنْبه ، قاله قتادة . والثاني : رَجَع إلى مُلْكه ، قاله الضحاك .

وفي سبب ابتلاء سليمان بهذا خمسة أقوال . أحدهما : أنه كانت له امرأة يقال لها : جرادة ، وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة ، فقضى بينهم بالحق ، إلا أنه وَدَّ أن الحق كان لأهلها ، فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحداً ، وأوحى اللهُ تعالى إليه أنه سيُصيبك بلاء ، فكان لايدري أيأتيه من السماء ، أو من الأرض ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . والثاني : أن زوجته جرادة كانت آثَرَ النِّساء عنده ، فقالت له يوماً : إن أخي بينه وبين فلان خصومة ، وإنّي أُحِبُّ أن تَقْضِيَ له ، فقال : نعم ، ولم يفعل ، فابتُلِيَ لأجل ما قال ، قاله السدي . والثالث : أن زوجته جرادة كان قد سباها في غَزاةٍ له ، وكانت بنتَ مَلِك فأسلمتْ ، وكانت تبكي عنده بالليل والنهار ، فسألها عن حالها ، فقالت : أَذْكُر أبي وما كنتُ فيه ، فلو أنك أَمَرْتَ الشياطين فصوّروا صورته في داري فأتسلّى بها ، [ففعل] ، فكانت إذا خرج سليمان ، تسجد له هي وولائدها [أربعين صباحاً ، فلمّا عَلِم سليمان ، كسر تلك الصورة ، وعاقب المرأة وولائدها] ثم تضرّع إلى الله تعالى مستغفراً ممّا كان في داره ، فسُلِّط الشيطانُ على خاتمه ، [هذا قول وهب بن منبّه . والرابع : أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام ، فأوحى اللهُ تعالى

إليه : ياسليمان ، احتجبتَ [1] عن النـاس ثلاثة أيّـام فلم تنظـُر في أُمور عبادي ولم تُنْصِف مظلوماً من ظالم ؟! فسلـّط الشيطان على خاتمه] ، قاله سعيد ابن المسيب . والخامس : أنه قارَبَ امرأةً من نسائه في الحيض أو غيره ، قاله الحسن [2] .

والقول الثاني : أن المراد بالجسد الذي أُلقي على كرسيّه : أنه وُلد [له ولد] فاجتمعت الشياطين ، فقال بعضهم لبعض : إن عاش له ولد ، لم تنفكّ من البلاء ،

(١) في الأصل : احتجب .

(٢) قال ابن كثير بعد أن ذكر بعض هذه الروايات في سبب ابتلاء سليمان عليه السلام : وهذه كلّها من الاسرائيليات ، ثم ذكر أن مِن أنكرِها مارواه ابن أبي حاتم من رواية المنهال ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وسرد الرواية بطولها بنحو القول الأول الذي ذكره المؤلف هنا في سبب ابتلاء سليمان عليه السلام ، ولكن بأطول منه . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج أحاديث الكشاف » ١٤٣ : وأما مايحكى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام ، فالله أعلم بصحته ، ثم قال : وروى النسائي من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وإسناده قوي ، وكذلك قال الحافظ السيوطي في « الدر » ٣١٠/٥ : وأخرج النسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم بسند قوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء فأعطى لجرادة خاتمه ، وكانت جرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه . . . وسرد القصة بطولها . قال ابن كثير بعد أن سرد هذا القول بطوله من رواية ابن أبي حاتم : إسناده إلى ابن عباس قوي ، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما ــ إن صح عنه ــ من أهل الكتاب ، قال : وفيهم طائفة لايعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه ، قال : ولهذا كان في هذا السياق منكرات ، من أشدها ذكر النساء ، فان المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلّط على نساء سليمان ، بل عصمهنّ الله عز وجل منه تشريفاً وتكريماً لنبيه عليه السلام ، قال : وقد رويت هذه القصة مطوّلة عن جماعة من السلف رضي الله عنهم ، كسعيد بن المسيب ، وزيد بن أسلم ، وجماعة آخرين ، قال : وكلّها متلقّاة من قصص أهل الكتاب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . اهـ .

فسبيلُنا أن نقتُلَ ولده أو نَخبِلَه ، فعَلِم بذلك سليمان ، [فأمر السَّحاب] فحمله ، وعدا ابنه في السحاب خوفاً من الشياطين ، فعاتبه الله تعالى على تخوُّفه من الشياطين ، ومات الولد ، فأُلقي على كرسيه ميتاً جسداً ، قاله الشعبي .

والمفسرون على القول الأول [١] . ونحن نذكُر قصة ابتلائه على قول الجمهور .

الإشارة إلى ذلك

اختلف العلماء في كيفية ذهاب خاتم سليمان على قولين .

أحدهما : أنه كان جالساً على شاطىء البحر ، فوقع منه في البحر ، قاله عليّ رضي الله عنه .

والثاني : أن شيطاناً أخذه ، وفي كيفية ذلك أربعة أقوال .

أحدها : أنه دخل ذات يوم الحمّام ووضع الخاتم تحت فِراشه ، فجاء الشيطان فأخذه وألقاه في البحر ، وجعل الشيطانُ يقول : أنا نبيُّ الله ، قاله سعيد ابن المسيّب .

والثاني : أن سليمان قال للشيطان : كيف تَفتِنون الناسَ ؟ قال : أرِني خاتمك أُخبِرْكَ ، فأعطاه إيّاه ، فنبذه في البحر ، فذهب مُلك سليمان ، وقعد الشيطان على كرسيه ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه دخل الحمّام ، ووضع خاتمه عند أوثق نسائه في نفسه ، فأتاها الشيطان فتمثّل لها في صورة سليمان وأخذ الخاتم منها ، فلمّا خرج سليمانُ ، طلبه

(١) يريد به القول الأول الذي ذكره عند قوله تعالى : (وألقينا على كرسيه جسداً) قال : وفيه قولان . أحدهما : أنه شيطان ، قاله ابن عباس والجمهور .

منها ، فقالت : قد دفعتُه إليك ، فهرب سليمان ، وجاء الشيطان فجلس على مُلكه ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أنه دخل الحمّام ، وأعطى الشيطانَ خاتمه فألقاه الشيطان في البحر ، فذهب مُلك سليمان ، وأُلقي على الشيطان شِبْهُه ، قاله قتادة .

فأمّا قِصّةُ الشيطان ، فذكر أكثر المفسرين أنه لمّا أخذ الخاتم رمى به في البحر ، وأُلقي عليه شِبْهُ سليمان ، فجلس على كرسيّه ، وتحكّم في سُلطانه . وقال السدي : لم يُلقِه في البحر حتى فرّ من مكان سليمان . وهل كان يأتي [نساء] سليمان ؛ فيه قولان . أحدهما : أنه لم يَقْدِر عليهنّ ، قاله الحسن ، وقتادة . والثاني : أنه كان يأتيهنّ في زمن الحيض ، فأَنكَرْنَه ، قاله سعيد ابن المسيّب ؛ والأول أصحّ [١] . قالوا : وكان يقضي بقضايا فاسدة ، ويحكُم بما لا يجوز ، فأنكره بنو إسرائيل ، فقال بعضُهم لبعض : إمّا أن تكونوا قد هلَكتم أنتم ، وإمّا أن يكون ملِكُكم قد هلَكَ ، فاذْهَبوا إلى نسائه فاسألوهُنّ ، فذهبوا ، فقُلْنَ : إنّا واللهِ قد أنكَرْنا ذلك ؛ فلم يزل على حاله إلى أن انقضى زمن البلاء .

وفي كيفيّة بُعْدِ الشيطان عن مكان سليمان أربعة أقوال .

أحدها : أن سليمان وجد خاتمه فتختّم به ، ثم جاء فأخذ بناصية الشيطان ، قاله سعيد بن المسيّب .

---

(١) وقد رأيت قبل قليل كيف قال ابن كثير : فان المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلّط على نساء سليمان ، بل عصمهن الله عز وجل منه تشريفاً وتكريماً لنبيه عليه السلام ، قال : وقد رويت هذه القصة عن جماعة من السلف ، ثم قال : وكلّها متلقاة من قصص أهل الكتاب ، والله أعلم بالصواب . اهـ .

والثاني : أن سليمان لمّا رَجَع إلى مُلْكه وجاءته الرِّيح والطَّير والشياطين، فرّ الشيطان حتى دخل البحر، قاله مجاهد .

والثالث : أنه لمّا مضى أربعون يوماً، طار الشيطان من مجلسه، قاله وهب .

والرابع : أن بني إسرائيل لمّا أنكروه، أتَوه فأحدقوا به، ثم نَشَروا التَّوراة فقرؤوا، فطار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت، قاله السدي .

وفي قدر مكث الشيطان قولان . أحدهما : أربعون يوماً، قاله الأكثرون . والثاني : أربعة عشر يوماً، حكاه الثعلبي .

وأما قصة سليمان عليه السلام، فانه لما سُلب خاتمه، ذهب ملكه، فانطلق هارباً في الأرض . قال مجاهد : كان يَسْتَطْعِمُ فلا يُطْعَم، فيقول: لو عرَفْتُموني أعطيتُموني، أنا سليمان، فيطردونه، حتى أعطته امرأةٌ حوتاً، فوجد خاتمه في بطن الحوت . وقال سعيد بن جبير : انطلق سليمان حتى أتى ساحل البحر، فوجد صيّادين قد صادوا سمكاً كثيراً وقد أنتن عليهم بعضُه، فأتاهم يَسْتَطْعِم، فقالوا : اذهبْ إلى تلك الحيتان فخُذْ منها، فقال : لا، أطْعِموني من هذا، فأبَوا عليه، فقال : أطْعِموني فانّي سليمان، فوثب إليه رجُلٌ منهم فضربه بالعصا غَضَباً لسليمان، فأتى تلك الحيتان فأخذ منها شيئاً، فشَقّ بطنَ حوت، فاذا هو بالخاتم . وقال الحسن : ذُكِر لي أنه لم يُؤْوِه أحدٌ من الناس، ولم يُعْرَف أربعينَ ليلةً، وكان يأوي إلى امرأة مسكينة، فبينا هو يوماً على شطّ نهر، وجد سمكة، فأتى بها المرأة فشقّتها فاذا بالخاتم . وقال الضحاك : اشترى سمكة من امرأة فشقّ بطنها فوجد خاتمه .

وفي المدة التي سُلب فيها الملك قولان . أحدهما : أربعون ليلة ،

كما ذكرنا عن الحسن والثاني : خمسون ليلة ، قاله سعيد بن جبير . قال المفسرون : فلمّا جعل الخاتم في يده ، ردَّ اللهُ عليه بهاءه ومُلْكه ، فأظلَّته الطَّير ، وأقبل لايستقبله جنيّ ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلّا سجد له ، حتى انتهى إلى منزله. قال السدي : ثم أرسل إلى الشيطان ، فجيء به ، فأمر به فجُعل في صندوق من حديد ، ثم أطبق عليه وأقفل ، وختم عليه بخاتمه ، ثم أمر به فأُلقي في البحر ، فهو فيه إلى أن تقوم الساعة . وقال وهب : جابَ [1] صخرةً فأدخله فيها ، ثم أوثقها بالحديد والرصاص ، ثم قذفه في البحر .

قوله تعالى : (وَهَبْ لِي مُلْكاً لايَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) فتح الياء [2] نافع ، وأبو عمرو . وفيه قولان .

أحدها : لايكون لأحد بعدي ، قاله مقاتل ، وأبو عبيدة . وقد أخرج البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إنَّ عِفريتاً من الجنّ تفلَّت عليَّ البارحةَ ليَقْطَعَ عَلَيَّ صلاتي ، فأمكنني اللهُ منه ، فأخذتُه ، فأردتُ أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظُروا إليه كلُّكم ، فذكرتُ دعوة أخي سليمان : (هَبْ لي مُلْكاً لاينبغي لأحد من بعدي) ، فرددتُه خاسئاً » [3] .

---

(١) جاب : قطع .

(٢) أي : ياء « بعدي » .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » : ٣٢٩/٦ ، ٤٢٠/٨ ، ومسلم : ٣٨٤/١ ، والحديث ذكره السيوطي في « الدر » : ٣١٣/٥ ، وزاد نسبته لعبد بن حميد ، والنسائي ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : وقوله : « تفلّت عليّ » أي : تعرّض لي فلتة ، أي : بغتة ، وقوله : « البارحة » أي : الليلة الخالية الزائلة ، قال : والبارح : الزائل ، قال : ويقال من بعد الزوال إلى آخر ـــ

والثاني : لاينبغي لأحد أن يسلُبه مِنّي في حياتي ، كما فعل الشيطان الذي جلس على كرسيه ، قاله الحسن ، وقتادة [١] . وإنما طلب هذا المُلك ، ليَعلم أنه قد غُفر له ، ويَعرف منزلته بإجابة دعوته ، قاله الضحاك . ولم يكن في مُلْكه حين دعا بهذا الرِّيحُ ولا الشياطينُ (فسَخَّرْنا له الرِّيحَ) [٢] وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو جعفر ، وأبو المتوكل : « الرِّياحَ » على الجمع .

النهار : البارحة ، قال : وقوله : « فذكرت دعوة أخي سليمان » أي : قوله : (وهب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي) قال : وفي هذا إشارة إلى أنه ﷺ كان يقدر على ذلك ، إلا أنه تركه رعاية لسليمان عليه السلام ، قال : ويحتمل أن تكون خصوصية سليمان استخدام الجن في جميع مايريده لا في هذا القدر فقط ، قال : واستدل الخطابي بهذا الحديث على أن أصحاب سليمان كانوا يرون الجن في أشكالهم وهيئتهم حال تصرفهم ، قال : وأما قوله : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم) فالمراد : الأكثر الأغلب من أحوال بني آدم ، قال : وتُعقّب بأن نفي رؤية الانس للجن على هيئتهم ليس بقاطع من الآية ، بل ظاهرها أنه ممكن ، فان نفي رؤيتنا إيام مقيد بحال رؤيتهم لنا ، قال : ولا ينفي إمكان رؤيتنا لهم في غير تلك الحالة ، قال : ويحتمل العموم ، وهو الذي فهمه أكثر العلماء ، حتى قال الشافعي : من زعم أنه يرى الجن ، أبطلنا شهادته ، واستدل بهذه الآية . اهـ .

(١) قال ابن جرير الطبري : قوله : (قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي) يقول تعالى ذِكره : قال سليمان راغباً إلى ربه : ربِّ استر عليَّ ذنبي الذي أذنبتُ بيني وبينك فلا تعاقبني به (وهب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي) لايسلبنيه أحد كما سلبنيه قبل هذه الشيطانُ . اهـ . وقال ابن كثير : قال بعضهم : معناه : لاينبغي لأحد من بعدي ، أي : لايصلح لأحد أن يسلبنيه بعدي ، كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه ، لا أنه يحجر على مَن بعده من الناس ، قال : والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لايكون لأحد من بعده من البشر مثله ، قال : وهذا هو ظاهر السياق من الآية ، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : فاستجبنا له دعاءه فأعطيناه ملكاً لاينبغي لأحد من بعده ، فسخرنا له الريح .

قوله تعالى : (رُخاءً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مُطيعة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والضحاك . والثاني : أنها الطيِّبة ، قاله مجاهد . والثالث : الليِّنة ، مأخوذ من الرَّخاوة ، قاله اللغويون .

فان قيل : كيف وصفها بهذا بعد أن وصفها في سورة (الأنبياء : ٨١) بأنها عاصفة ؟

فالجواب : أن المفسرين قالوا : كان يأمُر العاصفَ تارةً ويأمُر الرُّخاءَ أخرى . وقال ابن قتيبة : كأنَّها كانت تشتدُّ إذا أراد ، وتَلِينَ إذا أراد .

قوله تعالى : (حيثُ أصابَ) أي : حيث قصد وأراد . قال الأصمعي : تقول العرب : أصابَ فلانٌ الصَّوابَ فأخطأَ الجوابَ ، أي : أراد الصَّوابَ .

قوله تعالى : (والشياطينَ) أي : وسخَّرْنا له الشياطينَ (كُلَّ بَنّاءٍ) يبنون له مايشاء (وغَوّاصٍ) يغوصون له في البحار فيَستخرِجون الدُّرَّ [1] ، (وآخَرِينَ) أي : وسخَّرْنا له آخَرِين ، وهم مَرَدَةُ الشياطين ، سخَّرهم له حتى قَرَّنهم في الأصفاد لِكُفرهم . قال مقاتل : أوثَقَهم في الحديد . وقد شرحنا

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (والشياطين كلّ بنّاءٍ وغواص) يقول تعالى ذكره : وسخَّرنا له الشياطين فسلَّطناه عليها مكان ما ابتليناه بالذي ألقينا على كرسيه منها ، يستعملها فيما شاء من أعماله ، من بنّاء وغوّاص ، فالبُناة منها يصنعون محاريب وتماثيل ، والغاصة يستخرجون له الحُلي من البحار ، وآخرون ينحتون له جفاناً وقدوراً ، والمردة في الأغلال مقرّنون . اهـ . وقال ابن كثير : وقوله جل جلاله : (والشياطينَ كلَّ بنّاءٍ وغوّاص) أي : منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، قال : وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها . اهـ .

معنى (مُقَرَّنِينَ في الأَصفاد) في سورة نبي الله إبراهيم عليه السلام [إبراهيم:٤٩] .
(هذا عطاؤنا) المعنى : قُلنا له : هذا عطاؤنا . وفي المشار إليه قولان .

أحدهما : أنه جميع ما أعطي ، (فامْنُنْ أو أَمْسِكْ) أي : أَعْطِ مَنْ شئتَ من المال ، وامْنَعْ مَنْ شئتَ . والمَنُّ : الإحسان إلى من لا يطلب ثوابه .

والثاني : أنه إشارة إلى الشياطين المسخَّرِين له ؛ فالمعنى : فامْنُنْ على مَنْ شئتَ باطلاقه ، وأَمْسِكْ مَنْ شئتَ منهم . وقد روي معنى القولين عن ابن عباس .

قوله تعالى : (بغير حساب) قال الحسن : لا تَبِعَةَ عليك في الدُّنيا ولا في الآخرة . وقال سعيد بن جبير : ليس عليك حسابٌ يومَ القيامة . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : هذا عطاؤنا بغير حساب فامْنُنْ أو أَمْسِكْ [١] .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره [سبأ:٣٧ ، الرعد:٢٩ ، الانبياء : ٨٣] [٢] إلى قوله : (مَسَّنِيَ الشَّيطانُ) وذلك أن الشيطان سُلِّط عليه ، فأضاف ما أصابه إليه .

قوله تعالى : (بِنُصْبٍ) قرأ الأكثرون بضم النون وسكون الصاد ؛ وقرأ

---

(١) قال ابن جرير الطبري : أخبر تعالى أنه سخر له مالم يسخّر لأحد من بني آدم ، وذلك تسخيره له الريح والشياطين قال : ثم قال عز ذِكره : هذا الذي أعطيناك من الملك وتسخيرنا ما سخّرنا لك ، عطاؤنا ، ووهبنا لك ما سألتنا أن نهبه من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك ، ثم قال : والله لا يحاسب على ما أعطى من ذلك الملك والسلطان . اهـ . وقال ابن كثير : وقوله عز وجل : (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) أي : هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت واحرم من شئت ، لا حساب عليك مهما فعلت ، فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذِكره لنبيه محمد ﷺ : (واذكر) أيضاً يا محمد (عبدَنا أيوب إذ نادى ربــه) مستغيثاً به فيما نزل بــه من البلاء يارب (اني مسني الشيطان بنُصْب) . اهـ .

الحسن ، وابن أبي عبلة ، وابن السميفع ، والجحدري ، ويعقوب : بفتحهما . وهل بينهما فرق ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنهما سواء . قال الفراء : هما كالرُّشْد والرَّشَد ، والعُدْم والعَدَم ، والحُزْن والحَزَن ؛ وكذلك قال ابن قتيبة ، والزجاج . قال المفسرون : والمراد بالنصب : الضُّرُّ الذي أصابه .

والثاني : أن النُّصْب بتسكين الصاد : الشرُّ ، وبتحريكها : الإعياء ، قاله أبو عبيدة .

وقرأت عائشة ، ومجاهد ، وأبو عمران ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وأبو عمارة عن حفص : « بنُصُب » بضم النون والصاد جميعاً . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو الجوزاء ، وهبيرة عن حفص : « بنَصْب » بفتح النون وسكون الصاد[1] .

وفي المراد بالعذاب قولان . أحدهما : أنه العذاب الذي أصاب جسده . والثاني : أنه أخْذ ماله وولده .

قوله تعالى : (ارْكُضْ) أي : اضْرِب الأرضَ (بِرِجْلِكَ)[2] ،

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القراءة في ذلك عندنا ما عليه قراء الأمصار ، وذلك الضم في النون والسكون في الصاد . اهـ .

(٢) قال القاسمي : أي : استجبنا له وقلنا : اركض برجلك ، أي : اعدُ بها وامش فقد برئتَ وشفيتَ من مرضك وقوي جسمك وصحَّ بدنك « هذا مغتسل بارد وشراب » أي : ماءٌ تغتسل به وتشرب منه ، قال : والاشارة إلى عين أو نهر أو نحوهما .

وقال الطبري : فاغتسل وشرب ، ففرّجنا عنه ما كان فيه من البلاء ، ووهبنا له أهله من زوجة وولد (ومثلهم معهم رحمة منّا) له (وذكرى) يقول : وتذكيراً لأولي العقول ليعتبروا بها فيتعظوا . اهـ .

ومنه : رَكَضْتُ الفرَس [١] . فرَكَضَ فنبعتْ عَيْنٌ ماء ، فذلك قوله عز وجل : (هذا مُغْتَسَلٌ باردٌ وشرابٌ) . قال ابن قتيبة : المُغْتَسَلُ : الماء ، وهو الغسول أيضاً . قال الحسن : رَكَضَ برِجله فنبعتْ عَيْنٌ [فاغتَسلَ منها ، ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً ، ثم رَكَضَ برِجله فنبعتْ عَيْنٌ] فشَرِب منها ؛ وعلى هذا جمهور العلماء أنه رَكَضَ ركضتين فنبعتْ له عينان ، فاغتسل من واحدة ، وشرب من الأُخرى .

قوله تعالى : (وخُذْ بيدك ضِغْثاً) كان قد حَلَفَ لئن شفاه الله ليَجْلِدَنَّ زوجتَه مائةَ جَلْدة [٢] . وفي سبب هذه اليمين ثلاثة أقوال .

أحدها : أن إبليس جلس في طريق زوجة أيُّوبَ كأنه طبيب ، فقالت له : يا عبد الله : إنَّ هاهنا إنساناً مبتلىً ، فهل لكَ أن تداويَه ؟ قال : نعم ، إن شاء شفيتُه ، على أن يقول إذا برَأَ : أنت شفيتَني ، فجاءت فأخبرتْه ، فقال : ذاك الشيطان ، لِلّهِ عَلَيَّ إن شفاني أن أجلِدَكِ مائةَ جَلْدة ، رواه يوسف بن مهران

---

(١) في « الصحاح » و « اللسان » : ورَكَضْتُ الفرَسَ برجلي : إذا استَحْثَثْتَهُ ليَعْدُوَ ، ثم كَثُرَ حتى قيل : رَكَضَ الفرَسُ : إذا عَدا ، وليس بالأصل ، والصواب : رُكِضَ الفرَسُ ، على مالم يُسَمَّ فاعله ، فهو مَرْكُوضٌ .

(٢) قال ابن كثير : وقوله : (وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث) وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته ـ قيل : باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه ـ فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، وقيل لغير ذلك من الأسباب ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والاحسان أن تقابل بالضرب ، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثاً وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برّت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره ، قال : وهذا من الفرَج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه . اهـ .

عن ابن عباس [1] .

والثاني : أن إبليس لَقِيَها فقال : إنّي أنا الذي فعلتُ بأيوبَ مابه ، وأنا إِلَه الأرض ، وما أخذتُه منه فهو بيدي ، فانطلِقي أُريكِ ، فمشى بها غيرَ بعيدٍ ، ثم سَحَرَ بَصَرَها ، فأراها وادياً عميقاً فيه أهلُها وولدُها ومالُها ، فأتت أيّوبَ فأخبرتْه ، فقال : ذاكَ الشيطان ، ويحكِ كيف وَعَى قولَه سَمْعُكِ ؟ واللهِ لئن شفاني اللهُ عز وجل لأَجْلِدَنَّكِ مائةً ، قاله وهب بن منبّه .

والثالث : أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة ، فقال : لِيَذْبَحْ لي هذه وقد بَرَأَ ؛ فأخبرتْه ، فحلَفَ لَيَجْلِدَنَّها ، وقد ذكرنا هذا القول في سورة (الأنبياء : ٨٣) عن الحسن .

فأمّا الضِّغْث ، فقال الفراء : هو كُلُّ ما جمعتَه من شيءٍ مِثْلِ الحِزْمة الرَّطْبة ، قال : وما قام على ساق واستطال ثم جمعتَه ، فهو ضِغْث . وقال ابن قتيبة : هو الحُزْمَةُ من الخِلال والعيدان . قال الزجاج : هو الحُزْمَةُ من الحشيش والرَّيْحان وما أشبهه . قال المفسرون : جزى اللهُ زوجتَه بحُسْن صبرها أن أفتاه في ضربها فسهّل الأمر ، فجمع لها مائة عود ، وقيل : مائة سنبلة ، وقيل : كانت أسَلاً [2] ، وقيل : من الإِذْخِر [3] ، وقيل : كانت شماريخ ، فضربها بها ضربةً واحدةً ولم يَحْنَثْ في يمينه . وهل ذلك خاصٌّ له ، أم لا ؟ فيه قولان .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٣١٦/٥ من رواية أحمد في « الزهد » ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) قال في « الصحاح » : الأسَلُ : شجرٌ ، ويقال : كل شجر له شوك طويل فشَوْكُه أسَلٌ .

(٣) قال في « المصباح » : الاذخر ، بكسر الهمزة والخاء : نبات معروف ذكيُّ الريح ، وإذا جَفَّ ابيضّ .

أحدهما : أنه عامٌّ ، وبه قال ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، [وابن أبي ليلى] .
والثاني : أنه خاصٌّ لأيوب ، قاله مجاهد .

فصل

وقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يَضْرِبَ عبده عشرة أسواط فجمعها كلَّها وضربه بها ضربة واحدة ، فقال مالك ، والليث بن سعد : لا يَبَرُّ ، وبه قال أصحابنا . وقال أبو حنيفة والشافعي : إذا أصابه في الضربة الواحدة كلُّ واحدٍ منها ، فقد بَرَّ ، واحتجوا بعموم قصة أيُّوب عليه الصلاة والسلام .

قوله تعالى : (إنّا وَجَدْناه صابراً) أي : على البلاء الذي ابتليناه به [١] .

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ . وَاذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ . هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ . جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ . مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ . هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ . إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (إنا وجدناه صابراً) يقول : إنا وجدنا أيوب صابراً على البلاء ، لا يحمله البلاء على الخروج عن طاعة الله والدخول في معصيته (نعم العبد إنه أوّاب) يقول : إنه إلى طاعة الله مقبل ، وإلى رضاه رجّاع . اهـ .

قوله تعالى : (واذْكُرْ عِبادَنا) وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وحميد ، وابن محيصن ، وابن كثير : « عبدَنا » ، إشارة إلى إبراهيم ، وجعلوا إسحاق ويعقوب عطفاً عليه ، لأنه الأصل وهما ولداه ، والمعنى : اذْكُرْ صبرهم ؛ فإبراهيم أُلقي في النار ، وإسحاق أُضجع للذبح [١] ، ويعقوب صبر على ذهاب بصره وابتُلي بفقد ولده ؛ ولم يُذْكَر إسماعيل معهم ، لأنه لم يُبْتَلَ كما ابتُلوا [٢] .

(أُولي الأَيدي) يعني القوة في الطاعة (والأَبصارِ) البصائر في الدِّين والعِلْم . قال ابن جرير : وذِكْر الأيدي مَثَلٌ ، وذلك لأن باليد البطش ، وبالبطش تُعرف قُوَّة القويِّ ، فلذلك قيل للقويِّ : ذو يدٍ ؛ وعنى بالبصر : بصر القلب ، وبه تُنال معرفة الأشياء . وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : « أُولي الأَيدِ » بغير ياء في الحالين . قال الفراء : ولها وجهان . أحدهما : أن يكون القارىء لهذا أراد الأيدي ، فحذف الياء ، وهو صواب ، مثل الجَوارِ والمناد . والثاني : أن يكون من القُوَّة والتأييد ، من قوله : (وأيَّدْناه بِرُوحِ القُدُس) [البقرة : ٨٧] .

قوله تعالى : (إنّا أَخْلَصْناهم) أي : اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين ، فأفردناهم بمُفْرَدة من خصال الخير ؛ ثم أبان عنها بقوله : (ذِكرى الدار) .

وفي المراد بالدار هاهنا قولان . أحدهما : الآخرة . والثاني : الجنة .

وفي الذكرى قولان .

---

(١) هذا على رأي من قال بأن الذبيح هو إسحاق ، وبذلك قال المصنف ، وقد رجح ذلك الطبري ، وقد تقدم أن الصواب في ذلك أن الذبيح إسماعيل عليه السلام ، لا إسحاق ، وعليه الجمهور .

(٢) قال ابن كثير : يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار) يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع ، والقوة في العبادة والبصيرة النافذة . اهـ .

أحدها : أنها من الذِّكْر ، فعلى هذا يكون المعنى : أَخْلَصْنَاهم بذِكْر الآخرة ، فليس لهم ذِكْر غيرها ، قاله مجاهد ، وعطاء ، والسدي . وكان الفُضَيل ابن عِياض رحمة الله عليه يقول : هو الخوف الدائم في القلب .

والثاني : أنها التذكير ، فالمعنى أنهم يَدْعُون الناس إلى الآخرة وإلى عبادة الله تعالى ، قاله قتادة .

وقرأ نافع : « بخالصةِ ذِكْرَى الدَّارِ » ، فأضاف « خالصة » إلى « ذِكْرَى الدار » .

قال أبو علي : تحتمل قراءة من نوَّن وجهين ، أحدهما : أن تكون « ذكرى » بدلاً من « خالصة » ، والتقدير : أخلصناهم بذكر الدار ، والثاني : أن يكون المعنى : أخلصناهم بأن يذكُروا الدَّار بالتأهُّب للآخرة والزُّهد في الدنيا . ومن أضاف ، فالمعنى : أخْلَصْنَاهم بإخلاصهم ذِكْرَى الدَّار بالخوف منها . وقال ابن زيد : أخلصناهم بأفضل ما في الجنة [1] .

قوله تعالى : (وإنهم عندنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ) أي : من الذين اتخذهم الله صَفْوَةً فصفَّاهم من الأدناس (الأخيارِ) الذين اختارهم .

(واذْكُر إسماعيلَ واليَسَعَ وذا الكفل) أي : اذْكُرْهم بفضلهم وصبرهم لِتَسْلُكَ طريقَهم واليَسَعُ نبيٌّ ، واسمه أعجميٌّ معرَّب ، وقد ذكرناه في (الأنعام : ٨٥) ، وشرحنا في سورة (الأنبياء : ٨٥) قصة ذي الكفل ، وتكلمنا في (البقرة : ١٢٥) في اسم إسماعيل ، وزعم مقاتل أن إسماعيل هذا ليس بابن إبراهيم .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال بالصواب في ذلك على قراءة من قرأه بالتنوين أن يقال : معناه : إنا أخلصناهم بخالصة هي ذكرى الدار الآخرة ، فعملوا لها في الدنيا فأطاعوا الله وراقبوه . اهـ .

قوله تعالى : (هذا ذِكْرٌ) أي : شرف وثناء جميل يُذْكَرون به أبداً (وإنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مآبٍ) أي : حُسْنَ مَرْجِعٍ يرجعون إليه في الآخرة .

ثم بيَّن ذلك المَرْجِع ، فقال : (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأبوابُ) قال الفراء : إنما رُفعت « الأبوابُ » لأن المعنى : مفتحةً لهم أبوابُها ، والعرب تجعل الألف واللام خَلَفاً من الإضافة ، فيقولون : مررت على رَجُلٍ حَسَنِ العَيْنِ ، قبيحِ الأنف ، والمعنى : حسنةٌ عينُه ، قبيحٌ أنفُه ، ومنه قوله تعالى : (فإنَّ الجحيمَ هي المأوى) [النازعات : ٣٩] والمعنى : مأواه . وقال الزجاج : المعنى : مُفَتَّحة لهم الأبواب منها ، فالألف واللام للتعريف ، لا للبدل . قال ابن جرير : والفائدة في ذِكْر تفتيح الأبواب ، أن الله عز وجل أخبر عنها أن أبوابها تُفتَح لهم بغير فتح سُكَّانها لها بيد ، ولكن بالأمر ، قال الحسن : هي أبواب تُكَلَّم ، فتُكَلَّم : انفتحي ، انغلقي .

قوله تعالى : (وعِنْدَهم قاصراتُ الطَّرْفِ) قد مضى بيانه في (الصافات : ٤٨) . قال الزجاج : والأتراب : اللواتي أسنانُهُنَّ واحدةٌ وهُنَّ في غاية الشباب والحُسْن .

قوله تعالى : (هذا ما تُوعَدُونَ) [1] قرأ أبو عمرو ، وابن كثير بالياء . والباقون بالتاء .

قوله تعالى : (لِيَوْمِ الحساب) اللام بمعنى « في » . والنَّفاد : الانقطاع . قال السدي : كلَّما أُخِذ من رِزق الجنة شيء ، عاد مِثْلُه .

---

(١) قال ابن كثير : أي : هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة ، هي التي وعدها لعباده المتقين الذين يصيرون اليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار . اهـ .

﴿ هٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ . هٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ . قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ . قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ . وَقَالُوا مَالَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ . إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾

قوله تعالى : (هـذا) المعنى : هذا الذي ذكرناه (وإنَّ للطَّاغينَ) يعني الكافرين (لَشَرَّ مَآبٍ)[1] ، ثم بيَّن ذلك بقوله : (جهنَّمَ) والمِهاد : الفراش . (هـذا فَلْيذوقوه) قال الفراء : في الآية تقديم وتأخير ، تقديره : هذا حميمٌ وغسَّاقٌ فَلْيَذُوقوه ؛ وإن شئتَ جعلتَ الحميمَ مستأنَفاً ، كأنَّكَ قُلْتَ : هذا فلْيَذُوقوه ، ثم قلت : منه حَميمٌ ، ومنه غَسَّاقٌ ، كقول الشاعر :

حتَّى إذا ما أضاءَ الصُّبْحُ في غَلَسٍ وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ ومَحْصُودُ[2]

فأمّا الحَميم ، فهو الماء الحارّ . وأما الغَسّاق ، ففيه لغتان ، قرأ حمزة ، والكسائي ،

---

(١) قال ابن جرير الطبري : يعني تعالى ذكره بقوله : (هذا) الذي وصفت لهؤلاء المتقين ، قال : ثم استأنف جل وعز الخبر عن الكافرين به الذين طغَوْا عليه وبغَوا فقال : (وإن للطاغين) وهم الذين تمرَّدوا على ربهم فعَصَوْا أمره مع إحسانه إليهم (لشرَّ مآب) ، يقول : لشرّ مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا . اهـ .

(٢) البيت من شواهد الفراء ، وهو في « معاني القرآن » : ١٩٣ ، و « الطبري » : ٢٣/١٧٦ . والغلس : ظلام آخر الليل . والملويّ : اليابس الذابل .

وخلف ، وحفص : بالتشديد ، وكذلك في (عَمَّ يتساءلون : ٢٥) ، تابعهم لمفضل في (عَمَّ يتساءلون) ، وقرأ الباقون بالتخفيف وفي الغَسّاق أربعة أقوال .

أحدها : الزَّمهرير ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال مجاهد : الغَسّاق لا يستطيعون أن يذوقوه من برده .

والثاني : أنه ما يجري من صديد أهل النار ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال عطيّة ، وقتادة ، وابن زيد .

والثالث : أن الغَسّاق : عَيْنٌ في جهنَّم يسيل إليها حُمَةُ كلِّ ذاتِ حُمَة من حيَّة أو عقرب أو غيرها ، فيستنقع ، فيؤتى بالآدمي فيُغْمَس فيها غَمْسةً ، فيخرج وقد سقط جِلْدُه ولحمه عن العظام ، ويَجُرُّ لحمَه جَرَّ الرجُل ثوبه ، قاله كعب .

والرابع : أنه ما يَسيل من دموعهم ، قاله السدي . قال أبو عبيدة : الغَسّاق : ما سال ، يقال : غَسَقَت العين والجرح . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن قتيبة قال : لم يكن أبو عبيدة [يذهب] إلى أن في القرآن شيئاً من غير لغة العرب ، وكان يقول : هو اتفاق يقع بين اللغتين ، وكان [غيرُه] يزعُم أن الغَسّاق : البارد المُنْتِن بلسان الترك . وقيل : فَعّال ، من غَسَقَ يَغْسِقُ ؛ فعلى هذا يكون عربيّاً . وقيل في معناه : إنه الشديد البَرْد ، يحرِق من بَرْده . وقيل : هو ما يَسيل من جلود أهل النار من الصديد [1] .

قوله تعالى : (وآخَرُ) قرأ أبو عمرو ، والمفضّل : « وأُخَرُ » بضم الهمزة من غير مدٍّ ، فجمعا لأجل نعته بالأزواج ، وهي جمع . وقرأ الباقون بفتح الألف ومدّه على التوحيد ، واحتجُّوا بأن العرب تنعت الاسم إذا كان فعلاً بالقليل

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : هو ما يسيل من صديدهم ، قال : لأن ذلك هو الأغلب من معنى الغسوق ، وإن كان للآخَر وجــه صحيح . اهـ .

والكثير ؛ قال الفراء : تقول : عذابُ فلانٍ ضُروبٌ شتَّى ، وضَرْبان مختلفان ؛ وإن شئتَ جعلتَ الأزواج نعتاً للحميم والغَسَّاق والآخر ، فهُنَّ ثلاثةٌ ، والأشبه أن تجعله صفة لواحد . وقال الزجاج : من قرأ « وآخرُ » بالمدّ ، فالمعنى : وعذاب آخر (مِنْ شَكْلِهِ) أي : مِثْلِ الأول . ومن قرأ : « وأُخَرُ » ، فالمعنى : وأنواعٌ أُخَر ، لأن قوله : (أزواجٌ) بمعنى أنواع . وقال ابن قتيبة : « مِنْ شَكْلِه » أي : مِنْ نَحوِه ، « أَزْوَاجٌ » أي : أصنافٌ . وقال ابن جرير : « مِنْ شَكْلِهِ » أي : مِنْ نَحوِ الحَميم . قال ابن مسعود في قوله : « وآخرُ مِنْ شَكْلِهِ » : هو الزَّمهرير . وقال الحسن : لمّا ذكر اللهُ تعالى العذابَ الذي يكون في الدنيا ، قال : « وآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ » أي : وآخَر لم يُرَ في الدنيا [1] .

قوله تعالى : (هذا فَوْجٌ) هذا قول الزَّبانية للقادة المتقدِّمين في الكفر إذا جاؤوهم بالأتباع . وقيل : بل هو قول الملائكة لأهل النار كلَّما جاؤوهم بأُمَّة بعد أُمَّة [2] . والفوج : الجماعة من الناس ، وجمعه : أفواج . والمُقْتَحِمُ : الدّاخل في الشيء رمياً بنفسه . قال ابن السائب : إنهم يُضْرَبونَ بالمَقامع ، فيُلْقُونَ أنفُسهم في النار ويَثِبون فيها خوفاً من تلك المقامع . فلمّا قالت

---

(١) قال ابن كثير : وقال الحسن البصري في قوله تعالى : (وآخر من شكله أزواج) ألوان من العذاب ، قال : وقال غيره : كالزمهرير والسموم وشراب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهويّ ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة ، قال : والجميع مما يعذّبون به ويهانون بسببه . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار) هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : (كلما دخلت أمة لعنت أختها) يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض .

الملائكة ذلك لأهل النار ، قالوا : لا مَرْحَباً بهم ، فاتصل الكلام كأنه قول واحد ، وإنما الأول من قول الملائكة ، والثاني من قول أهل النار ؛ وقد بيّنّا مِثْلَ هذا في قوله : (لِيَعْلَمَ أنّي لم أَخُنْهُ بالغَيْب) [يوسف : ٥٢] . والمَرْحَبُ والرُّحْبُ : السَّعَةُ . والمعنى : لا اتّسعت بهم مساكنُهم . قال أبو عبيدة : تقول العرب للرجل : لا مَرْحَباً [بك] أي : لا رَحُبَتْ عليك الأرض . وقال ابن قتيبة : معنى قولهم : « مَرْحَباً وأهْلاً » أي : أتيتَ رُحْباً ، أي : سَعَة ، وأهْلاً ، أي : أتيتَ أهلاً لا غُرباء ، فائنس ولاتستوحش ، وسهلاً ، أي : أتيتَ سَهْلاً لا حَزْناً ، وهو في مذهب الدُّعاء ، كما تقول : لَقِيتَ خَيْراً . قال الزجاج : و « مَرْحَباً » منصوب بقوله : رَحُبَت بلادُك مَرْحَباً ، وصادفتَ مَرْحَباً ، فأُدخلت « لا » على ذلك المعنى .

قوله تعالى : (إنّهم صَالُو النّارِ) أي : داخِلُوها كما دخلْناها ، ومُقاسون حَرَّها . فأجابهم القوم ، فـ (قالوا بَلْ أنتم لا مَرْحَباً بكم أنتم قَدَّمتموه لنا) . إن قلنا : إن هذا قول الأتباع الرؤساء ، فالمعنى : أنتم زيَّنتم لنا الكفر ؛ [وإن قلنا : إنه قول الأمّة المتأخرة للأمّة المتقدّمة ، فالمعنى : أنتم شرَّعتم لنا الكفر] وبدأتم به قبلنا ، فدخلتم النار قبلنا (فبئسَ القرارُ) أي : بئس المُسْتَقَرّ والمنزل .

(قالوا ربَّنا مَنْ قدَّم لنا هذا) أي : مَنْ سنّه وشرعه (فزِدْهُ عذاباً ضِعْفاً في النار) وقد شرحناه في (الأعراف : ٣٨) . وفي القائلين لهذا قولان . أحدهما : أنه قول جميع أهل النار ، قاله ابن السائب . والثاني : قول الأتباع . قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وقالوا) يعني أهل النار (ما لَنَا لا نَرَى رجالاً كُنّا نَعُدُّهم من الأشرار) قال المفسرون : إذا دخلوا النار ، نظروا فلم يَرَوْا مَنْ كان

يخالفهم من المؤمنين ، فيقولون ذلك . قال مجاهد : يقول أبو جهل في النار : أين صُهَيب ، أين عمّار ، أين خبّاب ، أين بلال ؟!

قوله تعالى : (أتَّخَذْناهم سِخْرِيّاً) قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « مِنَ الأشرار اتَّخذْناهم » بالوصل على الخبر ؛ أي : [إنّا] اتَّخَذْناهم ، وهؤلاء يبتدئون بكسر الهمزة . وقرأ الباقون بقطع الألف وفتحها على معنى الاستفهام ، وهؤلاء يبتدئون بفتح الهمزة . وقال الفراء : وهذا استفهام بمعنى التعجُّب والتوبيخ ، والمعنى أنهم يوبِّخون أنفسهم على ما صنعوا بالمؤمنين . و « سِخْرِيّاً » يُقرأ بضم السين وكسرها . وقد شرحناها في آخر سورة (المؤمنين : ١١٠) (أمْ زاغت عنهم الأبصارُ) أي : وهم معَنا في النار ولا نراهم ؟! وقال أبو عبيدة : « أمْ » هاهنا بمعنى « بَلْ » .

قوله تعالى : (إنَّ ذلكَ لَحَقٌّ) قال الزجاج : [أي] : إن الذي وصفْناه عنهم لَحَقٌّ . ثم بيَّن ما هو ، فقال : هو (تَخاصُمُ أهْلِ النّار) [1] وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو الشعثاء ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : « تَخاصُمَ » برفع الصاد وفتح الميم ، وكسر اللام من « أهْلِ » وقرأ أبو مجلز ، وأبو العالية ، وأبو المتوكل ، وابن السميفع : « تَخاصَمَ أهْلُ » بفتح الصاد والميم ورفع اللام .

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ . مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (إن ذلك لحقٌ تخاصم أهل النار) أي : إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ، ولعن بعضهم لبعض ، لَحقٌ لا مرية فيه ولا شك . اهـ .

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَامَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ . قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ . قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ) النَّبَأُ : الخبر . وفي المشار إليه قولان . أحدهما : أنه القرآن ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور . والثاني : أنه البعث بعد الموت ، قاله قتادة [1] ، (أَنتم عنه مُعْرِضُونَ) أي : لاتتفكَّرون فيه فتعلمونَ صِدْقي في نُبوَّتي ، وأنَّ ماجئتُ به من الأخبار عن قصص الماضين لم أَعْلَمْه إلاّ بوحي من الله . ويدل على هذا المعنى قوله : (ماكانَ ليَ من عِلْمٍ بالملأِ الأعلى) يعني الملائكة (إذ يَختَصِمُونَ) في شأن آدمَ حين قال الله تعالى : (إنّي جاعلٌ في الأرض خَليفةً) [البقرة : ٣٠] ؛ والمعنى : إنّي

---

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : (قل) يا محمد لقومك المكذبيك فيما جئتهم به من عند الله من هذا القرآن القائلين لك فيه : إن هذا إلا اختلاق : (هو نبأ عظيم) يقول : هذا القرآن خبر عظيم . اهـ .

ما عَلِمْتُ هذا إلاّ بوحي ، (إنْ يُوحَى إليّ) أي : ما يوحى إليّ (إلاّ أنّما أنا نذيرٌ) [أي] : إلاّ أنّي نبيٌّ أُنْذِركم وأبيّن لكم ما تأتونه وتجتنبونه [1] .

(إذ قال ربُّكَ) هذا متصل بقوله : « يختصمونَ » ، وإنما اعترضت تلك الآية بينهما . قال ابن عباس : اختصَموا حين شُووِروا في خَلْق آدم ، فقال الله لهم : « إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة » ، وهذه الخصومة منهم إنما كانت مُناظَرةً بينهم . وفي مُناظَرتهم قولان .

أحدهما : أنه قولهم : (أتَجْعَلُ فيها من يُفْسِدُ فيها) [البقرة : ٣٠] ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : أنهم قالوا : لن يَخْلُقَ اللهُ خَلْقاً إلاّ كُنّا أكرمَ منه وأعْلَمَ ، قاله الحسن ؛ هذا قول الأكثر من المفسرين . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « رأيتُ ربّي عز وجل ، فقال لي : فيمَ يختصِم الملأُ الأعلى ؟ قلت : أنتَ أعْلَمُ يارب ، قال : في الكفّارات والدرجات ، فأمّا الكفّارات ، فاسباغ الوُضوء في السَّبَرات [2] ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . وأمّا الدَّرَجات ، فافشاء السّلام ، وإطعامُ الطّعام ، والصّلاةُ باللّيل والنّاس نيام » [3] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (ما كان ليَ من علم بالملأ الأعلى) يقول لنبيه محمد ﷺ : قل يامحمد لمشركي قومك : (ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون) في شأن آدم من قبل أن يوحيَ إليّ ربي فيعلِّمني ذلك ، يقول : ففي إخباري لكم عن ذلك دليل واضح على أن هذا القرآن وحي من الله ، وتنزيل من عنده ، لأنكم تعلمون أن علم ذلك لم يكن عندي قبل نزول هذا القرآن ، ولا هو مما شاهدته فعاينته ، ولكني علمت ذلك باخبار الله إياي به . اهـ .

(٢) السَّبَرات : جمع سَبْرة بسكون الباء ، وهي الغداة الباردة .

(٣) لهذا الحديث طرق متعددة ، وروايات مختلفة ذكرها السيوطي في « الدر » : ٥/٣١٩ - ٣٢٠ ، وقد رواه أحمد في « المسند » : ٥/٢٤٣ مطولاً من حديث عبد الرحمن بن عياش الحضرمي ——

. . . .

ـــ عن مالك بن يخامر أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غـــداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس ، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً ، فثوّب بالصلاة وصلّى وتجوّز في صلاته ، فلما سلّم قال : « كما أنتم على مصافكم » ، ثم أقبل إلينا فقال : « إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ، إني قمت من الليل فصليت ما قدّر لي، فنعستُ في صلاتي حتى استيقظت ، فاذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة ، فقال : يامحمد ، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري يا رب ، قال : يامحمـد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري ربّ ، فرأيته وضع كفّه بين كتفيّ حتى وجدت برد أنامله بين صـدري ، فتجلّى لي كل شيء ، وعرفت ، فقال : يامحمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفّارات ، قال : وما الكفّارات ؟ قلت : نقل الأقدام الى الجمات ، وجلوس في المساجـد بعـد الصلاة ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات ، قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سل ، قلت : اللهم أسـألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردتَ فتنة في قوم فتوفّني غـــير مفتون ، وأسألك حبّك وحب من يحبّك وحب عمل يقربني إلى حبك ،وقال رسول الله ﷺ : « إنها حق فادرسوها وتعلّموها » .

قال ابن كثير : فهو حديث المنام المشهور ، قال : ومن جعله يقظة ، فقد غلط ، قال : وهو في « السنن » من طرق ، قال : وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي من حديث جهضم ابن عبد الله اليمامي به وقال: حسن صحيح ، قال : وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن ، فان هذا قد فسّر ، وأما الاختصام الذي في القرآن، فقد فسّر بعد هذا ، وهو قوله تعالى : (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طـين . فاذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين. قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لمـــا خلقتُ بيديّ ...) الآيات . اهـ . وقد شرح هذا الحديث الحافظ ابن رجب الحنبلي في رسالة سماها « اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى » وقال عنه بعد ما ذكره من رواية أحمد في « المسند » عن معاذ بن جبل رضي الله عنـــه : وخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، قال : (يعني الترمذي) وسألت محمد بن اسماعيل البخاري عن هذا ؟ فقال : هذا حديث حسن صحيح . قال الحافظ ابن رجب الحنبلي : قلت : ـــ

قوله تعالى : (أَسْتَكْبَرْتَ) أي : أَسْتَكْبَرْتَ بنفسكَ حين أَبَيْتَ السُّجودَ (أَمْ كُنْتَ مِنَ العالِينَ) أي : من قوم يتكبَّرونَ فتكبَّرْتَ عن السُّجود لِكَونكَ من قوم يتكبَّرونَ ؟!

قوله تعالى : (فإنَّكَ رَجِيمٌ) أي : مَرْجُومٌ بالذَّمّ واللَّعْن .

قوله تعالى : (إلى يوم الوقت المعلوم) وهو وقت النَّفخة الأُولى ، وهو حين موت الخلائق .

وقوله : (فبِعِزَّتِكَ) يمين بمعنى : فوَعِزَّتِك . وما أخللنا به في هذه القصة فهو مذكور في (الأعراف : ١٢) و (الحجر : ٣٤) وغيرهما مما تقدم .

قوله تعالى : (قال فالحَقُّ والحَقَّ أقولُ) قرأ عاصم إلا حَسْنون عن هبيرة ، وحمزة ، وخلف ، وزيد عن يعقوب : « فالحَقُّ » بالرفع في الأول ونصب الثاني ، وهذا مروي عن ابن عباس ، ومجاهد ؛ قال ابن عباس في معناه :

— وفي إسناده اختلاف ، وله طرق متعددة ، وفي بعضها زيادة ، وفي بعضها نقصان ، ثم قال : ففي الحديث دلالة على أن النبي ﷺ لم يكن من عادته تأخير صلاة الصبح إلى قريب طلوع الشمس ، وإنما كانت عادته التغليس بها ، وكان أحياناً يسفر بها عند انتشار الضوء على وجه الأرض ، قال : وأما تأخيرها إلى قريب طلوع الشمس ، فلم يكن من عادته ، قال : ولهذا اعتذر لهم عنه في هذا الحديث ، قال : وفي الحديث دلالة على أن من أخر الصلاة إلى آخر الوقت لعذر أو غيره ، وخاف خروج الوقت في الصلاة إن طوَّلها ، أن يخففها حتى يدركها كلَّها في الوقت ، قال : وفي حديث معاذ دليل على أن من رأى رؤيا تسرُّه فانه يقصُّها على أصحابه وإخوانه المحبّين له ، ولا سيما إن تضمنت رؤياه بشارة لهم وتعليماً لما ينفعهم ، قال : وقد كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر يقول لأصحابه : « من رأى منكم الليلة رؤيا ... » ، قال : وفيه أيضاً أن من استثقل نومه في تهجُّده بالليل حتى رأى رؤيا تسرُّه ، فان في ذلك بشرى له ، قال : وفيه دلالة على أن الملأ الأعلى وهم الملائكة أو المقربون منهم يختصمون فيما بينهم ويتراجعون القول في الأعمال التي تقرب بني آدم إلى الله عز وجل وتكفِّر بها عنهم خطاياهم ... إلى غير ما هنالك من الفوائد ، ومن أراد الزيادة ، فليرجع إلى رسالته « اختيار الأَولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى » فانها قيِّمة في هذا الباب .

فأنا الحقُّ وأقولُ الحَقَّ ؛ وقال غيره: خبر الحقِّ محذوف، تقديره: الحَقُّ مِنّي. وقرأ محبوب عن أبي عمرو بالرفع فيهما ؛ قال الزجّاج : من رفعهما جميعاً ، كان المعنى : فأنا الحَقُّ والحَقُّ أقولُ . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : بالنصب فيهما . قال الفراء : وهو على معنى قولك : حَقّاً لآتِيَنَّكَ ، ووجودُ الألف واللام وطرحُها سواء ، وهو بمنزلة قولك : حمداً لله . وقال مكّيّ بن أبي طالب : انتصب الحق الأول على الإغراء ، أي : اتّبِعوا الحَقَّ ، واسمَعوا والزَموا الحَقَّ . وقيل : هو نصب على القَسَم ، كما تقول: اللهَ لأَفعَلَنَّ ، فتَنْصِب حين حذفتَ الجارّ ، لأن تقديره : فبالحَقِّ ؛ فأمّا الحَقُّ الثاني ، فيجوز أن يكون الأولَ ، وكرَّره توكيداً ، ويجوز أن يكون منصوباً بـ « أقولُ » ، كأنه قال : وأقولُ الحَقَّ . وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو رجاء ، ومعاذ القارىء ، [والأعمش] : « فالحَقِّ » بكسر القاف « والحَقَّ » بنصبها . وقرأ أبو عمران [الجوني] بكسر القافين جميعاً . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو نهيك : « فالحَقَّ » بالنصب « والحَقُّ » بالرفع .

قوله تعالى : (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ) أي : مِنْ نَفْسِكَ وذُرِّيَّتِك .

(قُلْ ما أسألُكم عليه من أَجْرٍ) أي : على تبليغ الوحي (وما أنا من المتكلِّفِينَ) أي : لم أتكلَّف إتيانكم من قِبَلِ نَفْسي ، إنما أُمِرتُ أن آتِيَكم ، ولم أَقُل القرآنَ من تِلْقاء نفسي ، إنما أُوحيَ إليَّ [1] .

---

(١) قال ابن كثير : (وما أنا من المتكلّفين) أي : وما أزيد على ما أرسلني الله تعالى به ولا أبتغي زيادة عليه ، بل ما أمرت به أدّيته ، لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة ، قال : قال سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور عن أبي الضحى عن مسروق قال : أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال : يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فان من العلم أن يقول الرجل ــ

(إنْ هُوَ) أي : ماهو ، يعني القرآن (إلاّ ذِكْرٌ) أي : موعظة (للعالَمِين) .

(ولَتَعْلَمُنَّ) يا معاشر الكُفّار (نَبَأَهُ) أي : خبر صِدق القرآن (بعد حِين) وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : بعد الموت . والثاني : يوم القيامة[١] ، رويا عن ابن عباس ، وبالأول يقول قتادة ، وبالثاني يقول عكرمة . والثالث : يوم بدر ، قاله السدي ، ومقاتل . وقال ابن السائب : من بقي إلى أن ظَهَرَ أمرُ رسول الله ﷺ علِمَ ذلك ، ومن مات علِمَه بعد الموت . وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولا وجه لذلك .

★ ★ ★

ـــ لما لا يعلم : الله أعلم ، فان الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين) قال : أخرجاه من حديث الأعمش به . اهـ .

(١) قال ابن كثير : ولا منافاة بين القولين ، فان من مات فقد دخل في حكم القيامة ، قال : وقال قتادة في قوله تعالى : (ولتعلمُن نبأه بعد حين) قال الحسن : يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين . اهـ .

سورة الزّمر

وتسمى سورة الغُرَف

فصل في نزولها

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكـيَّة، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وجابر بن زيد. وروي عن ابن عباس أنه قال: فيها آيتان نزلتا بالمدينة: قوله: (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث) [الزمر: ٢٣] وقوله: (يا عِبادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا) [الزمر: ٥٣]. وقال مقاتل: فيها من المدني (قُلْ ياعِبادِيَ الذين أَسْرَفُوا . . .) الآيةَ [الزمر: ٥٣]، وقوله: (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) [الزمر: ١٠]. وفي رواية أخرى عنه قال: فيها آيتان مدنيَّتان (يا عِبادِيَ الذين أَسْرَفُوا) [الزمر: ٥٣] وقوله: (يا عِبادِيَ[1] الذينَ آمنُوا اتـَّقُوا ربَّكم) [الزمر: ١٠]. وقال بعض السلف: فيها ثلاث آيات مدنيّات (قُلْ يا عبادِيَ الذين أسرفوا) إلى قوله: (وأنتم لاتشعرون) [الزمر: ٥٣ - ٥٥].

---

(١) قال في « إتحاف فضلاء البشر »: واتفقوا على حذف الياء من (ياعبادِ الذين آمنوا) إلا ماانفرد به أبو العلاء عن رويس من إثباتها وقفاً، فخالف سائر الناس كما مر في المرسوم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَانَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَاهُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَيَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ . لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَايَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

قوله تعالى : (تنزيلُ الكتابِ) قال الزجاج : الكتاب هاهنا القرآن ، ورفع « تنزيلُ » من وجهين . أحدهما : الابتداء ، ويكون الخبر (مِنَ اللهِ) ، فالمعنى : نزل من عند الله . والثاني : على إضمار : هذا تنزيلُ الكتاب ؛ و (مُخلِصاً) منصوب على الحال ؛ فالمعنى : فاعبُدِ اللهَ موحِّداً لا تُشْرِكْ به شيئاً .

قوله تعالى : (ألا للهِ الدِّينُ الخالصُ) يعني : الخالص من الشرك ، وما سواه ليس بدِين الله الذي أمر به ؛ [وقيل] : المعنى : لا يَستحِقُّ الدِّينَ الخالصَ إلاّ اللهُ .

(والذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دونه أولياءَ) يعني آلهة ، ويدخُل في هؤلاء اليهودُ حين قالوا : (عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ) والنصارى لقولهم : (المسيحُ ابنُ الله) [التوبة : ٣٠] وجميعُ عُبَّاد الأصنام ، ويدُلُّ عليه قولُه بعد ذلك : (لو أرادَ اللهُ أن يَتَّخِذَ وَلَداً) [الزمر : ٤] .

قوله تعالى : (ما نَعْبُدُهُم) أي : يقولون ما نعبُدُهم (إلاّ ليُقَرِّبونا إلى الله زُلْفى) أي : إلاّ لِيَشْفَعوا لنا إلى الله . والزُّلْفى : القُرْبى ، وهو اسم أُقيم مقامَ المصدر ، فكأنه قال : إلاّ ليُقَرِّبونا إلى الله تقريباً .

(إنَّ الله يحكُم بينهم) أي : بين أهل الأديان فيما كانوا يختلفون فيه من أمر الدِّين . وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولا وجه لذلك .

قوله تعالى : (إنَّ الله لا يَهْدي) أي : لا يُرْشِد (مَنْ هو كاذبٌ) في قوله : إن الآلهة تشفع (كَفَّارٌ) أي : كافر باتِّخاذها آلهة ، وهذا إخبار عمن سبق عليه القضاء بحرمان الهداية (١) .

(لو أراد اللهُ أن يتَّخِذَ وَلَداً) [أي] : على ما يزعم من ينسُب ذلك إلى الله (لاصْطَفى) أي : لاختار ممّا يخلُق . قال مقاتل : أي : من الملائكة (٢) .

﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾

قوله تعالى : (خَلَقَ السموات والأرضَ بالحَقِّ) [أي] : لم يخلقهما لغير شيء .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (إن الله لايهدي من هو كاذب كفّار) أي : لايرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق مايشاء) أي : لكان الأمر على خلاف مايزعمون ، قال : وهذا شرط لايلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، قال : وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعَوه وزعموه ، كما قال عز وجل : (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) قال : كل هذا من باب الشرط ، قال : ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم . اهـ .

(يُكَوِّرُ اللَّيلَ على النَّهار) قال أبو عبيدة : يُدْخِلُ هذا على هذا . قال ابن قتيبة : وأصلُ التَّكْوِير : اللَّفُّ ، ومنه كَوْرُ العِمامة . وقال غيره . التَّكْوِيرُ : طَرْحُ الشيء بعضه على بعض .

(وسخَّر الشَّمسَ والقمر) أي : ذلَّلهما للسَّير على ما أراد (كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مسمَّى) أي : إلى الأَجَل الذي وقَّت اللهُ للدُّنيا . وقد شرحنا معنى العزيز في (البقرة : ١٢٩) ومعنى الغفَّار في (طه : ٨٢) .

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾

قوله تعالى : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ) يعني آدم (ثُمَّ جعَلَ منها زَوْجَها) أي: قبلَ خلْقِكم جعل منها زوجها ، لأَنَّ حوّاءَ خُلِقَتْ قبلَ الذُّرِّيَّة ، ومِثْلُه في الكلام أن تقول : قد أعطيتُكَ اليوم شيئاً ، ثُمَّ الذي أعطيتُكَ أمس أكثر ؛ هذا اختيار الفراء . وقال غيره : ثم أخبركم أنه خلَق منها زوْجَها (وأنزلَ لكم من الأَنعام) أي : خلَق (ثمانيةَ أزواجٍ) ، وقد بيَّنّاها في سورة (الأَنعام : ١٤٣) .

(خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خلْقٍ) أي : نُطَفاً ثُمَّ عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عظاماً ثم لَحْماً ثم أنبت الشَّعر ، إلى غير ذلك من تقلُّب الأَحوال إلى إخراج الأَطفال ، هذا قول الجمهور . وقال ابن زيد : خَلْقاً في البُطون مِنْ بَعْدِ خلقكم في ظَهْر آدم .

قوله تعالى : (في ظُلُماتٍ ثلاثٍ) ظُلْمة البَطْن ، وظُلْمة الرَّحِم ، وظُلْمة

المَشِيمة[١]، قاله الجمهور ، وابن زيد معهم . وقال أبو عبيدة : إنها ظُلْمة صُلْب الأب ، وظُلْمة بَطْن المرأة ، وظُلْمة الرَّحِم .

قوله تعالى : (فأَنَّى تُصْرَفُونَ) أي : من أين تُصْرَفون عن طريق الحقّ بعد هذا البيان ؟!

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

(إن تكفُروا فإنَّ الله غنيٌّ عنكم) أي : عن إيمانكم وعبادتكم (ولا يَرْضَى لعباده الكُفْرَ) فيه قولان . أحدهما : لا يرضاه المؤمنين ، قاله ابن عباس . والثاني : لا يرضاه لأحد وإن وقع بإرادته ، وفرقٌ بين الإرادة والرِّضى ، وقد أشرنا إلى هذا في (البقرة : ٢٠٥) عند قوله : (والله لا يحب الفساد) .

(وإنْ تشكُروا يَرْضَهُ لكُم) أي : يرضى ذلك الشُّكر لكم[٢] ، (إنَّه عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدور) أي : بما في القلوب .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾

---

(١) المشيمة وزان كريمة : غشاء ولد الانسان ، وقال ابن الأعرابي : يقال لما يكون فيه الولد : المشيمة والكيس والغلاف .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وإن تشكروا يرضه لكم) يقول : وإن تؤمنوا بربكم وتطيعوه يرض شكركم له ، وذلك هو إيمانهم به وطاعتهم إياه ، فكني عن الشكر ولم يُذْكَر ، وإنما ذُكِر الفعل الدال عليه ، وذلك نظير قوله : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً) بمعنى : فزادهم قول الناس لهم ذلك إيماناً . اهـ .

قوله تعالى : (وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ) اختلفوا فيمن نزلت على قولين . أحدها : في عتبة بن ربيعة ، قاله عطاء . والثاني : في أبي حذيفة بن المغيرة ، قاله مقاتل [١] . والضُّرُّ : البلاء والشِّدَّة .

(مُنيباً إليه) أي : راجعاً إليه من شركه .

(ثُمَّ إذا خَوَّلَه) أي : أعطاه وملَّكه (نِعْمَةً منه) بعد البلاء الذي أصابه ، كالصِّحَّة بعد المرض ، والغِنى بعد الفقر (نَسِيَ) أي : ترك ماكان يدعو إليه ، وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : نسي الدُّعاء الذي كان يتضرَّع به إلى الله تعالى . والثاني : : نَسِيَ الضُّرَّ الذي [كان] يدعو [اللهَ] إلى كَشْفه . والثالث : نَسِيَ اللهَ الذي [كان] يتضرَّع إليه . قال الزجّاج : وقد تَدُلُّ « ما » على الله عز وجل ، كقوله : (ولا أنتم عابدونَ ما أعبُدُ) [الكافرون : ٣] . وقال الفراء : تَرَكَ ماكان يدعو إليه . وقد سبق معنى الأنداد [البقرة : ٢٢] ومعنى (لِيُضِلَّ عن سبيل الله) [الحج : ٩] .

قوله تعالى : (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفرك) لفظُه لفظُ الأمر ومعناه التهديد ، ومثله : (فتَمَتَّعُوا فسَوْفَ تَعلَمُونَ) [النحل : ٥٥] .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ . قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

قوله تعالى : (أَمَّنْ هو قانِتٌ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، وأبو جعفر ،

(١) ذكر سبب النزول هذا البغوي والخازن بدون سند .

والمفضل عن عاصم ، وزيد عن يعقوب : « أَمَنْ » بالتخفيف ؛ وقرأ الباقون : بالتشديد . فأما المشدَّدة ، فمعناها : أهذا الذي ذَكَرْنا خيرٌ ،أمَّن هو قانتٌ ؟ والأصل في « أمَّن » : أمْ مَنْ ، فأدغمت الميم في الميم . وأما المخفَّفه ، ففي تقديرها ثلاثة أوجه .

أحدها : أنها بمعنى النداء . قال الفراء : فسَّرها الذين قرؤوا بها فقالوا : يامَنْ هو قانتٌ ، وهو وجه حسن ، والعرب تدعو بالألف كما تدعو بياء ، فيقولون : يازيدُ أقبِل ، و : أزَيْدُ أقبِل ، فيكون المعنى : أنه ذَكَرَ النّاسيَ الكافرَ ، ثم قَصَّ قِصَّةَ الصّالح بالنِّداء ،كما تقول : فلانٌ لايصوم ولا يصلّي ، فيامَنْ يصوم أبْشِرْ .

والثاني : أن تقديرها : أمَّن هو قانت كمن ليس بقانت ؟!

والثالث : أمَّن هو قانت كمن جعل لله أنداداً ؟ !

وقد ذكرنا معنى القُنوت في (البقرة : ١١٦) ومعنى (آناءَ اللَّيل) في (آل عمران : ١١٣) .

قوله تعالى : (ساجداً وقائماً) يعني في الصلاة [١] . وفيمن نزلت فيه هذه الآية خمسة أقوال . أحدها : أنه أبو بكر الصِّدّيق ،رواه عطاء عن ابن عباس [٢] .

---

(١) قال ابن كثير : يقول عز وجل : أمَّن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ؟! لايستوون عند الله ، كما قال تعالى : (ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) وقال تبارك وتعالى هاهنا : (أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً) أي : في حال سجوده وفي حال قيامه ، ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة ، ليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون . اهـ .

(٢) الواحدي في « أسباب النزول » والبغوي في « التفسير » بدون سند .

والثاني : عثمان بن عفان ، قاله ابن عمر [١] . والثالث : عمّار بن ياسر ، قاله مقاتل [٢] . والرابع : ابن مسعود ، وعمّار ، وصُهَيب ، وأبو ذَرّ ، قاله ابن السائب [٣] . والخامس : أنه رسول الله ﷺ ، حكاه يحيى بن سلام [٤] .

قوله تعالى : (يَحْذَرُ الآخرة) أي : عذاب الآخرة . وقد قرأ ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، وابن عباس ، وعروة ، وسعيد بن جبير ، وأبو رجاء ، وأبو عمران : « يَحْذَرُ عذابَ الآخرة » بزيادة « عذابَ » .

(ويَرْجو رَحْمَةَ ربِّه) فيها قولان . أحدهما : أنها المغفرة ، قاله ابن السائب . والثاني : الجنة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (قُلْ هل يستوي الذين يَعْلَمونَ) أنَّ ماوعدَ اللهُ من الثواب

---

(١) قال السيوطي في « الدر » ٥/٣٢٣ : أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في « الحلية » ، وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه تلا هـذه الآية : (أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . . .) الآية ، قال : ذاك عثمان بن عفان ، وفي لفظ : نزلت في عثمان بن عفان . وذكر سبب النزول هذا الواحدي والبغوي والخازن عن ابن عمر بدون سند .

(٢) الواحدي في « أسباب النزول » عن مقاتل بدون سند ، وقال السيوطي في « الدر » ٥/٣٢٣ : أخرج ابن سعد في « طبقاته » ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً) قال : نزلت في عمار بن ياسر .

(٣) قال السيوطي في « الدر » ٥/٣٢٣ : أخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية في ابن مسعود ، وعمار ، وسالم مولى حذيفة رضي الله عنهم . وذكر البغوي عن الكلبي بدون سند أنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسلمان . وذكر الآلوسي عن مقاتـل بدون سند أن المراد بمن هو قانت : عمار وصهيب وابن مسعود وأبو ذر .

(٤) ذكره الآلوسي عن يحيى بن سلام بدون سند . والآية عامة في كل من اتصف بما تقدم .

والعقاب حقٌ (والذين لا يعلمونَ) وباقي الآية قد تقدم في (الرعد : ١٩)[١] ، وكذلك قوله : (للَّذينَ أحسَنوا في هذه الدُّنيا حسنة) قد تقدم في (النحل : ٣٠) .

وفي قوله : (وأرضُ الله واسعةٌ) قولان . أحدهما : أنه حثٌ لهم على الهجرة من مكّة إلى حيث يأمنون . والثاني : أنها أرض الجنّة رغّبهم فيها .

(إنّما يوفّى الصّابرون) الذين صبروا لأجل الله تعالى على مانالهم (بغير حساب) أي : يُعطَون عطاءً كثيراً أوسعَ من أن يُحسَب وأعظمَ من أن يُحاطَ به ، لا على قدْر أعمالهم .

﴿ قُلْ إنّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أكُونَ أوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إنّي أخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللهَ أعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَاشِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ وَأهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ألاَ ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذٰلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ . وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أنْ يَعْبُدُوهَا وَأنَابُوا إلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدٰهُمُ اللهُ وَأُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْألْبَابِ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ إنّي أُمِرْتُ) قال مقاتل : وذلك أن كُفّار قريش قالوا لرسول الله ﷺ : ما حملك على الذي أتيتنا به ؟ ! ألا تنظُر إلى ملّة آبائك

---

(١) قال ابن كثير : أي : هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله (إنما يتذكر أولو الألباب) أي : إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لبٌ وهو العقل ، والله أعلم . اهـ .

فتأخذ بها ؟! فنزلت هذه الآية [1] ؛ والمعنى : (قل إنّي أُمِرْتُ أنْ أعبُد الله مُخلِصاً له الدّينَ) أي : أُمِرْتُ أن أعبُدَه على التوحيد والإخلاص السالم من الشّرك ، (وأُمِرْتُ لأَنْ أكونَ أوّلَ المُسلِمِينَ) من هذه الأُمَّة .

(قُلْ إنّي أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربّي) بالرجوع إلى دين آبائي (عذابَ يَوْمٍ عظيمٍ) وقد اختلفوا في نسخ هذه الآية كما بيَّنّا في نظيرتها في (الأنعام : ١٥) .

(قُلِ اللهَ أعبُدُ مُخلِصاً له دِيني) بالتوحيد ، (فاعبُدوا ماشِئتُم) ، وهذا تهديد ، وبعضهم يقول : هو منسوخ بآية السيف ، وهذا باطل ، لأنه لو كان أمراً ، كان منسوخاً ، فأمّا أن يكون بمعنى الوعيد ، فلا وجه لِنَسْخه .

(قُلْ إنَّ الخاسرينَ الذين خَسِروا أنفُسهم) بأن صاروا إلى النار (و) خسروا (أهليهم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم خَسِروا الحُور العِين اللّواتي أُعْدِدْنَ لهم في الجنة لو أطاعوا ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثاني : خَسِروا الأهل في النّار ، إذ لا أهل لهم فيها ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والثالث : خَسِروا أهليهم الذين كانوا في الدنيا ، إذ صاروا إلى النار بكُفرهم ، وصار أهلوهم إلى الجنَّة بإيمانهم ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : (لهم مِنْ فوقهم ظُلَلٌ مِنَ النّار) وهي الأطباق من النار . وإنما قال : (ومِنْ تحتهم ظُلَلٌ) لأنّها ظُلَلٌ لِمَنْ تحتهم (ذلك) الذي وصف اللهُ من العذاب (يُخَوِّفُ اللهُ به عباده) المؤمنين .

(١) ذكر سبب النزول هذا الخازن في « التفسير » بدون سند .

قوله تعالى : (والذين اجتَنَبوا الطّاغوتَ) روى ابن زيد عن أبيه أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في ثلاثة نَفَرٍ كانوا في الجاهلية يوحّدون الله تعالى : زيدِ ابن عمرو بن نُفَيل ، وأبي ذَرّ ، وسلمان الفارسي ، رضي الله عنهم [١] ؛ قال : (أولئك الذين هداهم اللهُ) بغير كتاب ولا نبيّ .

وفي المراد بالطّاغوت هاهنا ثلاثة أقوال . أحدها : الشياطين ، قاله مجاهد . والثاني : الكهنة ، قاله ابن السائب . والثالث : الأوثان ، قاله مقاتل ، فعلى قول مقاتل هذا [٢] : إنما قال : « يعبُدوها » لأنها مؤنَّثة . وقال الأخفش : إنما قال : « يعبُدوها » لأن الطّاغوت في معنى جماعة ، وإن شئتَ جعلتَه واحداً مؤنَّثاً .

قوله تعالى : (وأنابوا إلى الله) أي : رجَعوا إليه بالطّاعة (لهم البُشْرى) بالجنة (فبَشِّر عبادي) بياء ، وحرّك الياء أبو عمرو .

ثم نعتهم فقال : (الذين يستمِعونَ القول) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : [أنه] القرآن ، قاله الجمهور . فعلى هذا ، في معنى (فيتَّبعونَ أحسنه) أقوال قد شرحناها في (الأعراف : ١٤٥) عند قوله : (وأمُرْ قَومَكَ يأخُذوا بأحسنها) .

والثاني : أنه جميع الكلام . ثم في المعنى قولان . أحدها : [أنه الرَّجُل]

---

(١) « الطبري » : ٢٠٧/٢٣ عن زيد بن أسلم . وأورده السيوطي في « الدر » : ٣٢٤/٥ من رواية ابن جرير ، وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم . وذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٠ عن عبد الرحمن بن زيد بدون سند ، وكذلك ذكر ابن كثير سبب النزول هذا عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بدون سند ، ثم قال : والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن ، فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . اهـ .

(٢) عبارة الأصل : فعلى هذا قول مقاتل .

يَجلِس مع القوم فيَستمع كلامهم ، فيَعمل بالمحاسن ويحدِّث بها ، ويَكُفُّ عن المساوىء ولا يُظهِرها ، قاله ابن السائب . والثاني : [أنه] لمّا ادّعى مسيلمة أنه قد أتى بقرآن ، وأتت الكهنة بالكلام المزخرَف في الأباطيل ، فرّق المؤمنون بين ذلك وبين كلام الله ، فاتّبَعوا كلامَ الله ، ورفضوا أباطيل أولئك ، قاله أبوسليمان الدمشقي (١) .

﴿ أفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ . لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لايُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ ﴾

قوله تعالى : (أفَمَنْ حَقَّ عليه كَلِمَةُ العذابِ) قال ابن عباس : سبق في عِلْم الله أنّه في النّار .

فان قيل : كيف اجتمع في هذه الآية استفهامان بلا جواب ؟

قيل : أمّا الفراء ، فانه يقول : هذا ممّا يُراد به استفهام واحد ، فسبق الاستفهامُ إلى غير موضعه فَرُدّ إلى موضعه الذي هو له ، فيكون المعنى : أفأنتَ تُنْقِذ مَنْ في النار مَنْ حقّت عليه كلمة العذاب ؟ ومثله : (أيَعِدُكُمْ أنَّكُمْ إذا مِتُّم وكُنْتُم تُرَاباً وعِظاماً أنَّكُم مُخرَجُون) [المؤمنون : ٣٥] فردّ « أنَّكُمْ » مرتين ، والمعنى : أيَعِدُكُم أنكم مُخرَجون إذا مِتُّم ؟ ومثله : (لا تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بِما أتَوْا) ثم قال : (فلا تَحْسَبَنَّهُمْ) [آل عمران : ١٨٨] فردّ « تَحْسَبَنَّ » مرتين ، والمعنى : لا تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بمفازة من العذاب . وقال الزجاج : يجوز أن يكون في الكلام محذوف ، تقديره : أفمن حَقّ عليه كلمةُ العذاب فيتخلّص منه أو ينجو ، أفأنت تنقذه ؟ قال المفسّرون : أفأنت

(١) لم يذكر المصنف سوى قولين ، ولعله اكتفى بهما عن القول الثالث .

تخلّصه ممّا قُدّر له فتجعله مؤمناً ؟ والمعنى : ما تقدر على ذلك قال عطاء : يريد بهذه الآية أبا لهب وولده ومن تخلّف من عشيرة النبيّ ﷺ عن الإيمان .

قوله تعالى : (لكنِ الذين اتَّقَوا) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو جعفر : « لكنَّ » بتشديد النون [وفتحها] . قال الزجاج : والغُرَف : هي المنازل الرفيعة في الجنة ، (مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ) أي : منازل أرفع منها .

(وَعْدَ اللهِ) منصوب على المصدر ؛ فالمعنى : وعدَهم اللهُ غُرَفاً وَعْداً. ومن قرأ : « وَعْدُ اللهِ » بالرفع ؛ فالمعنى : ذلك وَعْدُ اللهِ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

قوله تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً) قال الشعبي : كُلُّ ما في الأرض فمن السَّماء ينزل (فسلَكَه يَنابيعَ) قال ابن قتيبة : أي : أَدخَلَه فجعله ينابيعَ ، أي : عُيوناً تَنْبُعُ ، (ثُمَّ يَهِيجُ) أي : يَيْبَسُ . قال الأصمعي : يقال للنَّبت إذا تَمَّ جفافُه : قد هاجَ يَهِيجُ هَيْجاً .

فأمّا الحُطام ، فقال أبو عبيدة : هو ما يَبِسَ فتَحاتَّ من النَّبات ، ومثله الرُّفات . قال مقاتل : هذا مَثَل ضرب الدُّنيا ، بينا ترى النبت أخضر ، إذ تغيَّر فيَبِسَ ثُمَّ هَلَكَ ، وكذلك الدُّنيا وزينتُها . وقال غيره : هذا البيان للدّلالة [1] على قدرة الله عز وجل [2] .

(١) في الأصل : الدلالة .

(٢) قال ابن كثير في تتمة الآية : (إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب) أي : الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ، ثم تعود عجوزاً ـــ

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صدره) قال الزجاج : جوابه متروك ، لأنَّ الكلام دالٌّ عليه ، تقديره : أفمن شَرَحَ اللهُ صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يَهْتَدِ ؟ ويُدلُّ على هذا قوله : (فوَيْلٌ لِلْقاسية قلوبُهم) ؛ وقد روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ، فقلنا : يا رسول الله وما هذا الشَّرْحُ ؟ فذكر حديثاً قد ذكرْناه في قوله : (فمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للاسلامِ) [الأنعام : ١٢٥] (١) .

قوله تعالى : (فهُوَ على نُورٍ) فيه أربعة أقوال . أحدها : اليقين ، قاله ابن عباس . والثاني : كتاب الله يأخذ به وينتهي إليه ، قاله قتادة . والثالث : البيان ، قاله ابن السائب . والرابع : الهُدى ، قاله مقاتل .

ـــ شوهاء ، قال : والشاب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً ، وبعد ذلك كله الموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، قال : وكثيراً ما يضرب الله تعالى مَثَل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماءٍ وينبت به زروعاً وثماراً ثم يكون بعد ذلك حطاماً .

(١) انظر الجزء ٣ صفحة ١٢٠ ، والحديث بتمامه : روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قرأ : (فمن يرد الله أن يهديَه يشرح صدره الاسلام) فقيل له : يارسول الله ، وما هذا الشرح ؟ قال : « نور يقذفه الله في القلب فينفتح القلب » قالوا : فهل لذلك من أمارة ؟ قال : « نعم » قيل : وما هي ؟ قال : « الانابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله » . رواه الطبري من طريقين عن عبد الله بن مسعود ، وكلاهما ضعيف ، وذكره ابن كثير في « التفسير » مرسلاً ومتصلاً ، وقال : فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً ، وقد قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف : رواه الثعلبي والحاكم والبيهقي في « الشعب » من حديث ابن مسعود ، وفيه أبو فروة الرهاوي ، فيه كلام ، ثم ذكر أنه رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » وفي سنده رجل ضعيف . اهـ .

وفيمن نزلت هذه الآية ؟ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في أبي بكر الصدّيق، وأُبيّ بن خلف ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : في عليّ وحمزة وأبي لهب وولده ، قاله عطاء .

والثالث : في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل ، قاله مقاتل [١] .

قوله تعالى : (فويلٌ للقاسية قلوبُهم من ذِكْر الله) قد بيَّنّا معنى القساوة في (البقرة : ٧٤) .

فان قيل : كيف يقسو القلب من ذِكْر الله عز وجل ؟

فالجواب : أنه كُلَّما تُلِيَ عليهم ذِكْرُ الله الذي يكذِّبونَ به ، قَسَت قلوبُهم عن الإِيمان به . وذهب مقاتل في آخَرِين إلى أنَّ « مِنْ » هاهنا بمعنى « عَنْ » ، قال الفراء : كما تقول : أُتخِمْتُ عن طعام أكلتُه ، ومِنْ طعام أكلتُه ؛ وإنما قَسَت قلوبُهم مِنْ ذِكْر الله ، لأنهم جعلوه كذباً فأقسى قلوبَهم ؛ ومن قال : قَسَت قلوبُهم عنه ، أراد : أعرضتْ عنه . و [قد] قرأ أُبيُّ ابن كعب ، وابن أبي عبلة ، وأبو عمران : « قلوبُهم عن ذِكْر الله » مكان قوله : « مِنْ » .

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

---

(١) ذكر سبب النزول هذا الخازن بدون سند ، والله أعلم .

قوله تعالى : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث) يعني القرآن ؛ وقد ذكرنا سبب نزولها في أول (يوسف)[1] .

قوله تعالى : (كتاباً متشابهاً) فيه قولان .

أحدها : أن بَعْضه يُشْبِه بَعضاً في الآي والحروف ، فالآية تُشْبِه الآية ، والكَلِمة تُشْبِه الكَلِمة ، والحَرْفُ يُشبِه الحَرْفَ .

والثاني : أن بَعْضَه يصدِّق بَعْضاً ، فليس فيه اختلاف ولا تناقض .

وإنما قيل له : (مَثانيَ) لأنه كُرِّرت فيه القصص والفرائض والحدود والثَّواب والعقاب .

فان قيل : ما الحكمة في تكرار القصص ، والواحدة قد كانت تكفي ؟

فالجواب : أن وفود العرب كانت تَرِدُ على رسول الله ﷺ ، فيُقرِئهم المسلمون شيئاً من القرآن ، فيكون ذلك كافياً لهم ، وكان يَبْعَثُ إلى القبائل المتفرِّقة بالسُّوَر المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثنّاة مكرَّرة ، لوقعتْ قصةُ موسى إلى قوم ، وقصةُ عيسى إلى قوم ، وقصةُ نوح إلى قوم ، فأراد الله تعالى أن يُشْهِر هذه القصص في أطراف الأرض ويُلْقِيها إلى كل سَمْع . فأمّا فائدة تكرار الكلام من جنس واحد ، كقوله : (فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان) [الرحمن] ، وقوله : (لا أعبدُ ما تعبُدونَ [الكافرون] ، وقوله : (أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى) [القيامة : ٣٤ ، ٣٥] (وما أدراك مايومُ الدِّين) [الانفطار : ١٧ ، ١٨] فسنذكرها في سورة (الرحمن) عز وجل .

قوله تعالى : (تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم) أي : تأخذُهم

---

(١) انظر الجزء ٤ صفحة ١٧٧ .

قشعريرة ، وهو تغيُّر يحدُث في جِلْد الإنسان من الوَجَل . وروى العباس ابن عبد المطلب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا اقشعرَّ جِلْدُ العَبْد من خَشْيَة الله ، تَحاتَّتْ ذُنوبُه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورقُها »[١].

وفي معنى الآية ثلاثة أقوال . أحدها : تَقْشَعِرُّ من وَعيده ، وتَلِين عند وَعْده ، قاله السدي . والثاني : تَقْشَعِرُّ من الخَوْف ، وتَلِينُ من الرَّجاء . والثالث : تَقْشَعِرُّ الجُلود لإعظامه ، وتَلِينُ عند تلاوته ، ذكرهما الماوردي .

وقال بعض أهل المعاني : مفعول الذِّكْر في قوله : ﴿ إلى ذِكْرِ اللهِ ﴾ محذوف ، لأنه معلوم ؛ والمعنى : تَطْمَئِنُّ قلوبُهم إلى ذِكْر اللهِ الجنةَ والثوابَ . قال قتادة : هذا نَعْتُ أولياء الله ، تقشعِرُّ جلودُهم [وتَلِينُ قلوبُهم] ، ولم يَنْعَتْهم بذَهاب عقولهم والغِشْيان عليهم ، إنَّما هذا في أهل البِدَع ، وهذا من الشَّيطان . وقد روى أبو حازم ، قال : مَرَّ ابنُ عمر برجُل ساقط من أهل العراق ، فقال : ما شأنُه ؟ فقالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن يُصيبه هذا ، قال : إنَّا لنَخشى اللهَ عزَّ وجلَّ ، وما نَسْقُط . وقال عامر بن عبد الله بن الزبير : جئتُ أبي ، فقال لي : أين كنتَ ؟ فقلت : وجدتُ قوماً ، ما رأيت خيراً منهم قَطْ ، يذكُرون الله عز وجل فيُرعَد واحدهم حتى يُغْشَى عليه من خَشْيَة الله عز وجلّ ، فقعدتُ معهم ، فقال : لا تقعُد معهم بعدها [أبداً] ، قال : فرآني

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٣٢٦ من رواية الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وقد ذكره في « الجامع الصغير » أيضاً من رواية سمويه في « فوائده » ، والطبراني في « الكبير » ، قال الحافظ المناوي في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » : وكذا رواه البزار والبيهقي في « الشعب » عن العباس بن عبد المطلب ، قال : قال المنذري والعراقي : سنده ضعيف ، قال : وبينه الهيثمي فقال : فيه أم كلثوم بنت العباس رضي الله عنها ، لم أعرفها ، وبقية رجاله ثقات .

كأني لم يأخُذ ذلك فيَّ ، فقال : رأيتُ رسولَ الله ﷺ يتلو القرآن ، ورأيتُ أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يُصيبهم هذا من خَشْية الله تعالى ، أفترى أنهم أخشى لله من أبي بكر وعمر؟ قال : فرأيت ذلك كذلك . وقال عكرمة : سُئلت أسماءُ بنت أبي بكر : هل كان أحد من السَّلَف يُغشى عليه من الخوف؟ قالت : لا ، ولكنهم كانوا يبكون . وقال عبد الله بن عروة بن الزبير : قلت لجَدَّتي أسماء بنت أبي بكر ، كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن؟ قالت : كانوا كما نعتهم اللهُ تعالى ، تَدْمَعُ أعيُنُهم وتَقْشَعِرُّ جلودهم . فقلت لها : إنَّ ناساً اليومَ إذا قرىء عليهم القرآن ، خَرَّ أحدُهم مَغْشِيّاً عليه ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وكان جَوّاب يُرْعَدُ عند الذِّكْر ، فقال له إبراهيم النخعي : إن كنتَ تملكه ، فما أُبالي أن لا أعتدَّ بك ، وإن كنتَ لا تملكه ، فقد خالفتَ مَن كان قبلك [1] .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أي : هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) لما يرجون ويؤمّلون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه . أحدها : أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات . والثاني : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجَّداً وبُكِيّاً بأدب وخشية ورجاءٍ ومحبة وفهم وعلم ، كما قال تبارك وتعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) وقال تعالى : (والذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً) أي : لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها ، بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها ، ــ

قوله تعالى : (ذلك هُدى الله) في المشار إليه قولان . أحدهما : أنه القرآن ، قاله مقاتل . والثاني : أنه ما يَنْزِلُ بالمؤمنين عند تلاوة القرآن من اقشعرار الجلود عند الوعيد، ولينها عند الوعد ، قاله ابن الأنباري .

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ . كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَفَمَنْ يَتَّقِي بوجهه سُوءَ العذاب) أي : شدّته . قال الزجاج : جوابه محذوف ، تقديره : كَمَنْ يدخُل الجنة ؛ وجاء في التفسير أن الكافر يُلقى في النار مغلولاً ، ولا يتهيأ له أن يتّقيها إلاّ بوجهه .

ثم أخبر عمّا يقول الخزَنة للكفار بقوله : (وقيل للظالمين) يعني الكافرين (ذُوقوا ما كنتم تَكسِبونَ) أي : جزاء كَسْبِكم .

قوله تعالى : (كذَّب الذين مِن قَبْلهم) أي : من قبْل كفار مكة (فأتاهم العذاب من حيث لا يَشْعُرون) أي : وهم آمنون غافلون عن العذاب ،

ــــ فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة ، لا عن جهل ومتابعة لغيرهم . والثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها ، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى ، من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله ، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلّفون ماليس فيهم ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية مالا يلحقهم أحد في ذلك ، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة . اهـ .

(فأذاقهم اللهُ الخِزْيَ) يعني الهوان والعذاب ، (ولَعذابُ الآخرة أكبرُ) ممّا أصابهم في الدنيا (لو كانوا يَعْلَمونَ) ، ولكنهم لا يعلمون ذلك .

(ولقد ضَرَبْنا للناس في هذا القرآن) أي : وَصفْنا لهم (مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) أي : من كل شبه يشبه أحوالهم .

قوله تعالى : (قُرآناً عربيّاً) قال الزجاج : « عربيّاً » منصوب على الحال ، المعنى : ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيَّته وبيانه ، فذكر « قرآناً » توكيداً ، كما تقول : جاءني زيد رجلاً صالحاً ، وجاءني عمرو إنساناً عاقلاً ، فذكر رجلاً وإنساناً توكيداً .

قوله تعالى : (غَيْرَ ذي عِوَجٍ) روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : غير مخلوق . وقال غيره : مستقيم غير مختلف [1] .

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ . إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً) ثم بيَّنه فقال : (رجُلاً فيه شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ) قال ابن قتيبة : أي : مختلفون ، يتنازعُون ويَتَشاحُّون فيه ، يقال : رجُلٌ شَكِسٌ . وقال اليزيدي : الشَّكِس من الرجال : الضيِّق الخُلُق .

قال المفسِّرون : وهذا مَثَل ضربه اللهُ للمؤمن والكافر ، فان الكافر يعبُد

---

(١) قال ابن كثير : أي : هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، قال : وإنما جعله الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك (لعلهم يتقون) أي : يحذرون مافيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد . اهـ .

آلهةً شتّى ، فمثَّله بعبدٍ يملكه جماعة يتنافسون في خدمته ، ولا يقدر أن يبلُغ رضاهم أجمعين ؛ والمؤمن يعبُد اللهَ وحده ، فمثَّله بعبدٍ لرجل واحد ، قد علِم مقاصدَه وعَرَفَ الطريق إلى رضاه ، فهو في راحة من تشاكس الخُلَطاء فيه ، فذلك قوله : (سالِماً لرجُل) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو إلاّ عبد الوارث في غير رواية القزّاز ، وأبان عن عاصم : « ورجُلاً سالِماً » بألف وكسر اللام وبالنصب والتنوين فيهما ؛ والمعنى : ورجُلاً خالصاً لرجُل قد سَلِم له من غير مُنازِع . ورواه عبد الوارث إلاّ القزاز كذلك ، إلاّ أنه رفع الاسمين ، فقال : « ورجُلٌ سالِمٌ لرجُلٍ » وقرأ ابن أبي عبلة : « سِلْمٌ لِرَجُلٍ » بكسر السين ورفع الميم . وقرأ الباقون : « ورجُلاً سَلَماً » بفتح السين واللام [وبالنصب] فيهما والتنوين . والسَّلَم ، بفتح السين واللام ، معناه الصُّلح ، والسِّلم ، بكسر السين مثله . قال الزجاج : من قرأ : « سِلْماً » و « سَلَماً » فهما مصدران وُصِفَ بهما ، فالمعنى : ورجُلاً ذا سِلْمٍ لرجُل وذا سَلَمٍ لرجُل ؛ فالمعنى : ذا سِلْم ؛ والسَّلْم : الصُّلح ، والسِّلْم ، بكسر السين مِثْلُه . وقال ابن قتيبة : [من قرأ] : « سَلَماً لِرَجُلٍ » أراد : سلَّم إليه فهو سِلْمٌ له . وقال أبو عبيدة : السِّلْم والسَّلْم الصُّلح [1] .

قوله تعالى : (هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً) هذا استفهام معناه الإنكار ، أي : لا يستويان ، لأن الخالص لمالكٍ واحدٍ يَستحقُّ من معونته وإحسانه مالا يستحقُّه صاحب الشُّركاء المتشاكسين . وقيل : لا يستويان في باب الرّاحة ، لأن هذا قد عرف الطريق إلى رضى مالكه ، وذاك متحيّر بين الشُّركاء . قال ثعلب : وإنما قال : « هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً » ولم يَقُلْ : مَثَلَيْنِ ، لأنهما جميعاً ضُرِبا

(١) في « فتح الباري » ٤٢٢/٨ : وعن أبي عبيدة : « ورجلاً سالماً » ، الرجل سالم وسَلْم واحد ، وهو من الصلح . فعلى هذا التفسير ، السَّلْم : مصدر أريد به اسم الفاعل .

مَثَلاً واحداً ، ومِثْلُه : (وجَعَلْنا ابْنَ مريمَ وأُمَّه آيَةً)[المؤمنون : ٥٠] ، ولم يَقُلْ : آيتين ، لأنَّ شأنهما واحد . وتم الكلام هاهنا ، ثم قال : (الحمدُ لله) أي : له الحمد دون غيره من المعبودِين (بَلْ أكثرُهم لا يعْلَمونَ) والمراد بالأكثر الكُلّ .

ثم أخبر نبيَّه بما بعد هذا الكلام أنه يموت ، وأن الذين يكذّبونه يموتون ، وأنهم يجتمعون للخُصومة عند الله عز وجل ، المُحِقّ والمُبطلُ ، والمظلومُ والظالمُ . وقال ابن عمر : نزلتْ هذه الآية وما ندري ما تفسيرها ، وما نرى أنها نزلتْ إلاّ فينا وفي أهل الكتابين ، حتى قُتِل عثمان ، فعرفتُ أنها فينا نزلتْ . وفي لفظ آخر : حتى وقعت الفتنة بين عليّ ومعاوية [1] .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ . وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . لَهُمْ مَايَشَاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاؤُا الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تبارك وتعالى : (إنك ميت وإنهم ميّتون) هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصدّيق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ حتى تحقّق الناس موته مع قوله عز وجل : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) قال : ومعنى هذه الآية : إنكم ستُنقلون من هذه الدار لامحالة وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم ، فينجي المؤمنين المخلصين الموحّدين ، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذّبين ، قال : ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة ، فانها شاملة لكل متنازعَين في الدنيا ، فانه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة . اهـ .

قوله تعالى : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ على اللهِ) بأن دعا له ولداً وشريكاً (وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ) وهو التوحيد والقرآن (أَلَيْسَ في جهنَّمَ مثْوىً للكافِرِينَ) أي : مَقَامٌ للجاحدِين ؟! وهذا استفهام بمعنى التقرير ، يعني : إنه كذلك .

قوله تعالى : (والَّذي جاءَ بالصِّدْقِ) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه رسول الله ﷺ ، قاله عليّ بن أبي طالب ، وابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد . ثم في الصِّدق الذي جاء به قولان . أحدهما : أنه « لا إله إلا الله » ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال [سعيد] بن جبير . والثاني : [أنه] القرآن ، قاله قتادة .

[وفي الذي صدَّق به ثلاثة أقوال . أحدها : أنه رسول الله ﷺ أيضاً ، هو جاء بالصِّدق ، وهو صدَّق به ، قاله ابن عباس ، والشعبي . والثاني : أنه أبو بكر ، قاله علي بن أبي طالب . والثالث : أنهم المؤمنون ، قاله قتادة] ، والضحاك ، وابن زيد .

والقول الثاني : [أن] الذي جاء بالصِّدق : أهل القرآن ، وهو الصِّدق الذي يُجيبونَ به يوم القيامة ، وقد أدّوا حقّه ، فهُم الذين صدَّقوا به ، قاله مجاهد .

والثالث : أن الذي جاء بالصِّدق الأنبياء ، قاله الربيع ، فعلى هذا ، يكون الذي صدَّق به : المؤمنون .

والرابع : أن الذي جاء بالصِّدق : جبريل ، وصدَّق به : محمد ، قاله السدي [1] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره عنى بقوله : (والذي جاء بالصدق وصدَّق به) كلَّ من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله ، ـــ

قوله تعالى : (أولئك هُمُ المُتَّقُونَ) أي : الذين اتَّقَوْا الشرك [1] ؛ وإنما قيل : « هُم » ، لأن معنى « الذي » معنى الجمع ، كذلك قال اللغويون ، وأنشد أبو عبيدة ، والزجاج :

فإنَّ الذي حانَتْ بِفَلْجٍ دِماؤُهُمْ
هُمُ القَوْمُ ، كُلُّ القَوْمِ ، يا أُمَّ خالِدِ [2]

قوله تعالى : (لِيُكَفِّرَ اللهُ عنهم) المعنى : أعطاهم ماشاؤوا ليكفِّر عنهم (أسوأ الذي عَمِلوا) ، أي : لِيَسْتُرَ ذلك بالمغفرة (ويَجْزِيَهم أجرهم) بمحاسن أعمالهم ، لا بمساوئها .

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَاتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

ـــ والعمل بما ابتعث به رسوله ﷺ من بين رسول الله وأتباعه والمؤمنين به ، وأن يقال : الصدق هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله ، والمصدّق به : المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائناً من كان من نبي الله وأتباعه . اهـ .

(١) قال ابن جرير : وقوله : (أولئك هم المتقون) يقول جل ثناؤه : هؤلاء الذين هذه صفتهم ، هم الذين اتّقوا الله بتوحيده والبراءة من الأوثان والأنداد ، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه فخافوا عقابه . اهـ .

(٢) البيت للأشهب بن رُمَيْلة ، وهو في « الكتاب » : ٩٦/١ ، و« مجاز القرآن » : ١٩٠/٢ ، و « مشكل القرآن » : ٢٨١ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : فلج ؛ وقد تقدم البيت في الجزء ١ ص ٤٠ .

قوله‌تعالى : (أَلَيْس اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ) ذكر المفسّرون أن مشركي مكة قالوا : يا محمد ، ما تزال تذكُرُ آلهتنا وتَعيبُها ، فاتّق أن تصيبك بسوء ، فنزلت هذه الآية [١] . والمراد بعبده هاهنا : محمد ﷺ .

وقرأ حمزة ، والكسائي : « عِبادَهُ » على الجمع ، وهم الأنبياء ، لأن الأمم قصدتْهم بالسُّوء ؛ فالمعنى أنه كما كفى الأنبياء قَبْلَكَ ، يكفيك . وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وأبو عمران الجوني : « بِكافي » مثبتة الياء « عَبْدِهِ » بكسر الدال والهاء من غير ألف . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو العالية ، وأبو الجوزاء ، والشعبي مِثْلَه ، إلاّ أنهم أثبتوا الألف في « عِبادِهِ » . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعمش : « بِكافٍ » بالتنوين ، « عِبادَهُ » على الجمع . وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء العطاردي : « يُكافِيْ » بياء مرفوعة قبل الكاف وياء ساكنة بعد الفاء « عِبادَهُ » على الجمع .

(ويُخَوِّفونَكَ بالذين مِنْ دونِهِ) أي : بالذين يَعْبُدون مِن دونِهِ ، وهم الأصنام .

ثُمَّ أَعْلَمَ بما بعد هذا أن الإضلال والهداية إليه تعالى ، وأنه منتقم ممن عصاه . ثم أخبر أنهم مع عبادتهم ، يُقِرُّونَ أنه الخالق . ثم أمر أن يُحْتَج عليهم بأن مايعبُدون لا يَمْلِكُ كَشْفَ ضُرٍّ ولا جَلْبَ خَيْرٍ .

وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « كاشفاتٌ ضُرَّهُ » و « ممسكاتٌ رحمته » منوَّنًا . والباقون : « كاشفاتُ ضُرِّهِ » و « ممسكاتُ رحمتِه » على الإضافة .

---

(١) قال الحافظ السيوطي في « الدر » ٥/٣٢٨ : أخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر عن قتادة قال : قال لي رجل : قالوا للنبي ﷺ : لتكفنَّ عن شتم آلهتنا أو لنأمرنَّها فلتخبلنَّك ، فنزلت : (ويخوفونك بالذين من دونه) .

﴿ قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ . إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾

قوله تعالى : (قل يا قوم اعملوا) ذكر بعض المفسرين أنها والآية التي تليها نُسخت بآية السيف .

قوله تعالى : (إنّا أنزَلنا عليكَ الكتابَ) يعني القرآن (للناس) أي : لجميع الخَلْقِ (بالحَقِّ) ليس فيه باطل . وتمام الآية مفسَّر في آخر (يونس : ١٠٨) ، وذكروا أنه منسوخ بآية السيف .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها) أي : يَقْبِضُ الأرواحَ حين موت أجسادها (والَّتي لَمْ تَمُتْ) أي : ويتوفَّى التي لَمْ تَمُتْ (في منامها) .

(فيُمْسِكُ) أي : عن الجسد [والنفس] (التي قضى عليها الموت) وقرأ حمزة ، والكسائي : « قُضِيَ » بضم القاف وفتح الياء ، « الموتُ » بالرفع .

(ويُرْسِلُ الأُخرى) إلى الجسد (إلى أَجَلٍ مُسَمّىً) وهو انقضاءُ العُمُر (إنَّ في ذلك لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ) في أمر البعث [1] . وروى

(١) قال ابن كثير : قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان ، والوفاة الصغرى ـــ

[سعيد] بن جبير عن ابن عباس قال : تلتقي أرواح الأحياء وأرواحُ الأموات في المنام ، فيتعارفون ويتساءلون ، ثم تُرَدُّ أرواحُ الأحياء إلى أجسادها ، فلا تُخطأ بشيء منها ، فذلك قوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وقال ابن عباس في رواية أخرى : في ابنِ آدم نَفْسٌ وروحٌ ، فبالنَّفس العقلُ والتمييزُ ، وبالرُّوح النَّفَس والتحريك ، فاذا نام العبدُ ، قبَضَ اللهُ نفْسَه ولم يَقْبِض روحه وقال ابن جريج : في الإنسان روح ونَفْسٌ ، بينهما حاجز ، فهو تعالى يَقْبِضُ النَّفْسَ عند النَّوم ثم يَرُدُّها إلى الجسد عند الانتباه ، فاذا أراد إماتةَ العبد في نومه ، لم يَرُدَّ النَّفْسَ وقبَض الرُّوح .

وقد اختلف العلماء ، هل بين النَّفْس والرُّوح فَرْقٌ ؟ على قولين قد ذكرتُهما في « الوجوه والنظائر » ، وزدتُ هذه الآية شرحاً في باب التوفّي في كتاب « النظائر » . وذهب بعض العلماء إلى أن التوفّي المذكور في حق النائم هو نَوْمُه ، وهذا اختيار الفراء وابن الأنباري ؛ فعلى هذا ، يكون معنى توفّي النائم : قبضُ نَفْسِه عن التصرُّف ، وإرسالُها : إطلاقُها باليَقَظَة للتصرُّف .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ . قُلْ لِلّٰهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَمِ اتَّخَذُوا) يعني كُفَّارَ مكَّةَ .

—— عند المنام ، كما قال تبارك وتعالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظةً حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفته رسلنا وهم لايفرّطون) فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى ، قال : وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى ، ولهذا قال تبارك وتعالى:(الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) . اهـ .

وفي المراد بالشُّفعاء قولان. أحدهما: أنَّها الأصنام، زعموا أنها تشفع لهم في حاجاتهم، قاله الأكثرون. والثاني: الملائكة، قاله مقاتل.

(قُلْ أوَلَو كانوا لا يَمْلِكونَ شيئاً) من الشفاعة (ولا يَعْقِلونَ) أنَّكم تعبُدونهم؟! وجواب هذا الاستفهام محذوف، تقديره: أوَلَو كانوا بهذه الصِّفة تتخذونهم؟!

(قُلْ لله الشَّفاعةُ جميعاً) أي: لا يَمْلِكُها أحَدٌ إلاّ بتمليكه، ولا يشفع عنده أحَدٌ إلاّ بإذنه.

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ. وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ﴾

قوله تعالى: (وإذا ذُكِرَ اللهُ وحْدَهُ اشمأزَّتْ قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: انقبضتْ عن التوحيد، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: استكبرتْ، قاله قتادة. والثالث: نَفَرتْ، قاله أبو عبيدة، والزجاج.

قوله تعالى: (وإذا ذُكِرَ الذين مِنْ دُونِه) يعني الأصنام (إذا هُمْ يَسْتَبْشِرونَ) يفرحون. وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الأنعام: ١٤، ٧٣، البقرة: ١١٣، الرعد: ١٨] إلى قوله: (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يَحْتَسِبون).

قال السدي : ظنّوا أنّ أعمالهم حسنات ، فبدت لهم سيئات . وقال غيره : عملوا أعمالاً ظنّوا أنّها تنفعهم ، فلم تنفع مع شركهم قال مقاتل : ظهر لهم حين بُعثوا مالم يحتسبوا أنّه نازلٌ بهم ؛ فهذا القول يحتمل وجهين .

أحدهما : أنّهم كانوا يرجون القُرْبَ من الله بعبادة الأصنام ، فلمّا عُوقبوا عليها ، بدا لهم مالم يكونوا يحتسبون .

والثاني : أنَّ البعثَ والجزاءَ لم يكن في حسابهم . وروي عن محمد بن المنكدر أنه جزِع عند الموت وقال : أخشى هذه الآية أن يبدو لي مالاأحتسِب .

قوله تعالى : (وحاقَ بهم) أي : نزل بهم (ماكانوا به يستهزئونَ) أي : ماكانوا يُنكِرونه ويكذّبون به .

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ . أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (فاذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعانا) قال مقاتل : هو أبو حذيفة ابن المغيرة ، وقد سبق في هذه السورة نظيرها [الزمر:٨] . وإنما كنّى عن النّعمة بقوله : (أُوتيتُه)، لأن المراد بالنّعمة : الإنعام .

(على عِلْمٍ) عندي ، أي : على خيرٍ علِمَهُ اللهُ عندي . وقيل : على عِلْمٍ مِنَ الله بأنّي له أهلٌ ، قال الله تعالى : (بل هي) يعني النّعمة التي أنعم [اللهُ] عليه بها (فِتْنَةٌ) أي : بلوى يُبْتَلَى بها العبدُ ليَشْكُرَ أو يكفُر ،

(ولكنَّ أكثرهم لايَعْلَمونَ) أن ذلك استدراج لهم وامتحان . وقيل : « بل هي » أي : المقالة التي قالها « فتنةٌ » .

(قد قالها) يعني تلك الكلمة ، وهي قوله : « إنما أُوتيتُه على عِلْمٍ » (الذين مِنْ قَبْلِهم) وفيهم قولان . أحدهما : أنَّهم الأُمم الماضية ، قاله السدي . والثاني : قارون ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فما أغنى عنهم) أي : ما دفع عنهم العذاب (ما كانوا يَكْسِبونَ) وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : من الكفر . والثاني : من عبادة الأصنام والثالث : من الأموال .

(فأصابهم سيّئاتُ ما كسَبوا) أي : جزاءُ سيّئاتهم ، وهو العذاب .

ثم أوعد كُفَّار مكَّةَ ، فقال : (والذين ظَلَموا مِنْ هؤلاء سيُصيبُهم سيّئاتُ ما كسَبوا وماهم بمُعْجِزِينَ) أي : إنهم لايُعْجِزونَ الله ولايفوتونه .

قال مقاتل : ثم وعظهم ليَعْلَموا وحدانيَّته حين مُطِروا بعد سبع سنين ، فقال : (أوَلَمْ يَعْلَموا أنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يشاءُ ويَقْدِرُ إنَّ في ذلك) أي : في بَسْطِ الرِّزق وتقتيره (لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ) .

﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَاتُنْصَرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَاتَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ يا عبادِيَ الذين أسْرَفوا على أنفُسهم) في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن ناساً من المشركين كانوا قد قَتَلُوا فأكثَروا ، وزَنَوْا فأكثَروا ، ثم أتَوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا : إنّ الذي تدعو إليه لحَسَنٌ ، لو تُخبِرُنا أنّ لِما عَمِلْنا كفّارةً ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس (١) .

والثاني : أنها نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونَفَرٍ من المسلمين كانوا قد أسلموا ، ثم عُذِّبوا فافتُتِنوا ، فكان أصحاب رسول الله يقولون : لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ هؤلاء صَرْفاً ولا عَدْلاً ، قومٌ تركوا دينهم بعذابٍ عُذِّبوه ! فنزلت هذه الآية ، فكتبها عمر إلى عيّاش والوليد وأولئك النَّفَر ، فأسلَموا وهاجروا ؛ وهذا قول ابن عمر (٢) .

والثالث : أنها نزلتْ في وحشيّ ؛ وهذا القول ذكرناه مشروحاً في آخر (الفرقان : ٦٨) عن ابن عباس (٣) .

والرابع : أنّ أهل مكّةَ قالوا : يزعُم محمدٌ أنّ مَنْ عَبَدَ الأوثانَ

---

(١) رواه البخاري : ٤٢٢/٨ من حديث ابن جريج عن يعلى بن مسلم المكي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، و « الطبري » : ٤١/١٩ ، وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن جريج عن يعلى بن مسلم المكي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنها ، وكذلك رواه الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١١ ، ورواه البخاري أيضاً : ٣٨٠/٨ في سورة الفرقان مختصراً . والحديث أورده السيوطي في « الدر » : ٧٧/٥ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنها .

(٢) رواه ابن جرير الطبري : ١٥/٢٤ ، وذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١١ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها بدون سند .

(٣) قال السيوطي في « الدر » ٣٣٠/٥ : أخرج الطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » بسند فيه لين عن ابن عباس رضي الله عنها . . . الخ

وقَتَلَ النَّفْسَ التي حرَّم اللهُ لم يُغْفَر له ، فكيف نُهاجِر ونُسْلِم وقد فَعَلْنا ذلك ؟! فنزلت هذه الآية ؛ وهذا مرويٌّ عن ابن عباس أيضاً(١) .

ومعنى « أسرَفوا على أنفسهم » ارتكَبوا الكبائر . والقنوط بمعنى اليأس (٢) .

(وأنيبوا) بمعنى ارجِعوا إلى الله من الشِرك والذُنوب ، (وأسلِموا له) أي : أخلِصوا له التوحيد . و « تُنْصَرون » بمعنى تُمْنَعون .

(واتَّبِعوا أحسن ما أُنزل إليكم) قد بيَّنّاه في قوله : (يأخُذوا بأحسنها) [الأعراف : ١٤٥] .

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَافَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

---

(١) « الطبري » : ١٤/٢٤ ، وذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١١ عن ابن عباس بدون سند ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٣٣١/٥ ، وزاد نسبته لابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والانابة ، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، قال : ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة ، لأن الشرك لايغفر لمن لم يتب منه ، وسرد بعض الأحاديث المتعلقة بهذه الآية التي تدل على سعة رحمة الله وفضله ، ثم قال : وهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع الذنوب مع التوبة ، قال : ولا يقنطنّ عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت ، فان باب الرحمة واسع ، قال الله تعالى : (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) وقال عز وجل : —

قوله تعالى : (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ) قال المبرِّد : المعنى : بادِروا قَبْلَ أن تقول نَفْسٌ ، وحَذَراً من أن تقول نَفْسٌ . وقال الزجاج : خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها هذا القول . ومعنى (ياحسرتا) ياندامتا وياحزنا . والتحسُّر : الاغتمام على ما فات . والألِف في « ياحسرتا » هي [ياء] المتكلم ، والمعنى : ياحسرتي (١) ، على الإضافة . قال الفراء : والعرب تحوِّل الياء إلى الألِف في كل كلام معناه الاستغاثة ويخرج على لفظ الدُّعاء ، وربما أدخلت العربُ الهاء بعد هذه الألف ، فيَخْفِضونها مَرَّةً ، ويرفعونها أخرى . وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، وأبو عمران ، وأبو الجوزاء : « ياحسرتي » بكسر التاء ، على الإضافة إلى النَّفْس . وقرأ معاذ القارئ ، وأبو جعفر : « ياحسرتايَ » ، بألف بعد التاء وياء مفتوحة . قال الزجاج : وزعم الفراء أنه يجوز « ياحسرتاهَ على كذا » بفتح الهاء ، و « ياحسرتاهُ ِ » بالضم والكسر ، والنحويّون أجمعون لا يُجيزون أن تُثْبِتَ هذه الهاءَ مع الوصل .

قوله تعالى : (في جَنْبِ الله) فيه خمسة أقوال . أحدها : في طاعة الله تعالى ، قاله الحسن . والثاني : في حق الله ، قاله سعيد بن جبير . والثالث : في أمْر الله ، قاله مجاهد ، والزجاج . والرابع : في ذِكْر الله ، قاله عكرمة ، والضحاك . والخامس : في قُرْب الله ؛ روي عن الفراء أنه قال : الجَنْب : القُرْب ، أي : في قُرْب الله وجِواره ؛ يقال : فلان يعيش في جَنْب فلان ، أي : في قُرْبه وجواره ؛ فعلى هذا يكون المعنى : [على] ما فرَّطْتُ في طلب قُرْب الله تعالى ، وهو الجنة .

— (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) . ثم ذكر عدة أحاديث في نفي القنوط ، واعتقاد أن الله تعالى غفور رحيم لمن تاب إليه وأناب .

(١) في الأصل : « ياحسرتا » .

قوله تعالى : (وإنْ كنتُ لَمِن السّاخِرِينَ) أي : وما كنتُ إلاّ من المستهزِئين بالقرآن وبالمؤمنين في الدُّنيا .

(أوْ تقولَ لو أنَّ الله هـداني) أي : أرشَدني إلى دينه (لكنتُ من المُتَّقِينَ) الشِّرك ؛ فيقال لهذا القائل : (بلى قد جاءتك آياتي) قال الزجاج : و « بلى » جواب النفي ، وليس في الكلام لفظ النفي ، غير أن معنى « لو أن الله هـداني » : ما هُديتُ ، فقيل : « بلى قد جاءتك آياتي » . وروى ابن أبي سريج [عن الكسائي] : « جاءتكِ » ، « فكذَّبْتِ » ، « واستَكبَرْتِ » ، « وكُنْتِ » ، بكسر التاء فيهنّ ، مخاطبةً للنفْس . ومعنى « استَكبَرْتَ » : تكبَّرتَ عن الإيمان بها .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ . وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويومَ القيامة تَرَى الذين كَذَبوا على الله) فزعموا أن له ولداً وشريكاً (وُجوهُهـم مُسْوَدَّةٌ) . وقال الحسن : هم الذين يقولون : إن شئنا فعَلْنا ، وإن شئنا لم نَفْعَل . وباقي الآية قد ذكرناه آنفاً [الزمر : ٣٢] .

قوله تعالى : (ويُنَجِّي اللهُ الذين اتَّقَوا بمفازتهم) وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « بمفازاتهم » . قال الفراء : وهو كما قد تقول : قد تبيَّن أمرُ القوم وأمورهم ، وارتفع الصوت والأصوات ، والمعنى واحد . وفيها للمفسرين ثلاثة أقوال . أحدها : بفضائلهم ، قاله السدي . والثاني : بأعمالهم ، قاله ابن السائب ، ومقاتل . والثالث : بفوزهم من النار .

قال المبرِّد : المَفازة : مَفْعَلة من الفوز ، وإن جُمع فحسن ، كقولك : السعادة والسعادات ، والمعنى : ينجيهم الله بفوزهم ، أي : بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة .

﴿ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَهُ مَقالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (له مَقاليدُ السموات والأرض) قال ابن قتيبة : أي : مفاتيحُها وخزائنُها ، لأن مالِكَ المفاتيح مالِك الخزائن ، واحدها : إقليد ، وجُمع على غير واحد ، كما قالوا : مَذاكير جمع ذَكَر ، ويقال : هو فارسيّ معرَّب . [وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي : الإقليد : المفتاح ، فارسي معرَّب] ، قال الراجز :

لَمْ يُؤْذِها الدِّيكُ بصوتِ تَغْريدْ ★ ولَمْ تُعالِجْ غَلَقاً بإقْليدْ (١)

والمِقْليدُ : لغةٌ في الإقْليدِ ، والجمع : مَقاليد .

وللمفسرين في المقاليد قولان . أحدهما : المفاتيح ، قاله ابن عباس . والثاني : الخزائن ، قاله الضحاك . وقال الزجاج : تفسيره أن كل شيء في السموات والأرض ، فهو خالقه وفاتح بابه . قال المفسرون : مفاتيح السموات : المطر ، ومفاتيح الأرض : النبات .

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ . وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ . بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

---

(١) الرجز في « المعرّب » للجواليقي : ٢٠ .

قوله تعالى : (أَفَغَيْرَ اللهِ تأمُرُونِّي أعْبُدُ) قرأ نافع ، وابن عامر : « تأمُرُونِي أعبُدُ » مخفّفةً ، غير أن نافعاً فتح الياء ، ولم يفتحها ابن عامر . وقرأ ابن كثير : « تأمرونّيَ » بتشديد النون وفتح الياء ، وقرأ الباقون بسكون الياء . وذلك حين دعوْه إلى دين آبائه (أيُّها الجاهلونَ) أي : فيما تأمُرون .

قوله تعالى : (ولقد أُوحِيَ إليكَ وإلى الذين مِنْ قَبْلِكَ) فيه تقديم وتأخير ، تقديره : ولقد أُوحِيَ إليكَ لئن أشركتَ ليَحْبَطَنَّ عملُكَ ، وكذلك أُوحيَ إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ . قال أبو عبيدة : ومجازها مجاز الأمرين اللّذَين يُخبَرُ عن أحدهما ويُكَفُّ عن الآخر ، قال ابن عباس : هذا أدبٌ من الله تعالى لنبيّه ﷺ وتهديدٌ لغيره ، لأنّ الله عز وجل قد عصمه من الشّرك . وقال غيره : إنما خاطبه بذلك ، ليَعْرِفَ مَنْ دونَه أن الشّرك يُحبِطُ الأعمال المتقدّمة كلّها ولو وقع من نبيّ . وقرأ أبو عمران ، وابن السميفع ، ويعقوب : « لَنُحْبِطَنَّ » بالنون ، « عَمَلَكَ » بالنصب . (بَلِ اللهَ فاعْبُدْ) أي : وَحِّدْ .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) سبب نزولها أن رجلاً من أهل الكتاب أتى رسولَ الله ﷺ فقال : يا أبا القاسم ، بلغك أن الله تعالى يَحْمِلُ الخلائقَ على إصْبَع والأرَضينَ على إصْبَع والشَّجَر على إصْبَع والثَّرى على إصبع ؟ ! فضحك رسولُ الله ﷺ حتى بدت نواجذُه ، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية ، قاله

ابن مسعود[١] . [وقد أخرج البخاري ومسلم في « الصحيحين » نحوه عن ابن مسعود][٢] . وقد فسَّرنا أول هذه الآية في (الأنعام : ٩١) . قال ابن عباس : هذه الآية في الكفار ، فأمَّا مَنْ آمن بأنه على كل شيْء قدير ، فقد قَدَرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ .

ثم ذكر عَظَمته بقوله : (والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يومَ القيامة والسمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بيمينه) وقد أخرج البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « يَقْبِضُ اللهُ الأرض يومَ القيامة ويَطْوي السماءَ بيمينه ، ثم يقول : أنا الملِك ، أين ملوكُ الأرض ؟ »[٣] ؛ وأخرجا من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « يَطْوي الله عز وجل السموات يومَ القيامة ، ثم يأخذُهُنَّ بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملِك ، أين الجبّارون ، أين المتكبِّرون ؟ »[٤] . قال ابن عباس : الأرضُ والسموات كلُّها بيمينه .

(١) روى سبب النزول هذا بهذا اللفظ الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٢ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو في « الصحيحين » دون سبب النزول .

(٢) رواه البخاري في « صحيحه » : ٨/٤٢٣ ، ومسلم : ٤/٢١٤٨ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ورواه الطبري : ٢٤/٢٧ ، والحديث أورده السيوطي في « الدر » ، وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، والدارقطني في « الأسماء والصفات » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » في قوله : « حتى بدت نواجذه » : وليس ذلك منافياً للحديث الآخر أن ضحكه كان تبسماً كما سيأتي في تفسير سورة (الأحقاف) . اهـ .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » : ٨/٤٢٣ ، ومسلم : ٤/٢١٤٨ ، ورواه الطبري : ٢٤/٢٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٣٣٥ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري في « صحيحه » : ١٣/٣٣٤ مختصراً ، ورواه مسلم : ٤/٢١٤٨ عن عبد الله ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، واللفظ له ، وتمام الحديث عنده : « ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول : « أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون » .

وقال سعيد بن جبير : السموات قَبْضَةٌ والأَرَضُونَ قَبْضَةٌ (١) .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ونُفِخَ في الصُّور فصَعِقَ) وقرأ ابن السميفع ، وابن يعمر ، والجحدري : « فصُعِقَ » بضم الصاد (مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض) أي : ماتوا من الفزع وشدّة الصّوت . وقد بيّنّا هذه الآية والخلاف في الذين استُثنوا في سورة (النمل : ٨٧) .

(ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخْرى) وهي نفخة البعث (فاذا هُمْ) يعني الخلائق (قيامٌ يَنْظُرونَ) (٢) .

---

(١) قال ابن كثير : وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، قال : والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة ، فقوله تعالى : (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) قال : هذه النفخة هي الثانية ، وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، كما جاء مصرّحاً مفسّراً في حديث الصور المشهور ، قال : ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً ، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ، ويقول : (لمن الملك اليوم) ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : (لله الواحد القهار) أنا الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء وحكمت بالفناء على كل شيء ، قال : ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور ــــ

قوله تعالى : (وأشْرَقَتِ الأرضُ بنُور ربِّها) أي : أضاءت . والمراد بالأرض : عَرَصات القيامة .

قوله تعالى : (ووُضِعَ الكتابُ) فيه قولان . أحدهما : كتاب الأعمال ، قاله قتادة ، ومقاتل . والثاني : الحساب ، قاله السدي . وفي الشهداء قولان .

أحدهما : أنهم الذين يَشْهَدونَ على الناس بأعمالهم ، قاله الجمهور . ثم فيهم أربعة أقوال . أحدها : أنهم المُرْسَلون من الأنبياء . والثاني : أمّة محمد يَشهدونَ للرُسل بتبليغ الرِّسالة وتكذيبِ الأُمم إيّاهم ، رويا عن ابن عباس رضي الله عنه . والثالث : الحَفَظَه ، قاله عطاء . والرابع : النَّبيُّون والملائكةُ وأُمَّةُ محمد ﷺ والجوارح ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنهم الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله ، قاله قتادة ؛ والأول أصح .

(ووُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ) أي : جزاء عملها (وهُوَ أعْلَمُ بما يفْعَلونَ) أي : لا يَحتاجُ إلى كاتب ولا شاهد .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ . وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا

ـــ أخرى ، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث ، قال عز وجل : (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) أي : أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياءً ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : (فانما هي زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة) .اهـ .

وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وسِيقَ الذين كفروا إلى جهنَّمَ زُمَراً) قال أبو عبيدة : الزُّمَر : جماعاتٌ في تفرقة بعضُهم على إثر بعض ، واحدها : زُمْرة [1] .

قوله تعالى : (رُسُلٌ منكُمْ) أي : من أنفُسكم . و (كلمةُ العذاب) هي قوله : (لأَملأَنَّ جهنَّمَ)[الأعراف : ١٨] .

قوله تعالى : (فُتِحَتْ أبوابُها) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « فُتِّحَتْ » « وفُتِّحَتْ » مشدَّدتين ؛ وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : بالتخفيف .

وفي هذه الواو ثلاثة أقوال [2] .

أحدها : أنها زائدة ، روي عن جماعة من اللغويِّين منهم الفراء .

والثاني : أنها واو الحال ؛ فالمعنى : جاؤوها وقد فُتحتْ أبوابُها ، فدخلت

---

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار ، قال : وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد ، كما قال عز وجل : (يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعّاً) أي : يدفعون إليها دفعاً ، هذا وهم عطاش ظماء ، كما قال جل وعلا في الآية الأخرى : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً . ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرداً) وهم في تلك الحال صمٌّ وبكم وعمي ، منهم من يمشي على وجهه (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً) .

(٢) وهي الواو في قوله تعالى : (وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم) .

الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتَّحةً قبل مجيئهم ، وحذفت من قصة أهل النار لبيان أنها كانت مُغْلَقةً قبل مجيئهم ، ووجه الحكمة في ذلك من ثلاثة أوجه .

أحدها : أن أهل الجنة جاؤوها وقد فُتحت أبوابُها ليستعجلوا السُّرور والفرح إذا رأوا الأبواب مفتَّحةً ، وأهل النار يأتونها وأبوابُها مُغلَقة ليكون أشدَّ لحرِّها ، ذكره أبو إسحاق ابن شاقْلا من أصحابنا [1] .

والثاني : أن الوقوف على الباب المغلق نوعُ ذُلٍّ ، فصِينَ أهلُ الجنة عنه ، وجعل في حق أهل النار ، ذكره لي بعض مشايخنا .

والثالث : أنه لو وَجَدَ أهلُ الجنة بابها مُغلَقاً لأثَّر انتظارُ فَتْحه في كمال الكَرَم ، ومن كمال الكَرَم غَلْقُ باب النّار إلى حين مجيء أهلها ، لأن الكريم يعجِّل المثوبة ، ويؤخِّر العقوبة ، وقد قال عز وجل : (ما يَفْعَلُ اللهُ بِعذابكم إنْ شَكَرْتُمْ وآمنتُم) [النساء : ١٤٧] ؛ قال المصنف : هذا وجهٌ خطر لي .

والقول الثالث : أن الواو زِيدتْ ، لأنَّ أبواب الجنة ثمانيةٌ ، وأبواب النار سبعةٌ ، والعرب تَعْطِفُ في العدد بالواو على ما فوق السبعة على ما ذكرناه في قوله : (ويَقُولونَ سَبْعَةٌ وثامِنُهم كَلْبُهم) [الكهف : ٢٢] ، حكى هذا القول والذي قبله الثعلبي .

واختلف العلماء أين جوابُ هذه الآية على ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الجواب محذوف ، قاله أبو عبيدة ، والمبرِّد ، والزجّاج في آخرين . وفي تقدير هذا المحذوف قولان . أحدهما : أن تقديره : (حتى إذا جاؤوها . . .) إلى آخر الآية . . سُعِدوا ، قاله المبرِّد . والثاني : (حتى إذا جاؤوها . . .) إلى قوله :

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاقْلا البزار الحنبلي ، جليل القدر ، كثير الرواية ، حسن الكلام في الأصول والفروع ، توفي رحمه الله سنة (٣٦٩ هـ) .

(فادخُلوها خالدين) .. دخلوها ، وإنما حُذف ، لأن في الكلام دليلاً عليه ، وهذا اختيار الزجاج .

والقول الثاني : أن الجواب : قال لهم خزنتُها ، والواو زائدة ، ذكره الأخفش ، قال : ومثله في الشِّعر :

فإذا وذلكَ يا كُبَيْشةُ لَمْ يَكُنْ إلاّ كَلَمَّةِ حالِمٍ بِخَيالِ [1]

أي : فإذا ذلك .

والثالث : الجواب : حتى إذا جاؤوها فُتحتْ أبوابُها ، والواو زائدة ، حكاه الزجاج عن قوم من أهل اللغة .

وفي قوله : (طِبْتُمْ) خمسة أقوال . أحدها : أنهم إذا انْتَهَوا إلى باب الجنة وَجدوا عند بابها شجرةً يَخرج من تحت ساقها عينان ، فيَشربون من إحداهما ، فلا يبقى في بطونهم أذىً ولا قذىً إلاّ خرج ، ويغتَسلون من الأُخرى ، فلا تَغْبَرُ جلودُهم ولا تَشعَّثُ أشعارُهم أبداً ، حتى إذا انتَهَوْا إلى باب الجنة قال لهم عند ذلك خزنتها : « سلامٌ عليكم طِبْتُم » ، رواه عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه [2] ، وقد ذكرنا في (الأعراف : ٤٤) نحوه عن ابن عباس . والثاني : طاب لكم

---

(١) البيت لتميم بن مقبل ، ديوانه : ٢٥٩ من قصيدة مطلعها :

سائِلْ بِكَبْشَةَ دارسَ الأطلالِ قَدْ هَيَّجَتْكَ رُسومُها لِسُؤالِ

وهو في « الطبري » : ٣٦/٢٤ ، و « الصحاح » و « اللسان » ، و « التاج » : لم . ورواية البيت في الديوان : إلا كَحَلْمَةِ . . . ، والحَلْمَةُ : المَرَّة من « حَلَمَ » : إذا رأى شيئاً في المنام . وقال ابن بَرّي : قوله : « فإذا وذلك » مبتدأ ، والواو زائدة ، كذا ذكره الأخفش ، و « لم يكن » خبره .

(٢) « الطبري » : ٣٥/٢٤ . وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٤٢/٥ ، وزاد نسبته لابن المبارك في « الزهد » ، وعبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وابن راهويه ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » ، والبيهقي في « البعث » ، والضياء في « المختارة » عن علي رضي الله عنه .

المقام ، قاله ابن عباس . والثالث : طِبْتُم بطاعة الله ، قاله مجاهد . والرابع : أنهم طُيِّبوا قَبْلَ دخول الجنه بالمغفرة ، واقتُصَّ من بَعْضِهم لبَعْض ، فلمّا هُذّبوا قالت لهم الخَزَنَةُ : طِبْتُم ، قاله قتادة . والخامس : كنتم طيِّبينَ في الدُّنيا ، قاله الزجاج .

فلمّا دخلوها قالوا : (الحمدُ لله الذي صَدَقَنا وَعْدَهُ) بالجنة (وأَوْرَثَنا الأَرضَ) أي أرض الجنة (نتبوّأُ منها حيثُ نَشاء) أي : نتَّخِذُ فيها من المنازل ما نشاء . وحكى أبو سليمان الدمشقي أن أُمّة محمد ﷺ يدخلون الجنة قبل الأُمم ، فينزلون منها حيث شاؤوا ، ثم تنزل الأُمم بعدهم فيها ، فلذلك قالوا : « نتبوّأُ من الجنة حيثُ نشاءُ » ؛ يقول الله عز وجل : (فنِعْمَ أَجْرُ العامِلِينَ) أي : نِعْمَ ثوابُ المُطيعِينَ في الدُّنيا الجنة .

قوله تعالى : (وتَرَى الملائكةَ حافّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ) : أي مُحْدِقِينَ به ، يُقال : حَفَّ القومُ بفلانٍ : إذا أَحْدَقوا به ؛ ودخلتْ « مِنْ » للتوكيد ، كقولك : ماجاءني من أحدٍ .

(يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ ربِّهم) قال السدي ، ومقاتل : بأَمْرِ ربِّهم . وقال بعضهم : يُسَبِّحونَ بالحمد له حيث دخل الموحِّدون الجنة . وقال ابن جرير : التَّسبيح هاهنا بمعنى الصَّلاة .

قوله تعالى : (وقُضِيَ بينَهم) أي : بينَ الخلائق (بالحقِّ) أي : بالعَدْلِ (وقِيلَ الحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ) هذا قول أهل الجنة شُكْراً لله تعالى على إنعامه .

قال المفسِّرون : ابتدأ اللهُ ذِكْرَ الخَلْق بالحَمْدِ فقال : « الحَمْدُ لله الذي

خلق السموات والأرض » [الأنعام: ١] وختم [1] غـاية الأمر - وهو استقرار الفريقين في منازلهم - بالحمد لله بهذه الآية ، فنبَّه على تحميده في بداية كُلِّ أمْرٍ وخاتِمته .

★ ★ ★

(١) في الأصل : وخاتم .

سورة المؤمن

قال أبو سليمان الدمشقي : ويقال لها : سورة الطَّوْل[1]. وهي مكيَّة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة . وحكي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آيتين نزلتا بالمدينة : قوله : (الذين يجادِلون في آياتِ الله) والتي بعدها [المؤمن :٣٥، ٣٦] . قال الزجاج : وذُكِر أنَّ الحواميم كلَّها نزلت بمكة . قال ابن قتيبة : يقال : إن « حمٓ » اسم من أسماء الله أُضيفت هذه السُّورة إليه ، كأنه قيل : سُورةُ الله ، لِشَرَفها وفَضْلها ، فقيل : آل حاميم ، وإن كان القرآن كلُّه سُورَ الله ، وإن هذا كما يقال : بَيْتُ الله ، وحَرَمُ الله ، ونَاقَةُ الله ، قال الكميت :

وَجَدْنَا لَكُمْ في آلِ حَامِيمَ آيَةً   تَأَوَّلَها مِنَّا تَقِيٌّ ومُعْرِبُ[2]

وقد تُجعل « حمٓ » اسماً للسورة ، ويدخُل الإعراب ولا يُصْرَف ، ومن قال هذا في الجميع : الحواميم ، كما يقال : « طسٓ » والطواسين . وقال محمد بن القاسم الأنباري : العرب تقول : وقع في الحواميم ، وفي آل حميم ، أنشد أبو عبيدة :

حَلَفْتُ بِالسَّبْعِ اللَّواتي طُوِّلَتْ   وبِمئِين بَعْدَها قد أُمْئِيَتْ

وبِمَثَانٍ ثُنِّيَتْ فكُرِّرَتْ   وَبِالطَّواسِينِ اللَّواتي ثُلِّثَتْ

---

(١) ويقال لها أيضاً : سورة غافر .

(٢) البيت في « الكتاب » : ٢/٣٠ ، و « مجاز القرآن » : ٢/١٩٣ ، و « غريب القرآن » : ٣٦ ، و « الطبري » : ٢٤/٤٠ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : عرب .

وبالحواميم اللّواتي سُبِّعَتْ [وبالمفصَّل اللّواتي فُصِّلَتْ] [(١)]

فمن قال : وقع في آل حاميم ، جعل حاميم اسماً لِكُلِّهِنَّ ؛ ومن قال : وقع في الحواميم ، جعل « حمٓ » كأنه حرف واحد بمنزلة قابيل وهابيل . وقرأتُ على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : من الخطأ أن تقول . قرأتُ الحواميم ، وليس من كلام العرب ، والصَّوابُ أن تقول : قرأت آل حاميم . وفي حديث ابن مسعود « إذا وقعتُ في آل حمٓ [(٢)] وقعتُ في روضات دمثات » [(٣)] ، وقال الكميت :

وجَدْنا لَكُمْ في آل حاميمَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

وفي (حمٓ) أربعة أقوال .

أحدها : قَسَم أقسَمَ اللهُ به وهو من أسمائه عز وجل ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . قال أبو سليمان : وقد قيل : إن جواب القَسَم قولُه : (إنَّ الذين كفَروا يُنادَوْنَ) [المؤمن : ١٠] .

---

(١) « مجاز القرآن » : ١/٧ والزيادة بين المعقفين منه .

(٢) كذا في الأصول وكتب التفسير ، وفي « النهاية » و « اللسان » و « التاج » : « قرأتُ آل حاميم » بدل « وقعتُ في آل حاميم »

(٣) قال السيوطي في « الدر » ٥/٣٤٤ : أخرج أبو عبيد ، ومحمد بن نصر ، وابن المنذر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إذا وقعت في الحواميم وقعت في روضات أتأنّق فيهن .

والثاني : أنها حروف من أسماء الله عز وجل ، ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أن « آلر » و « حمٓ » و « نوٓن » حروف الرحمن ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : أن الحاء مفتاح اسمه « حميد » ، والميم مفتاح اسمه « مجيد » ، قاله أبو العالية . والثالث : أن الحاء مفتاح كل اسم لله ابتداؤه حاء، مثل « حكيم » ، و « حليم » ، و « حيّ » ، والميم مفتاح كلِّ اسمٍ له ، ابتداؤه ميم مثل « ملك » ، و « متكبِّر » ، و « مَجيد » ، حكاه أبو سليمان الدمشقي . وروي نحوه عن عطاء الخراساني .

والثالث : أن معنى « حمٓ » : قُضِيَ ما هو كائن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . ورُوي عن الضحاك والكسائي مثل هذا كأنهما أرادا [1] الإشارة إلى حُمَّ ، بضم الحاء وتشديد الميم . قال الزجاج : وقد قيل في « حمٓ » : حُمَّ الأمر .

والرابع : أن « حمٓ » اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة . وقرأ ابن كثير : « حمٓ » بفتح الحاء ؛ وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بكسرها ؛ واختلف عن الباقين . قال الزجاج : أمّا الميم ، فساكنة في قراءة القُرّاء كلِّهم إلّا عيسى ابن عمر ، فانه فتحها ؛ وفتحها على ضربين . أحدهما : أن يجعل « حمٓ » اسماً للسُّورة ، فينصبه ولا ينوِّنه ، لأنه على لفظ الأسماء الأعجمية نحو هابيل وقابيل . والثاني : على معنى : اتلُ حمٓ ؛ والأجود أن يكون فتح لالتقاء الساكنين حيث جعله اسماً للسُّورة ، ويكون حكاية حروف الهجاء [2] .

قوله تعالى : (تَنْزيلُ الكتـاب) أي : هذا تنزيلُ الكتاب . والتَّوْبُ :

---

(١) في الأصل : أراد .

(٢) قال ابن جرير الطبري : والقول في ذلك عندي نظير القول في أخواتها ، قال : وقد بينّا ذلك في قوله : (الٓمٓ) ففي ذلك كفاية عن إعادته في هذا الموضع ، إذ كان القول في (حمٓ) وجميع ماجاء في القرآن على هذا الوجه ، أعني حروف التهجي قولاً واحداً . اه .

جمع تَوْبَة ، وجائز أن يكون مصدراً من تاب يَتُوب تَوْباً . والطَّوْل : الفَضْل . قال أبو عبيدة : يقال : فلان ذو طَوْل على قومه ، أي : ذو فَضْل . وقال ابن قتيبة : يقال : طُلْ عليَّ يرحمك الله ، أي : تَفَضَّلْ . قال الخطابي : ذو : حرف النِّسبة ، والنِّسبة في كلامهم على ثلاثة أوجه : بالياء ، كقولهم : أسديّ ، وبكريّ ، والثاني على الجمع ، كقولهم : المَهالبة ، والمسامعة ، والأزارقة ، والثالث بـ « ذي » و « ذات » ، كقولهم : رجُل مال ، أي : ذو مال ، وكبش صاف ، أي : ذو صوف ، وناقة ضامر ، أي : ذات ضُمر ؛ فقوله : ذو الطَّوْل ، معناه : أهْل الطَّوْل والفَضْل .

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ . كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ . وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾

قوله تعالى : (ما يُجادِلُ في آيات الله) أي : ما يُخاصم فيها بالتكذيب لها ودفعها بالباطل (إلّا الذين كَفَروا) وباقي الآية في (آل عمران : ١٩٦) ؛ والمعنى : إنّ عاقبة أمرهم إلى العذاب كعاقبة مَنْ قَبْلَهم .

قوله تعالى : (وهَمَّتْ كُلُّ أُمَّة برسولهم لِيأْخُذوه) فيه قولان . أحدها : ليقتُلوه ، قاله ابن عباس ، وقتادة . والثاني : ليحبِسوه ويعذِّبوه ، ويقال للأسير : أخيذٌ ، حكاه ابن قتيبة . قال الأخفش : وإنما قال : « ليأْخُذوه » فجمع على الكلّ ، لأن الكلّ مذكَّر ومعناه معنى الجماعة . وما بعد هذا مفسَّر في (الكهف : ٥٦) إلى قوله : (فأَخَذْتُهم) أي : عاقبْتُهم وأهلكتُهم

(فكيف كان عِقابِ) استفهام تقرير لعقوبتهم الواقعة بهم . (وكذلك) أي : مثل الذي حقّ على الأمم المكذّبة (حقّت كلمةُ ربّكَ) بالعذاب ، وهي قوله : (لأملأنّ جهنّمَ) [الأعراف : ١٨] على الذين كفروا من قومك . وقرأ نافع ، وابن عامر : « حقّت كلماتُ ربّكَ » ، (أنهم) قال الأخفش : لأنهم أو بأنّهم (أصحابُ النّارِ) .

﴿ الّذينَ يحمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلّذِينَ آمَنُوا رَبّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شيءٍ رَحْمَةً وعِلْماً فاغْفِرْ لِلّذِينَ تابُوا واتّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الجَحِيمِ . رَبّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ الّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ إنّكَ أنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . وَقِهِمُ السّيّئاتِ وَمَنْ تَقِ السّيّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾

ثم أخبر بفضل المؤمنين فقال : (الذين يحمِلونَ العرْشَ) وهم أربعة أملاك ، فاذا كان يوم القيامة جُعلوا ثمانيةً (ومَنْ حَوْلَه) قال وهب بن منبّه : حولَ العرش سبعون ألف صفّ من الملائكة يطوفون به ، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صفّ من الملائكة ليس فيهم أحد إلّا وهو يسبّح بما لا يسبّحه الآخر . وقال غيره : الذين حول العرش هم الكروبيّون وهم سادة الملائكة . وقد ذكرنا في السّورة المتقدّمة معنى قوله : (يسبّحون بحمد ربّهم) [الزمر : ٧٥] .

قوله تعالى : (ربّنا) أي يقولون : ربّنا (وَسِعتَ كُلَّ شيءٍ رَحْمَةً وعِلْماً) قال الزجاج : هو منصوب على التمييز . وقال غيره : المعنى : وَسِعَتْ رحمتُك وعِلْمُك كلَّ شيء (فاغْفِرْ للذين تابوا) من الشّرك (واتّبَعوا سبيلَكَ)

وهو دين الإسلام . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (وقِهِمُ السَّيِّئاتِ) قال قتادة : يعني العذاب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ . قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ . ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾

قوله تعالى : (إنَّ الذين كَفَروا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ) قال المفسّرون : لمّا رَأَوْا أعمالَهم وأُدخِلوا النّارَ مَقَتُوا أنفُسَهم لِسُوءِ فِعالِهم ، فناداهم مُنادٍ : لَمَقْتُ الله إيّاكم في الدُّنيا (إذ تُدْعَوْنَ إلى الإيمان فتكفُرونَ) أكبرُ مِنْ مقتكم أنفُسكم .

ثم أخبر عمّا يقولون في النار بقوله : (ربَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ) وهذا مِثْل قوله : (وكنتم أمواتاً فأحياكم ثُمَّ يُميتُكم ثُمَّ يُحْيِيكم) [البقرة : ٢٨] وقد فسَّرناه هنالك .

قوله تعالى : (فهل إلى خُروج) أي : من النار إلى الدنيا لنعملَ بالطاعة (مِنْ سَبيلٍ) ؟ وفي الكلام اختصار ، تقديره : فأُجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك ؛ وقيل لهم : (ذلكم) يعني العذاب الذي نزل بهم (بأنّه إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَه كَفَرتم) أي : إذا قيل « لا إله إلا الله » أنكرتم ، وإن جُعل له شريكٌ آمنتم ، (فالحُكم لله) فهو الذي حكم على المشركين بالنار . وقد بيَّنَّا في سورة (البقرة : ٢٥٥) معنى العليّ ، وفي (الرعد : ٩) معنى الكبير .

﴿ هُوَ الَّذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ . فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

(هُوَ الذي يُريكم آياتِه) أي : مصنوعاته التي تَدُلُّ على وَحدانيَّته وقُدرته . والرِّزق هاهنا : المطر ، سمِّي رزقاً ، لأنه سبب الأرزاق . و « يتذكَّر » بمعنى يتَّعظ ، و « يُنيب » بمعنى يَرْجِع إلى الطاعة .

ثم أمر المؤمنين بتوحيده فقال : (فادْعُوا اللهَ مُخلِصِينَ له الدِّينَ) أي : موحِّدين .

قوله تعالى : (رفيعُ الدَّرَجاتِ) قال ابن عباس : يعني رافع السموات . وحكى الماوردي عن بعض المفسِّرين قال : معناه : عظيم الصِّفات .

قوله تعالى : (ذو العَرْشِ) أي : خالقُه ومالكُه .

قوله تعالى : (يُلْقِي الرُّوحَ) فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه القرآن . والثاني : النُّبوَّة . والقولان مرويّان عن ابن عباس . وبالأول قال ابن زيد ، وبالثاني قال السدي . والثالث : الوحي ، قاله قتادة وإنما سُمِّي القرآن والوحي روحاً ، لأن قِوام الدِّين به ، كما أن قِوام البدن بالرُّوح . والرابع : جبريل ، قاله الضحاك . والخامس : الرَّحمة ، حكاه إبراهيم الحربي .

قوله تعالى : (مِنْ أَمْرِهِ) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : مِنْ قضائه ، قاله ابن عباس . والثاني : بأمره ، قاله مقاتل . والثالث : من قوله ، ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : (على مَن يشاءُ مِنْ عِبادِهِ) يعني الأنبياء .

(لِيُنْذِرَ) في المشار إليه قولان . أحدهما : أنه الله عز وجل . والثاني : النَّبيُّ الذي يوحى إليه .

والمراد بـ (يومَ التَّلاق) : يوم القيامة . وأثبت ياء (التلاقي) في الحالين ابن كثير ويعقوب ، وأبو جعفر وافقهما في الوصل ؛ والباقون بغير ياء في الحالَيْن .

وفي سبب تسميته بذلك خمسة أقوال .

أحدها : أنه يلتقي فيه أهل السماء والأرض ، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس .

والثاني : يلتقي فيه الأوَّلون والآخِرون ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : [يلتقي] فيه الخلق والخالق ، قاله قتادة ومقاتل .

والرابع : يلتقي المظلوم والظالم ، قاله ميمون بن مهران .

والخامس : يلتقي المرءُ بعمله ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (يَوْمَ هُم بارِزونَ) أي : ظاهِرون من قُبورهم (لا يَخْفَى على الله منهم شيء) .

فان قيل : فهل يَخْفَى عليه منهم اليوم شيء ؟

فالجواب : أنْ لا ، غير أن معنى الكلام التهديد بالجزاء ؛ وللمفسِّرين فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يَخْفَى عليه ممّا عَمِلوا شيء ، قاله ابن عباس . والثاني :

لايَستترونَ منه بجبل ولامَدَر ، قاله قتادة . والثالث : أن المعنى : أبْرَزهم جميعاً ، لأنه لا يَخفى عليه منهم شيء ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ) اتفقوا على أن هذا يقوله الله عز وجل بعد فَناء الخلائق . واختلفوا في وقت قوله له على قولين .

أحدهما : [أنه] يقوله عند فَناء الخلائق إذا لم يبق مجيب ، فيَرُدُّ هو على نفسه فيقول : (للهِ الواحدِ القهّارِ) ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه يقوله يوم القيامة .

وفيمن يُجيبه حينئذ قولان . أحدهما : أنه يُجيب نَفْسَه وقد سَكَتَ الخلائقُ لقوله ، قاله عطاء . والثاني : أن الخلائق كلَّهم يُجيبونه فيقولون : « للهِ الواحدِ القهارِ » ، قاله ابن جريج .

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ . يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾

قوله تعالى : (وأَنْذِرْهم يومَ الآزفة) فيه قولان .

أحدهما : أنه يومُ القيامة ، قاله الجمهور . قال ابن قتيبة : وسميت القيامة بذلك لقُربها ، يقال : أزِفَ شُخوص فلان ، أي : قَرُبَ .

والثاني : أنه يومُ حُضور المنيَّة ، قاله قطرب [١] .

---

(١) قال ابن كثير : يوم الآزفة : اسم من أسماء يوم القيامة ، قال : وسميت بذلك لاقترابها ، كما قال تعالى : (أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة) وقال عز وجل : (اقتربت الساعة وانشق القمر) وقال جل وعلا : (اقترب للناس حسابهم) وقال : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقال جل جلاله : (فلما رأوه زلفةً سيئت وجوه الذين كفروا ...) الآية . اهـ .

قوله تعالى : (إِذِ القُلوبُ لدى الحناجر) وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرُج ولا تعود ، هذا على القول الأول وعلى الثاني : القلوب هي النفوس تبلغ الحناجرَ عند حضور المنيّة ؛ قال الزجاج : و (كاظمينَ) منصوب على الحال ، والحال محمولة على المعنى ؛ لأن القلوب لا يقال لها : كاظمين ، وإنما الكاظمون أصحاب القلوب ؛ فالمعنى : إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كَظْمهم . قال المفسّرون : « كاظمِين » أي : مغمومين ممتلئين خوفاً وحزناً ، والكاظم : المُمْسِك للشيء على ما فيه ؛ وقد أشرنا إلى هذا عند قوله : (والكاظمين الغيظ) [آل عمران : ١٣٤] .

(ما لِلظّالمينَ) يعني الكافرين (مِنْ حَميمٍ) أي : قريب ينفعُهم (ولا شفيعٍ يُطَاعُ) فيهم فتُقْبَل شفاعتُه .

(يَعْلَمُ خائنةَ الأعيُن) قال ابن قتيبة : الخائنة والخيانة واحد . والمفسرين فيها أربعة أقوال .

أحدها : أنه الرجُل يكون في القوم فتمرُّ به المرأة فيُريهم أنه يغُضُّ بصره ، فاذا رأى منهم غفلةً لَحَظَ إليها ، فان خاف أن يَفْطَنُوا له غَضَّ بصره ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه نظر العين إلى ما نُهي عنه ، قاله مجاهد .

والثالث : الغمز بالعين ، قاله الضحاك والسدي . قال قتادة : هو الغمز بالعين فيما لا يُحبُّه الله ولا يرضاه .

والرابع : النظرة بعد النظرة ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وما تُخْفي الصُّدورُ) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : ما تُضْمِره من الفعل أن لو قدَرْتَ على ما نَظَرْتَ إليه ، قاله ابن عباس والثاني : الوسوسة ،

قاله السدي . والثالث : مايُسِرُّه القلب من أمانة أو خيانة ، حكاه الماوردي [1] .

﴿ وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

قوله تعالى : (واللهُ يَقْضي بالحق) أي : يحكُم به فيَجزي بالحسنة والسَّيِّئة (والذين يَدْعُونَ مِنْ دُونه) من الآلهة . وقرأ نافع ، وابن عامر : « تَدْعُونَ » بالتاء ، على معنى : قُلْ لهم : (لايَقْضُونَ بشيء) أي : لا يَحْكُمونَ بشيء ولا يُجازُونَ به ؛ وقد نبَّه اللهُ عز وجل بهذا على أنه حَيٌّ ، لأنه إنما يأمُر ويَقضي من كان حيّاً ، وأيَّد ذلك بذِكْر السَّمع والبصر ، لأنهما إنما يثبُتان لحيٍّ ،

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة مَن يعلم أنه يراه ، فانه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ماتنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . اهـ .

قاله أبو سليمان الدمشقي . وما بعد هذا قد تقدم بعضه [يوسف : ١٠٩] وبعضه ظاهر إلى قوله : (كانوا هُمْ أشَدَّ منهُمْ قوَّةً) وقرأ ابن عامر : « أشَدَّ منكُمْ » بالكاف ، وكذلك هو في مصاحفهم ، وهو على الانصراف من الغَيْبَة إلى الخطاب ، (وما كان لهم مِنَ الله) أي : من عذاب الله (مِنْ واقٍ) يقي العذاب عنهم .

(ذلك) أي : ذلك العذاب الذي نزل بهم (بأنَّهم كانت تأتيهم رسُلُهم بالبيِّنات . . .) إلى آخر الآية .

ثم ذكر قصة موسى وفرعون ليَعتبروا . وأراد بقوله : (اقتُلوا أبناءَ الذين آمنوا معه) أعيدوا القتل عليهم كما كان أوّلاً ، قاله ابن عباس . وقال قتادة : كان فرعون قَدْ كفَّ عن قتل الوِلْدانِ ، فلمّا بَعَثَ اللهُ موسى ، أعاد عليهم القتل ليصُدَّهم بذلك عن متابعة موسى .

قوله تعالى : (وما كَيْدُ الكافرين إلّا في ضلال) أي : إنه يَذْهَب باطلاً ويَحيق بهم مايريده اللهُ عز وجل .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ . وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ

إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ . وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾

(وقال فرعونُ ذَرُوني أقْتُلْ موسى) وإنما قال هذا ، لأنه كان في خاصَّة فرعونَ مَنْ يَمنَعُه مِنْ قتْله خوفاً من الهلاك (وَلْيَدْعُ ربَّه) الذي يزعُم أنه أرسله فليمنعه من القتل (إنِّي أخافُ أن يبدِّل دينَكم) أي : عبادتكم إيَّاي (وأن يُظْهِرَ في الأرض الفسادَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « وأن » بغير ألف . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « أو أن » بألف قبل الواو ، على معنى : إن لم يبدِّل دينَكم أوْقَعَ الفسادَ ، إلاّ أن نافعاً وأبا عمرو قرآ : « يُظْهِرَ » بضم الياء « الفسادَ » بالنصب . وقرأ الباقون : « يَظْهَرَ » بفتح الياء « الفسادُ » بالرفع ، والمعنى : يظهر الفساد بتغيير أحكامنا ، فجعل ذلك فساداً بزعمه ؛ وقيل : يقتل أبناءكم كما تفعلون بهم .

فلمّا قال فرعونُ هذا ، استعاذ موسى بربّه فقال : (إنِّي عُذْتُ بربِّي وربِّكم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر : « عُذْتُ » مبيَّنة الذّال ، وأدغمها أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف (مِنْ كُلِّ متكبِّرٍ) أي : متعظِّم عن الإيمان فقصد فرعونُ قتل موسى ، فقال حينئذ (رجُلٌ مؤمِنٌ من آل فرعون ...)

وفي الآل هاهنا قولان .

أحدهما : [أنه] بمعنى الأهل والنَّسب ؛ قال السدي ومقاتل : كان ابنَ عمّ فرعون ، وهو المراد بقوله : (وجاء رجُلٌ مِنْ أقصى المدينة يَسعى) [القصص : ٢٠] .

والثاني : أنه بمعنى القبيلة والعشيرة ؛ قال قتادة ومقاتل : كان قبطيّاً . وقال قوم : كان إسرائيليّاً ، وإنما المعنى : قال رجل مؤمن يكتُم إيمانَه من آل فرعون ؛ وفي اسمه خمسة أقوال .

أحدها : حزيل ، قاله ابن عباس ، ومقاتل . والثاني : حبيب ، قاله كعب . والثالث : سمعون ، بالسين المهملة ، قاله شعيب الجبَّائي . والرابع : جبريل [1] . والخامس : شمعان ، بالشين المعجمة ، رويا عن ابن إسحاق ، وكذلك حكى الزجاج « شمعان » بالشين ، وذكره ابن ماكولا بالشين المعجمة أيضاً . والأكثرون على أنه آمن بموسى لمّا جاء . وقال الحسن : كان مؤمناً قبل مجيء موسى [2] ، وكذلك امرأة فرعون . قال مقاتل : كتم إيمانه من فرعون مائة سنة .

قوله تعالى : (أتقتُلون رجُلاً أن يقولَ) أي : لأن يقولَ (ربِّيَ اللهُ) وهذا استفهام إنكار (وقد جاءكم بالبيِّنات) أي : بما يدُلُّ على صدقه ، (وإنْ يَكُ كاذباً فعليه كَذِبُه) أي : لا يضرُّكم ذلك (وإن يَكُ صادقاً يُصِبْكم بَعْضُ الذي يَعِدُكم) من العذاب . وفي « بَعْض » ثلاثة أقوال .

---

(١) في الأصل : جبرك ، والتصحيح من كتب التفسير .

(٢) قال ابن كثير : المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون ، قال : قال السدي : كان ابن عم فرعون ، قال : ويقال : إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام ، قال : واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيليـاً ، لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكفَّ عن قتل موسى عليه السلام ، قال : ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجَل بالعقوبة لأنه منهم .

أحدها : أنها بمعنى « كُلّ » ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد للبيد :

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إذا لَمْ أَرْضَها أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفوسِ حِمامُها[1]

أراد : كُلَّ النُّفوس .

والثاني : أنها صِلَة ؛ والمعنى : يُصِبْكُم الذي يَعِدُكم ، حُكي عن الليث .

والثالث : أنها على أصلها ، ثم في ذلك قولان . أحدهما : أنه وعدهم النجاةَ إن آمنوا ، والهلاكَ إن كفروا ، فدخل ذِكْر البعض لأنهم على أحد الحالين . والثاني : أنه وعدهم على كفرهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فصار هلاكُهم في الدنيا بعضَ الوَعْد ، ذكرهما الماوردي .

قال الزجّاج : هذا باب من النظر يذهب فيه المُناظِر إلى إلزام الحُجَّة بأيسر مافي الأمر ، وليس في هذا نفي إصابة الكلّ ، ومثله قول الشاعر :

قَدْ يُدْرِكُ المُتأَنّي بَعْضَ حاجَتِه
وَقَدْ يَكُونُ مِنَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ[2]

وإنما ذكر البعض ليوجبَ الكلّ ، لأن البعض من الكلّ ، ولكن القائل إذا قال : أقل مايكون المتأني إدراك بعض الحاجة ، وأقل مايكون المستعجِل الزَّلل ، فقد أبان فَضْلَ المتأنّي على المستعجِل بمالايَقْدِر الخصم أن يدفعه ، فكأنَّ المؤمن قال لهم : أَقَلُّ مايكون في صِدقه أن يُصيبكم بعضُ الذي يَعِدُكم ، وفي بعض ذلك هلاككم ؛ قال : وأما بيت لبيد ، فانه أراد ببعض النفوس : نَفسَه وحدها .

---

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري من معلقته ، وهو في ديوانه : ٣١٣ ، و « مجاز القرآن » : ٢٠٥/٢ ، و « شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ٥٧٣ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ٣٩٤/٢ ، و « اللسان » : بعض .

(٢) البيت للقطامي ، وهو في « البحر المحيط » : ٤٦١/٧ .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَهْدي ﴾ أي : لا يوفّق للصّواب ﴿ من هو مُسْرِفٌ ﴾ وفيه قولان . أحدهما : أنه المشرك ، قاله قتادة . والثاني : أنه السَّفَّاك الدَّم ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ ظاهرين في الأرض ﴾ أي : عالين في أرض مصر ﴿ فمن يَنْصُرُنا ﴾ أي : من يَمْنَعُنا ﴿ من بأس الله ﴾ أي : من عذابه ؛ والمعنى : لا تتعرّضوا للعذاب بالتكذيب وقَتْل النَّبيِّ ؛ فقال فرعونُ عند ذلك : ﴿ ما أُرِيكم ﴾ من الرّأي والنّصيحة ﴿ إلّا ما أرى ﴾ لنفسي ﴿ وما أَهْدِيكم ﴾ أي : أدعوكم إلّا إلى طريق الهُدى في تكذيب موسى والإيمان بي ، وهذا يَدُلُّ على أنه انقطع عن جواب المؤمِن .

﴿ وقال الذي آمن ياقوم إنّي أخافُ عليكم مِثْلَ يَوْمِ الأحزابِ ﴾ قال الزجّاج : أي : مِثْلَ يَوْمِ حزب حزب ؛ والمعنى : أخاف أن تُقيموا على كفركم فينزلَ بكم من العذاب مِثْلُ ما نزل بالأُمم المكذِّبة رسلهم [١] .

قوله تعالى : ﴿ يومَ التَّنادِ ﴾ قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « التَّنادِ » بغير ياء . وأثبت الياء في الوصل والوقف ابن كثير ، ويعقوب ، ووافقهم أبو جعفر في الوصل . وقرأ أبو بكر الصِّدّيق ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، وأبو العالية ، والضحاك : « التَّنادِّ » بتشديد الدال . قال الزجاج : أمّا إثبات الياء فهو الأصل ، وحذفها حسن جميل ،

---

(١) قال ابن كثير : هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذّر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة (فقال ياقوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) أي : الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر ، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذّبة كيف حلّ بهم بأس الله وما ردّه عنهم رادّ ، ولا صدّه عنهم صادّ (وما الله يريد ظلماً للعباد) أي : إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدَره ، ثم قال : (وياقوم إني أخاف عليكم يوم التناد) يعني يوم القيامة . اهـ .

لأن الكسرة تدُلُّ على الياء ، وهو رأس آية ، وأواخر هذه الآيات على الدّال ، ومن قرأ بالتشديد ، فهو من قولهم : نَدَّ فلان ، ونَدَّ البعير : إذا هرب على وجهه ، ويدل على هذا قوله : « يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ » وقوله : (يومَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخيه) [عبس : ٣٤] ؛ قال أبو علي : معنى الكلام : إنّي أخاف عليكم عذاب يوم التَّناد . قال الضحاك : إذا سمع الناسُ زفير جهنم وشهيقها نَدُّوا فِراراً منها في الأرض ، فلا يتوجَّهون قُطراً من أقطار الأرض إلا رأَوْا ملائكة ، فيرجعون من حيث جاؤوا . وقال غيره : يُؤمَر بهم إلى النار فيَفِرُّون ولا عاصم لهم . فأمّا قراءة التخفيف ، فهي من النّداء ، وفيها المفسرين أربعة أقوال .

أحدها : أنه عند نفخة الفزع ينادي الناسُ بعضهم بعضاً ، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يأمرُ اللهُ عز وجل إسرافيلَ بالنَّفخة الأولى فيقول : انفُخْ نفخةَ الفزع ، فيفزَعُ أهلُ السموات والأرض إلّا من شاء الله ، فتُسيَّر الجبالُ ، وتُرَجُّ الأرض ، وتَذْهَلُ المراضعُ ، وتضع الحواملُ ، ويولّي الناس مُدْبِرين ينادي بعضهم بعضاً [وهو قوله : « يومَ التَّناد »] »[1].

---

(١) هذا جزء من حديث الصور الطويل ، وقد ذكره الحافظ ابن كثير في « تفسيره » - عند قوله تعالى : (يوم ينفخ في الصور) من سورة (الأنعام : ٧٣) - بطوله من رواية الحافظ أبي القاسم الطبراني في كتابه « المطولات » ثم نقل عن الطبراني قوله عقب الحديث : هذا حديث مشهور ، وهو غريب جداً ، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة ، وفي بعض ألفاظه نكارة ، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة ، وقد اختلف فيه ، فمنهم من وثّقه ، ومنهم من ضعفه ، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة ، كأحمد بن حنبل ، وأبي حاتم الرازي ، وعمرو بن علي الفلاس ، ومنهم من قال فيه : هو متروك ، وقال ابن عدي : أحاديثه كلّها فيها نظر ، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء ، قال ابن كثير : قلت : وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة ، وأما سياقه فغريب جداً ، ويقال : إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك ، ـــ

والثاني : أنه نداء أهل الجنة والنار بعضهم بعضاً كما ذُكر في (الأعراف : ٤٤ ، ٥٠) ، وهذا قول قتادة .

والثالث : أنه قولهم : ياحسرتنا ياويلتنا ، قاله ابن جريج .

والرابع : أنه ينادى فيه كلُّ أناس بإمامهم بسعادة السعداء وشقاوة الأشقياء .

قوله تعالى : (يومَ تُوَلّونَ مُدْبِرِينَ) فيه قولان . أحدهما : هرباً من النار . والثاني : أنه انصرافهم إلى النار .

قوله تعالى : (مالكم مِنَ الله مِنْ عاصم) أي : من مانع .

قوله تعالى : (ولقد جاءكم يوسف) وهو يوسف بن يعقوب ، ويقال : إنه ليس به ، وليس بشيء .

قوله تعالى : (مِنْ قَبْلُ) أي : مِنْ قَبْلِ موسى (بالبيِّناتِ) وهي الدّلالات على التوحيد ، كقوله : (أأربابٌ متفرّقون خيرٌ . . .) الآية [يوسف : ٣٩] ، وقال ابن السائب : البيِّنات : تعبير الرُّؤيا وشَقّ القميص ، وقيل : بل بعثه الله تعالى بعد موت ملِك مصر إلى القبط .

قوله تعالى : (فما زِلتم في شكٍّ ممّا جاءكم به) أي : من عبادة الله وحده (حتّى إذا هَلَكَ) أي : مات (قُلْتُم لن يَبعث اللهُ مِنْ بعده رسولاً) أي : إنكم أقمتم على كفركم وظننتم أن الله لايجدّد إيجابَ الحجة عليكم (كذلك)

ـــ ثم قال ابن كثير : وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزّي يقول : إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث ، فالله أعلم . اهـ . والحديث أورده السيوطي في « الدر » : ٣٣٩/٥ - ٣٤٢ بطوله ، وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وعلي بن سعيد في كتاب « الطاعة والعصيان » ، وأبي يعلى ، وأبي الحسن القطان في « المطولات » ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي موسى المديني في « المطولات » ، وأبي الشيخ في « العظمة » ، والبيهقي في « البعث والنشور » عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أي : مِثْل هـذا الضَّلال (يُضِلُّ اللهُ مَنْ هو مُسْرِفٌ) أي : مُشْرِكٌ (مُرتابٌ) أي : شاكٌّ في التوحيد وصِدق الرُّسل [1] .

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾

قوله تعالى : (الذين يجادِلونَ) قال الزجاج : هذا تفسير المسرف المرتاب ، والمعنى : هُمُ الذين يجادِلونَ في آيات الله . قال المفسرون : يجادِلونَ في إبطالها والتكذيب بها بغير سلطان ، أي : بغير حُجَّة أتتهم من الله .

(كَبُرَ مَقْتاً) أي : كَبُرَ جدالُهم مَقْتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، والمعنى : يَمْقُتهم الله ويَمْقُتهم المؤمنون بذلك الجدال .

(كذلك) أي : كما طَبَعَ اللهُ على قلوبهم حتى كذَّبوا وجادلوا بالباطل ، يَطْبَع (على كلِّ قلبِ متكبِّرٍ) عن عبادة الله وتوحيده . وقد سبق بيان معنى الجبّار

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تبارك وتعالى : (ولقد جاءكم يوسف من قبلُ بالبينات) يعني أهل مصر قـــد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام ، كان عزيز أهل مصر وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ، ولهذا قال تعالى : (فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً) أي : يئستم فقلتم طامعين : (لن يبعث الله من بعده رسولاً) وذلك لكفرهم وتكذيبهم (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) أي : كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لاسرافه في أفعاله وارتياب قلبه .

في (هود : ٥٩) . وقرأ أبو عمرو : « على كلِّ قلبٍ » بالتنوين ، وغيرُه من القرّاء السبعة يُضيفه . وقال أبو علي : المعنى : يطبع على جملة القلب من المتكبّر . واختار قراءة الإضافة الزجاج ، قال : لأن المتكبّر هو الإنسان ، لا القلب .

فان قيل : لو كانت هذه القراءة أصوب لتقدَّم القلبُ على الكُلِّ ؟

فالجواب : أن هذا جائز عند العرب ، قال الفراء : تقدُّم هذا وتأخُّره واحد ، سمعتُ بعض العرب يقول : هو يرجِّل شعره يومَ كل جمعة ، يريد : كلَّ يوم جمعة ، والمعنى واحد . وقد قرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « على قلبِ كلِّ متكبّر » بتقديم القلب .

قال المفسرون : فلمّا وعظ المؤمنُ فرعونَ وزجره عن قتل موسى ، قال فرعونُ لوزيره : (ياهامانُ ابنِ لي صَرْحاً) وقد ذكرناه في (القصص : ٣٨) .

قوله تعالى : (لعلّي أبلُغ الأسبابَ ، أسبابَ السموات) قال ابن عباس وقتادة : يعني أبوابها . وقال أبو صالح : طرقها . وقال غيره : المعنى : لعلّي أبلُغُ الطُّرق من سماءٍ إلى سماءٍ . وقال الزجاج : لعلّي أبلُغ مايؤدّيني إلى السموات . وما بعد هذا مفسَّر في (القصص : ٣٨) [1] إلى قوله : (وكذلك) أي : ومِثْلُ ماوصفْنا (زُيِّنَ لفرعونَ سُوءُ عمله وَصُدَّ) عن سبيل الهدى . قرأ عاصم ، وحمزة والكسائي : « وصُدَّ » بضم الصاد ، والباقون بفتحها ، (وما كَيْدُ فرعونَ) في إبطال آيات موسى (إلّا في تَبابٍ) أي : في بطلان وخسران .

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوّه وتمرّده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبنيَ له صرحاً ـ وهو القصر العالي المنيف الشاهق ـ وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي ، كما قال تعالى : (فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً) .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

ثم عاد الكلامُ إلى نصيحة المؤمن لقومه ، وهو قوله : (اتَّبِعونِ أَهْدِكم سبيل الرَّشادِ) أي : طريق الهدى ، (ياقومِ إنما هذه الحياةُ الدُّنيا متاعٌ) يعني الحياة في هذه الدار متاع يُتمتَّع بها أياماً ثم تنقطع (وإنَّ الآخرة هي دار القرار) التي لازوال لها [1] .

(من عَمِلَ سيِّئةً) فيها قولان . أحدهما : أنها الشِّرك ، ومثلها جهنم ، قاله الأكثرون . والثاني : المعاصي ، ومثلُها : العقوبةُ بمقدارها ، قاله أبو سليمان الدمشقي . فعلى الأول ، العمل الصالح : التوحيد ، وعلى الثاني ، هو [على] الإطلاق .

قوله تعالى : (فأولئك يدخُلون الجنة) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « يُدخَلونَ » بضم الياء . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بالفتح ، وعن عاصم كالقراءتين .

وفي قوله : (بغير حساب) قولان . أحدهما : أنهم لاتَبِعَةَ عليهم فيما يُعْطَون في الجنة ، قاله مقاتل . والثاني : أنه يُصَبُّ عليهم الرِّزق صبّاً بغير تقتير ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

---

(١) قال ابن كثير : يقول المؤمن لقومه ممن تمرَّد وطغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم : (ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) لا كما كذب فرعون في قوله : (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) ثم زهَّدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى وصدتْهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام (فقال ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) أي : قليلة زائلة فانية ، عن قريب تذهب وتضمحل (وإن الآخرة هي دار القرار) أي : الدار التي لازوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها ، بل ، إما نعيم ، وإما جحيم . اهـ .

﴿ وَيَاقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَالَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لاجَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَامَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

قوله تعالى : (وياقوم مالي أدعُوكم) أي : مالكم ، كما تقول : مالي أراك حزيناً ، معناه : مالك ، ومعنى الآية : أخبروني كيف هذه الحال ، أدعوكم (إلى النجاة) من النار بالإيمان ، (وتَدْعونني إلى النّار) أي : إلى الشِّرك الذي يوجب النّار ؟ ! ثم فسَّر الدَّعوتَين بما بعد هذا .

ومعنى (ليس لي به عِلْم) أي : لا أعلم هذا الذي ادَّعَوْه شريكاً له .

وقد سبق بيان مابعد هذا [البقرة : ١٢٩ ، طه : ٨٢] إلى قوله : (ليس له دعوة) وفيه قولان . أحدهما : ليس له استجابة دعوة ، قاله السدي . والثاني : ليس له شفاعة ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وأنَّ مَرَدَّنا إلى الله) أي : مَرْجِعنا ؛ والمعنى أنه يجازينا بأعمالنا . وفي الْمسْرِفين قولان قد ذكرناهما عند قوله : (مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) [غافر : ٢٨] .

قوله تعالى : (فستَذْكُرونَ ما أقول لكم) وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ،

وأبو عمران الجوني ، وأبو رجاء : « فستَذَكَّرونَ » بفتح الذال وتخفيفها وتشديد الكاف وفتحها ؛ وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأيوب السختياني : بفتح الذال والكاف وتشديدهما جميعاً . أي : إذا نزل العذاب بكم ، ما أقول لكم في الدنيا من النصيحة ؟!

(وأُفوِّضُ أمري إلى الله) أي : أرُدُّه [١] ، وذلك أنهم تواعدوه لمخالفته دينَهم (إنَّ الله بصير بالعباد) أي : بأوليائه وأعدائه .

ثم خرج المؤمن عنهم ، فطلبوه فلم يَقْدِروا عليه ، ونجا مع موسى لمَّا عبر البحر ، فذلك قوله : (فوقاه اللهُ سيِّئاتِ مامكَروا) أي : ما أرادوا به من الشَّرِّ (وحاقَ بآل فرعونَ) لما لجوا في البحر (سوءُ العذاب) قال المفسِّرون : هو الغرق [٢] .

قوله تعالى : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عليها غُدُوّاً وعَشِيّاً) [٣] قال ابن مسعود

(١) قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وقومه : فستذكرون أيها القوم - إذا عاينتم عقاب الله قد حلَّ بكم ، ولقيتم مالقيتموه - صِدقَ ماأقول ، وحقيقة ما أخبركم به من أن المسرفين هم أصحاب النار ، ثم قال : وقوله : (وأفوِّض أمري إلى الله) يقول : وأسلِّم أمري إلى الله وأجعله إليه وأتوكل عليه فانه الكافي مَن توكل عليه . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : (وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب) وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فان أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة ، فاذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ، ولهذا قال : (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أي : أشدّه ألماً ، وأعظمه نكالاً .

(٣) قال ابن كثير : وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور ، وهي قوله تعالى : (النار يعرضون عليها غُدوّاً وعشيّاً) قال : ولكن هنا سؤال ، وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية ، وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ ، وقد قال الامام أحمد : ثنا هاشم - هو ابن القاسم أبو النضر - ثنا إسحاق بن سعيد - هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص - ثنا سعيد - يعني أباه - عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية : وقاكِ الله

. . . .

ـــ عذاب القبر ، قالت عائشة رضي الله عنها : فدخل رسول الله ﷺ عليَّ فقلت : يارسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « لا ، من زعم ذلك ؟ » قالت : هذه اليهودية لا أصنع معها شيئاً من المعروف إلا قالت : وقاكِ الله عذاب القبر ، قال ﷺ : « كذبت يهودية ، وهم على الله أكذب ، لاعذاب دون يوم القيامة » ثم مكث بعد ذلك ماشاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه محمرَّة عيناه وهو ينادي بأعلى صوته : « القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً ، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فان عذاب القبر حق » قال : وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم ، ولم يخرجاه ، قال : وروى أحمد ومسلم : ثنا يزيد ، ثنا سفيان ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألتْها امرأة يهودية فأعطتْها ، فقالت لها : وقاكِ الله من عذاب القبر ، فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك ، فلما رأت النبي ﷺ قالت له ، فقال ﷺ : « لا » قالت عائشة رضي الله عنها : ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك : « وإنه أوحيَ إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم » قال : وهذا أيضاً على شرطها .

قال : فيقال : فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ ؟ قال : والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غُدوّاً وعشيّاً في البرزخ ، وليس فيها دلالة على اتصال تألّمها بأجسادها في القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألّمه بسببه ، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها .

قال : وقد يقال : إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ ، ولا يلزم من ذلك أن يعذّب المؤمن في قبره بذنب ، قال : ومما يدل على ذلك مارواه الامام أحمد : ثنا عثمان بن عمر ، ثنا يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهي تقول : أشعرتِ أنكم تفتنون في قبوركم ؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال : « إنما يفتن يهود » قالت عائشة رضي الله عنها : فلبثنا ليالي ، ثم قال رسول الله ﷺ : « أشعرتِ أنه أوحي إليّ أنكم تفتنون في القبور ؟ » وقالت عائشة رضي الله عنها : فكان رسول الله ﷺ بعدُ يستعيذ من عذاب القبر ، قال : وهكذا رواه مسلم عن هارون بن سعيد ، وحرملة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري به . ــــ

وابن عباس : إن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يُعْرَضُونَ على النار كُلَّ يوم مرَّتين فيقال : يا آل فرعون هذه داركم . وروى ابن جرير قال : حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير ، قال : حدثنا حماد بن محمد البلخي قال : سمعت الأوزاعي ، وسأله رجل ، فقال : رأينا طيوراً [1] تخرج من البحر فتأخذ ناحية الغرب بِيضاً ، فَوْجاً فَوْجاً ، لايعلم عددها إلا الله ، فإذا كان العشيّ رجع مثلها سُوداً ، قال : وفَطَنْتم إلى ذلك ؟ قال : نعم ، قال : إن تلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون يُعْرَضُونَ على النار غدوّاً وعشيّاً ، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشها وصارت سوداء ، فينبُت عليها من الليل رياش بِيض ، وتتناثر السود ، ثم تغدو ويعرضون [2] على النار غدوّاً وعشيّاً ، [ثم ترجع إلى وكورها] [3] ، فذلك دأبها [4] في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله عز وجل : (أَدْخِلوا

— قال : وقد يقال : إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ، قال : ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها ، فلما أُوحي إلى النبي ﷺ في ذلك بخصوصه ، استعاذ منه ، والله سبحانه وتعالى أعلم . قال : وقد روى البخاري من حديث شعبة عن أشعث عن ابن أبي الشعثاء عن أبيه عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت : نعوذ بالله من عذاب القبر ، فسألت عائشةُ رضي الله عنها رسولَ الله ﷺ عن عذاب القبر ، فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر .

قال ابن كثير : فهذا يدل على أنه بادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر ، وقرّر عليه ، قال : وفي الأخبار المتقدّمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي ، قال : فلعلها قضيتان ، والله سبحانه أعلم ، قال : وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً .

(١) في الأصل : « طيراً » والتصويب من الطبري .

(٢) في الأصل : « يعرضون » بغير واو ، والتصويب من الطبري .

(٣) زيادة من الطبري .

(٤) في الأصل : « دأبهم » والتصويب من الطبري .

آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب) . وقد روى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقْعَدُه بالغَداة والعشيّ ، إن كان من أهل الجنة فمن [أهل] [1] الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن [أهل] [1] النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك اللهُ إليه يوم القيامة »[2] .

وهذه الآية تدل على عذاب القبر ، لأنه بيَّن مالهم في الآخرة فقال : (ويومَ تقومُ الساعةُ أدخِلوا) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، [وأبو عمرو] ، وأبو بكر وأبان عن عاصم : « الساعةُ ادْخُلوا » بالضم وضم الخاء على معنى الأمر لهم بالدخول ، والابتداءُ على قراءة هؤلاء بضم الألف . وقرأ الباقون : بالقطع مع كسر الخاء على جهة الأمر للملائكة بادخالهم ، وهؤلاء يبتدئون بفتح الألف .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ . وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ . إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

قوله تعالى : (وإذ يتحاجُّون في النار) المعنى : واذكر لقومك يا محمد

(١) زيادة من البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري : ١٩٣/٣ ، ومسلم : ٢١٩٩/٤ .

إذ يختصمون ، يعني أهل النار ، والآية مفسَّرة في [سورة] (إبراهيم : ٢١) ، والذين استكبروا هم القادة . ومعنى (إنّا كُلٌّ فيها) أي : نحن وأنتم ، (إنّ الله قد حَكَم بين العباد) أي : قضى هذا علينا وعليكم [١] . ومعنى قول الخزَنة لهم : (فادْعُوا) أي : نحن لانَدْعو لكم (وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال) أي : إن ذلك يَبْطُل ولا يَنْفَع [٢] .

(إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا والذين آمَنوا في الحياة الدُّنيا) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أن ذلك باثبات حُجَجهم . والثاني : باهلاك عدوّهم : والثالث : بأن العاقبة تكون لهم . وفصلُ الخطاب : أن نصرهم حاصل لابدَّ منه ، فتارة يكون باعلاء أمرهم كما أعطى داود وسليمان من الُملك ماقهرا به كل كافر ، وأظهر محمداً ﷺ على مكذّبيه ، وتارة يكون بالانتقام من مكذّبيهم بانجاء الرسل وإهلاك أعدائهم ، كما فعل بنوح وقومه وموسى وقومه ، وتارة يكون بالانتقام من مكذّبيهم بعد وفاة الرُّسل ، كتسليطه بختنصر على قَتَلَة يحيى بن زكريا . وأمّا نصرهم يوم يقوم الأشهاد ، فان الله منجيهم من العذاب ، وواحد الأشهاد شاهد ، كما أن واحد الأصحاب صاحب .

وفي الأشهاد ثلاثة أقوال .

أحدها : الملائكة ، شهدوا للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأُمم بالتكذيب ، قاله مجاهد ، والسدي . قال مقاتل : وهم الحَفَظة من الملائكة .

(١) قال ابن جرير الطبري (إن الله قد حكم بين العباد) بفصل قضائه ، فأسكن أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون ، ولا هم مما فيه من النعيم منتقلون . اهـ .

(٢) قال ابن جرير : وقوله : (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) يقول : قد دَعَوْا ، وما دعاؤهم إلا في ضلال ، لأنه دعاء لاينفعهم ولا يستجاب لهم ، بل يقال لهم : اخسؤوا فيها ولا تكلّمون . اهـ . وقال ابن كثير : (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) إلا في ذهاب لايقبل ولا يستجاب . اهـ .

والثاني : الملائكة والأنبياء ، قاله قتادة .

والثالث : أنهم أربعة : الأنبياء والملائكة والمؤمنون والجوارح ، قاله ابن زيد [١] .

قوله تعالى : (يومَ لاينفعُ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « تنفعُ » بالتاء ، والباقون بالياء ؛ لأن المعذرة والاعتذار بمعنى (الظالمين معذرتُهم) أي : لايُقبلُ منهم إن اعتذروا (ولهم اللعنةُ) أي : البُعد من الرَّحمة . وقد بيَّنّا في (الرعد : ٢٥) أن « لهم » بمعنى « عليهم » ، و (سوء الدار) : النار .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ . هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ . إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ . وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَاتَتَذَكَّرُونَ . إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَارَيْبَ فِيهَا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ . وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ . ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) قال ابن كثير : (ويوم يقوم الأشهاد) أي : يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل . اهـ .

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ . اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

(ولقد آتينا موسى الهُدى) من الضلالة ، يعني التوراة (وأورثنا بني إسرائيل الكتابَ) بعد موسى ، وهو التوراة أيضاً في قول الأكثرين ؛ وقال ابن السائب : التوراة والإنجيل والزَّبور . والذِّكرى بمعنى التذكير .

(فاصْبِر) على أذاهم (إنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ) في نصرك ، وهذه الآية في هذه السورة في موضعين [غافر : ٥٥ ، ٧٧] ، وقد ذكروا أنها منسوخة بآية السيف [(١)] .

ومعنى « سَبِّح » : صَلِّ .

وفي المراد بصلاة العشيّ والإبكار ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الصلوات الخمس ، قاله ابن عباس .

(١) قال ابن كثير : (فاصبر) أي : يامحمد (إن وعد الله حق) أي : وعدناك أنا سنُعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك ، والله لايخلف الميعاد ، قال : وهذا الذي أخبرناك به حق لامرية فيه ولا شك . اهـ .

والثاني : صلاة الغداة وصلاة العصر ، قاله قتادة ·

والثالث : أنها صلاة كانت قبل أن تُفرض الصلوات ، ركعتان غُدوةً ، وركعتان عشيَّةً ، قاله الحسن .

وما بعد هذا قد تقدم آنفاً [المؤمن : ٤] إلى قوله : (إنْ في صُدورِهِم إلاّ كِبْرٌ . . .) الآية نزلت في قريش [١] ؛ والمعنى : مايَحْمِلُهم على تكذيبك إلاّ مافي صدورهم من التكبُّر عليك ، وماهم ببالغي مقتضى ذلك الكِبْر ، لأنَّ الله تعالى مُذِلُّهم ، (فاستعذ بالله) من شرِّهم ؛ ثم نبَّه على قدرته بقوله : (لَخَلْقُ السموات والأرض أكبرُ من خَلْقِ الناس) أي : من إعادتهم ،

(١) قال البغوي : قال أهل التفسير : نزلت في اليهود ، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ : إن صاحبنا المسيح بن داود ـ يعنون الدجال ـ يخرج في آخر الزمان فيبلغ سلطانه البرّ والبحر ويردّ الملك إلينا ، قال الله تعالى : (فاستعذ بالله)من فتنة الدجال (إنه هو السميع البصير) . اهـ . قال السيوطي في « الدر » ٥/٣٥٣ : أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية رضي الله عنه قال : إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا : إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ، ويكون من أمره ، فعظَّموا أمره وقالوا : يصنع كذا ، فأنزل الله : (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) قال : لايبلغ الذي يقول ، (فاستعذ بالله) فأمر نبيه ﷺ أن يتعوّذ من فتنة الدجال (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) الدجال . اهـ . قال ابن كثير : وقال كعب وأبو العالية : نزلت هذه الآية في اليهود (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) قال أبو العالية : وذلك أنهم ادّعوا أن الدجال منهم ، وأنهم يملكون به الأرض ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ آمراً أن يستعيذ من فتنة الدجال ، ولهذا قال عز وجل : (فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) قال ابن كثير : وهذا قول غريب ، وفيه تعسّف بعيد وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه ، والله سبحانه وتعالى أعلم . اهـ . ولذلك قال المصنف : نزلت في قريش ، وسيذكر بعد قليل عن مقاتل أنها نزلت في اليهود ، قال : وإلى نحو هذا ذهب أبو العالية ، ثم قال : والأول أصح ، يعني أنها نزلت في قريش ، والله أعلم .

وذلك لكثرة أجزائها وعِظَم جِرْمها [١] ، فنبَّههم على قُدرته على إعادة الخَلْق (ولكنَّ أكثر الناس لايَعلمونَ) يعني الكفار حين لايستدلّون بذلك على التوحيد . وقال مقاتل : عظَّمت اليهودُ الدجّالَ وقالوا : إن صاحبنا يُبعَث في آخر الزمان وله سلطان ، فقال الله : (إن الذين يجادِلونَ في آيات الله) لأن الدجّال من آياته ، (بغير سُلطان) أي : [بغير] حجة ، فاستعذ بالله من فتنة الدجّال . قال : والمراد بـ « خَلْق الناس » : الدجّال ؛ وإلى نحو هذا ذهب أبو العالية ، والأول أصح [٢] .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (ادْعُوني أسْتَجِبْ لكم) فيه قولان . أحدهما : وحِّدوني واعبُدوني أُثِبْكم ، قاله ابن عباس . والثاني : سلوني أُعْطِكم ، قاله السدي [٣] .

(إن الذين يَستكبِرونَ عن عبادتي) فيه قولان . أحدهما : عن توحيدي ، والثاني : عن دعائي ومسألتي (سَيَدْخُلونَ جهنَّم) [٤] قرأ ابن كثير ، وأبو بكر

---

(١) الجِرْم ، بالكسر : الجسد ، والجمع أجرام ، مثل حِمْل وأحمال .

(٢) وهو أنها نزلت في قريش .

(٣) قال ابن كثير : هذا من فضله - تبارك وتعالى - وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفّل لهم بالاجابة ، كما كان سفيان الثوري يقول : يامن أحَبُّ عباده إليه مَن سأله فأكثر سؤاله ، ويامن أبغضُ عبـــاده إليه من لم يسأله ، وليس أحد كذلك غيرك يارب ، رواه ابن أبي حاتم ، قال : وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

الله يغضب إن تركـــتَ سؤاله وبنيُّ آدم حين يُســـأل يغضبُ

(٤) وروى الامام أحمد في « المسند » : ٢٧١/٤ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : (ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبـادتي سيدخلون جهنم داخرين) ورواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وهو كما قال . والحديث ذكره السيوطي في « الدر » : ٣٥٥/٥ ، وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، ـــ

عن عاصم ، وعباس بن الفضل[١] عن أبي عمرو : « سيُدْخَلونَ »[بضم الياء] ، والباقون بفتحها . والدّاخر : الصّاغر .

وما بعد هذا قد سبق في مواضع متفرقة [يونس: ٦٧ ، القصص : ٧٣ ،الأنعام : ٩٥ ، النمل : ٦١ ، الأعراف : ٥٤ ، ٢٩ ، الحج : ٥] إلى قوله : (ولِتبلُغوا أجلاً مسمّى) وهو أجل الحياة إلى الموت (ولعلّكم تعقِلونَ) توحيدَ الله وقدرتَه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ . الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ . ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ . ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ . ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ

ـــ والبخاري في « الأدب المفرد » ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الحلية » ، والبيهقي في « شعب الايمان » عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(١) قال ابن الجزري في « طبقات القراء » : العباس بن الفضل بن عمرو بن عبيد بن الفضل ابن حنظلة أبو الفضل الواقفي الأنصاري البصري ، قاضي الموصل ، أستاذ حاذق ثقة ، قال الحافظ أبو العلاء : وكان من أكابر أصحاب أبي عمرو في القراءة .

مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ . اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾

(أَلَمْ تَرَ إلى الذين يجادلون في آيات الله) يعني القرآن ، يقولون : ليس من عند الله ، (أَنَّى يُصْرَفُونَ) أي : كيف صُرِفوا عن الحق إلى الباطل ؟ ! وفيهم قولان . أحدهما : أنهم المشركون ، قاله ابن عباس . والثاني : أنهم القَدَرِيَّة ، ذكره جماعة من المفسرين . وكان ابن سيرين يقول : إن لم تكن نزلت في القَدَرِيَّة فلا أدري فيمن نزلت [1] .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو مجلز ، والضحاك ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : « والسلاسلَ يَسحبونَ » بفتح اللام والياء . وقال ابن عباس : إذا سحبوها كان أشدّ عليهم .

(١) « الطبري » : ٢٤/٨٣ من رواية سفيان عن داود بن أبي هند عن محمد بن سيرين .

قوله تعالى : (يُسْجَرُونَ) قال مجاهد : توقد بهم النار فصاروا وَقودَها .

قوله تعالى : (أين ما كنتم تشركونَ) مفسَّر في (الأعراف : ١٩٠) .

وفي قوله : (لَمْ نكن نَدْعو من قبْلُ شيئاً) قولان .

أحدهما : أنهم أرادوا أن الأصنام لم تكن شيئاً ، لأنها لم تكن تضُر ولا تنفع ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : أنهم قالوه على وجه الجحود ، قاله أبو سليمان الدمشقي ،

(كذلك) أي : كما أضلَّ اللهُ هؤلاء يُضِلُّ الكافرين .

(ذلكم) العذاب الذي نزل بكم (بما كنتم تفرحونَ في الأرض بغير الحق) أي : بالباطل (وبما كنتم تَمرحونَ) وقد شرحنا المَرَح في (بني إسرائيل : ٣٧) . وما بعد هذا قد تقدَّم بتمامه [النحل : ٢٩ ، يونس : ١٠٩ ، النساء : ١٦٤] إلى قوله : (وما كان لرسولٍ أن يأتيَ بآية إلّا بإذن الله) وذلك لأنهم كانوا يقترِحون عليه الآيات (فإذا جاء أمرُ الله) وهو قضاؤه بين الأنبياء وأُممهم ، و (المبطلون) : أصحاب الباطل .

قوله تعالى : (ولِتبلُغوا عليها حاجةً في صُدوركم) أي : حوائجكم في البلاد [1] .

قوله تعالى : (فأيَّ آيات الله تُنكِرونَ) استفهام توبيخ [2] .

قوله تعالى : (فما أغنى عنهم) في « ما » قولان . أحدهما : أنها للنفي .

---

(١) قال ابن جرير : وقوله : (ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم) يقول : ولتبلغوا بالحُمولة على بعضها ـ وذلك الابل ـ حاجة في صدوركم لم تكونوا بالغيها لولا هي إلا بشق الأنفس ، كما قال جل ثناؤه : (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) . اهـ .

(٢) قال ابن جرير : يقول : فأي حجج الله التي يريكم أيها الناس في السماء والأرض تنكرون صحتها فتكذبون من أجل فسادها توحيد الله وتدعون من دونه إلـهاً . اهـ .

والثاني : [أنها] للاستفهام ، ذكرهما ابن جرير [١] .

قوله تعالى : (فرِحوا بما عندهم من العِلْم) في المشار إليهم قولان .

أحدهما : [أنهم] الأُمم المكذِّبة ، قاله الجمهور ؛ ثم في معنى الكلام قولان .
أحدهما : أنهم قالوا : نحن أعلم منهم لن نُبعَثَ ولن نُحاسَبَ ، قاله مجاهد .
والثاني : فرحوا بما كان عندهم أنه عِلْم [٢] ، قاله السدي .

والقول الثاني : أنهم الرُّسل ؛ والمعنى : فرح الرُّسل لمّا هلك المكذِّبون ونَجَوْا بما عندهم من العِلْم بالله إذ جاء تصديقُه ، حكاه أبو سليمان وغيره .

قوله تعالى : (وحاق بهم) يعني بالمكذِّبين العذاب الذي كانوا به يستهزؤون [٣] .
والبأس : العذاب . ومعنى (سُنَّةَ الله) : أنه سَنَّ هذه السُّنَّة في الأُمم ، أي : أن إيمانهم لاينفعُهم إذا رأوا العذاب ، (وخسر هنالك الكافرون) .

---

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وماذا حلَّ بهم من العذاب الشديد مع شدة قوام وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال ، قال : فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ، ولا ردَّ عنهم ذرَّة من بأس الله ، قال : وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدامغات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم ، واستغنَوْا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل .

(٢) الذي في الطبري وابن كثير عن السدي : (فرحوا بما عندهم من العلم) بجهالتهم .

(٣) قال ابن كثير : (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) أي يكذبون ويستبعدون وقوعه . ثم قال في تتمة الآية : (فلما رأوا بأسنا) أي : عاينوا وقوع العذاب بهم (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) أي : وحَّدوا الله عز وجل ، وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لاتُقال العثرات ولا تنفع المعذرة ، قال : وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق : (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) قال تبارك وتعالى : (آلآن وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين) أي : فلم يقبل الله منه ، لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه عليه حين قال : (واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا ـــ

فان قيل : كأنهم لم يكونوا خاسرين قبل ذلك ؟

فمنه جوابان . أحدهما : أن « خسر » بمعنى « هلك » ، قاله ابن عباس .
والثاني : أنه إنما بيّن لهم خُسرانهم عند نزول العذاب ، قاله الزجاج .

★ ★ ★

ـــ العذاب الأليم) قال : وهكذا قال تعالى هاهنا : (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده) أي : هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لايقبل ، قال : ولهذا جاء في الحديث : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أي : فاذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملَك، فلا توبة حينئذ ، قال : ولهذا قال تعالى : (وخسر هنالك الكافرون).اهـ

سورة السجدة

مكيّة [كُلُّها] بإجماعهم، ويقال لها : سجدة المؤمن، ويقال لها : المصابيح [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

قوله تعالى : (تنزيلٌ) قال الفراء : يجوز أن يرتفع « تنزيلٌ » بـ (حم)، ويجوز أن يرتفع بإضمار « هذا » . وقال الزجاج : « تنزيلٌ » مبتدأ، وخبره

---

(١) ويقال لها : فُصِّلَتْ .

« كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه » ، هذا مذهب البصريِّين . و (قرآناً) منصوب على الحال ، المعنى : بُيِّنَتْ آياتُه في حال جَمْعِه ، (لقومٍ يَعْلَمونَ) أي : لِمَن يَعلم .

قوله تعالى : (فأَعْرَضَ أكثرُهم) يعني أهل مكة (فهم لايَسمعونَ) تكبُّراً عنه ، (وقالوا قلوبُنا في أكنَّة) أي : في أغطية فلا نفقه قولك . وقد سبق بيان « الأكنَّة » و « الوَقْر » في (الأنعام : ٢٥) . ومعنى الكلام : إنّا في تَرْكِ القبول منكَ بمنزلة من لايَسمع ولا يَفهم ، (ومِن بينِنا وبينِكَ حِجابٌ) أي : حاجزٌ في النِّحلة والدِّين . قال الأخفش : و « من » هاهنا للتوكيد .

قوله تعالى : (فاعْمَلْ) فيه قولان . أحدهما : اعمل في إبطال أمرنا إنا عاملون على إبطال أمرك . والثاني : اعْمَلْ على دِينكَ إنا عاملون على ديننا .

(قُلْ إنما أنا بَشَرٌ مثلُكم) أي : لولا الوحي لَمَا دعوتُكم .

(فاستقيموا إليه) أي : توجَّهوا إليه بالطاعة ، واستغفِروه من الشرك [1] .

قوله تعالى : (الذين لايؤتون الزكاة) فيه خمسة أقوال .

أحدها : لايشهدون أن « لا إله إلا الله » ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، والمعنى : لايطهِّرون أنفُسَهم من الشرك بالتوحيد .

والثاني : لايؤمِنون بالزكاة ولا يُقِرُّون بها ، قاله الحسن ، وقتادة .

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : (قل) يامحمد لهؤلاء المكذبين المشركين : (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد) ، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين ، إنما الله إله واحد ، (فاستقيموا إليه) أي : أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل (واستغفروه) أي : لسالف الذنوب ، ثم قال : (وويل للمشركين) أي : دمار لهم وهلاك عليهم .

والثالث : لايزكّون أعمالهم ؛ قاله مجاهد ، والربيع .

والرابع : لايتصدّقون، ولا يُنفِقون في الطاعات ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

والخامس : لايُعطُون زكاة أموالهم ، قال ابن السائب : كانوا يحُجُّون ويعتمرون ولا يزكّون (١) .

قوله تعالى : (غيرُ ممنون) أي : غير مقطوع ولا منقوص .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً

(١) قال ابن جرير الطبريّ : والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا : معناه : لايؤدون زكاة أموالهم ، قال : وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة ، وأن في قوله (وهم بالآخرة هم كافرون) دليلاً على أن ذلك كذلك ، لأن الكفار الذين عنُوا بهذه الآية كانوا لايشهدون أن لا إله إلا الله ، فلو كان قوله : (الذين لايؤتون الزكاة) مراد به الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، لم يكن لقولهم : (وهم بالآخرة هم كافرون) معنىً ، لأنه معلوم أن من لا يشهد أن لا إله إلا الله لايؤمن بالآخرة ، قال : وفي إتباع الله قوله : (وهم بالآخرة هم كافرون) قوله: (الذين لايؤتون الزكاة)ماينبىء عن الزكاة في هذا الموضع معنيٌّ بها زكاة الأموال . وقال ابن كثير : (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) قال قتادة : الذين يمنعون زكاة أموالهم ، قال : وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير ، قال : وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد ، قال : وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة ، كقوله تبارك وتعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) قال : فأما الزكاة ذات النُّصُب والمقادير ، فإنما بُيِّن أمرها بالمدينة ، قال : ويكون هذا جمعاً بين القولين ، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة ، فلما كانت ليلة الاسراء قبل الهجرة بسنة ونصف ، فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس ، وفصّل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، والله أعلم . اهـ .

لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

قوله تعالى : (خَلَقَ الأرضَ في يومين) قال ابن عباس : في يوم الأحد والاثنين ، وبه قال عبد الله بن سلام ، والسدي ، والأكثرون . وقال مقاتل : في يوم الثلاثاء والأربعاء . وقد أخرج مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة قال : أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي ، فقال : « خَلَقَ اللهُ عز وجل التربة يومَ السبت ، وخلق الجبال فيها يومَ الأحد ، وخلق الشجر فيها يومَ الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يومَ الأربعاء ، وبثَّ فيها الدواب يومَ الخميس » ، وهذا الحديث يخالف ماتقدَّم ، وهو أصح [1] .

---

(١) ولفظ الحديث بتمامه عند مسلم ٤/٢١٤٩ : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل » . وهذا الحديث من أفراد مسلم كما ذكر المؤلف رحمه الله ، وقد رواه الامام أحمد في « المسند » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وكذلك رواه النسائي في « التفسير » وابن أبي حاتم ، وابن مردويه . وقال الحافظ ابن كثير عن هذا الحديث في « التفسير » ، بعد ما أورده : وهذا الحديث من غرائب « صحيح مسلم » وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ ، وجعلوه من كلام كعب الأحبار ، وأن أبا هريرة سمعه من كعب الأحبار ، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً ، وقد حرر ذلك البيهقي . اهـ . والحديث سنده صحيح ، وممن صححه الشوكاني في « فتح القدير » ، وإنما تكلم عليه بعض العلماء من جهة متنه ، ورأوا أنه معارض للقرآن ، والذي صحح الحديث سنداً ومتناً رأى أنه لاتعارض بينه وبين نص القرآن ، فان القرآن ذكر أن الله تعالى خلق ـــ

قوله تعالى : (وتَجعلونَ له أنداداً) قد شرحناه في (البقرة : ٢٢) و (ذلك) الذي فعل ما ذُكر (ربُّ العالَمين) .

(وجعل فيها رواسيَ) أي : جبالاً ثوابتَ من فوق الأرض ، (وبارك فيها) بالأشجار والثمار والحبوب والأنهار ، وقيل : البَرَكة فيها : أن ينميَ فيها الزرع ، فتخرج الحبّة حبّات ، والنواة نخلةً (وقدَّر فيها أقواتَها) قال أبو عبيدة : هي جمع قُوت ، وهي الأرزاق وما يُحتاج إليه .

وللمفسرين في هذا التقدير خمسة أقوال .

أحدها : أنه شقّق الأنهار وغرس الأشجار ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه قسم أرزاق العباد والبهائم ، قاله الحسن .

والثالث : أقواتها من المطر ، قاله مجاهد .

والرابع : قدَّر لكل بلدة مالم يجعله في الأخرى كما أنّ ثياب اليمن لاتصلح إلا بـ« اليمن »والهرويَّة بـ«هراة »،ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة،قاله عكرمة،والضحاك .

والخامس : قدَّر البُرَّ لأهل قُطْرٍ ، والتَّمْر لأهل قُطْرٍ ، والذُّرَة لأهل قُطْرٍ ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (في أربعة أيّام) أي : في تتمة أربعة أيام . قال الأخفش : ومثله [أن] تقول : تزوجت أمسِ امرأة ، واليومَ ثنتين ، وإحداهما التي تزوجتها أمس .

قال المفسرون : يعني : الثلاثاء والأربعاء ، وهما مع الأحد والإثنين أربعة أيام .

ـــ السموات والأرض جميعاً في ستة أيام ، وخلق الأرض وحدها في يومين ، والحديث بيّن أن الله خلق مافي الأرض في سبعة أيام ، ويحتمل أن تكون هذه الأيام السبعة ، غير الأيام الستة التي ذكرها الله في خلق السموات والأرض ، وحينئذ لاتعارض ، وإنما الحديث فصل كيفية الخلق على الأرض وحدها ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : (سواءً) قرأ أبو جعفر : « سواءٌ » بالرفع . وقرأ يعقوب ، وعبد الوارث : « سواءٍ » بالجر . وقرأ الباقون من العشرة : بالنصب . قال الزجاج : من قرأ بالخفض ، جعل « سواءٍ » من صفة الأيّام ؛ فالمعنى : في أربعة أيّامٍ مستوياتٍ تامّاتٍ ؛ ومن نصب ، فعلى المصدر ؛ فالمعنى : استوت سواءً واستواءً ؛ ومن رفع ، فعلى معنى : هي سواءٌ .

وفي قوله : (للسّائلينَ) وجهان . أحدهما : للسائلين القوت ، لأن كُلاًّ يطلُب القوت ويسألُه . والثاني : لمن يسأل : في كم خُلقت الأرضُ ؟ فيقال : خُلقتْ في أربعة أيّام سواء ، لازيادة ولا نقصان .

قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء) قد شرحناه في (البقرة : ٢٩) (وهي دخان) وفيه قولان .

أحدهما : أنه لمّا خلق [الماء] أرسل عليه الريح فثار منه دخان فارتفع وسما ، فسمّاه سماءً .

والثاني : أنه لمّا خلق الأرض أرسل عليها ناراً ، فارتفع منها دخان فسما .

قوله تعالى : (فقال لها وللأرض) قال ابن عباس : قال للسماء : أظْهِري شمسكِ وقمركِ ونجومكِ ، وقال للأرض : شقّقي أنهاركِ ، وأخْرِجي ثمارك ، (طوعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين) قال الزجاج : هو منصوب على الحال ، وإنما لم يقل : طائعات ، لأنهنّ جرَيْنَ مجرى مايَعْقِل ويميّز ، كما قال في النجوم : (وكُلٌّ في فلك يسبحون) [يس : ٤٠] ، قال : وقد قيل : أتينا نحن ومَنْ فينا طائعين .

(فقضاهنّ) أي : خلقهنّ وصنعهنّ ، قال أبو ذئيب الهذلي :

وعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا داوُدُ أو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ [١]

معناه : عَمِلَها وصَنَعَها .

قوله تعالى : (في يومين) قال ابن عباس وعبد الله بن سلام : وهما يوم الخميس ويوم الجمعة . وقال مقاتل : الأحد والاثنين ، لأن مذهبه أنها خُلقتْ قبل الأرض . وقد بيَّنَّا مقدار هذه الأيام في (الأعراف : ٥٤) .

(وأوحى في كل سماء أمرها) فيه قولان . أحدهما : أوحى ما أراد ، وأمر بما شاء ، قاله مجاهد ، ومقاتل . والثاني : خَلَقَ في كل سماء خَلْقَها ، قاله السدي .

قوله تعالى : (وزيَّنَّا السماءَ الدنيا) أي : القُرْبى إلى الأرض (بمصابيحَ) وهي النجوم ، والمصابيح : السُّرُج ، فسمِّي الكوكب مصباحاً ، لإضاءته (وحِفْظاً) قال الزجاج : معناه : وحفظناها [٢] من استماع الشياطين بالكواكب حِفْظاً .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ

---

(١) البيت في « شرح أشعار الهذليين » : ١/٣٩ ، و « مجاز القرآن » : ١/٢٧٥ ، و « غريب القرآن » : ٣٨٨ ، و « مشكل القرآن » : ٣٤٢ ، و « الطبري » : ٢٢/٦٧ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : قضى .

(٢) في الأصل : وحفظناه .

الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ . وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (فان أعرضوا) عن الإيمان بعد هذا البيان (فقُل أنذرتُكم صاعقةً) الصاعقة : المُهلِكُ من كل شيء ؛ والمعنى : أنذرتُكم عذاباً مثلَ عذابهم[1] . وإنما خَصَّ القبيلتين ، لأن قريشاً يمُرُّون على قرى القوم في أسفارهم .

(إذ جاءتهم الرُّسُل من بين أيديهم) أي : أتت آباءهم ومَنْ كان قبلهم (ومِنْ خَلْفهم) أي : من خلف الآباء ، وهم الذين أُرسلوا إلى هؤلاء المُهلَكين (ألّا تعبُدوا) أي : بأن لاتعبُدوا (إلّا اللهَ قالوا لو شاء ربُّنا) أي : لو أراد دعوة الخلْق (لأَنزل ملائكةً) .

قوله تعالى : (فاستكبَروا) أي : تكبَّروا عن الإيمان وعَمِلوا بغير الحقِّ . وكان هود قد تهدَّدهم بالعذاب فقالوا : نحن نقْدِر على دفعه بفضل قوَّتنا . والآيات هاهنا : الحُجج .

وفي الرِّيح الصَّرصر أربعة أقوال .

أحدها : أنها الباردة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك . وقال الفراء : هي الرِّيح الباردة تحرق كالنار ، وكذلك قال الزجاج : هي الشديدة البرد جداً ؛ فالصَّرصر متكرِّر فيها البرد ، كما تقول : أقللتُ الشيء وقلقلتُه ، فأقللتُه بمعنى رفعتُه ، وقلقلتُه : كرَّرتُ رفعه .

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : قل يامحمد لهؤلاء المشركين المكذّبين بما جئتهم به من الحق : إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى ، فاني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلَّت بالأمم الماضين من المكذّبين بالمرسلين . اهـ .

والثاني : أنها الشديدةُ السَّموم [١] ، قاله مجاهد .

والثالث : الشديدة الصَّوت ، قاله السدي ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والرابع : الباردة الشديدة ، قاله مقاتل [٢] .

قوله تعالى : (في أيّامٍ نَحِساتٍ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « نَحْساتٍ » باسكان الحاء ؛ وقرأ الباقون : بكسرها . قال الزجاج : من كسر الحاء ، فواحدُهن « نَحِس » ، ومن أسكنها ، فواحدُهن « نَحْس » ؛ والمعنى : مشؤومات [٣] .

وفي أوَّل هذه الأيّام ثلاثة أقوال . أحدها : غداة يوم الأحد ، قاله السدي . والثاني : يوم الجمعة ، قاله الربيع بن أنس . والثالث : يوم الأربعاء ، قاله يحيى بن سلام . والخِزْي : الهوان .

قوله تعالى : (وأمّا ثمودُ فهدَيناهم) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : بيَّنّا لهم ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير . وقال قتادة : بيَّنّا لهم سبيل الخير والشر . والثاني : دَعَوْناهم ، قاله مجاهد . والثالث : دَلَلْناهم على مذهب الخير ، قاله الفراء .

---

(١) السَّموم : الريح الحارّة .

(٢) قال ابن كثير : والحق أنها متصفة بجميع ذلك ، فانها كانت ريحاً شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ما اعتروا به من قواهم ، وكانت باردة شديدة البرد جداً ، كقوله تعالى : (بريح صرصر عاتية) أي : باردة شديدة ، وكانت ذات صوت مزعج ، قال : ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق : « صرصراً » لقوة صوت جريه . اهـ .

(٣) وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس في قوله : (في أيام نحسات) قال : أيام متتابعات أنزل الله فيهن العذاب ، قال ابن جرير : وقال آخرون : عنى بذلك المشائيم ، قال : وقال آخرون : معنى ذلك : أيام ذات شر ، وقال آخرون : النحسات : الشداد . ثم قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عني بها : أيام مشائيم ذات نحوس ، لأن ذلك هو المعروف من معنى النحس في كلام العرب . اهـ .

قوله تعالى : (فاستحبُّوا العمى) أي : اختاروا الكفر على الإيمان ، (فأخذتهم صاعقةُ العذاب الهُون) أي : ذي الهوان ، وهو الذي يُهينهم [١] .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا مَاجَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاأَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لايَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينِ . وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ويوم يُحشَرُ أعداء الله) وقرأ نافع : « نَحشُرُ » بالنون « أعداءَ » بالنصب .

---

(١) قال ابن كثير : وقال الثوري : دعوناهم (فاستحبوا العمى على الهدى) أي : بصَّرناهم ، وبيَّنا لهم ، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) أي : بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً (بما كانوا يكسبون) أي : من التكذيب والجحود (ونجينا الذين آمنوا) أي : من بين أظهرهم لم يمسسهم سوءٌ ، ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صـــالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وتقواهم لله عز وجل . اهـ .

قوله تعالى : (فهم يُوزَعونَ) أي : يُحْبَس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا .

(حتّى إذا ماجاؤوها) يعني النار التي حُشروا إليها (شَهِدَ عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم) ، وفي المراد بالجلود ثلاثة أقوال . أحدها : الأيدي والأرجل . والثاني : الفروج ، رويا عن ابن عباس . والثالث : أنه الجلود نفسها ، حكاه الماوردي . وقد أخرج مسلم في أفراده من حديث أنس بن مالك قال : كنّا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : « هل تدرون مِمَّ أضحك ؟ » قال : قلنا : اللهُ ورسولُه أعلم . قال : « من مخاطبة العبد ربَّه ، يقول : يارب ألم تُجِرْني من الظُّلْم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فاني لا أُجيزُ عليَّ إلّا شاهداً منّي ، قال : فيقول : كفى بنفْسك اليومَ عليكَ شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قال : فيُخْتَمُ على فيه ، فيقال لأركانه [١] : انطِقي ، قال : فتَنْطِقُ بأعماله ، قال : ثُمَّ يُخلَّى بينَه وبينَ الكلام ، فيقول : بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً ، فعنكُنَّ كنتُ أُناضِل » [٢] .

قوله تعالى : (قالوا أنطَقَنا اللهُ الذي أنطَق كُلَّ شيء) أي : ممّا نطق . وهاهنا تم الكلام . وما بعده ليس من جواب الجلود .

قوله تعالى : (وما كنتم تَستترون أن يَشهد عليكم سمْعُكم ولا أبصارُكم) روى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث ابن مسعود قال : كنتُ مستتراً بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفرٍ ، قرشيٌّ وخَتَناه ثقفيّان ، أو ثقفيٌّ وخَتَناه قرشيّان ، كثيرٌ شحْمُ بُطونِهم ، قليلٌ فِقْهُ قُلوبِهم ، فتكلَّموا بكلام لم أسمعه ،

---

(١) أي : جوارحه .

(٢) أي : أدافع وأجادل . والحديث في « صحيح مسلم » : ٤/٢٢٨٠ عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، ورواه النسائي وغيره .

فقال أحدهم : أتُرَوْنَ اللهَ يَسْمَعُ كلامَنا هذا ؟! فقال الآخران : إنّا إذا رفعنا أصواتنا سَمِعَه ، وإن لم نَرفع لم يَسمع ، وقال الآخر : إن سمع منه شيئاً سمعه كُلَّه ، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : « وما كنتم تَستترون أن يشهد عليكم سمعكم . . . » إلى قوله : « من الخاسرين »[1] . ومعنى « تستترون » : تَستَخفون « أن يَشهد » أي : من أن يشهد « عليكم سَمْعُكم » لأنكم لاتَقدرون على الاستخفاء من جوارحكم ، ولا تظُنُّون أنها تَشهد (ولكن ظَنَنْتم أنّ الله لايَعلم كثيراً مما تَعملون) قال ابن عباس : كان الكفار يقولون : إن الله لايَعلم ما في أنفُسنا ، ولكنه يعلم مايَظهر ، (وذلكم ظَنُّكم) أي : أن الله لايَعلم ماتعملون ، (أرداكم) أهلككم[2] .

(فان يَصبِروا) أي : على النّار ، فهي مسكنهم ، (وإن يَستَعتِبوا) أي : يَسألوا أن يُرجَع لهم إلى مايحبّون ، لم يُرجَع لهم[3] ، لأنهم لايستحقّون

(١) رواه البخاري : ٨/٤٣١ ، ٤٣٢ ، ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ورواه أحمد في « المسند » رقم (٣٦١٤) و (٣٨٧٥) و (٤٠٤٧) واللفظ له ، والترمذي : ٢/١٥٢ وقال : حديث حسن ، و « الطبري » : ٢٤/١٠٩ ، والواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٣ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/٣٦٢ ، وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » : ٤/٢٢٠٦ عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » ورواه أحمد في « المسند » عن جابر بلفظ : « لايموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ، فان قوماً قد أرداهم سوءُ ظنهم بالله ، فقال الله تعالى : (وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/٣٦٢ ، وزاد نسبته للطبراني ، وعبد بن حميد ، وأبي داود ، وابن ماجه ، وابن حبان ، وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه .

(٣) عبارة الطبري : (وإن يستعتبوا) وإن يسألوا العتبى ، وهي الرجعة لهم إلى الذي يحبّون (فما هم من المعتَبين) فليسوا بالقوم الذين يُرجَع بهم إلى الجنة . اهـ .

ذلك . يقال : أعتبني فلان ، أي : أرضاني بعد إسخاطه إيّاي . واستعتبتُه ، أي : طلبتُ منه أن يُعْتِب ، أي : يَرضى .

قوله تعالى : (وقيَّضْنا لهم قُرَناءَ) أي : سبَّبنا لهم قرناء من الشياطين (فزيَّنوا لهم مابين أيديهم وما خَلْفَهم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مابين أيديهم : من أمر الآخرة أنه لاجنَّة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، وما خَلْفَهم : من أمر الدنيا ،فزيَّنوا لهم اللذّات وجمع الأموال وترك الإنفاق في الخير .

والثاني : مابين أيديهم : من أمر الدنيا ، وما خلفهم : من أمر الآخرة ، على عكس الأول .

والثالث : مابين أيديهم : مافعلوه ، وما خلفهم : ماعزموا على فعله . وباقي الآية [قد] تقدم تفسيره [الاسراء: ١٦، الأعراف : ٣٨] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن) أي : لاتسمعوه (والْغَوْا فيه) أي : عارِضوه باللَّغو ، وهو الكلام الخالي عن فائدة . وكان الكفّار يوصي بعضُهم بعضاً : إذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارفعوا أصواتكم حتى تُلبِّسوا عليهم قولهم . وقال مجاهد : والغَوْا فيه بالمُكاء والصفير والتخليط من القول على رسول الله ﷺ إذا قرأ (لعلَّكم تَغْلِبون) فيسكُتون .

قوله تعالى : (ذلكَ جزاءُ أعداءِ الله) يعني العذاب المذكور . وقوله : (النارُ) بدل من الجزاء (لهم فيها دارُ الخُلْد) أي : دار الإقامة . قال الزجاج : النار

هي الدّار ، ولكنه كما تقول : لك في هذه الدّار دار السُّرور ، وأنت تعني الدّار بعينها ، قال الشاعر :

أخور رغائبَ يُعطيها ويسألها ... يأبى الظُّلامةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ [1]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ . إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ . نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا) لمّا دخلوا النار (ربّنا أرِنا اللّذَين أضلاّنا) وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « أرْنا » بسكون الراء . قال المفسرون : يعنون إبليس وقابيل ، لأنهما سنّا المعصية ، (نجعلْهما تحتَ أقدامنا ليكونا من الأسفلين) أي : في الدَّرْك الأسفل ، وهو أشدُّ عذاباً من غيره .

ثم ذكر المؤمنين فقال : (إنّ الذين قالوا ربّنا اللهُ)[أي : وحّدوه] (ثم استقاموا) فيه ثلاثة أقوال .

---

(١) البيت لأعشى باهلة من مرثيّته المفضلة المشهورة يرثي بها أخاه لأمّه المنتشر بن وهب ، ومطلعها :

قَدْ جاءَ مِنْ عَلُ أنباءٌ أنبَؤُها ... إليَّ لاعَجَبٌ منها ولا سخر

وهي في « الأصمعيات » : ٨٩ ، و « جمهرة أشعار العرب » ، و « مختارات ابن الشجري » ، و « أمالي الشريف المرتضى » ، و « خزانة الأدب » : ١/٨٩ ، والرغائب : العطايا الواسعة ، والنَّوفل : الكثير النوافل ، أي العطايا ، والزُّفَر : السيّد ، لأنه يزدفر بالأموال في الحَمالات مطيقاً لها . وفي « اللسان » : زفر ، وقوله : « منه » مؤكّدة للكلام ، والمعنى : يأبى الظلامة ، لأنه النَّوفل الزُّفَر ، كما في قوله تعالى : (يغفر لكم من ذنوبكم). والسخر ، بفتحتين وبضمتين: السخرية .

أحدها : استقاموا على التوحيد ، قاله أبو بكر الصِّدِّيق ، ومجاهد .

والثاني : على طاعة الله وأداء فرائضه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة .

والثالث : على الإخلاص والعمل إلى الموت ، قاله أبو العالية ، والسدي [١] .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصِّدِّيق ، وذلك أن المشركين قالوا : ربُّنا الله ، والملائكة بناتُه ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فلم يستقيموا ، وقالت اليهود : ربُّنا الله ، وعزيرٌ ابنُه ، ومحمد ليس بنبيٍّ ، فلم يستقيموا ، وقالت النصارى : ربُّنا الله ، والمسيح ابنه ، ومحمد ليس بنبيٍّ ، فلم يستقيموا ، وقال أبو بكر : ربُّنا الله وحده ، ومحمدٌ عبدُه ورسولُه ، فاستقام [٢] .

قوله تعالى : (تتنزَّل عليهم الملائكةُ ألّا تخافوا) أي : بأن لاتخافوا . وفي وقت نزولها عليهم قولان .

أحدهما : عند الموت ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ؛ فعلى هذا في معنى « لاتخافوا » قولان . أحدها : لاتخافوا الموت ، ولا تحزنوا على أولادكم ، قاله مجاهد . والثاني : لاتخافوا ما أمامكم ، ولا تحزنوا على ماخَلْفكم ، قاله عكرمة ، والسدي .

والقول الثاني : تتنزَّل عليهم إذا قاموا من القبور ، قاله قتادة ؛ فيكون معنى « لاتخافوا » : أنهم يبشِّرونهم بزوال الخوف والحزن يوم القيامة [٣] .

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » : ١/٦٥ عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يارسول الله قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » والحديث ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٣٦٣ ، وزاد نسبته لأحمد ، وعبد بن حميد ، والدارمي ، والبخاري في « تاريخه » ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان .

(٢) ذكر سبب النزول هذا الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٣ من رواية عطاء عن ابن عباس بدون سند .

(٣) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (تتنزَّل عليهم الملائكة) قال مجاهد والسدي —

قوله تعالى : (نحن أولياؤكم) قال المفسرون : هذا قول الملائكة لهم ، والمعنى : نحن [الذين] كنّا نتولاّكم في الدُّنيا ، لأن الملائكة تتولّى المؤمنين وتحبُّهم لِما ترى من أعمالهم المرفوعة إلى السماء ، (وفي الآخرة) أي : ونحن معكم في الآخرة لانفارقكم حتى تدخلوا الجنة . وقال السدي : هم الحفَظة على ابن آدم ، فلذلك قالوا : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » ؛ وقيل : هم الملائكة الذين يأتون لقبض الأرواح [١] .

قوله تعالى : (ولكم فيها) أي : في الجنة .

(نُزُلاً) قال الزجاج : معناه : أبشروا بالجنة تنزلونها [نُزُلاً] . وقال الأخفش : لكم فيها ماتشتهي أنفُسكم أنزلناه نُزُلاً .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي

ـــ وزيد بن أسلم وابنه : يعني عند الموت قائلين (أن لاتخافوا) قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم : أي : مما تُقدمون عليه من أمر الآخرة (ولا تحزنوا) على ماخلّفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دَيْن ، فانا نخلفكم فيه (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير ، قال : وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجي الى رَوْح وريحان ورب غير غضبان » . اهـ .

(١) قال ابن كثير : وقوله تبارك وتعالى : (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أي : تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا أولياءكم ، أي : قرناءكم في الحياة الدنيا نسدّدكم ونوفّقكم ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة ، نؤنس منكم الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور ، ونؤمّنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوز بكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم (ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم) أي : في الجنة من جميع ماتختارون مما تشتهيه النفوس وتقرُّ به العيون (ولكم فيها ماتدَّعون) أي : مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم .

هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وَمَن أحسنُ قولاً ممَّن دعا إلى الله) فيمن أُريد بهذا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم المؤذِّنون . روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نزلت في المؤذِّنين » [1] ، وهذا قول عائشة ، ومجاهد ، وعكرمة .

---

(١) الذي في كتب التفسير وأسباب النزول عن عائشة ومجاهد وعكرمة موقوفاً عليهم أن هذه الآية نزلت في المؤذنين ، وقد قال السيوطي في « الدر » ٥/٣٦٤ : أخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما أرى هذه الآية نزلت إلا في المؤذنين (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله) . اهـ . ولم نر رواية جابر بن عبد الله التي ذكرها المؤلف في المرفوع ، والله أعلم .

وقد قال ابن كثير في « التفسير » : والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم ، قال : فأما حال نزول هذه الآية ، فانه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية ، لأنها مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري رضي الله عنه في منامه فقصَّه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقيه على بلال رضي الله عنه فانه أندى صوتاً كما هو مقرَّر في موضعه . ثم قال ابن كثير : فالصحيح إذن أنها عامة ، كما قال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية : (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين ، هذا خليفة الله . اهـ .

وقال الشوكاني في تفسيره « فتح القدير » : ويجاب عن هذا بأن الآية مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة ، والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ ، ويدخل فيها من كان ـــ

والثاني : أنه رسول الله ﷺ دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس ، والسدي ، وابن زيد .

والثالث : أنه المؤمن أجابَ اللهَ إلى مادعاه ، ودعا الناسَ إلى ذلك (وعمل صالحاً) في إجابته ، قاله الحسن .

وفي قوله : (وعَمِل صالحاً) ثلاثة أقوال .

أحدها : صلّى ركعتين بعد الأذان ، وهو قول عائشة ، ومجاهد . وروى إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم : « ومن أحسنُ قولاً ممَّن دعا إلى الله » قال : الأذان « وعمل صالحاً » قال : الصلاة بين الأذان والإقامة .

والثاني : أدّى الفرائض وقام لله بالحقوق ، قاله عطاء .

والثالث : صام وصلّى ، قاله عكرمة [١] .

قوله تعالى : (ولا تَستوي الحسنةُ ولا السَّيِّئةُ) قال الزجاج : « لا » زائدة مؤكِّدة ؛ والمعنى : ولا تستوي [الحسنة] والسَّيِّئة . وللمفسرين فيهما ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الحسنة : الإيمان ، والسَّيِّئة : الشِّرك ، قاله ابن عباس .

ــــ سبباً لنزولها دخولاً أولياً ، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ماشرعه الله ، وعمل عملاً صالحاً ، وهو تأدية مافرضه الله عليه مع اجتناب ماحرمه عليه ، وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم ، فلا شيء أحسن منه ولا أوضح من طريقته ، ولا أكثر ثواباً من عمله . اهـ .

وقال الخازن في « تفسيره » : وقيل : إن كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق فهو داخل في هذه الآية ، قال : والدعوة إلى الله مراتب ، الأولى : دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والثانية : دعوة العلماء ، والثالثة : دعوة المجاهدين في سبيل الله ، والرابعة : دعوة المؤذنين إلى الصلاة ، قال : فهم أيضاً دعاة إلى الله تعالى وإلى طاعته .

(١) والصحيح أنها عامة في كل ذلك .

والثاني : الحِلْم والفُحْش ، قاله الضحاك . والثالث : النُّفور والصَّبر ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (ادفَعْ بالَّتي هي أحسنُ) وذلك كدفع الغضب بالصبر ، والإساءة بالعفو ، فاذا فعلتَ ذلك صار الذي بينك وبينه عداوة كالصَّديق القريب . وقال عطاء : هو السَّلام على من تعاديه إذا لَقِيتَه . قال المفسرون : وهذه الآية منسوخة بآية السيف [1] .

قوله تعالى : (وما يُلَقَّاها) أي : مايُمْطاها . قال الزجاج : مايُلَقَّى هذه الفَعْلَة : وهي دفع السَّيِّئة بالحسنة (إلّا الذين صبروا) على كظم الغيظ (وما يُلَقَّاها إلّا ذو حَظٍّ عظيمٍ) من الخير . وقال السدي : إلّا ذو جَدٍّ . وقال قتادة : الحظُّ العظيم : الجنة ؛ فالمعنى : مايُلَقَّاها إلّا مَنْ وجبت له الجنة [2] .

قوله تعالى : (وإمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ نَزْغٌ) قد فسَّرناه في (الأعراف : ٢٠٠) [3] .

---

(١) قال ابن جرير : وقوله : (فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) يقول تعالى ذِكره : افعل هذا الذي أمرتك به يامحمد ، من دَفْعِ سيئة المسيء إليك باحسانك الذي أمرتك به إليه ، فيصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة ، كأنه من ملاطفته إياك وبِرِّه لك ، وليٌّ لك من بني أعمامك ، قريب النسب بك ، قال : والحميم : هو القريب . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : (وما يلقاها إلا الذين صبروا) أي : وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فانه يَشُقُّ على النفوس ، (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أي : ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة ، قال : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الاساءة ، فاذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم . اهـ .

(٣) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) اي : إن ــــ

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (فان استكبروا) [أي : تكبَّروا عن التوحيد والعبادة] (فالذين عند ربّكَ) يعني الملائكة (يسبِّحون) أي : يصلُّون . و « يَسأمون » بمعنى يَملُّون .

وفي موضع السجدة قولان .

أحدها : أنه عند قوله : « يَسأمون » ، قاله ابن عباس ، ومسروق ، وقتادة ، واختاره القاضي أبو يعلى ، لأنه تمام الكلام .

والثاني : [أنه] عند قوله : (إن كنتم إيّاه تعبُدون)[1] ، روي عن أصحاب عبد الله ، والحسن ، وأبي عبد الرحمن .

ـــ شيطان الانس ربما ينخدع بالاحسان إليه ، فأما شيطان الجن ، فانه لاحيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلّطه عليك ، فاذا استعذت بالله والتجأت إليه ، كفّه عنك وردّ كيده ، قال : وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » ، قال : وقد قدمنا أن هذا المقام لانظير له في القرآن إلا في سورة (الأعراف) عند قوله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) وفي سورة (المؤمنين) عند قوله : (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون . وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون) . اهـ .

(١) يريد بذلك الآية التي قبل قوله : (فان استكبروا . . .) الآية ، وهي قوله تعالى : ـــ

قوله تعالى : (ومن آياته أنَّكَ تَرى الأرضَ خاشعةً) قال قتادة : غبراء متهشِّمة . قال الأزهري : إذا يَبِست الأرضُ ولم تُمطَر ، قيل : خَشَعَتْ .

قوله تعالى : (اهتزَّت) أي : تحرَّكَتْ بالنَّبات (ورَبتْ) أي : علَتْ ، لأن النبت إذا أراد أن يَظهَر ارتفعت له الأرضُ ؛ وقد سبق بيان هذا [الحج : ٥] .

﴿ إنَّ الَّذينَ يُلحِدُونَ في آياتِنا لايَخفَوْنَ علَيْنا أفمَنْ يُلقَى في النَّارِ خَيرٌ أمْ مَنْ يأتي آمِناً يَومَ القِيامَةِ اعمَلُوا ماشِئتُمْ إنَّهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصيرٌ . إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا بالذِّكرِ لمَّا جاءَهُمْ وإنَّهُ لَكِتابٌ عَزيزٌ . لايَأتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلفِهِ تَنزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ ﴾

—— (ومن آياته الليلُ والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهنَّ إن كنتم إياه تعبدون) وقد حذفها المؤلف ولم يفسرها لوضوح معناها .

قال القرطبي في « تفسيره » : هذه الآية آية سجدة بلا خلاف ، واختلفوا في موضع السجود منها ، فقال مالك : موضعه « إن كنتم إياه تعبدون » لأنه متصل بالأمر ، وكان علي وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله : « تعبدون » ، وقال ابن وهب والشافعي : موضعه « وهم لايسأمون » لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال ، وبه قال أبو حنيفة ، وكان ابن عباس يسجد عند قوله : « يسأمون » ، وقال ابن عمر : اسجدوا بالآخرة منها ، وكذلك يروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثاب ، وطلحة وزبيد الياميين (نسبة إلى يامة بطن من همدان) والحسن وابن سيرين ، وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله : « يسأمون » قال ابن العربي : والأمر قريب . اهـ .

وقال الخازن في « تفسيره » : فصل : وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، وفي موضع السجود فيها قولان للعلماء ، وهما وجهان لأصحاب الشافعي ، أحدهما : أنه عند قوله تعالى : (إن كنتم إياه تعبدون) وهو قول ابن مسعود والحسن ، وحكاه الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد ، لأن ذكر السجدة قبله ، والثاني وهو الأصح عند أصحاب الشافعي وكذلك نقله الرافعي : أنه عند قوله تعالى : (وهم لايسأمون) وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب وقتادة ، وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة ، لأن عنده يتم الكلام . اهـ .

قوله تعالى : (إِنَّ الذين يُلحِدونَ في آياتنا) قال مقاتل : نزلت في أبي جهل [١] .
وقد شرحنا معنى الإلحاد في (النحل : ١٠٣) ؛ وفي المراد به هاهنا خمسة أقوال .

أحدها : أنه وَضْع الكلام على غير موضعه ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه المُكاء والصفير عند تلاوة القرآن ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه التكذيب بالآيات ، قاله قتادة .

والرابع : أنه المُعانَدة ، قاله السدي .

والخامس : أنه المَيْل عن الإيمان بالآيات ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (لا يَخْفَوْنَ علينا) هذا وعيد بالجزاء (أفمن يُلْقَى في النار خير أم مَنْ يأتي آمِناً يومَ القيامة) وهذا عامّ ، غير أن المفسرين ذكروا فيمن أُريدَ به سبعةَ أقوال .

أحدها : أنه أبو جهل وأبو بكر الصِّدِّيق ، رواه الضحاك عن ابن عباس [٢] .
والثاني : أبو جهل وعمّار بن ياسر ، قاله عكرمة [٣] . والثالث : أبو جهل ورسول الله ﷺ ، قاله ابن السائب ، ومقاتل . والرابع : أبو جهل وعثمان بن عفّان ، حكاه الثعلبي . والخامس : أبو جهل وحمزة ، حكاه الواحدي . والسادس : أبو جهل وعمر بن الخطاب . والسابع : الكافر والمؤمن ، حكاهما الماوردي .

---

(١) ذكر ذلك البغوي عن مقاتل بدون سند .

(٢) قال السيوطي في « الدر » ٣٦٦/٥ : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنها في قوله : (أفمن يلقى في النار خير) قال : أبو جهل بن هشام ، (أمَّن يأتي آمناً يوم القيامة) قال : أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) قال السيوطي في « الدر » ٣٦٦/٥ : أخرج ابن عساكر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : (أفمن يلقى في النار خير أمَّن يأتي يوم القيامة) نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل .

قوله تعالى : (اعْمَلوا ماشئتم) قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الوعيد والتهديد .

قوله تعالى : (إنَّ الذين كَفَروا بالذِّكْر) يعني القرآن ؛ ثم أخذ في وصف الذِّكر ؛ وتَرَكَ جواب « إنَّ » ، وفي جوابها هاهنا قولان .

[أحدهما] : أنه « أولئك ينادَوْنَ من مكان بعيد » ، ذكره الفراء .

والثاني : أنه متروك ، وفي تقديره قولان . أحدهما : إن الذين كفروا بالذِّكْر لمّا جاءهم كفروا به . والثاني : إن الذين كفروا يجازَون بكفرهم .

قوله تعالى : (وإنَّه لَكِتابٌ عزيزٌ) فيه أربعة أقوال . أحدها : مَنيعٌ من الشيطان لايجد إليه سبيلاً ، قاله السدي . والثاني : كريمٌ على الله ، قاله ابن السائب . والثالث : مَنيعٌ من الباطل ، قاله مقاتل . والرابع : يمتنع على الناس أن يقولوا مِثْلَه ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (لايأتيه الباطل) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : التكذيب ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : الشيطان . والثالث : التبديل ، رويا عن مجاهد . قال قتادة : لايستطيع إبليس أن ينقص منه حقاً ، ولا يَزيد فيه باطلاً . وقال مجاهد : لايدخل فيه ماليس منه . وفي قوله : (مِنْ بينِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفه) ثلاثة أقوال . أحدها : بين يَدَي تنزيله ، وبعد نزوله . والثاني : أنه ليس قَبْلَه كتاب يُبْطِله ، ولا يأتي بعده كتاب يُبْطِله . والثالث : لايأتيه الباطل في إخباره عمّا تقدّم ، ولا في إخباره عمّا تأخر .

﴿ مَايُقَالُ لَكَ إِلَّا مَاقَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى

وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

قوله تعالى : (مايُقالُ لكَ إلّا ماقد قيل الرُسُل مِنْ قَبْلِكَ) فيه قولان.

أحدهما : أنه قد قيل فيمن أُرْسِلَ قَبْلَكَ : ساحر وكاهن ومجنون ، وكُذِّبوا كما كُذِّبتَ ، هذا قول الحسن ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : ماتُخْبَر إلّا بما أُخبِر الأنبياء قَبْلَكَ من أن الله غفور ، وأنه ذو عقاب ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (ولو جَعَلْناه) يعني الكتاب الذي أُنزلَ عليه (قرآناً أعجمياً) أي : بغير لغة العرب (لقالوا لولا فُصّلت آياتُه) أي : هلاّ بيّنت آياتُه بالعربية حتى نفهمه ؟ ! (أأعجميٌ وعربيٌ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « آعجمي » [بهمزة] ممدودة . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « أأعجمي » بهمزتين ، والمعنى : أكتابٌ أعجميٌ ونبيٌ عربي ؟ ! وهذا استفهام إنكار ؛ أي : لو كان كذلك لكان أشدَّ لتكذيبهم .

(قُلْ هو) يعني القرآن (للذين آمنوا هُدىً) من الضلالة (وشفاء) للشُكوك والأوجاع . و « الوَقْر » : الصَّمم ؛ فهُم في تَرك القبول بمنزلة مَنْ في أُذنه صمم .

(وهو عليهم عمىً) أي : ذو عمىً . قال قتادة : صَمُّوا عن القرآن وعَمُوا عنه (أولئك ينادَوْنَ من مكان بعيدٍ) أي : إنهم لايسمعون ولا يفهمون كالذي يُنادى من بعيد .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب) هذه تسلية لرسول الله ﷺ ؛ والمعنى : كما آمن بكتابك قومٌ وكذَّب به قومٌ ، فكذلك كتاب موسى ، (ولولا كلمةٌ سبقَتْ مِنْ ربِّكَ) في تأخير العذاب إلى أجل مسمّىً وهو القيامة (لقُضيَ بينَهم) بالعذاب الواقع بالمكذِّبين (وإنَّهم لفي شَكٍّ) مِنْ صِدقك وكتابك ، (مريبٍ) أي : مُوقع لهم الرِّيبة .

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَامِنَّا مِنْ شَهِيدٍ . وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَالَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾

قوله تعالى : (إليه يُرَدُّ عِلْمُ السّاعة) سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبيّ ﷺ : أخبِرنا عن السّاعة إن كنتَ رسولاً كما تزعم ، قاله مقاتل [1] . ومعنى الآية : لا يَعْلَم قيامَها إلّا هو ، فاذا سُئل عنها فعِلْمُها مردودٌ إليه .

(وما تَخْرُجُ من ثمرةٍ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ،

---

(١) قال الشوكاني في « فتح القدير » : وقد روي أن المشركين قالوا : يامحمد إن كنت نبياً فخبّرنا متى تقوم الساعة ؟ فنزلت . وقد تقدم في سورة « الأعراف » : ١٨٧ عند قوله تعالى : (يسألونك عن الساعة أيّان مرساها قل إنما علمها عند ربي لايجلّيها لوقتها إلا هو) قولان في سبب نزولها . أحدهما : أن قوماً من اليهود قالوا : يامحمد أخبرنا متى الساعة ؟ فنزلت ، والثاني : أن قريشاً قالت : يامحمد بيننا وبينك قرابة فبيّن لنا متى الساعة ؟ فنزلت ، وقد قال ابن جرير الطبري هناك : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن قوماً سألوا رسول الله ﷺ عن الساعة ، فأنزل الله هذه الآية ، وجائز أن يكون كانوا من قريش ، وجائز أن يكون كانوا من اليهود ، ولا خبر بذلك عندنا يجوّز قطع القول على أي ذلك كان . اهـ .

وأبو بكر عن عاصم : « من ثمرةٍ » . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « من ثمراتٍ » على الجمع (مِنْ أكمامها) أي : أوعيتها . قال ابن قتيبة : أي : من المواضع التي كانت فيها مستترةً ، وغلاف كل شيء : كُمُّه ، وإنما قيل : كُمُّ القميص ، من هذا . قال الزجاج : الأكمام : ماغَطَّى [1] ، وكلُّ شجرةٍ تُخْرِج ماهو مُكَمَّم فهي ذات أكمام ، وأكمامُ النخلة : ماغطَّى جُمَّارَها من السَّعَفِ والليف والجِذْع ، وكلُّ ماأخرجتْه النخلة فهو ذو أكمام ، فالطَّلْعة كُمُّها قشرها ، ومن هذا قيل للقَلَنْسُوة : كُمَّة ، لأنها تُغَطِّي الرأس ، ومن هذا كُمَّا القميص ، لأنهما يغطِّيان اليدين [2] .

قوله تعالى : (ويومَ يُناديهم) أي : ينادي اللهُ تعالى المشركين (أين شركائِي) الذين كنتم تزعُمون (قالوا آذَنّاكَ) قال الفراء ، وابن قتيبة : أعلمناكَ ، وقال مقاتل : أسمعناكَ (مامِنّا مِنْ شهيدٍ) فيه قولان .

أحدها : أنه من قول المشركين ؛ والمعنى : مامِنّا مِنْ شهيد بأنَّ لكَ شريكاً ، فيتبرَّؤون يومئذ ممّا كانوا يقولون ، هذا قول مقاتل .

والثاني : [أنه] من قول الآلهة التي كانت تُعبد ؛ والمعنى : مامِنّا من شهيد لهم بما قالوا ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : (وضَلَّ عنهم) أي : بَطَل عنهم في الآخرة (ماكانوا يَدْعُونَ) أي : يعبُدون في الدنيا ، (وظنُّوا) أي : أيقنوا (مالهم مِنْ مَحيصٍ) وقد شرحنا المحيص في سورة (النساء : ١٢١) .

---

(١) عبارة « اللسان » : وقال الزجاج في قوله : « ذات الأكمام » قال : عنى بالأكمام ماغطّى ...

(٢) في الأصل : اليد ، والتصويب من « اللسان » .

﴿ لَا يَسْئَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَآ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾

قوله تعالى : (لا يَسأمُ الإنسانُ) قال المفسرون : المراد به الكافر ؛ فالمعنى : لا يَملّ الكافرُ (من دعاء الخير) أي : من دعائه بالخير ، وهو المال والعافية . (وإن مَسَّه الشَّرُّ) وهو الفقر والشّدة ؛ والمعنى : إذا اختُبر بذلك يئس من رَوْح الله، وقَنط من رحمته . وقال أبو عبيدة : اليؤوس، فَعُول من يأس [(١)] ، والقَنُوط ، فَعُول من قَنَط .

قوله تعالى : (ولئن أذَقْناه رَحْمَةً مِنَّا) أي : خيراً وعافية وغِنىً ، (لَيقُولَنَّ هذا لِي) أي : هذا واجب لي بعملي وأنا محقوق به ، ثم يشُكّ في البعث فيقول : (وما أظُنُّ السّاعةَ قائمةً) أي : لست على يقين من البعث (ولئن رُجِعتُ إلى ربّي إنّ لي عنده لَلْحُسنى) يعني الجنة ، أي : كما أعطاني في الدنيا يعطيني في الآخرة (فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كفروا) أي : لَنُخْبِرنّهم بمساوىء أعمالهم . وما بعده قد سبق [ابراهيم : ١٧ ، الاسراء : ٨٣] إلى قوله تعالى : (ونأى بجانبه) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « ونأى » مثل « نعى » . وقرأ ابن عامر : « وناء » مفتوحة النون ممدودة والهمزة بعد الألف . وقرأ

---

(١) في « مجاز القرآن » : « يؤوس » فعول من يئست ؛ وفي « اللسان » : قال سيبويه : يَئِسَ يَيْأَس ويأَس يَيْئِسُ لغتان ثم ركّب منها لغة .

حمزة : « نئى » مكسورة النون والهمزة [١] .

(فذو دُعاءٍ عريضٍ) قال الفراء ، وابن قتيبة : معنى العريض : الكثير ، وإن وصفته بالطول أو بالعَرْض جاز في الكلام .

(قُلْ) يامحمد لأهل مكة (أرأيتم إن كان) القرآن (مِنْ عند الله ثُمَّ كَفَرتُم به مَنْ أَضَلُّ مِمَّن هو في شِقاق) أي : خلاف للحق (بعيدٍ) عنه ؟ ! وهو اسم ؛ والمعنى : فلا أحدٌ أضَلّ منكم . وقال ابن جرير : معنى الآية : [ثُمَّ] كفرتم به ، ألستُم في شقاقٍ للحق وبُعد عن الصواب ؟ ! فجعل مكان هذا باقي الآية .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾

قوله تعالى : (سَنُريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفُسهم) فيه خمسة أقوال .

أحدها : في الآفاق : فتح أقطار الأرض ، وفي أنفسهم : فتح مكة ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والسدي .

والثاني : أنها في الآفاق : وقائع الله في الأمم الخالية ، وفي أنفسهم : يوم بدر ، قاله قتادة ، ومقاتل .

والثالث : أنها في الآفاق : إمساك القَطْر عن الأرض كلِّها ، وفي أنفسهم : البلايا التي تكون في أجسادهم ، قاله ابن جريج .

والرابع : أنها في الآفاق : آيات السماء كالشمس والقمر والنجوم ، وفي أنفسهم :

---

(١) سبق ذكر القراءات في قوله تعالى : (وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه) في سورة (الاسراء : ٨٣) .

حوادث الأرض ، قاله ابن زيد . وحكي عن ابن زيد أن التي في أنفُسهم : سبيل الغائط والبول ، فان الانسان يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويخرج من مكانين .

والخامس : أنها في الآفاق : آثار مَنْ مضى قَبْلَهم من المكذّبين ، وفي أنفسهم : كونهم خُلِقوا نُطَفاً ثم عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عظاماً إلى أن نُقِلوا إلى العقل والتمييز ، قاله الزجاج [١] .

قوله تعالى : (حتى يَتَبَيَّن لهم أنَّه الحَقُّ) في هاء الكناية قولان . أحدهما أنها ترجع إلى القرآن . والثاني : إلى جميع مادعاهم إليه الرسول . وقال ابن جرير : معنى الآية : حتى يعلموا حقيقة ما أنزلْنا على محمد وأوحينا إليه من الوعد له بأنّا مُظْهِرو دينه على الأديان كلّها .

(أوَلَمْ يَكْفِ بربّكَ أنه على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ) أي : أوَلَمْ يكفِ به أنه شاهدٌ على كل شيء ؟! قال الزجاج : المعنى : أوَلَمْ يكفِهِم شهادةُ ربِّك ؟!

---

(١) قال ابن كثير : : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) أي : سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية في الآفاق من الفتوحات وظهور الاسلام على الأقاليم وسائر الأديان ، قال مجاهد والحسن والسدي : ودلائل في أنفسهم ، قالوا : وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم ، نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه ، وخذل فيها الباطل وحزبه ، ويحتمل ان يكون المراد من ذلك ماالانسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدّال على حكمة الصانع تبارك وتعالى ، وكذلك ماهو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك ، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لايقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعدّاها . اه .

ومعنى الكفاية هاهنا : أنه قد بيّن لهم مافيه كفاية في الدّلالة على توحيده وتثبيت رسله [١] .

★ ★ ★

(١) قال ابن كثير في تتمة الآية : وقوله تعالى : (ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم) أي : في شك من قيام الساعة ، ولهذا لايتفكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه ، بل هو عندهم هدر لايعبؤون به ، وهو كائن لامحالة ، وواقع لاريب فيه ، قال : ثم قال تعالى مقرّراً أنه على كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط ، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى : (ألا إنه بكل شيء محيط) أي : المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طيّ علمه ، وهو المتصرف فيها كلّها بحكمه ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا إلٰه إلا هو . اهـ .

سورة حم عسق

واسمها سُورة الشُّورى

وهي مكيَّة، رواه العوفي وغيره عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. وحكي عن ابن عباس وقتادة قالا: إلّا أربع آيات نزلن بالمدينة، أوّلها: (قل لا أسألُكم عليه أجراً) [الشورى: ٢٣] وقال مقاتل: فيها من المدنيّ قوله: (ذلك الذي يبشّر اللهُ عباده الذين آمنوا) [الشورى: ٢٣] إلى قوله: (بذات الصُّدور) [الشورى: ٢٤] وقوله: (والذين إذا أصابهم البَغْيُ) [الشورى: ٣٩] إلى قوله: (مِنْ سبيلٍ) [الشورى: ٤١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ عٓسٓقٓ . كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ . تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ . وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾

قوله تعالى : (حم) قد سبق تفسيره [المؤمن] .

قوله تعالى : (عسق) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قَسَمٌ أقسم اللهُ به ، وهو من أسمائه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه حروف من أسماء ؛ ثم فيه خمسة أقوال . أحدها : أن العين عِلْم الله ، والسين سناؤه ، والقاف قُدرته ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن . والثاني : أن العين فيها عذاب ، والسين فيها مسخ ، والقاف فيها قذف ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس . والثالث : أن الحاء من حرب ، والميم من تحويل مُلك ، والعين من عدوّ مقهور ، والسين استئصال بسِنِينَ كسِنِيّ يوسف ، والقاف من قُدرة الله في ملوك الأرض ، قاله عطاء . والرابع : أن العين من عالم ، والسين من قُدُّوس ، والقاف من قاهر ، قاله [سعيد] بن جبير . والخامس : أن العين من العزيز ، والسين من السلام ، والقاف من القادر ، قاله السدي .

والثالث : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة [١] .

قوله تعالى : (كذلكَ يُوحِي إليكَ) فيه أربعة أقوال .

---

(١) قال الشوكاني في تفسيره « فتح القدير » : واختلفوا في « حم عسق » فقيل : معناها : حُمَّ ، أي : قضي ، وقيل : إن « ح » حلمه ، و « م » مجده ، و « ع » علمه ، و « س » سناه ، و « ق » قدرته ، أقسم الله بها ، وقيل غير ذلك مما هو متكلّف متعسّف لم يدل عليه دليل ، ولا جاءت به حجة ولا شبهة حجة ، قال : وقد ذكرنا قبل هذا ماروي في ذلك مما لا أصل له . اهـ . وقد تقدم الكلام على أوائل الحروف في (العنكبوت) وغيرها بما فيه كفاية .

أحدها : أنه كما أوحيتُ « حم عسق » إلى كل نبيّ ، كذلك نوحيها إليك ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : كذلك نوحي إليك أخبار الغيب كما أوحينا إلى مَنْ قبْلَكَ ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أن « حم عسق » نزلت في أمر العذاب ، فقيل : كذلك نُوحِي إليكَ أن العذاب نازلٌ بمن كذَّبك كما أوحينا ذلك إلى مَنْ كان قبْلَكَ ، قاله مقاتل .

والرابع : أن المعنى : هكذا نوحي إليكَ ، قاله ابن جرير .

وقرأ ابن كثير : « يُوحَى » بضم الياء وفتح الحاء . كأنه إذا قيل : مَن يوحي ؟ قيل : الله . وروى أبان عن عاصم : « نوحي » بالنون وكسر الحاء .

(تَكادُ السَّموات يَتَفَطَّرْنَ) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة : « تكاد » بالتاء « يتَفَطَّرْنَ » بياء وتاء مفتوحة وفتح الطاء وتشديدها . وقرأ نافع ، والكسائي : « يكاد » بالياء « يَتَفَطَّرْنَ » مثل قراءة ابن كثير . وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « تكاد » بالتاء « يَنْفَطِرْنَ » بالنون وكسر الطاء وتخفيفها ، أي : يَتَشَقَّقْنَ (مِنْ فَوْقِهِنَّ) أي : من فوق الأَرضِين من عَظَمة الرحمن ؛ وقيل : من قول المشركين : « اتخذ الله ولداً » . ونظيرها [التي] في (مريم : ٩٠) .

(والملائكةُ يسبِّحونَ بحمد ربِّهم) قال بعضهم : يصلُّون بأمر ربِّهم ؛ وقال بعضهم : ينزِّهونه عمّا لايجوز في صفته (ويَستغفرون لِمَنْ في الأَرض) فيه قولان .

أحدها : أنه أراد المؤمنين ، قاله قتادة ، والسدي .

والثاني : أنهم كانوا يستغفرون للمؤمنين ، فلمّا ابتُلِيَ هاروت وماروت استغفروا لِمَن في الأرض .

ومعنى استغفارهم : سؤالهم الرّزق لهم ، قاله ابن السائب . وقد زعم قوم منهم مقاتل أن هذه الآية منسوخة بقوله : (ويَستغفرون للذين آمنوا) [غافر : ٧] ، وليس بشيء ، لأنهم إنّما يَستغفرون للمؤمنين دون الكفار ، فلفظ هذه الآية عامّ ، ومعناها خاصّ ، ويدلّ على التخصيص قوله : (ويستغفرون للذين آمنوا) [غافر : ٧] ، لأن الكافر لايستحق أن يُستغفَر له .

قوله تعالى : (والذين اتَّخَذوا مِنْ دونه أولياءَ) يعني كفار مكة اتَّخَذوا آلهة فعبدوها من دونه (اللهُ حفيظٌ عليهم) أي : حافظٌ لأعمالهم ليجازيَهم بها (وما أنت عليهم بوكيل) أي : لم نوكِّلْكَ بهم فتؤخَذَ بهم . وهذه الآية عند جمهور المفسرين منسوخة بآية السيف ، ولا يصح .

﴿ وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَارَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ . وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَالَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك) أي : ومثل ماذكرنا (أوحينا إليك قرآناً عربيّاً) ليفهموا مافيه (لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرى) يعني مكة ، والمراد : أهلها [١] ،

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك (أوحينا إليك قرآناً عربياً) —

(وَتُنْذِرَ يومَ الجَمْعِ) أي: وتنذرهم يوم الجمع، وهو يوم القيامة، يَجمع اللهُ فيه الأوَّلين والآخرين وأهل السموات والأرضين (لاريب فيه) أي: لاشكَّ في هذا الجمع أنه كائن، ثم بعد الجمع يتفرَّقون، وهو قوله: (فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير).

ثم ذكر سبب افتراقهم فقال: (ولو شاءَ اللهُ لجعلهم أُمَّةً واحدةً) أي: على دين واحد، كقوله: (لَجَمَعَهُمْ على الهُدى) [الأنعام: ٣٥] (ولكن يُدْخِلُ مَنْ يشاء في رحمته) أي: في دينه (والظَّـالمون) وهم الكافرون (مالهم من وليٍّ) يدفع عنهم العذاب (ولا نصيرٍ) يمنعهم منه.

(أمِ اتَّخَذوا مِنْ دُونِهِ) أي: بل اتخذ الكافرون من دون الله (أولياءَ) يعني آلهة يتولَّونهم (فاللهُ هو الوليُّ) أي: وليُّ أوليائه، فليتَّخذوه وليّاً دون الآلهة؛ وقال ابن عباس: وليُّك يامحمد ووليُّ من اتَّبعك.

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ. فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ

ـــ أي: واضحاً جليّاً بيّناً (لتنذر أم القرى) وهي مكة (وَمن حولها) أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، قال: وسميت مكة « أم القرى » لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، قال: ومن أوجز ذلك وأدلـه ماقال الامام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: إن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: « والله إنكِ لَخَيْرُ أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ماخرجت » قال ابن كثير: هكذا رواية الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث الزهري به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَاوَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَاتَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾

قوله تعالى : (وما اختلفتم فيه من شيء) أي : من أمر الدِّين ؛ وقيل : بل هو عامّ (فحُكمه إلى الله) فيه قولان . أحدهما : عِلْمه عند الله . والثاني : هو يحكُم فيه . قال مقاتل : وذلك أن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن ، وآمن بعضهم ، فقال الله : أنا الذي أحكُم فيه (ذلكم اللهُ) الذي يحكُم بين المختلفين هو (ربِّي عليه توكلت) في مهمّاتي (وإليه أُنيب) أي : أرجع في المَعاد .

(فاطرُ السموات) قد سبق بيانه [الأنعام : ١٤] ، (جعل لكم من أنفُسكم) أي : من مِثل خَلْقكم (أزواجاً) نساءً (ومن الأنعام أزواجاً) أصنافاً ذكوراً وإناثاً ؛ والمعنى أنه خلق لكم الذَّكر والأنثى من الحيوان كلّه (يذرؤكم) فيها ثلاثة أقوال . أحدها : يخلُقكم ، قاله السدي . والثاني : يُعيِّشكم ، قاله مقاتل . والثالث : يكثِّركم ، قاله الفراء . و [في قوله] (فيه) قولان .

أحدها : أنها على أصلها ، قاله الأكثرون . فعلى هذا في هاء الكناية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى بطون الإناث وقد تقدم ذكر الأزواج ، قاله زيد بن أسلم . فعلى هذا يكون المعنى : يخلُقكم في بطون النساء ، وإلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة ، فقال : يخلُقكم في الرَّحِم أو في الزَّوج[1] ؛ وقال ابن جرير : يخلُقكم فيما جعل لكم من أزواجكم ، ويعيّشكم فيما جعل لكم من الأنعام .

والثاني : أنها ترجع إلى الأرض ، قاله ابن زيد ؛ فعلى هذا يكون المعنى : يذرؤكم فيما خلق من السموات والأرض .

والثالث : أنها ترجع إلى الجَعْل المذكور ؛ ثم في معنى الكلام قولان . أحدهما : يعيّشكم فيما جعل من الأنعام ، قاله مقاتل . والثاني : يخلُقكم في هذا الوجه الذي ذكر مِنْ جَعْلِ الأزواج ، قاله الواحدي .

والقول الثاني : أن « فيه » بمعنى « به » ؛ والمعنى : يكثِركم بما جعل لكم ، قاله الفراء ، والزجاج .

قوله تعالى : (ليس كمِثْله شيء) قال ابن قتيبة : أي : ليس كَهُوَ شيء ، والعرب تُقيم المِثْلَ مُقام النَّفْس ، فتقول : مِثْلي لايُقال له هذا ، أي : أنا لايُقال لي هذا . وقال الزجاج : الكاف مؤكِّدة ، والمعنى : ليس مِثْلَه شيء . وما بعد هذا قد سبق بيانه [الزمر : ٦٣ ، الرعد : ٢٦] إلى قوله : (شَرَعَ لكم) أي : بيَّن وأوضح (من الدِّين ماوصَّى به نُوحاً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه تحليل الحلال وتحريم الحرام ، قاله قتادة . والثاني : تحريم الأخوات والأمَّهات ، قاله الحكم . والثالث : التوحيد وترك الشِّرك .

قوله تعالى : (والذي أوحينا إليكَ) أي : من القرآن وشرائع الإسلام . قال الزجاج : المعنى : وشرع الذي أوحينا إليك وشرع لكم ماوصَّى به إبراهيم

---

(١) قال القرطبي : أو في الزوج ، أي : يخلقكم في بطون الاناث . اهـ .

وموسى وعيسى[1] . وقوله : (أن أقيموا الدّين) تفسير قوله : (ماوصّينا[2] به إبراهيم وموسى وعيسى) ، وجائز أن يكون تفسيراً لـ « ما وصّى به نوحاً » ولقوله : (والذي أوحينا إليك) ولقوله : (وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى) ، فيكون المعنى : شرع لكم ولِمَن قبلَكم إقامة الدّين وترك الفُرقة ، وشرع الاجتماع على اتّباع الرّسل وقال مقاتل : (أن أقيموا الدّين) يعني التوحيد (ولا تتفرّقوا فيه) أي : لاتختلفوا (كَبُرَ على المشركين) أي : عَظُمَ على مشركي مكة (ماتَدْعوهم إليه) يامحمد من التوحيد .

قوله تعالى : (اللهُ يَجتبي إليه) أي : يَصطفي من عباده لِدينه (مَنْ يَشاءُ ويَهدي) إلى دينه ، (من يُنيبُ) أي : يَرجع إلى طاعته .

ثم ذكر افتراقهم بعد أن أوصاهم بترك الفُرقة ، فقال : (وما تفرّقوا) يعني أهل الكتاب (إلّا مِنْ بَعْدِ ماجاءهم العِلْمُ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من بعد كثرة عِلْمهم للبغي . والثاني : من بعد أن علموا أن الفُرقة ضلال . والثالث : من بعد ماجاءهم القرآن ، بغياً منهم على محمد ﷺ .

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى لهذه الأمة : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذي أوحينا إليك) فذكر أولَ الرسل بعد آدم عليه السلام ، وهو نوح عليه السلام ، وآخرَهم وهو محمد ﷺ ، ثم ذكر مَن بين ذلك من أولي العزم وهو إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية (الأحزاب) عليهم في قوله تبارك وتعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ...) الآية ، قال : والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لاشريك له ، كما قال عز وجل : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وفي الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علّات ديننا واحد » أي : القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لاشريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، كقوله جل جلاله : (لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) . اهـ .

(٢) في الأصل : « ماوصى » .

(ولولا كلمةٌ سَبقَتْ مِنْ ربّك) في تأخير المكذّبين من هذه الأُمّة إلى يوم القيامة ، (لَقُضيَ بينَهم) بانزال العذاب على المكذّبين (وإنّ الذين أُورثوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى (مِنْ بعدِهِم) أي : من بعد أنبيائهم (لفي شكٍّ منه) أي : من محمد ﷺ .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ . وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾

قولهتعالى : (فلذلك فادْعُ) قال الفراء : المعنى : فالى ذلك ، تقول : دعوتُ إلى فلان ، ودعوت لفلان ، و « ذلك » بمعنى « هذا » ؛ وللمفسرين فيه قولان . أحدهما : أنه القرآن ، قاله ابن السائب . والثاني : أنه التوحيد ، قاله مقاتل [1] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذِكْره : فالى ذلك الدّين الذي شرع لكم ، ووصّى به نوحاً ، وأوحاه إليك يامحمد ، فادع عباد الله ، واستقم على العمل به ، ولا تَزِغْ عنه ، واثبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة . اهـ .

وقال ابن كثير : اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلأت كلٌّ منها منفصلة عن التي قبلها ، حُكم برأسها ، قال : قالوا : ولا نظير لها سوى آيه الكرسي ، فانها أيضاً عشرة فصول كهذه ، قال : وقوله : (فلذلك فادع) أي : فالذي أوحينا إليك من الدين الذي وصّينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتّبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه ، قال : وقوله عز وجل : (واستقم كما أمرت) أي : واستقم أنت ومن اتّبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله عز وجل . اهـ .

قوله تعالى : (ولا تَتَّبِعْ أهواءَهم) يعني أهل الكتاب ، لأنهم دعَوه إلى دينهم .

قوله تعالى : (وأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بينكم) قال بعض النحويِّين : المعنى : أُمِرْتُ كي أعْدِلَ . وقال غيره : المعنى : أُمِرْتُ بالعَدْل . وتقع « أُمِرْتُ » على « أن » ، وعلى « كي » ، وعلى « اللام » ؛ يقال : أُمِرْتُ أن أعدل ، وكي أعدل ، ولِأعدل .

ثم في ما أُمِرَ أن يَعْدِلَ فيه قولان . أحدهما : في الأحكام إذا ترافعوا إليه . والثاني : في تبليغ الرسالة .

قوله تعالى : (اللهُ ربُّنا وربُّكم) أي : هو إلٰهنا وإن اختلفنا ، فهو يجازينا بأعمالنا ، فذلك قوله : (لنا أعمالُنا) أي : جزاؤها .

(لاحُجَّةَ بينَنا وبينَكم) قال مجاهد : لاخُصومة بينَنا وبينَكم .

فصل

وفي هذه الآية قولان .

أحدهما : أنها اقتضت الاقتصار على الإنذار ، وذلك قبل القتال ، ثم نزلت آية السيف فنسختْها ، قاله الأكثرون .

والثاني : أن معناها : إن الكلام ـ بعد ظُهور الحُجج والبراهين ـ قد سقط بيننا ، فعلى هذا هي مُحْكَمة ، حكاه شيخنا عليّ بن عبيد الله عن طائفة من المفسرين .

قوله تعالى : (والذين يُحاجُّونَ في الله) أي : يُخاصِمون في دِينه . قال قتادة : هم اليهود ، قالوا : كتابُنا قَبْلَ كتابكم ، ونبيُّنا قبل نبيِّكم ، فنحن خيرٌ منكم . وعلى قول مجاهد : هم المشركون ، طمعوا أن تعود الجاهلية .

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ ماستُجيب له) أي : من بعد إجابة الناس إلى الإسلام (حُجَّتُهم داحضة) أي : خصومتهم باطلة .

﴿ اللهُ الَّذي أنزَلَ الكِتابَ بِالحَقِّ والمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ . يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أنَّهَا الحَقُّ ألاَ إنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ . اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ . مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾

قوله تعالى : (اللهُ الذي أنزل الكتابَ) يعني القرآن (بالحق) أي : لم ينزله لغير شيء (والميزانَ) فيه قولان . أحدهما : أنه العدل ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والجمهور . والثاني : أنه الذي يوزَن به ، حكي عن مجاهد . ومعنى إنزاله : إلهامُ الخلق أن يعملوا به ، وأمرُ الله عز وجل إيّاهم بالإنصاف . وسمّي العدلُ ميزاناً ، لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق . وتمام الآية مشروح في (الأحزاب : ٦٣) .

قوله تعالى : (يَستعجل بها الذين لايؤمنون بها) لأنهم لايخافون مافيها ، إذْ لم يؤمنوا بكونها ، فهم يطلبون قيامها استبعاداً واستهزاءً (والذين آمنوا مشفقون) أي : خائفون (منها) لأنهم يعلمون أنهم مُحاسَبون ومَجزيّون ، ولا يدرون مايكون منهم (ويَعلمون أنّها الحَقُّ) أي : أنها كائنة لا مَحالة (ألا إنَّ الذين يُمارونَ في السّاعة) أي : يخاصِمون في كونها (لفي ضلال بعيدٍ) حين لم يتفكّروا ، فيَعلموا قدرة الله على إقامتها .

(اللهُ لطيفٌ بعباده) قد شرحنا معنى [اسمه] « اللطيف » في (الأنعام : ١٠٣) .
وفي عباده هاهنا قولان . أحدهما : أنهم المؤمنون . والثاني : أنه عامٌّ في الكُلّ .
ولطفُه بالفاجر : أنه لا يُهلكه .

(يرزُق من يشاء) أي : يوسّع له الرِّزق .

قوله تعالى : (من كان يريد حَرْثَ الآخرة) قال ابن قتيبة : أي : عَمَل الآخرة ، يقال : فلانٌ يحرُث الدُّنيا ، أي : يعمل لها ويجمع المال ؛ فالمعنى : من أراد بعمله الآخرة (نَزِدْ له في حَرْثه) أي : نُضاعف له الحسنات .

قال المفسرون : من أراد العمل لله بما يُرضيه ، أعانه الله على عبادته ، ومن أراد الدُّنيا مُؤْثِراً لها على الآخرة لأنه غير مؤمن بالآخرة ، يؤته منها ، وهو الذي قسم له ، (وما له في الآخرة مِنْ نصيبٍ) لأنه كافر بها لم يعمل لها [1] .

فِصل

اتفق العلماء على أن أول هذه الآية إلى « حرثه » مُحْكَم ، واختلفوا في باقيها على قولين .

---

(١) قال ابن كثير : أي : ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا ، وليس له إلى الآخرة همٌّ البتة بالكليّة ، حرمه الله الآخرة ، والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ، قال : والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيَّدة بالآية التي في (سبحان) وهي قوله تبارك وتعالى : (من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كُلّاً نُمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) .

أحدهما : [أنه] منسوخ بقوله : (عجَّلْنا له فيها مانشاء لِمَنْ نُريد) [الاسراء:١٨] ، وهذا قول جماعة منهم مقاتل .

والثاني : أن الآيتين مُحكمتان متّفقتان في المعنى ، لأنه لم يقل في هذه الآية : نؤته مُراده ، فعُلِم أنه إنما يؤتيه الله ما أراد ، وهذا موافق لقوله : « لِمَنْ نُريد » ، ويحقّق هذا أن لفظ الآيتين لفظ الخبر ومعناهما معنى الخبر ، وذلك لايدخُله النسخ ، وهذا مذهب جماعة منهم قتادة .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَايَشَاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

قوله تعالى : (أمْ لهم شركاءُ) يعني كفار مكة ؛ والمعنى : أَلهُمْ آلهةٌ (شَرَعوا) أي : ابتدعوا (لهم) ديناً لم يأذن به الله ؟ ![1] (ولولا كلمة الفصل)

(١) قال ابن كثير : وقوله جل وعلا : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) أي : هم لايتّبعون ماشرع الله لك من الدين القويم ، بل يتّبعون ماشرع لهم شياطينهم من الجن والانس ، من تحريم ماحرّموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار ، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة . اهـ .

وهي : القضاء السابق بأن الجزاء يكون في القيامة (لقُضِيَ بينهم) في الدنيا بنزول العذاب على المكذّبين . والظالمون في هذه الآية والتي تليها : يراد بهم المشركون . والاشفاق : الخوف . والذي كَسَبوا : هو الكفر والتكذيب ، (وهو واقعٌ بهم) يعني جزاءه . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (ذلك) يعني : ماتقدم ذِكْره من الجنّات (الذي يُبَشِّرُ اللهُ عبادَه) قال أبو سليمان الدمشقي : « ذلك » بمعنى : هذا الذي أخبرتُكم به بشرى يبشِّر اللهُ بها عباده . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « يَبْشُرُ » بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين .

قوله تعالى : (قُلْ لا أسألُكم عليه أجْراً) في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المشركين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ بمكة ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضحاك عن ابن عباس [١] .

والثاني : أنه لمّا قَدِم المدينةَ كانت تَنُوبه نوائبُ وليس في يده سَعَةٌ ، فقال الأنصار : إن هذا الرجُل قد هداكم اللهُ به ، وليس في يده سَعَةٌ ، فاجْمَعوا له من أموالكم مالا يضرُّكم ، ففعلوا ثم أتَوْه به ، فنزلت هذه الآية ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً [٢] .

والثالث : أن المشركين اجتمعوا في مجمع لهم ، فقال بعضهم لبعض : أتُرَوْن محمداً يسأل على مايتعاطاه أجراً ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة [٣] .

---

(١) قال السيوطي في « الدر » ٦/٦ : أخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية بمكة ، وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : (قل) لهم يامحمد : (لا أسألكم عليه) يعني على ما أدعوكم إليه (أجراً) عوضاً من الدنيا (إلا المودّة في القربى) الا الحفظ في قرابتي فيكم .

(٢) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٣ عن ابن عباس بدون سند .

(٣) وكذلك ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٣عن قتادة بدون سند .

والهاء في « عليه » كناية عمّا جاء به من الهُدى .

وفي الاستثناء هاهنا قولان .

أحدها : أنه من الجنس ، فعلى هذا يكون سائلاً أجراً . وقد أشار ابن عباس في رواية الضحاك إلى هذا المعنى ، ثم قال : نُسخت هذه بقوله : (قُلْ ماسألتُكم مِنْ أجر فهُو لكم ...) [الآية] [سبأ : ٤٧] ، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل .

والثاني : أنه استثناء من غير الأول ، لأن الأنبياء لايَسألون على تبليغهم أجراً ؛ وإنما المعنى : لكنّي أُذكّرُكم المَوَدَّةَ في القُرْبى ، وقد روى هذا المعنى جماعة عن ابن عباس ، منهم العوفي ، وهذا اختيار المحقّقين ، وهو الصحيح ، فلا يتوجّه النسخ أصلاً [١] .

وفي المراد بالقُرْبى خمسة أقوال .

أحدها : أن معنى الكلام : إلّا أن تَوَدُّوني لقرابتي منكم ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد في الأكثرين . قال ابن عباس : ولم يكن بطنٌ من بطون قريش إلّا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة .

والثاني : إلّا [أن] تَوَدُّوا قرابتي ، قاله عليّ بن الحسين ، وسعيد بن جبير ، والسدي . ثم في المراد بقرابته قولان . أحدهما : عليّ وفاطمة وولدها ، وقد رووه

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال : معناه : قل لا أسألكم عليه أجراً يامعشر قريش ، إلا أن تودّوني في قرابتي منكم وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم . اهـ . وقال ابن كثير : وقوله عز وجل : (قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودّة في القربى) أي : قل يامحمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش : لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه ، وانما أطلب منكم أن تكفّوا شرّكم عني ، وتذروني أبلّغ رسالات ربي ، ان لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . اهـ .

مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ [1] . والثاني : أنهم الذين تحرُم عليهم الصدقة ويُقسَم فيهم الخُمُس ، وهم بنو هاشم وبنو المطَّلب .

والثالث : أن المعنى : إلا أن تَوَدَّدوا إلى الله تعالى فيما يقرِّبكم إليه من العمل الصالح ، قاله الحسن ، وقتادة .

والرابع إلا أن تَوَدُّوني ، كما تَوَدُّون قرابتكم ، قاله ابن زيد .

والخامس : إلا أن تَوَدُّوا قرابتكم وتَصِلوا أرحامكم ، حكاه الماوردي . والأول : أصح .

قوله تعالى : (ومَنْ يَقْتَرِفْ) أي : مَنْ يَكْتَسِبْ (حَسَنَةً نَزِدْ له فيها حُسْنًا) أي : نُضاعفْها بالواحدة عشراً فصاعداً . وقرأ ابن السميفع ، وابن يعمر ، والجحدري : « يَزِدْ له » بالياء (إن الله غفورٌ) الذنوب (شَكورٌ) للقليل حتى يضاعفَه .

(أم يقولون) أي : بل يقول كفار مكة (افترى على الله كَذِباً) حين زعم أن القرآن من عند الله ! (فان يشأِ اللهُ يَخْتِمْ على قلبك) فيه قولان .

---

(١) قال السيوطي في « الدر » ٦/٧ : أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) قالوا : يارسول الله مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم ؟ قال : « علي وفاطمة وولداها » وقد ذكره الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » وقال : في سنده « حسين الأشقر » ضعيف ساقط ، قال : وقد عارضه ماهو أولى منه ، ففي البخاري من رواية طاووس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية ، فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد ﷺ ؟ فقال ابن عباس : عَجِلْتَ ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . . . الحديث . قال ابن كثير : ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالاحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم ، فانهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً ، ولا سيما إذا كانوا متّبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليّة كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه ، وعليّ وأهل بيته وذريته ، رضي الله عنهم أجمعين . اهـ .

أحدها : يَختِم على قلبك فيُنسيك القرآن ، قاله قتادة .

والثاني : يَربِط على قلبك بالصبر على أذاهم فلا يَشُقّ عليك قولهم : إنك مفترٍ ، قاله مقاتل ، والزجاج .

قوله تعالى : (ويَمحُ اللهُ الباطلَ) قال الفراء : ليس بمردود على « يَختِم » فيكونَ جزماً ، وإنما هو مستأنَف ، ومثله ممّا حُذفتْ منه الواو (ويَدْعُ الإنسانُ بالشرِّ) [الاسراء : ١١] . وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير . تقديره : والله يمحو الباطل . وقال الزجاج : الوقف عليها « ويمحوا » بواو وألف ؛ والمعنى : واللهُ يمحو الباطل على كل حالٍ ، غير أنها كُتبتْ في المصاحف بغير واو ، لأن الواو تسقط في اللفظ لالتقاء الساكنين ، فكُتبتْ على الوصل ، ولفظ الواو ثابت ؛ والمعنى : ويمحو اللهُ الشركَ ويُحِقُّ الحق بما أنزله من كتابه على لسان نبيّه ﷺ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّآتِ وَيَعْلَمُ مَاتَفْعَلُونَ . وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ . وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَايَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي يَقْبَل التَّوبة عن عباده) قد ذكرناه في (براءة : ١٠٤) .

قوله تعالى : (ويَعْلَمُ ماتفعلون) أي : من خير وشرّ . قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بالتاء ، وقرأ الباقون : بالياء ، على الإخبار عن المشركين والتهديد لهم .

و « يستجيب » بمعنى يُجيب . وفيه قولان .

أحدهما : أن الفعل فيه لله ، والمعنى : يُجيبهم إذا سألوه ؛ وقد روى قتادة عن أبي إبراهيم اللخمي [(١)] (ويستجيب الذين آمنوا) قال : يُشَفَّعون في إخوانهم ، (ويَزيدُهم مِنْ فَضْله) قال : يُشَفَّعون في إخوان إخوانهم .

والثاني : أنه للمؤمنين ؛ فالمعنى : يجيبونه . والأول أصح .

قوله تعالى : (ولو بَسَطَ اللهُ الرِّزق لعباده) قال خَبَّاب بن الأرتّ : فينا نزلت هذه الآية ، وذلك أنّا نَظَرْنا إلى أموال بني قريظة والنَّضير فتمنَّيناها ، فنزلت هذه الآية [(٢)] . ومعنى الآية : لو أوسَع اللهُ الرِّزق لعباده لبَطِروا وعَصَوْا وبغى بعضُهم على بعض ، (ولكن ينزِّل بقَدَرٍ مايشاءُ) أي : ينزل أمره بتقدير مايشاء ممّا يُصلح أمورَهم ولا يُطغيهم (إنه بعباده خبيرٌ بصيرٌ) فمنهم من لايُصلحه إلا الغنى ، ومنهم من لايُصلحه إلا الفقر [(٣)] .

---

(١) كذا الأصل ، والذي في « الطبري » : إبراهيم اللخمي .

(٢) ذكر سبب النزول هذا عن خباب بن الأرت بهذا اللفظ الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٣ بدون سند ، وكذلك ذكره البغوي والخازن في « تفسيريهما » عن خباب رضي الله عنه بدون سند وروى الطبري في « تفسيره » من رواية عمرو بن حريث وغيره قال : يقولون : إنما نزلت في أهل الصُّفَّة . وقال السيوطي في « الدر » ٨/٦ : أخرج ابن المنذر ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في « الحلية » ، والبيهقي في « شعب الايمان » بسند صحيح عن أبي هانىء الخولاني قال : سمعت عمرو بن حريث وغيره يقولون : إنما أنزلت هذه الآية في أهل الصُّفَّة : (ولو بسط الرزق لعباده لبغَوا في الأرض) وذلك أنهم قالوا : (لو أن لنا) ، فتمنَّوا الدنيا .

وقال السيوطي أيضاً : وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي عن علي رضي الله عنه قال : إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصُّفَّة : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغَوا في الأرض) وذلك أنهم قالوا : (لو أن لنا) ، فتمنَّوا الدنيا . اهـ .

(٣) قال ابن كثير : أي : ولكن يرزقهم من الرزق مايختاره مما فيه صلاحهم ، وهو أعلم بذلك ، فيغني من يستحق الغنى ، ويفقر من يستحق الفقر . اهـ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَاقَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ . وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

(وهو الذي ينزّل الغيث) يعني المطر وقت الحاجة (مِنْ بَعْدِ ماقَنَطوا) أي : يئسوا ، وذلك أدعى لهم إلى شكر مُنْزله (ويَنْشُر رحمتَه) في الرحمة هاهنا قولان. أحدهما : المطر ، قاله مقاتل . والثاني : الشمس بعد المطر ، حكاه أبو سليمان الدمشقي . وقد ذكرنا « الوليّ » في سورة (النساء : ٤٥) و « الحميد » في (البقرة : ٢٦٧) .

قوله تعالى : (وما أصابكم من مصيبة) وهو مايلحق المؤمن من مكروهٍ (فبما كسبَتْ أيديكم) من المعاصي . وقرأ نافع ، وابن عامر : « بما كسبَتْ أيديكم » بغير فاء ، وكذلك [هي] في مصاحف أهل المدينة والشام (ويعفو عن كثير) من السيّئات فلا يُعاقِبُ بها . وقيل لأبي سليمان الداراني : مابال العقلاء أزالوا اللّوم عمّن أساء إليهم ؟ قال : إنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم ، وقرأ هذه الآية .

قوله تعالى : (وما أنتم بمُعْجِزِين في الأرض) إن أراد الله عقوبتكم ، وهذا يدخل فيه الكفار والعصاة كلّهم .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ

صَبَّارٍ شَكُورٍ . أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ . وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَالَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ . فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومِنْ آياتِه الجَواري في البحر) والمراد بالجوارِ : السفن . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « الجواري » بياء في الوصل ، إلّا أن ابن كثير يقف أيضاً بياء ، وأبو عمرو بغير ياء ، ويعقوب يوافق ابن كثير ، والباقون بغير ياء في الوصل والوقف ؛ قال أبو علي : والقياس ماذهب إليه ابن كثير ، ومن حذف ، فقد كثُر حذف مثل هذا في كلامهم .

(كالأعلام) قال ابن قتيبة : كالجبال ، واحدها : عَلَم . وروي عن الخليل بن أحمد أنه قال : كل شيء مرتفع ـ عند العرب ـ فهو عَلَم .

قوله تعالى : (إن يشأْ يُسْكِنِ الرِّيح) التي تُجريها (فيَظْلَلْنَ) يعني الجواري (رواكدَ على ظهره) أي : سواكن على ظهر البحر [لا يَجْرِينَ] .

(أو يُوبِقْهُنّ) أي : يُهلِكْهُنَّ ويُغْرِقهُنّ ، والمراد أهل السفن ، ولذلك قال : (بما كَسَبوا) أي : من الذُّنوب (ويَعْفُ عن كثير) من ذنوبهم ، فيُنجيهم من الهلاك .

(ويَعْلَمَ الذين يُجادِلون) قرأ نافع ، وابن عامر : « ويَعْلَمُ » بالرفع على الاستئناف وقطعه من الأول ؛ وقرأ الباقون بالنصب . قال الفراء : هو مردود على الجزم ، إلّا أنه صُرف ، والجزم إذا صُرف عنه معطوفه نُصب .

وللمفسرين في معنى الآية قولان .

أحدهما : ويعلم الذين يخاصمون في آيات الله حين يؤخذون بالغرق أنه لاملجأ لهم .

والثاني : أنهم يعلمون بعد البعث أنه لامهرب لهم من العذاب .

قوله تعالى : (فما أوتيتم من شيءٍ) أي : ما أُعطيتم من الدنيا فهو متاع تتمتَّعون به ، ثم يزول سريعاً ، (وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا) لا للكافرين ، لأنه إنما أعدَّ لهم في الآخرة العذاب .

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَاغَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

قوله تعالى : (والذين يَجْتَنِبون كبائرَ الإثم) وقرأ حمزة ، والكسائي : « كبيرَ الإثم » على التوحيد من غير ألف ، والباقون بألف . وقد شرحنا الكبائر في سورة (النساء : ٣١) [1] . وفي المراد بالفواحش هاهنا قولان . أحدهما : الزنا . والثاني : موجبات الحدود .

قوله تعالى : (وإذا ماغَضِبوا هم يَغْفِرون) أي : يَعْفُون عمَّن ظَلَمهم

(١) انظر الجزء ٢ صفحة ٦٧ .

طلباً لثواب الله تعالى [١] .

(والذين استجابوا لربّهم) أي : أجابوه فيما دعاهم إليه .

(وأمرُهم شُورى بينَهم) قال ابن قتيبة : أي : يتشاورون فيه [بينهم] .
وقال الزجاج : المعنى أنهم لاينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه [٢] .

قوله تعالى : (والذين إذا أصابهم البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرون) اختلفوا في [هذا] البَغْي على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه بَغْيُ الكفار على المسلمين . قال عطاء : هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبَغَوْا عليهم ، ثم مَكّنهم الله منهم فانتصروا . وقال زيد بن أسلم : كان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين بمكة ، فرقة كانت تُؤذَى فتَعفو عن المشركين ، وفرقة كانت تُؤذَى فتنتصر ، فأثنى اللهُ عز وجل عليهم جميعاً ، فقال في الذين لم ينتصروا : (وإذا ماغَضِبوا هم يَغْفِرون) ، وقال في المنتصِرين : (والذين إذا أصابهم البَغْيُ هم ينتصرون) أي : من المشركين . وقال ابن زيد : ذكر المهاجرين ، وكانوا صنفين ، صنفاً عفا ، وصنفاً انتصر ، فقال : « وإذا ماغَضِبوا هم يَغْفِرون » ، فبدأ بهم ، وقال في المنتصرين : « (والذين إذا أصابهم

---

(١) قال ابن كثير : أي : سجيّتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ، ليس سجيّتهم الانتقام من الناس .

(٢) قال ابن كثير : أي : لايبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها ، كما قال تبارك وتعالى : (وشاورهم في الأمر . . .) الآية ، قال : ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيّب بذلك قلوبهم ، قال : وهكذا لما حضرت عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه الوفاةُ حين طُعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر ، وهم : عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنهم ، فاجتمع رأي الصحابة كلّهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم ، رضي الله عنهم . اهـ .

البَغْيُ هم ينتصِرون » أي : من المشركين ؛ وقال : « والذين استجابوا لربِّهم » إلى قوله : « يُنْفِقون » وهم الأنصار ؛ ثم ذكر الصّنف الثالث فقال : « والذين إذا أصابهم البَغْيُ هم ينتصِرون » من المشركين .

والثاني : أنه بَغْيُ المسلمين على المسلمين خاصة .

والثالث : أنه عامّ في جميع البُغاة ، سواء كانوا مسلمين أو كافرين .

فصل

واختلف في هذه الآية علماء الناسخ والمنسوخ ، فذهب بعض القائلين بأنها في المشركين إلى أنها منسوخة بآية السيف ، فكأنهم يشيرون إلى أنها أثبتت الانتصار بعد بَغْي المشركين ، فلمّا جاز لنا أن نبدأهم بالقتال ، دَلَّ على أنها منسوخة . وللقائلين بأنها في المسلمين قولان .

أحدهما : أنها منسوخة بقوله : (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ) [الشورى : ٤٣] فكأنها نبَّهتْ على مدح المنتصِر ، ثم أعلمنا أن الصبر والغفران أمدح ، فبان وجه النسخ .

والثاني : أنها محكَمة ، لأن الصبر والغفران فضيلة ، والانتصار مباح ، فعلى هذا تكون محكمة ، [وهو الأصح] .

فان قيل : كيف الجمع بين هذه الآية ـ وظاهرُها مدح المنتصِر ـ وبين آيات الحَثِّ على العفو ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه انتصار المسلمين من الكافرين ، وتلك رتبة الجهاد كما ذكرنا عن عطاء .

والثاني : أن المنتصِر لم يَخرج عن فعل أُبيح له ، وإن كان العفو أفضل ، ومَنْ لم يَخرج من الشرع بفعله ، حَسُنَ مدحُه . قال ابن زيد : جعل الله المؤمنين صنفين ، صنفٌ يعفو ، فبدأ بذكره ، وصنفٌ ينتصر .

والثالث : أنه إذا بغى على المؤمن فاسقٌ ، فلأنّ له اجتراء الفُسّاق عليه ، وليس للمؤمن أن يُذِلَّ نَفسه ، فينبغي له أن يَكسِر شوكة العُصاة لتكون العِزّة لأهل الدِّين . قال إبراهيم النخعي : كانوا يَكرهون للمؤمنين أن يُذِلّوا أنفُسَهم فيجترىء عليهم الفُسّاق ، فاذا قدَروا عفَوْا . وقال القاضي أبو يعلى : هذه الآية محمولة على من تعدّى وأصرّ على ذلك ، وآيات العفو محمولة على أن يكون الجاني نادماً .

قوله تعالى : (وجزاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مِثلُها) قال مجاهد والسدي : هو جواب القبيح ، إذا قال له كلمة أجابه بمثلها من غير أن يعتديَ . وقال مقاتل : هذا في القصاص في الجراحات والدماء .

(فمن عفا) فلم يقتصّ (وأصلَح) العمل (فأجرُه على الله إنه لايُحِبّ الظّالمين) يعني من بدأ بالظّلم . وإنما سمّى المجازاةَ سيّئةً ، لِما بيَّنّا عند قوله : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) [البقرة : ١٩٤] . قال الحسن : إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ : لِيَقُم مَنْ كان أجرُه على الله ، فلا يقوم إلّا مَنْ عفا .

(وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ) أي : بعد ظُلم الظّالم إيّاه ؛ والمصدر هاهنا مضاف إلى المفعول ، ونظيره : (من دُعاءِ الخير) [فصلت : ٤٩] و (بسؤال نعجتك)[1] [ص : ٢٤] ، (فأولئك) يعني المنتصِرين (ماعليهم من سبيل) أي : من طريق إلى لَوْم ولا حَدّ ، (إنما السبيلُ على الذين يَظلِمون الناس) أي : يبتدؤون بالظّلم (ويَبْغُونَ في الأرض بغير الحق) أي : يعملون فيها بالمعاصي .

(١) في الأصل : وسؤال نعجتك .

قوله تعالى : (وَلَمَنْ صَبَرَ) فلم ينتصر (وغَفَرَ إنَّ ذلك) الصبر والتجاوز (لَمِنْ عَزْمِ الأُمورِ) وقد شرحناه في (آل عمران : ١٨٦) .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ . وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ . وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾

قوله تعالى : (ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فما لَهُ من وليٍّ) أي : من أحدٍ يلي هدايته بعد إضلال الله إيّاه .

(وتَرى الظالمين) يعني المشركين (لمّا رأوُا العذابَ) في الآخرة يسألون الرَّجعة إلى الدنيا (يقولون هل إلى مَرَدٍّ من سبيل) ؟

(وتَراهم يُعْرَضون عليها) أي : على النار (خاشعين) أي : خاضعين متواضعين (من الذُّلِّ ينظُرون من طَرْفٍ خَفِيٍّ) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : من طَرْفٍ ذليل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد . وقال الأخفش : ينظُرون من عين ضعيفة . وقال غيره : « مِنْ » بمعنى « الباء » .

والثاني : يسارِقون النظر ، قاله قتادة ، والسدي .

والثالث : ينظُرون ببعض العَيْن ، قاله أبو عبيدة .

والرابع : أنهم ينظُرون إلى النار بقلوبهم ، لأنهم قد حُشروا عُمْياً ، فلم يَروها بأعيُنهم ، حكاه الفراء ، والزجاج . وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأنعام : ١٢ ، هود : ٣٩] إلى قوله : (ينصُرونهم من دون الله) أي : يمنعونهم من عذاب الله .

﴿ إِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَامَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَالَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ . لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (استجيبوا لربّكم) أي : أجيبوه ، فقد دعاكم برسوله (مِنْ قَبْلِ أن يأتيَ يومٌ) وهو يوم القيامة (لامَرَدَّ له من الله) أي : لايَقدر أحد على رَدّه ودَفْعه (مالكم مِنْ ملجأٍ) تلجؤون إليه ، (وما لكم من نَكيرٍ) قال مجاهد : من ناصر ينصُركم . وقال غيره : من قُدرة على تغيير ما نزل بكم[1] .

(فان أعْرَضوا) عن الإجابة (فما أرسلناك عليهم حفيظاً) لحفظ أعمالهم (إنْ عليك إلّا البلاغُ) أي : ماعليك إلّا أن تبلّغهم . وهذا عند المفسرين منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : (وإنّا إذا أذَقْنا الإنسانَ منّا رحمةً فَرِحَ بها) قال المفسرون :

---

(١) قال ابن كثير : لما ذكر تعالى مايكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة ، حذّر منه ، وأمر بالاستعداد له فقال : (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتيَ يوم لامرَدّ له من الله) أي : إذا أمر بكونه ، فانه كلمح البصر يكون وليس له دافع ولا مانع ، قال: وقوله عز وجل : (مالكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير) أي : ليس لكم حصن تتحصّنون فيه ، ولا مكان يستركم وتتنكّرون فيه فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى ، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته فلا ملجأ منه إلا إليه (يقول الانسان يومئذ أين المفر ؟ كلا لاوزر . إلى ربك يومئذ المستقر) . اهـ .

المراد به : الكافر ؛ والرحمة : الغنى والصحة والمطر ونحو ذلك ، والسَّيِّئة : المرض والفقر والقحط [ونحو ذلك] . والإنسان هاهنا : اسم جنس ، فلذلك قال : (وإن تُصِبْهم سيِّئةٌ بما قدَّمتْ أيديهم) أي : بما سلف من مخالفتهم (فإنَّ الإنسانَ كفورٌ) بما سلف من النِّعم .

(للهِ مُلْكُ السموات والأرض) أي : له التصرُّف فيهما بما يريد ، (يَهَبُ لِمَن يشاء إناثاً) يعني البنات ليس فيهنَّ ذَكَر ، كما وهب للوط ﷺ ، فلم يولَد له إلّا البنات (ويَهَبُ لِمَن يشاء الذُّكور) يعني البنين ليس معهم أُنثى ، كما وهب لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، [فلم يولد له إلا الذُّكور] .

(أو يزوِّجُهم) يعني الإناث والذُّكور . قال الزجاج : ومعنى « يزوِّجُهم » : يَقرُنُهم . وكل شيئين يقترن أحدهما بالآخر ، فهما زوجان ، ويقال لكل واحد منهما : زوج ، تقول : عندي زوجان من الخِفاف ، يعني اثنين .

وفي معنى الكلام للمفسرين قولان . أحدهما : أنه وضْعُ المرأة غلاماً ثم جارية ثم غلاماً ثم جارية ، قاله مجاهد ، والجمهور . والثاني : [أنه] وضْعُ المرأة جاريةً وغلاماً توأمين ، قاله ابن الحنفية . قالوا : وذلك كما جُمع لمحمد ﷺ ، فانه وهب له بنين وبنات ، (ويَجْعَلُ من يشاء عقيماً) لا يولد له ، كيحيى بن زكريا عليهما السلام . وهذه الأقسام موجودة في سائر الناس ، وإنما ذكروا الأنبياء تمثيلاً .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا

وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾

قوله تعالى : (وما كان لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً) قال المفسرون : سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألا تكلِّم الله وتنظُر إليه إن كنتَ نبيّاً صادقاً كما كلّمه موسى ونظر إليه ؟ فقال لهم : « لم ينظُر موسى إلى الله » ، ونزلت هذه الآية [١] . والمراد بالوحي هاهنا : الوحي في المنام .

(أو مِن وراء حجاب) كما كلّم موسى [٢] .

(أو يُرْسِلَ) قرأ نافع ، وابن عامر : « يُرْسِلُ » بالرفع (فيوحي) بسكون الياء . وقرأ الباقون : « يُرْسِلَ » بنصب اللام « فيوحيَ » بتحريك الياء ، والمعنى : « أو يرسل رسولاً » كجبرائيل « فيوحي » ذلك الرسول إلى المرسَل إليه (باذنه مايشاء) . قال مكي بن أبي طالب : من قرأ « أو يرسِلَ » بالنصب ، عطفه على معنى قوله : « إلاّ وحياً » لأنه بمعنى : إلاّ أن يوحيَ .

---

(١) ذكر سبب النزول هذا الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٤ بدون سند ، وكذلك ذكره البغوي والخازن وغيرهما بدون سند . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : حديث أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه ، فانا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك ، فنزلت : (وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحياً) لم أجده . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في رَوْع النبي ﷺ شيئاً لايتمارى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء في « صحيح ابن حبان » عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث في رَوعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » قال : وقوله تعالى : (أو من وراء حجاب) كما كلّم موسى عليه الصلاة والسلام فانه سأل الرؤية بعد التكلم فحجب عنها . ثم قال : وقوله عز وجل : (أو يرسل رسولاً فيوحيَ باذنه مايشاء) كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلاة وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن قرأ بالرفع ، فعلى الابتداء ، كأنه قال : أو هو يرسِل . قال القاضي أبو يعلى : وهذه الآية محمولة على أنه لايكلِّم بشراً إلّا من وراء حجاب في دار الدنيا .

قوله تعالى : (وكذلك) أي : وكما أوحينا إلى الرُّسل (أوحَينا إليك) ، وقيل : الواو عطف على أول السورة ، فالمعنى : كذلك نوحي إليك وإلى الذين مِنْ قبلك .

« وكذلك أوحَينا إليك رُوحاً من أمرِنا » قال ابن عباس : هو القرآن . وقال مقاتل : وَحْياً بأمرِنا [1] .

قوله تعالى : (ما كنتَ تَدري ما الكتابُ) وذلك أنه لم يكن يَعرف القرآن قبل الوحي (ولا الإيمانُ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه بمعنى الدعوة إلى الإيمان ، قاله أبو العالية .

والثاني : أن المراد به : شرائع الإيمان ومعالمه ، وهي كلُّها إيمان ؛ وقد سمَّى الصلاة إيماناً بقوله : (وما كان اللهُ ليُضِيعَ إيمانكم) [البقرة : ١٤٣] ، هذا اختيار ابن قتيبة ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة .

والثالث : أنه ما كان يَعرف الإيمان حين كان في المهد وإذْ كان طفلاً قبل البلوغ ، حكاه الواحدي . والقول ما اختاره ابن قتيبة ، وابن خزيمة ، وقد اشتُهر في الحديث عنه عليه السلام أنه كان قبل النبوَّة يوحِّد الله ، ويُبْغِض اللاتَ والعُزَّى ، ويَحُجّ ويعتمر ، ويتَّبع شريعةَ إبراهيم عليه السلام . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : من زعم أن النبيَّ ﷺ كان على دين قومه ، فهو قول سوء ، أليس كان لايأكل ما ذُبح على النُّصُب ؟ وقال ابن قتيبة : قد جاء في الحديث

(١) في الأصل : هو وحياً بأمرنا .

أنه كان على دين قومه أربعينَ سنةً . ومعناه: أن العرب لم يزالوا على بقايا مِنْ دِين إسماعيل ، من ذلك حجّ البيت ، والختانُ ، وإيقاعُ الطلاق إذا كان ثلاثاً ، وأن للزوج الرَّجعة في الواحدة والاثنتين ، ودِيَة النَّفْس مائة من الإبل ، والغُسل من الجنابة ، وتحريمُ ذوات المحارم بالقرابة والصِّهر . وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من الإيمان بالله والعمل بشرائعهم في الختان والغُسل والحج ، وكان لايقرب الأوثان ، ويَعيبُها . وكان لايَعرف شرائعَ الله التي شَرَعها لعباده على لسانه ، فذلك قوله : « ماكنتَ تَدري ماالكتابُ » [يعني القرآن] « ولا الإيمانُ » يعني شرائع الإيمان ؛ ولم يُرِدِ الإيمانَ الذي هو الإقرار بالله ، لأن آباءه الذين ماتوا على الشِّرك كانوا يؤمنون بالله ويحجّون له [البيت] مع شِركهم .

قوله تعالى : (ولكنْ جعلْناه) في هاء الكناية قولان . أحدهما : أنها ترجع إلى القرآن . والثاني : إلى الإيمان .

(نُوراً) أي : ضياءً ودليلاً على التوحيد (نَهدي به مَنْ نشاء) [من عبادنا] إلى دِين الحق [1] .

---

(١) قال البغوي في « تفسيره » : (ماكنت تدري) قبل الوحي (ماالكتاب ولا الايمان) يعني شرائع الايمان ومعالمه ، قال : وقال محمد بن خزيمة : الايمان في هذا الموضع : الصلاة ، ودليله قوله عز وجل : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) قال : وأهل الأصول على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا مؤمنين قبل الوحي ، وكان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم ولم يتبيَّن له شرائع دينه . اهـ .

وقال ابن كثير : (ماكنت تدري ماالكتاب ولا الايمان) أي : على التفصيل الذي شرع لك في القرآن . اهـ . وقال الشوكاني في تفسيره « فتح القدير » : ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحيَ إليه ، فقال : (ماكنت تدري ماالكتاب) أي : أي شيء هو ؟ لأنه ﷺ —

(وإنّك لتَهدي) أي : لتَدعو (إلى صراطٍ مستقيمٍ) وهو الإسلام [1] .

★ ★ ★

— كان أمياً لايقرأ ولا يكتب ، وذلك أدخل في الاعجاز وأدلّ على صحة نبوّته ، قال : ومعنى (ولا الايمان) : أنه كان ﷺ لايعرف تفاصيل الشرائع ولا يهتدي إلى معالمها ، قال : وخص الايمان ، لأنه رأسها وأساسها ، قال : وقيل : أراد بالايمان هنا : الصلاة ، قال بهذا جماعة من أهل العلم ، منهم إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة ، قال : واحتج بقوله تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) يعني الصلاة ، فسماها إيماناً ، قال : وذهب جماعة إلى أن الله سبحـــانه لم يبعث نبياً إلا وقد كان مؤمناً به ، وقالوا : معنى الآية : ماكنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الايمان . اهـ .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وإنك) أي : يامحمد (لتهدي الى صراط مستقيم) وهو الحق القويم ، ثم قال في تتمة الآية : ثم فسره بقوله تعـــالى : (صراطِ الله) أي : شرعه الذي أمر به الله (الذي له مافي السموات ومـــا في الأرض) أي : ربها ومالكها والمتصرّف فيها والحاكم الذي لامعقّب لحكمه (ألا إلى الله تصير الأمور) أي : ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً . اهـ .

سورة الزخرف

وهي مكيّة بإجماعهم

وقال مقاتل : هي مكيّة ، إلا آية ، وهي[1] قوله : (واسألْ مَنْ أرسلْنا) [الزخرف : ٤٥] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ . أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ . وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

---

(١) في الأصل : وهو .

قوله تعالى : (حم) قد تقدم بيانه [المؤمن] .

(والكتابِ المُبينِ) قسمٌ بالقرآن .

(إنّا جعلْناه) قال سعيد بن جبير : أنزلْناه . وما بعد هذا قد تقدم بيانه [النساء : ٨٢ ، يوسف : ٢] إلى قوله : (وإنَّه) يعني القرآن (في أُمِّ الكتاب) قال الزجاج : أي : في أصل الكتاب ، وأصل كلِّ شيء : أُمُّه ، والقرآن مُثْبَتٌ عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : (لَدَيْنا) أي : عندنا (لَعَلِيٌّ) أي : رفيع .

وفي معنى الحكيم قولان . أحدهما : مُحْكَم ، أي : ممنوعٌ من الباطل ، قاله مقاتل . والثاني : حاكمٌ لأهل الإيمان بالجنة ولأهل الكفر بالنار ، ذكره أبو سليمان الدمشقي ، والمعنى : إن كذَّبتم به يا أهل مكة فانه عندنا شريفٌ عظيمُ المَحَلِّ .

قوله تعالى : (أفَنَضْرِبُ عنكم الذِّكر صَفْحاً) قال ابن قتيبة : أي : نُمْسِكُ عنكم فلا نذكُركم صفحاً ، أي : إعراضاً ، يقال : صَفَحْتُ عن فلان : إذا أعرضت عنه ، والأصل في ذلك أن تُولِّيه صَفْحةَ عنقك ، قال كُثَيِّر يصف امرأة :

صَفُوحاً فما تَلْقاكَ إلّا بَخيلَةً فَمَنْ مَلَّ منها ذلك الوَصْلَ مَلَّتِ [1]

أي : مُعْرِضَة بوجهها ، يقال : ضَرَبْتُ عن فلان كذا : إذا أمسكته وأضربتَ عنه . (أن كنتم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « أن كنتم » بالنصب [2] ، أي : لأن كنتم قوماً مسرفين . وقرأ نافع ، وحمزة ،

---

(١) « غريب القرآن » : ٣٩٥ ، و « اللسان » و « التاج » : صفح . وفي « غريب القرآن » و « التاج » : « إلّا بِحيلةٍ » بدل « بَخيلةً » .

(٢) أي : بفتح الهمزة .

والكسائي : « إِن كنتم » بكسر الهمزة . قال الزجاج : وهذا على معنى الاستقبال ، أي : إن تكونوا مسرفين نَضرِبْ عنكم الذِّكْر .

وفي المراد بالذِّكْر قولان .

أحدهما : أنه ذِكْر العذاب ، فالمعنى : أفنُمْسِكُ عن عذابكم ونترُكُكم على كفركم ؟! وهذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي .

والثاني : أنه القرآن ، فالمعنى : أفنُمْسِكُ عن إنزال القرآن من أجل أنكم لاتؤمنون به ؟! وهو معنى قول قتادة ، وابن زيد .

وقال قتادة : « مُسْرِفِينَ » بمعنى مشركين .

ثم أعلم نبيَّه أني قد بعثتُ رُسُلاً فكَذَّبوا فأهلكتُ المكذِّبين بالآيات التي تلي هذه .

قوله تعالى : (أَشَدَّ منهم) أي : من قريش (بَطْشاً) أي : قُوَّةً (ومضى مَثَلُ الأَوَّلِينَ) أي : سبق وصفُ عِقابهم فيما أُنزل عليك . وقيل : سبق تشبيه حال أولئك بهؤلاء في التكذيب ، فستقع المشابهة بينهم في الإهلاك .

ثم أخبر عن جهلهم حين أقَرُّوا بأنه خالق السموات والأرض ثم عبدوا غيره بالآية التي تلي هذه ؛ ثم التي تليها مفسَّرة في (طه : ٥٣) إلى قوله : (لعلكم تهتدون) أي : لكي تهتدوا في أسفاركم إلى مقاصدكم .

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ . وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (والذي نزّل من السماء ماءً بقَدَرٍ) قال ابن عباس : يريد أنه ليس كما أنزل على قوم نوح بغير قَدَرٍ فأغرقهم ، بل هو بقَدَرٍ ليكون نافعاً . ومعنى « أنشَرْنا » : أحيَيْنا .

قوله تعالى : (كذلك تُخرَجُونَ) قرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر : « تَخرُجُونَ » بفتح التاء وضم الراء ؛ والباقون بضم التاء وفتح الراء . وما بعد هذا قد سبق [يس : ٣٦ ، ٤٢] إلى قوله تعالى : (لتستووا على ظُهوره) قال أبو عبيدة : هاء التذكير لـ « ما » .

(ثم تذكُروا نعمة ربّكم) إذ سخّر لكم ذلك المَركب في البَرِّ والبحر ، (وما كنا له مُقْرِنينَ) قال ابن عباس ومجاهد : أي : مُطيقين ، قال ابن قتيبة : يقال : أنا مُقْرِن لك ، أي : مُطيق لك ، ويقال : هو من قولهم : أنا قِرْنٌ لفلان : إذا كنتَ مثله في الشّدة ، فان قلتَ : أنا قَرْنٌ لفلان ـ بفتح القاف ـ فمناه : أن تكون مثله بالسّنّ . وقال أبو عبيدة : « مُقْرِنينَ » أي : ضابِطِين ، يقال : فلان مُقْرِنٌ لفلان ، أي : ضابط له .

قوله تعالى : (وإنّا إلى ربِّنا لَمُنْقَلِبونَ) أي : راجعون في الآخرة [١] .

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر ، كبَّر ثلاثاً ، ثم قال : (سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون) اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البِرَّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ، واطوِ عنّا بُعْدَه ، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاءِ السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب في المال والأهل » ، وإذا رجع قالهنَّ ، وزاد فيهن « آيبون تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون » .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ . أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (وجعلوا له مِنْ عِباده جُزْءاً) أمّا الجَعْل هاهنا، فمعناه : الحُكم بالشيء، وهم الذين زعموا أن الملائكةَ بناتُ الله ؛ والمعنى : جعلوا له نصيباً من الولد، قال الزجاج : وأنشدني بعض أهل اللغة بيتاً يدل على أن معنى « جزء » معنى الإناث - ولا أدري البيت قديم أو مصنوع - :

إنْ أجْزَأتْ حُرَّةٌ ، يوماً ، فلا عَجَبٌ

قد تُجْزِىءُ الحُرَّةُ المِذْكارُ أحْيانا [1]

أي : آنثت ، ولدت أُنثى [2] .

قوله تعالى : (إنَّ الإنسان) يعني الكافر (لَكَفورٌ) أي : جَحودٌ لِنِعَم الله عز وجل (مُبينٌ) أي : ظاهرُ الكُفر .

ثم أنكر عليهم فقال : (أمِ اتَّخَذَ مِمّا يَخْلُقُ بناتٍ) وهذا استفهام توبيخ وإنكار (وأصْفاكم) أي : أخلصكم (بالبَنِينَ) .

(وإذا بُشِّر أحدُهم بما ضَرَبَ الرحمن مَثَلاً) أي : بما جعل لله شبها ، وذلك أن ولد كلِّ شيء شبهه وجنسه . والآية مفسرة في (النحل : ٥٨) .

---

(١) البيت غير منسوب في « غريب القرآن » : ٣٩٦ ، و « القرطبي » : ٦٩/١٦ ، و « البحر المحيط » : ٨/٨ ، و « اللسان » و « التاج » : جزأ .

(٢) قال في « غريب القرآن » نقلاً عن الزجاج : فمعنى « إن أجزأت » أي : آنَثَتْ ، أي : أتت بأنثى .

قوله تعالى : (أوَمَنْ يُنَشَّأُ) قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص : « يُنَشَّأُ » بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين ؛ وقرأ الباقون : بفتح الياء وسكون النون . قال المبرّد : تقديره : أوَيَجعلون من ينشأ (في الحِلْيَة) . قال أبو عبيدة : الحِلْية : الحِلَى .

قال المفسرون : والمراد بذلك : البنات ، فانهن رُبّين في الحُلِيّ . والخصام بمعنى المُخاصمة ، (غيرُ مُبِينٍ) حُجَّةً . قال قتادة : قلَّما تتكلَّم امرأة بحُجَّتها إلّا تكلَّمتْ بالحُجَّة عليها .

وقال بعضهم : هي الأصنام .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَٰئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ . وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَاعَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ . وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

قوله تعالى : (وجَعلوا الملائكةَ) قال الزجاج : الجَعْل هاهنا بمعنى القول والحكم على الشي ، تقول : قد جعلتُ زيداً أعلمَ الناسِ ، أي : قد وصفته بذلك وحكمت به . قال المفسرون : وجَعْلُهم الملائكةَ إناثاً قولُهم : هُنَّ بناتُ الله .

قوله تعالى : (الذين هُمْ عِبادُ الرحمن) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، ويعقوب ، وأبان عن عاصم ، والشيزري عن الكسائي : « عِنْدَ الرحمن » بنون من غير ألف وقرأ الباقون : « عِبادُ الرحمن » ، ومعنى هذه القراءة : جعلوا له من عباده بنات[1]. والقراءة الأُولى موافقة لقوله :(إنّ الذين عِنْدَ ربِّكَ) [الأعراف:٢٠٦]، وإذا كانوا في السماء كان أبْعَدَ للعِلْم بحالهم . (أشَهِدُوا خَلْقَهم ؟) قرأ نافع ، والمفضل عن عاصم : « أأُشْهِدوا » بهمزتين ، الأُولى مفتوحة والثانية مضمومة . وروى المسيّبي عن نافع : « أوُشْهِدوا » ممدودة من أشْهِدْتُ ، والباقون لا يمُدُّون .

« أشَهِدوا » من شَهِدْتُ ، أي : أحَضَروه فعرَفوا أنهم إناث ؟! وهذا توبيخ لهم إذ قالوا فيما يُعْلَم بالمشاهَدة من غير مشاهَدة . (ستُكْتَبُ شهادتُهم) على الملائكة أنها بناتُ الله وقال مقاتل : لمّا قال الله عز وجل : « أشَهِدوا خَلْقَهم ؟ » ، سُئلوا عن ذلك فقالوا : [لا] ، فقال النبيْ ﷺ : « فما يُدريكم أنها إناث ؟ » فقالوا : سمعنا من آبائنا ، ونحن نَشهد أنهم لم يَكذبوا ، فقال الله : (ستُكْتَبُ شهادتُهم ويُسأَلُونَ) عنها في الآخرة[2] . وقرأ أبو رزين ، ومجاهد : « سنَكْتُبُ » بنون مفتوحة « شهادتَهم » بنصب التاء ، ووافقهم ابن أبي عبلة في « سنَكْتُبُ » وقرأ : « شهاداتِهم » بألف .

قوله تعالى : (وقالوا لو شاءَ الرحمنُ ماعَبَدْناهم) في المكنيّ عنهم قولان . أحدها : أنهم الملائكة ، قاله قتادة ، ومقاتل في آخرين . والثاني : الأوْثان ، قاله مجاهد . وإنما عَنَوْا بهذا أنه لو لم يَرْضَ عبادتَنا لها لعجّل عقوبتنا ، فردَّ عليهم قولهم بقوله : (مالهم بذلك مِنْ عِلْمٍ) . وبعض المفسرين يقول : إنما أشار بقوله :

---

(١) في الأصل : عن عباده بنات .

(٢) ذكر هذا الحديث البغوي في « تفسيره » عن الكلبي ومقاتل بدون سند ، وهو منقطع . وذكره الخازن أيضاً من غير سند ، ولم يعزُه لأحد .

« مالهم بذلك مِنْ عِلْمٍ » إلى ادّعائهم أنّ الملائكة إناث ؛ قال : ولم يتعرّض لقولهم [١] : « لو شاء الرحمن ماعَبَدْناهم [٢] » لأنه قول صحيح ؛ والذي اعتمدنا عليه أصح ، لأن هـذه الآية كقوله : (لو شاءَ اللهُ ما أشْرَكْنا) [الأنعام: ١٤٨] ، وقوله : (أنُطْعِمُ مَنْ لو يَشاءُ اللهُ أطْعَمَهُ) [يس ٤٧] وقد كشفنا عن هذا المعنى هنالك و « يَخْرُصُونَ » بمعنى : يكذبون . وإنما كذّبهم ، لأنهم اعتقدوا أنه رضي منهم الكفر ديناً .

(أمْ آتيناهم كتاباً مِنْ قَبْلِهِ) أي : مِنْ قَبْلِ هذا القرآن ، أي : بأن يعبدوا غير الله (فهُم به مستمسِكون) يأخذون بما فيه [٣] .

(بل قالوا إنّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّة) أي : على سُنَّة ومِلَّة ودِين (وإنّا على آثارهم مُهْتَدون) فجعلوا أنفُسهم مهتدين بمجرد تقليد الآباء من غير حُجَّة [٤] ؛ ثم أخبر أن غيرهم قد قال هذا القول ، فقال : (وكذلك) أي : وكما قالوا قال مُتْرَفو القُرى مِنْ قَبْلهم ، (وإنّا على آثارهم مقتدون) بهم .

(قُلْ أوَلَوْ جِئْتُكم) وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : « قال أوَلَوْ جِئْتُكم » [بألف] . قال أبو علي : فاعل « قال » النذير ، المعنى : فقال لهم النذير . وقرأ أبو جعفر : « أوَلَوْ جئناكم » بألف ونون (بأهدى) أي : بأصوب وأرشد .

(١) في الأصل : بقولهم . (٢) في الأصل : « لو شاء الله ماعبدناهم » ، ولفظ الآية كما أثبتناه .

(٣) قال ابن كثير : يقول تعالى منكِراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة : (أم آتيناهم كتاباً من قبله) أي : من قبل شركهم (فهم به مستمسكون) أي فيما هم فيه ، أي : ليس الأمر كذلك ، كقوله عز وجل : (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) أي : لم يكن ذلك . اهـ .

(٤) قال ابن كثير : أي : ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمّة ، قال: والمراد بها الدين هاهنا وفي قوله تبارك وتعالى : (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) ، قال : وقولهم : (وإنا على آثارهم) أي : وراءهم (مهتدون) قال : دعوى منهم بلا دليل . اهـ .

قال الزجاج : ومعنى الكلام : قُلْ : أتتَّبعونَ ماوجدتم عليه آباءكم وإن جئتكم بأهدى منه ؟ ! وفي هذه الآية إبطال القول بالتقليد . قال مقاتل : فردُّوا على النبيِّ ﷺ فقالوا : (إنا بما أرسلتم به كافرون) ؛ ثم رجع إلى الأُمم الخالية ، فقال : (فانتقَمْنا منهم . . .) الآية [1] .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنَّني بَراء) قال الزجاج : البَراء بمعنى البَريء ، والعرب تقول للواحد : أنا البَراء منك ، وكذلك للاثنين والجماعة ، والمذكر والأُنثى ، يقولون : نحن البَراء منك والخَلاء منك ، لايقولون : نحن البَراءان منك ، ولا البَراءون منك ، وإنما المعنى : أنا ذو البَراء منك ، ونحن ذو البَراء منك ،

(١) قال ابن كثير : بيَّن جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصَوْا به بل هم قوم طاغون) قال : وهكذا قال هاهنا : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) قال : ثم قال عز وجل : (قل) أي : يامحمد لهؤلاء المشركين : (أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) أي : ولو علموا وتيقَّنوا صحة ماجئتهم به لما انقادوا لذلك ، لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله ، قال الله تعالى : (فانتقمنا منهم) أي : من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصَّله تبارك وتعالى في قصصهم : (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) أي : كيف بادوا وهلكوا وكيف نجَّى الله المؤمنين . اهـ .

كما يقال : رجل عَدْل، وامرأة عَدْل . وقد بيَّنَّا استثناء إبراهيم ربَّه عز وجل مما يعبدون عند قوله : (إلّا ربَّ العالَمِين) [الشعراء : ٧٧] .

قوله تعالى : (وجَعَلَهـا) يعني كلمة التوحيـد ، وهي « لا إله إلا الله » (كَلِمةً باقيةً في عَقِبِه) أي : فيمن يأتي بعده من ولده ، فلا يزال فيهم موحِّد (لعلَّهم يَرْجِعونَ) إلى التوحيد كلُّهم إذا سمعوا أن أباهم تبرَّأ من الأصنام ووحَّد اللهَ عز وجل [١] .

ثم ذكر نعمته على قريش فقال : (بل متَّعتُ هؤلاء وآباءهم) والمعنى : إنّي أجزلتُ لهم النِّعَم ولم أُعاجلهم بالعقوبة (حتى جاءهم الحق) وهو القرآن (ورسولٌ مُبِينٌ) وهو محمد ﷺ ، فكان ينبغي لهم أن يقابِلوا النِّعَم بالطاعة للرسول ، فخالفوا .

(ولمّا جاءهم) يعني قريشاً في قول الأكثرين . وقال قتادة : هم اليهود . و (الحقُّ) القرآن .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرّأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال : (إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فانه سيهدين ، وجعلهـا كلمة باقية في عقبه) أي : هذه الكلمة ، وهي عبادة الله وحده لاشريك له وخلع ماسواه من الأوثان ، وهي « لا إله إلا الله » ، أي : جعلها دائمة في ذريّته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام (لعلهم يرجعون) أي : إليها . اهـ .

وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ . وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَـٰوةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا لولا) أي : هلاّ (نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيمٍ) أمّا القريتان ، فمكّة والطائف ، قاله ابن عباس ، والجماعة ؛ وأمّا عظيم مكّة ، ففيه قولان .

أحدهما : الوليد بن المغيرة القرشي ، رواه العوفي وغيره عن ابن عباس ، [وبه قال قتادة ، والسدي] .

والثاني : عُتبة بن ربيعة ، قاله مجاهد .

وفي عظيم الطائف خمسة أقوال .

أحدها : حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : مسعود بن عمرو بن عبيد الله ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أنه أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي ، رواه ليث عن مجاهد ، وبه قال قتادة .

والرابع : [أنه] ابن عَبْد ياليل [(١)] ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والخامس : كنانة بن عبد [بن] [(٢)] عمرو بن عمير الطائفي ، قاله السدي .

---

(١) هو كنانة بن عبد ياليل الثقفي ، شاعر جاهلي ، من أهل الطائف (في الحجاز) ، كان رئيس ثقيف في زمانه ، مدح النعمان بن المنذر ، وأدرك الاسلام ، وقدم على النبي ﷺ في وفد ثقيف بعد حصار الطائف ، فأسلم الوفد إلا كنانة ، فتوجه إلى بلاد الروم فمات فيها .

(٢) زيادة من الطبري والقرطبي .

فقال الله عز وجل ردّاً عليهم وإنكاراً : (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ) يعني النُّبوَّة ، فيضعونها حيث شاؤوا ، لأنهم اعترضوا على الله بما قالوا (١) .

(نَحْنُ قَسَمْنَا بينهم معيشتهم) المعنى أنه إذا كانت الأرزاق بقَدَر الله ، لابحول المحتال - وهو دون النُّبوَّة - فكيف تكون النُّبوَّة ؟! قال قتادة : إنك لتَلْقَى ضعيفَ الحيلة عَيِيَّ اللِّسان قد بُسِطَ له الرِّزْقُ ، وتَلْقَى شديدَ الحِيلة بسيط اللسان (٢) وهو مقتور عليه .

قوله تعالى : (وَرَفَعْنَا بَعْضَهم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ) فيه قولان . أحدهما : بالغنى والفقر . والثاني : بالحرية والرق (لِيَتَّخِذَ بعضُهم بعضاً سُخْرِيّاً) وقرأ ابن السميفع ، وابن محيصن : « سِخْرِيّاً » بكسر السين . ثم فيه قولان .

أحدهما : يستخدم الأغنياء الفقراء بأموالهم ، فيَلْتَئِمُ قِوام العالَم ، وهذا على القول الأول .

والثاني : ليملك بعضُهم بعضاً بالأموال فيتَّخذونهم عبيداً ، وهذا على الثاني (٣) .

---

(١) قال ابن كثير : قال الله تبارك وتعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض : (أهم يقسمون رحمة ربك) أي : ليس الأمر مردوداً إليهم ، بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، فانه لاينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً ، وأشرفهم بيتاً ، وأطهرهم أصلاً . اهـ .

(٢) كذا الأصل « بسيط اللسان » ، والذي في الطبري « سليط اللسان » .

(٣) قال ابن جرير الطبري : وقوله :(نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) يقول تعالى ذكره : بل نحن نقسم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا ، فنجعل من شئنا رسولاً ، ومن أردنا صدّيقاً ، ونتّخذ من أردنا خليلاً ، كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات ، فجعلنا بعضهم فيها أرفع من بعض درجة ، بل جعلنا هذا غنيّاً ، وهذا فقيراً ، وهذا ملكاً ، وهذا مملوكاً (ليتخذ بعضهم بعضاً سخريّاً) .

وقال ابن كثير : قال الله عز وجل مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة فقال : (نحن قسمنا بينهم

قوله تعالى : (وَرَحْمَةُ رَبِّكَ) فيها قولان . أحدهما : النُّبوَّة خير من أموالهم التي يجمعونها ، قاله ابن عباس . والثاني : الجنة خير ممّا يجمعون في الدنيا ، قاله السدي (١) .

قوله تعالى : (ولولا أن يكون الناسُ أُمَّةً واحدةً) فيه قولان . أحدهما : لولا أن يجتمعوا على الكفر ، قاله ابن عباس . والثاني : على إيثار الدنيا على الدِّين ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (لَجَعَلْنا لِمَن يكفُرُ بالرَّحمن لِبُيوتِهم سُقُفاً من فِضَّة) لهوان الدنيا عندنا . قال الفراء : إن شئتَ جعلتَ اللاّم في « لِبُيوتِهم » مكرَّرة ، كقوله : (يسألونك عن الشَّهْر الحرام قِتالٍ فيه) [البقرة : ٢١٧] ، وإن شئتَ جعلتَها بمعنى « على » ، كأنه قال : جَعَلْنا لهم على بُيوتِهم ، تقول الرجل : جعلتُ لك لقومك الأُعطية ، أي : جعلتُها من أجلك لهم .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « سَقْفاً » على التوحيد . وقرأ الباقون : « سُقُفاً » بضم السين والقاف جميعاً .

قال الزجاج : والسَّقف واحد يدلُّ على الجمع ؛ فالمعنى : جعلْنا لبيتِ كلِّ واحد منهم سقفاً من فِضَّة (ومعارجَ) وهي الدَّرَج ؛ والمعنى : وجعلْنا معارج

ـــ معيشتهم في الحياة الدنيا . . .) الآية ، قال : وقوله جلّت عظمته : (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) قيل : معناه : ليسخِّر بعضهم بعضاً في الأعمال ، لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، قاله السدي وغيره ، وقال قتادة والضحاك : ليملك بعضهم بعضاً .

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (ورحمة ربك خير مما يجمعون) يقول تعالى ذِكره : ورحمة ربك يامحمد بإدخالهم الجنة خير لهم مما يجمعون من الأموال في الدنيا . اهـ . وقال ابن كثير : أي : ورحمة الله خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا . اهـ .

من فِضَّة ، وكذلك « ولِبُيوتهم أبواباً » أي : من فِضَّة « وسُرُراً » أي : من فِضَّة .

قوله تعالى : (عليها يَظْهَرونَ) قال ابن قتيبة : أي : يَعْلُون ، يقال : ظَهَرْتُ على البيت : إذا علَوْتَ سطحه .

قوله تعالى : (وزُخْرُفاً) وهو الذهب ؛ والمعنى : ويجعل لهم مع ذلك ذهباً وغنىً (وإنْ كُلُّ ذلك لَما متاعُ الحياة الدُّنيا) المعنى : لَمَتاع الحياة الدنيا ، و « ما » زائدة وقرأ عاصم ، وحمزة : « لَمّا » بالتشديد ، فجعلاه بمعنى « إلاّ » ؛ والمعنى : إنّ ذلك يُتمتَّع به قليلاً ثم يزول (والآخرة عند ربِّك للمتَّقين) خاصةً لهم [1] .

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ . وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وإن كلُّ ذلك لمَّا متاع الحياة الدنيا) يقول تعالى ذكره : وما كلُّ هذه الأشياء التي ذكرت ، من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسُّرر من الفضة والزخرف ، إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا (والآخرة عند ربك المتقين) يقول تعالى ذكره : وزيْن الدار الآخرة وبهاؤها عند ربك للمتقين ـ الذين اتقوا الله فخافوا عقابه ، فجدُّوا في طاعته وحذروا معاصيه ـ خاصةً ، دون غيرهم من خلق الله . اهـ . وفي « الصحيحين » عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، فانها لهم في الدنيا ، ولكم في الآخرة » . وروى الترمذي عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ماسقى منها كافراً شربة ماء » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

مُشْتَرِكُونَ . أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (ومن يَعْشُ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يُعْرِضْ ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : يَعْمَ ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال عطاء ، وابن زيد .

والثالث : أنه البَصَر الضعيف ، حكاه الماوردي . وقال أبو عبيدة : تُظْلِمْ عينه عنه . وقال الفراء : من قرأ : « يَعْشُ » ، فمعناه : يُعْرِضْ ، ومن نصب الشين ، أراد : يَعْمَ عنه ؛ قال ابن قتيبة : لا أرى القول إلا قولَ أبي عبيدة ، ولم نر أحداً يجيز « عَشَوْتُ عن الشيء » : أعرضتُ عنه ، إنما يقال : « تَعاشَيْتُ عن كذا » ، أي : تغافلتُ عنه ، كأنِّي لم أره ، ومثلُه : تعامَيْتُ ، والعرب تقول : « عَشَوْتُ إلى النار » : إذا استدللتَ إليها ببصر ضعيف ، قال الحطيئة :

متى تأْتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ
تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ[1]

ومنه حديث ابن المسيّب : « أن إحدى عينَيْه ذهبتْ ، وهو يَعْشُو بالأُخرى » ، أي : يُبْصِر بها بصراً ضعيفاً .

قال المفسرون : « ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْر الرحمن » فلم يَخَف عِقابه ولم يلتفت إلى كلامه « نقيِّضْ له » أي: نسبب له « شيطاناً » فنجعل ذلك جزاءه « فهو له قرين » لا يفارقه[2].

(١) ديوانه : ١٦١ ، و « مجاز القرآن » : ٢٠٤/٢ ، و « غريب القرآن » : ٣٩٨ ، و « الكتاب » : ٤٤٥/١ ، و « الخزانة » : ٦٦٢/٣ ، و « روح المعاني » : ٧٤/٢٥ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : عشا .

(٢) قال ابن كثير : يقول تعالى : (ومن يعشُ) أي: يتعامى ويتغافل ويعرض (عن ذكر الرحمن)ـــ

(وإنهم) يعني الشياطين (لَيَصُدُّونهم) يعني الكافرين ، أي : يمنعونهم عن سبيل الهدى ؛ وإنما جمع ، لأن « مَنْ » في موضع جمع ، (ويَحْسَبون) يعني كفار بني آدم (أنهم) على هدىً .

(حتّى إذا جاءنا) وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « جاءنا » واحد ، يعني الكافر . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « جاءانا » بألفين على التثنية ، يعنون الكافر وشيطانه . وجاء في التفسير أنهما يُجعلان يومَ البعث في سلسلة ، فلا يفترقان حتى يُصَيِّرَهما الله إلى النار ، (قال) الكافر للشيطان : (ياليت بيني وبينك بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ) أي : بُعْدَ مابين المَشْرِقَيْن ؛ وفيهما قولان .

أحدهما : أنهما مَشْرِقُ الشمس في أقصر يوم في السنة ، ومَشْرِقُها في أطول يوم ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والثاني : أنه أراد المَشْرِق والمَغْرِب ، فغلّب ذِكْر المَشْرِق ، كما قالوا : سُنَّة العُمَرَيْن ، يريدون : أبا بكر وعمر ، وأنشدوا من ذلك :

أَخَذْنا بِآفاقِ السَّماءِ عَلَيْكُمُ لَنا قَمَراها والنُّجُومُ الطَّوالِعُ [1]

يريد : الشمس والقمر ؛ وأنشدوا :

فَبَصْرَةُ الأَزْدِ مِنّا والعِراقُ لَنا والمَوْصِلانِ ومِنّا مِصْرُ والحَرَمُ [2]

يريد : الجزيرة والموصل ، [وهذا اختيار الفراء ، والزجاج] .

—— قال : والعشا في العين : ضعف بصرها ، والمراد هاهنا : عشا البصيرة (نقيّض له شيطاناً فهو له قرين) كقوله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولّى ونُصله جهنم وساءت مصيراً) . اهـ .

(١) البيت للفرزدق ، ديوانه : ٥١٩ ، و « الكامل » : ١٢٤ ، و « الطبري » : ٢٥/٧٤ .

(٢) البيت غير منسوب في « الطبري » : ٢٥/٧٤ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : وصل .

قوله تعالى : (فبِئْسَ القَرِينُ) أي : أنتَ أيُّها الشَّيطان . ويقول اللهُ عز وجل يومئذ للكفار : (ولن ينفعكم اليومَ إذ ظَلَمْتُم) أي : أشركتم في الدنيا (أنَّكم في العذاب مشتركون) أي : لن ينفعكم الشَّركة في العذاب ، لأنَّ لكل واحد منه الحظَّ الأوفر . قال المبرِّد : مُنِعوا روح التَّأسِّي ، لأنَّ التَّأسِّيَ يُسهِّل المصيبة ، وأنشد للخنساء أخت صخر بن مالك في هذا المعنى :

وَلَوْلا كَثْرَةُ الباكينَ حَوْلِي على إخْوانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وما يَبْكُونَ مِثْلَ أخي ولكِنْ أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بالتَّأسِّي[1]

وقرأ ابن عامر : « إنَّكم » بكسر الألف .

ثم أخبر عنهم بما سبق لهم من الشَّقاوة بقوله : (أفأنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ . . .) الآية .

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ . فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (فإمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ) قال أبو عبيدة : معناها : فإن نَذْهَبَنَّ ؛ وقال الزجاج : دخلت « ما » توكيداً للشرط ، ودخلت النون الثقيلة في « نَذْهَبَنَّ » توكيداً أيضاً ؛ والمعنى : إنّا ننتقم منهم إن تُوُفِّيتَ أو نُرِيَنَّكَ ما وَعَدْناهم ووعَدْناك فيهم من النَّصر . قال ابن عباس : ذلك يومَ بدر . وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله : (فإمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ) منسوخ بآية السيف ، ولا وجه [له] .

---

(١) ديوانها : ٨٤ ، و « الكامل » : ١٥ ، و « البحر المحيط » : ١٧/٨ ، و « روح المعاني » : ٧٧/٢٥ . والتأسّي : التصبُّر .

قوله تعالى : (وإنه) يعني القرآن (لَذِكْرٌ لَكَ) أي : شَرَفٌ لَكَ بما أعطاكَ اللهُ (ولِقَوْمِكَ) في قومه ثلاثة أقوال . أحدها : العرب قاطبة . والثاني : قريش . والثالث : جميع من آمن به . وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا سئل : لِمَنْ هذا الأمْرُ من بعدك ؟ لم يُخْبِر بشيء ، حتى نزلت هذه الآية ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : « لقريش » [1] . وهذا يَدُلُّ على أن النبي ﷺ فَهِم من هذا أنه يَلِي على المسلمين بحُكْم النُّبوَّة وشَرَفِ القرآن ، وأن قومه يَخْلُفونه من بعده في الوِلاية لشرف القرآن الذي أُنْزِلَ على رجُلٍ منهم . ومذهب مجاهد أن القوم هاهنا : العرب ، والقرآن شَرَفٌ لهم إذْ أُنزِلَ بلُغتهم . قال ابن قتيبة : إنما وُضع الذِّكر موضعَ الشَّرَف ، لأن الشَّريف يُذْكَر . وفي قوله : (وسوف تُسألونَ) قولان . أحدهما : عن شُكر ما أُعطيتم من ذلك . والثاني : عمّا لزمكم فيه من الحقوق .

﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَـٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

(١) ذكره البغوي من رواية الضحاك عن ابن عباس بدون سند ، وكذلك ذكره البغوي عن ابن عباس بدون سند . قال السيوطي في « الدر » ١٨/٦ : أخرج ابن عدي ، وابن مردويه عن علي وابن عباس قالا : كان رسول الله ﷺ يَعرض نفسه على القبائل بمكة ، ويَعِدهم الظهور ، فإذا قالوا : لمن الملك بعدك ؟ أمسك فلم يجبهم بشيء ، لأنه لم يؤمر في ذلك بشيء ، حتى نزلت : (وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك) فكان بَعدُ إذا سئل ، قال : « لقريش » فلا يجيبوه ، حتى قبلته الأنصار على ذلك .

وروى البخاري في « صحيحه » عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذا الأمر في قريش لايعاديهم أحد إلا كبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدِّين » . قال ابن كثير : ومعناه : أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم ، فهم أفهم الناس له ، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعلمهم بمقتضاه ، قال : وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلَّص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم . اهـ .

وَمَلائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ . وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ . وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (واسأَلْ مَنْ أرسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا) إن قيل : كيف يسأل الرُّسل وقد ماتوا قبله ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه لمّا أُسري به جُمع له الأنبياء فصلّى بهم ، ثم قال [له] جبريل : سَلْ من أرسَلْنا قَبْلَك . . . الآية[1] . فقال : لا أسألُ ، قد اكتَفَيْتُ ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وهذا قول سعيد بن جبير ، والزهري ، وابن زيد ؛ قالوا : جُمع له الرُّسل ليلةَ أُسري به ، فلقيَهم ، وأُمر أن يسألَهم ، فما شكَّ ولا سأل .

والثاني : أن المراد : [اسأل] مؤمني أهل الكتاب [من] الذين أرسلت إليهم الأنبياء ، روي عن ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي في آخرين . قال ابن الأنباري : والمعنى : سَلْ أتباع مَنْ أرسَلْنا قَبْلَكَ ،

(١) وهذا تفسير للآية ، ولفظها : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) .

كما تقول : السخاء حاتِم ، أي : سخاء حاتِم ، والشِّعر زهير ، أي : شِعر زهير .
وعند المفسرين أنه لم يسأل على القولين . وقال الزجاج : هذا سؤال تقرير ، فاذا سأل جميع الأمم ، لم يأتوا بأن في كتبهم : أن اعبدوا غيري .

والثالث : [أن] المُراد بخطاب النبي ﷺ : خطابُ أُمَّته ، فيكون المعنى : سَلُوا ، قاله الزجاج[١] . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (إذا هُمْ منها يَضحكون) استهزاءً بها وتكذيباً .

(وما نُريهم مِنْ آيةٍ إلّا هي أكبرُ مِنْ أُختِها) يعني ما ترادف عليهم من الطُّوفان والجراد والقُمَّل والضَّفادع والدَّم والطَّمْس ، فكانت كُلُّ آية أكبرَ من التي قَبْلَها ، وهي العذاب المذكور في قوله : (وأخَذْناهم بالعذاب)، فكانت عذاباً لهم ، ومعجزاتٍ لموسى عليه السلام .

قوله تعالى : (وقالوا يا أيُّها السّاحر) في خطابهم له بهذا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أرادوا : يا أيها العالِم ، وكان الساحر فيهم عظيماً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم قالوه على جهة الاستهزاء ، قاله الحسن .

والثالث : أنهم خاطبوه بما تقدَّم له عندهم من التَّسمية بالسّاحر ، قاله الزجّاج .

قوله تعالى : (إنَّنا لَمُهتدون) أي : مؤمنون بك . فدعا موسى ، فكُشف عنهم ، فلم يؤمِنوا . وقد ذكرنا ما تركناه هاهنا في (الأعراف : ١٣٥) .

قوله تعالى : (تَجْرِي مِنْ تَحتي) أي : من تحت قصوري[٢] (أفلا تُبْصِرونَ) عظَمتي وشِدَّةَ مُلْكي ؟ !

---

(١) رجح القول الثاني ابن جرير الطبري في « تفسيره » .

(٢) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرّده وعتوّه وكفره وعناده أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجّحاً مفتخراً بملك مصر وتصرّفه فيها (أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي) .

(أَمْ أنا خَيْرٌ) قال أبو عبيدة : أراد : بل أنا خَيْرٌ . وحكى الزجاج عن سيبويه والخليل أنهما قالا : عطف « أنا » بـ « أَمْ » على « أفلا تُبْصِرون » [فكأنه قال : أفلا تُبْصِرون] أم أنتم بُصَراء ؟! لأنهم إذا قالوا : أنتَ خيرٌ منه ، فقد صاروا عنده بُصَراءَ . قال الزجاج : والمَهِين : القليل ؛ يقال : شيءٌ مَهِين ، أي : قليل . وقال مقاتل : « مَهِين » بمعنى ذليل ضعيف [1] .

قوله تعالى : (ولا يكاد يُبِين) أشار إلى عُقدة لسانه التي كانت به ثم أذهبها الله عنه ، فكأنه عيَّره بشيءٍ قد كان وزال ، ويدل على زواله قوله تعالى : (قد أُوتيتَ سؤلكَ ياموسى) [طه : ٣٦] ، وكان في سؤاله : (واحْلُلْ عُقْدَةً من لساني) [طه : ٢٧] . وقال بعض العلماء : ولا يكاد يُبِين الحُجَّة ولا يأتي ببيان يُفْهِم [2] .

(فلولا) أي : فهلاّ (أُلْقِيَ عليه أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذهبٍ) وقرأ حفص عن

---

(١) قال ابن كثير : يعني فرعون ـ لعنه الله ـ بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، قال : وقد كذب في قوله هذا كذباً بيِّناً واضحاً ، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، قال : ويعني بقوله : « مهين » كما قال سفيان : حقير ، وقال قتادة والسدي : يعني ضعيف ، قال : وقال ابن جرير : يعني لاملك له ولا سلطان ولا مال . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وقوله : (ولا يكاد يبين) افتراء أيضاً (يعني من فرعون لعنه الله) فانه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل الله عز وجل أن يحلَّ عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، قال : وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله : (قد أوتيت سؤلك ياموسى) قال : وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري ، وإنما سأل زوال مايحصل معه الابلاغ والافهام ، قال : فالأشياء الخَلْقية التي ليست من فعل العبد لايعاب بها ولا يُذَمُّ عليها ، قال : وفرعون وإن كان يفهم وله عقل ، فهو يدري هذا ، وإنما أراد الترويج على رعيته ، فانهم كانوا جهلة أغبياء . اهـ .

عاصم : « أَسْوِرَةٌ » بغير ألف . قال الفراء : واحد الأَساوِرة : إِسْوار ، وقد تكون الأَساوِرة جمع أَسْوِرة ، كما يقال في جمع الأَسْقِية : الأَساقي ، وفي جمع الأَكْرُع : الأَكارِع . وقال الزجاج : يصلُح أن تكون الأَساوِرة جمع الجمع ، تقول : أَسْوِرَة وأساوِرة ، كما تقول : أقوال وأقاويل ، ويجوز أن تكون جمع إِسْوار ، وإِنما صرفتَ أساوِرة ، لأَنك ضممتَ الهاء إلى أساوِر ، فصار اسماً واحداً ، وصار له مثال في الواحد ، نحو « علانية » .

قال المفسرون : إِنما قال فرعون هذا ، لأَنهم كانوا إِذا سوَّدوا الرجل منهم سوَّروه بِسِوار .

(أو جاء معه الملائكةُ مُقْتَرِنِينَ) فيه قولان . أحدهما : متتابعين ، قاله قتادة . والثاني : يمشون معه ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (فاستَخَفَّ قومَه) قال الفراء : استفزَّهم ؛ وقال غيره : استخَفَّ أحلامَهم وحملهم على خِفَّة الحِلْم بكيده وغُروره (فأطاعوه) في تكذيب موسى .

(فلمَّا آسَفُونا) قال ابن عباس : أغضبونا . قال ابن قتيبة : الأَسَف : الغَضَب ، يقال : أَسِفْتُ آسَفُ أَسَفاً ، أي : غَضِبْتُ [١] .

(فجَعَلْناهم سَلَفاً) أي : قوماً تقدَّموا . وقرأها أبو هريرة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وحميد الأَعرج : « سُلَفاً » بضم السين وفتح اللام ، كأن واحدته سُلْفَةٌ من الناس ، مثل القِطعة ، يقال : تقدمتْ سُلْفَةٌ من الناس ، أي : قِطعة منهم . وقرأ حمزة ، والكسائي : « سُلُفاً » بضم السين واللام ، وهو

---

(١) قال ابن جرير الطبري : قال ابن زيد في قوله : (فلمّا آسفونا) قال : أغضبونا (انتقمنا منهم) يقول : انتقمنا منهم بعاجل العذاب الذي عجَّلناه لهم ، فأغرقناهم جميعاً في البحر . اهـ .

جمع « سَلَف » ، كما قالوا : خَشَب وخُشُب، وثَمَر وثُمُر ، ويقال : هو جمع « سَليف » ، وكلُّه من التقدُّم. وقال الزجاج : « السَّليف » جمعٌ قد مضى ؛ والمعنى : جعلْناهم سَلَفاً متقدِّمين ليتَّعظ بهم الآخِرون .

قوله تعالى : (ومَثَلاً) أي : عِبْرة [وعِظة] .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَاضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَٰئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ . هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولمَّا ضُرِبَ ابنُ مريمَ مَثَلاً) أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة ابنِ الزِّبعرى رسولَ الله ﷺ حين نزل قوله : (إنَّكم وما تعبُدون مِنْ دونِ الله . .) [الآية] [الأنبياء : ٩٨] . وقد شرحنا القصة في سورة (الأنبياء : ١٠١) [1] . والمشركون هم الذين ضربوا عيسى مَثَلاً لآلهتهم

---

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » : ١٧٥ ، ٢١٤ ، وذكره البغوي بدون سند قال : قال ابن عباس وأكثر المفسرين : إن الآية نزلت في مجادلة عبد الله بن الزبعرى مع النبي ﷺ ـــ

وشبَّهوه بها ، لأن تلك الآية إنما تضمنت ذِكْر الأصنام ، لأنها عُبِدَتْ مِنْ دون الله ، فألزموه عيسى ، وضربوه مَثلاً لأصنامهم ، لأنه معبود النصارى . والمراد بقومه : المشركون .

فأمّا (يَصِدُّونَ) فقرأ ابن عامر ، ونافع ، والكسائي : بضم الصاد ، وكسرها الباقون ؛ قال الزجاج : ومعناها جميعاً : يَضِجُّون ، ويجوز أن يكون معنى المضمومة : يُعْرِضون . وقال أبو عبيدة : من كسر الصاد ، فمجازها : يَضِجُّون ، ومن ضمَّها ، فمجازها : يَعْدِلون .

قوله تعالى : (وقالوا أآلهتُنا خيرٌ أمْ هُوَ) المعنى : ليست خيراً منه ، فان كان في النار لأنه عُبِدَ مِنْ دون الله ، فقد رضينا أن تكون آلهتُنا بمنزلته .

(ماضَرَبوه لك إلّا جَدَلاً) أي : ماذَكَروا عيسى إلّا ليجادلوك به ، لأنهم قد علِموا أن المراد بـ « حَصَب جهنم » مااتخذوه من الموات[1] (بل هُمْ قومٌ خَصِمونَ) أي : أصحاب خصومات[2] .

قوله تعالى : (وجَعَلْناه مَثلاً) أي : آية وعِبرة (لبني إسرائيل) يعرِفون به قُدرة الله على مايريد ، إذ خلَقه من غير أب .

ـــ في شأن عيسى عليه السلام لما نزل قوله تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) [الأنبياء : ١٠١] ، وكذلك ذكره الخازن بدون سند ، وقد ذكر المفسرون ذلك في سورة [الأنبياء : ١٠١] ، وانظر الجزء (٥) صفحة ٣٩٣ من كتابنا هذا .

(١) عبارة البغوي والخازن : وقد علموا أن المراد من قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » هؤلاء الأصنام .

(٢) روى الامام أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير الطبري عن أبي أمـــامة رضي الله عنه بسند صحيح قال : قال رسول الله ﷺ : « ماضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ثم قرأ رسول الله ﷺ هـــذه الآية : (ماضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون) » .

ثم خاطب كفار مكة ، فقال : (ولو نشاء لَجَعَلْنا منكم) فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : لَجَعَلْنا بدلاً منكم (ملائكةً) ؛ ثم في معنى « يَخْلُفُونَ » ثلاثة أقوال . أحدها : يخلُف بعضُهم بعضاً ، قاله ابن عباس . والثاني : يخلُفونكم ليكونوا بدلاً منكم ، قاله مجاهد . والثالث : يخلُفون الرُّسل فيكونون رسلاً إليكم بدلاً منهم ، حكاه الماوردي .

والقول الثاني : أن المعنى : « ولو نشاء لجعلْنا منكم ملائكة » أي : قَلَبْنَا الخِلقة فجَعَلْنا بعضَكم ملائكةً يخلُفون مَنْ ذهب منكم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وإنه لَعِلْمٌ للسّاعة) في هاء الكناية قولان .

أحدها : [أنها] تَرْجِع إلى عيسى عليه السلام . ثم في معنى الكلام قولان . أحدها : نزولُ عيسى من أشراط الساعة يُعْلَم به قُربها ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي . والثاني : أن إحياء عيسى الموتى دليلٌ على الساعة وبعث الموتى ، قاله ابن إسحاق .

والقول الثاني : أنها تَرْجِع إلى القرآن ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير .

وقرأ الجمهور : « لَعِلْمٌ » بكسر العين وتسكين اللام ؛ وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، وقتادة ، وحميد ، وابن محيصن : بفتحهما [١] .

قال ابن قتيبة : من قرأ بكسر العين ، فالمعنى أنه يُعْلَم به قُرْبُ الساعة ، ومن فتح العين واللام ، فانه بمعنى العلامة والدليل [٢] .

---

(١) في الأصل : بفتحها ، والتصويب من كتب التفسير .

(٢) قال ابن كثير : تقدم تفسير ابن إسحاق أن المراد من ذلك مابعث به عيسى عليه الصلاة والسلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الأسقام ، قال : وفي ـــ

قوله تعالى : (فلا تَمتَرُنَّ بها) أي : فلا تَشُكُّنَّ فيها (واتبعون) على التوحيد (هذا) الذي أنا عليه (صراط مستقيم) .

(ولمّا جاء عيسى بالبيِّنات) قد شرحنا هذا في (البقرة : ٨٧) .

(قال قد جئتُكم بالحكمة) وفيها قولان . أحدهما : النُّبوَّة ، قاله عطاء ، والسدي . والثاني : الإِنجيل ، قاله مقاتل .

(وَلأُبيِّن لكم بعضَ الذي تختلفون فيه) [أي] : من أمر دينكم ؛ وقال مجاهد : « بعضَ الذي تختلفون فيه » من تبديل التوراة ؛ وقال ابن جرير : من أحكام التوراة . وقد ذهب قوم إلى أن البعض هاهنا بمعنى الكُلّ . وقد شرحنا ذلك في (حمٓ المؤمن : ٢٨) ؛ قال الزجاج : والصحيح أن البعض لايكون في معنى الكُلّ ، وإنما بيَّن لهم عيسى بعض الذي اختلَفوا فيه ممّا احتاجوا إليه ؛ وقد قال ابن جرير : كان بينهم اختلاف في أمر دينهم ودنياهم ، فبيَّن لهم أمر دينهم فقط . وما بعد هذا قد سبق بيانه [النساء : ١٧٥ ، مريم : ٣٧] إلى قوله : (هل ينظُرون) يعني كفار مكة .

ـــ هذا نظر ، قال : وأبعد منه ماحكاه قتادة عن الحسن البصري وسعيد بن جبير أن الضمير في « وإنه » عائد على القرآن ، قال : بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام ، فان السياق في ذكره ، قال : ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة ، كما قال تبارك وتعالى : (وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته) أي : قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام (ثم يوم القيامة يكون عليهم شهيداً) قال : ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى (وإنه لعَلَم للساعة) أي : أمارة ودليل على وقوع الساعة ، قال : قال مجاهد : (وإنه لعَلَم للساعة) أي : آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة ، قال : وهكذا روي عن أبي هريرة ، وابن عباس ، وأبي العالية ، وأبي مالك ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم ، قال : وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً . اهـ .

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ . يَاعِبَادِ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ . يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَاتَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

قوله تعالى : (الأَخلاَّء) أي : في الدنيا (يومَئذ) أي : في القيامة (بعضُهم لبعض عدوٌّ) لأن الخُلَّة إذ كانت في الكفر والمعصية صارت عداوةً يومَ القيامة ؛ وقال مقاتل : نزلت في أُمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط (إلّا المتَّقينَ) يعني الموحِّدين [١] . فاذا وقع الخوف يومَ القيامة نادى منادٍ (ياعبادِ لاخوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تَحْزَنونَ) ، فيرفع الخلائق رؤوسهم ، فيقول : (الذين آمَنوا بآياتنا وكانوا مُسْلِمينَ) ، فينكِّس الكفار رؤوسهم [٢] .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) أي : كل صداقة وصحابة لغير الله ، فانها تنقلب يوم القيامة عداوة ، إلا ما كان لله عز وجل ، فانه دائم بدوامه ، قال : وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه : (إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودةَ بينِكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالة ماذكر عليه ، قال : ومعنى الكلام : الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، فانهم يقال لهم : ياعبادي لاخوف عليكم اليوم من عقابي ، فاني قد أمَّنتكم منه برضايَ عنكم ، ولا أنتم تحزنون على فراق الدنيا ، فان الذي قدمتم عليه خير لكم مما فارقتموه منها . اهـ .

قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « ياعبادي » بإثبات الياء في الحالين وإسكانها ، وحذفها في الحالين ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ، والمفضل عن عاصم ، وخلف .

وفي أزواجهم قولان . أحدهما : زوجاتهم . والثاني : قرناؤهم .

وقد سبق معنى (تُحْبَرونَ) [الروم : ١٥] .

قوله تعالى : (يُطاف عليهم بِصِحافٍ) قال الزجاج : واحدها صَحْفة ، وهي القَصْعة . والأكواب ، واحدها : كُوب ، وهو إناء مستدير لاعُرْوَةَ له ؛ قال الفراء : الكُوب : [الكوز] (١) المستدير الرأس الذي لا أُذُن له ، وقال عديّ :

مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أبوابُه يَسْعَى عليه العَبْدُ بالكُوبِ (٢)

وقال ابن قتيبة : الأكواب : الأباريق التي لاعُرى لها . وقال شيخنا أبو منصور اللغوي: وإنما كانت بغير عُرىً لِيَشرب الشارب من أين شاء ، لأن العُروة تَرُدُّ الشارب من بعض الجهات .

قوله تعالى : (وفيها ماتشتهي الأنفُس) وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « تشتهيه » بزيادة هاء . وحذفُ الهاء كاثباتها في المعنى .

قوله تعالى : (وتَلَذُّ الأعيُنُ) يقال : لَذِذْتُ الشيء ، واستلذذتُه ، والمعنى : ما من شيء اشتهتْه نَفْس أو استلذّتْه عين إلّا وهو في الجنة ، وقد جمع الله تعالى جميع نعيم الجنة في هذين الوصفين ، فانه ما من نِعمة إلّا وهي نصيب النَّفْس أو العين ، وتمام النَّعيم الخلود ، لأنه لو انقطع لم تَطِب .

(١) زيادة من « اللسان » .

(٢) البيت لعديّ بن زيد ، وهو في « مجاز القرآن » : ٢/٢٠٦ ، و « القرطبي » : ١٦/١١٤ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : كوب .

(وتلك الجَنَّةُ) يعني التي ذكرها في قوله : « ادْخُلوا الجَنَّة » (التي أُورِثْتُموها) قد شرحنا هذا في (الأعراف : ٤٣) عند قوله : (أُورِثْتُموها) .

﴿ إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَايُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ . وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ . لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ . أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ . أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَانَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ . قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ . سُبْحَانَ رَبِّ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنَّ المُجْرِمينَ) يعني الكافرين ، (لايُفَتَّرُ) أي : لايُخَفَّفُ (عنهم وهُمْ فيه) يعني في العذاب (مُبْلِسُونَ) قال ابن قتيبة : آيسون من رحمة الله . وقد شرحنا هذا في (الأنعام : ٤٤) (وما ظَلَمْناهم) أي : ماعذَّبْناهم على غير ذَنْبٍ (ولكن كانوا هُمُ الظالمين) لأنفسهم بما جَنَوْا عليها . قال الزجاج : والبصريُّون يقولون : « هُم » هاهنا فصل ، كذلك يسمُّونها ، ويسمّيها الكوفيُّون : العماد .

قوله تعالى : (ونادَوا يامالِكُ) وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وابن مسعود ، وابن يعمر : [« يامالِ »] بغير كاف مع كسر اللام . قال الزجاج : وهذا يسميه النحويون : [الترخيم] ، ولكني أكرهها لمخالفة المصحف .

قال المفسرون : يَدْعُون مالكاً خازنَ النار فيقولون : (لِيَقْضِ علينا ربُّكَ)

[أي] : لِيُمِتْنا [١] ؛ والمعنى : أنهم توسَّلوا به ليَسأل الله تعالى لهم الموتَ فيستريحوا من العذاب ؛ فيسكُت عن جوابهم مُدَّةً ، فيها أربعة أقوال . أحدها : أربعون عاماً ، قاله عبد الله بن عمرو ، ومقاتل . والثاني : ثلاثون سنة ، قاله أنس . والثالث : ألف سنة ، قاله ابن عباس . والرابع : مائة سنة ، قاله كعب .

وفي سكوته عن جوابهم هذه المدة قولان . أحدهما : أنه سكت حتى أوحى الله إليه أن أجِبْهم ، قاله مقاتل . والثاني : لأنَّ بُعْدَ مابين النداء والجواب أخزى لهم وأذَلُّ .

قال الماوردي : فردَّ عليهم مالك فقال : (إنكم ماكثون) أي : مقيمون في العذاب .

(لقد جئناكم بالحق) أي : أرسَلْنا رسلنا بالتوحيد (ولكنَّ أكثركم) قال ابن عباس : يريد : كُلّكم (كارِهونَ) لِما جاء به محمد ﷺ [٢] .

قوله تعالى : (أمْ أبرَموا أمْراً) في « أمْ » قولان . أحدهما : أنها للاستفهام . والثاني : بمعنى « بل » . والإبرام : الإحكام . وفي هذا الأمر ثلاثة أقوال .

أحدها : المَكْرُ برسول الله ﷺ ليقتُلوه أو يُخْرِجوه حين اجتمعوا في دار النَّدوة ؛ وقد سبق بيان القصة [الأنفال : ٣٠] ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه إحكام أمرهم في تكذيبهم ، قاله قتادة .

والثالث : أنه : إبرامُ أمرهم يُنْجيهم من العذاب ، قاله الفراء .

---

(١) في الأصل : يميتنا ، والتصويب من كتب التفسير .

(٢) قال ابن كثير : (ولكنَّ أكثركم للحق كارهون) أي : ولكن كانت سجاياكم لاتقبله ، ولا تُقبِل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظِّمه وتصدُّ عن الحق وتأباه ، وتبغض أهله ، فعُودوا على أنفسكم بالملامة واندموا حيث لاتنفعكم الندامة . اهـ .

(فانّا مُبْرِمون) أي : مُحْكِمون أمراً في مجازاتهم .

(أمْ يَحْسَبون أنّا لانَسْمَعُ سِرَّهم) وهو مايُسِرُّونه من غيرهم (ونجواهم) مايتناجَوْن به بينهم (بلى) والمعنى : إنّا نَسمع ذلك (ورُسُلنا) يعني [من] الحَفَظة (لديهم يكتُبون) .

(قُلْ إنْ كان للرحمن وَلَدٌ) في « إنْ » قولان .

أحدهما : أنها بمعنى الشرط ؛ والمعنى : إن كان له ولد في قولكم وعلى زعمكم[1] ، فعلى هذا في قوله : (فأنا أوَّلُ العابدِين) أربعة أقوال .

أحدها : فأنا أول الجاحدين ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وفي رواية أخرى عن ابن عباس : أن أعرابيَّين اختصما إليه ، فقال أحدهما : إن هذا كانت لي في يده أرض ، فعبدنيها ، فقال ابن عباس : الله أكبر ، فأنا أوَّلُ العابدين الجاحدين أن لله ولداً .

والثاني : فأنا أوَّلُ مَنْ عَبَدَ اللهَ مخالفاً لقولكم ، هذا قول مجاهد وقال الزجاج : معناه : إن كنتم تزعُمون الرحمن وَلداً ، فأنا أوَّلُ الموحِّدين .

والثالث : فأنا أول الآنفين لله ممـا قُلتم ، قاله ابن السائب ، وأبو عبيدة . قال ابن قتيبة : يقال : عَبِدْتُ من كذا ، أعبَدُ عبَداً ، فأنا عَبِدٌ وعابِدٌ ، قال الفرزدق :

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : (قل) يامحمد (إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين) أي : لو فرض هذا لعبدته على ذلك لأني عبد من عبيده مطيع لجميع مايأمرني به ، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى ، قال : والشرط لايلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً ، كما قال عز وجل : (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) . اهـ .

[أُولئكَ قَوْمٌ إنْ هَجَوْني هَجَوْتُهم]
وأعْبَدُ أنْ تُهْجَى تَميمٌ بِدارِمِ [(١)]

أي : آنَفُ . وأنشد أبو عبيدة :

وأعْبَدُ أن أسُبَّهمُ بقَوْمِي وأُوثِرُ دارِماً وبَنِي رَزاحِ

والرابع : أن معنى الآية : كما أنّي لستُ أول عابدٍ لله ، فكذلك ليس له ولد ؛ وهذا كما تقول : إن كنتَ كاتباً فأنا حاسبٌ ، أي : لستَ كاتباً ولا أنا حاسبٌ ؛ حكى هذا القول الواحدي عن سفيان بن عيينة .

والقول الثاني : أنّ « إنْ » بمعنى « ما » ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ؛ فيكون المعنى : ماكان للرحمن [ولد] ، فأنا أولُ من عَبَدَ اللهَ على يقين أنه لاوَلَدَ له . وقال أبو عبيدة : الفاء على [هذا القول] بمعنى الواو [(٢)] .

قوله تعالى : (فذَرْهم) يعني كفار مكة (يخوضوا) في باطلهم (ويَلْعَبوا) في دنياهم (حتَّى يُلاقوا) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن محيصن ، وأبو جعفر : « حتى يَلْقَوا » بفتح الياء والقاف وسكون اللام من غير ألف . والمراد : يلاقوا [يوم] القيامة وهذه الآية [عند الجمهور] منسوخة بآية السيف .

﴿ وَهُوَ الَّذي في السَّماءِ إلهٌ وَفي الأرْضِ إلهٌ وَهُوَ الْحَكيمُ الْعَليمُ . وَتَبارَكَ الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَلا يَمْلِكُ الَّذينَ يَدْعُونَ

(١) البيت في « مجاز القرآن » : ٢/٢٠٦ ، و « غريب القرآن » : ٤٠١ ، و « البحر المحيط » : ٨/٢٨ ، و « القرطبي » : ١٦/١٢٠ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : عبد .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : معنى « إن » : الشرط الذي يقتضي الجزاء .

مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ . وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ . فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي في السماء إِلَه وفي الأرض إِلَه) قال مجاهد ، وقتادة : يُعْبَد في السماء ويُعْبَد في الأرض . وقال الزجاج : هو الموحَّد في السماء وفي الأرض . وقرأ عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن السميفع ، وابن يعمر [1] ، والجحدري : « في السماء اللهُ وفي الأرض الله » بألف ولام من غير تنوين ولا همز فيهما . وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأعراف : ٥٤ ، لقمان : ٣٤] [2] إلى قوله : (ولا يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِنْ دُونه الشفاعة) سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا : إن كان مايقول محمد حقاً ، فنحن نتولّى الملائكة ، فهم أحق بالشفاعة من محمد ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل [3] .

(١) في النسخة الاستنبولية : « وأبو الجوزاء » بدل « وابن يعمر » .

(٢) قال ابن كثير : وقوله تبارك وتعالى : (وهو الذي في السماء إِلَه وفي الأرض إِلَه) أي : هو إِلَه مَن في السماء ، وإِلَه مَن في الأرض ، يعبده أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه ، وهو الحكيم العليم ، قال : وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى : (وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرَّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون) أي : هو المدعوّ الله في السموات والأرض ، (وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما) أي : هو خالقهما ومالكهما والمتصرّف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة ، فسبحانه وتعالى عن الولد ، وتبارك ، أي : استقر له السلامة من العيوب والنقائص ، لأنه الرب العليّ العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمّة الأمور نقضاً وإبراماً ، (وعنده علم الساعة) أي : لايجلّيها لوقتها إلا هو (وإليه ترجعون) أي : فيجازي كُلاًّ بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . اهـ .

(٣) ذكر سبب النزول هذا الخازن في « تفسيره » بدون سند ، ولم يعزه لأحد ، بل قال : قيل : سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا . . . الخ .

وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : أنه أراد بالذين يَدْعُون مِنْ دونه : آلهتهم ، ثم استثنى عيسى وعزيرَ والملائكةَ ، فقال : (إلّا مَنْ شَهِدَ بالحق) وهو أن يشهد أن لا إله إلا الله (وهم يَعلمون) بقلوبهم ماشهدوا به بألسنتهم ، وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثاني : أن المراد بالذين يَدْعُون : عيسى وعزيرُ والملائكةُ الذين عبدهم المشركون بالله لايَمْلِك هؤلاء الشفاعةَ لأحد (إلّا مَنْ شَهِد) اي : [إلّا] لِمَنْ شَهِد (بالحق) وهي كلمة الإخلاص (وهم يَعْلَمون) أن الله عز وجل خالق عيسى وعزير والملائكة ، وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد . وفي الآية دليل على أن شرط جميع الشهادات أن يكون الشاهد عالماً بما يَشهد به .

قوله تعالى : (وقيلِهِ يارِبِّ) قال قتادة : هذا نبيُّكم يشكو قومَه إلى ربِّه . وقال ابن عباس : شكا إلى الله تخلُّف قومه عن الإيمان . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو : « وقيلَه » بنصب اللام ؛ وفيها ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه أضمر معها قولاً ، كأنه قال : وقال قيلَه ، وشكا شكواه إلى ربِّه .

والثاني : أنه عطف على قوله : « أم يَحسبون أنّا لانَسمع سِرَّهم ونجواهم » وقيلَه ؛ فالمعنى : ونَسمع قِيلَه ، ذكر القولين الفراء ، والأخفش .

والثالث : أنه منصوب على معنى : وعنده عِلْم الساعة ويَعْلَم قيلَه ، لأن معنى « وعنده عِلْمُ الساعة » : يَعْلَم الساعة ويَعْلَم قيلَه ، هذا اختيار الزجاج . وقرأ عاصم ، وحمزة : « وقيلِه » بكسر اللام والهاء حتى تبلغ إلى الياء ؛ والمعنى : وعنده عِلْمُ الساعة وعِلْمُ قيلِه . وقرأ أبو هريرة ، وأبو رزين ،

وسعيد بن جبير ، وأبو رجاء ، والجحدري ، وقتادة ، وحميد : برفع اللام ؛ والمعنى : ونداؤه هذه الكلمة : يارب ؛ ذكر عِلَّة الخفض والرفع الفراء والزجاج .

قوله تعالى : (فاصْفَحْ عنهم) أي : فأعْرِض عنهم (وقُلْ سلامٌ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : قُلْ خيراً بدلاً من شرِّهم ، قاله السدي .

والثاني : ارْدُد [عليهم] معروفاً ، قاله مقاتل .

والثالث : قُلْ ماتَسْلَم به من شرِّهم ، حكاه الماوردي .

(فسوف يَعْلَمونَ) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : يَعْلَمون عاقبة كفرهم . والثاني : أنك صادق . والثالث : حلول العذاب بهم ، وهذا تهديد لهم : « فسوف يعلمون » [1] . وقرأ نافع ، وابن عامر : « تعلمون » بالتاء . ومن قرأ بالياء ، فعلى الأمر للنبي ﷺ بأن يخاطبهم بهذا ، قاله مقاتل ؛ فنَسختْ آيةُ السيف الإعراضَ والسلامَ .

★ ★ ★

(١) قال ابن كثير : (فسوف يعلمون) هذا تهديد من الله تعالى لهم ، قال : ولهذا أحلَّ بهم بأسه الذي لايُردّ ، وأعلى دينه وكلمته ، قال : وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وانتشر الاسلام في المشارق والمغارب ، والله أعلم .

سورة الدخان

وهي مكية كلها باجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾

قوله عز وجل: (حم والكتاب المبين) قد تقدم بيانه [المؤمن ، والزخرف] ، وجواب القسم (إنّا أنزلناه) ، والهاء كناية عن الكتاب ، وهو القرآن (في ليلة مباركة) وفيها قولان .

أحدها : أنها ليلة القدر ، وهو قول الأكثرين . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : أُنزلَ القرآنُ من عند الرحمن ليلة القدر جملةً واحدةً ،

فوُضع في السماء الدنيا ، ثم أُنزِلَ نجوماً . وقال مقاتل : نزل القرآن كلّه في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا .

والثاني : أنها ليلة النصف من شعبان ، قاله عكرمة [١] .

قوله تعالى : (إنّا كُنّا مُنْذِرِينَ) أي : مخوِّفين عقابنا [٢] .

(فيها) أي : في تلك الليلة (يُفْرَقُ كلُّ) أي : يُفْصَل [٣] . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو نهيك ، ومعاذ القارىء : « يَفْرِقُ » بفتح الياء وكسر الراء

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك قول من قال : عنى بها ليلة القدر . وقال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر ، كما قال عز وجل : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وكان ذلك في شهر رمضان ، كما قال تبارك وتعالى : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) ، ثم قال : ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان - كما روي عن عكرمة - فقد أبعد النُّجعة ، فانَّ نص القرآن أنها في رمضان .

(٢) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (إنا كنا منذرين) أي : معلّمين الناس ماينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده .

(٣) قال ابن كثير : وقوله : (فيها يفرق كل أمر حكيم) أي : في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السَّنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق ، وما يكون إلى آخرها ، قال : وهكذا روي عن ابن عمر ، ومجاهد ، وأبي مالك ، والضحاك ، وغير واحد من السلف . اهـ . وكذلك ذكر غيره من المفسرين أن الضمير في قوله تعالى : (فيها يفرق كل أمر حكيم) يعود على الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن ، وهي ليلة القدر ، وهو الحق الذي لامعدل عنه ، ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، فحجته في ذلك بعض الآثار الضعيفة التي لاتقوم بها حجة ، ومن ذلك تعلم خطأ الدعاء الذي يقرؤه بعض الناس في ليلة النصف من شعبان : « . . . إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شهر شعبان المكرَّم التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم ... » فان الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، هي ليلة القدر المقصودة في هذه السورة ، وليست ليلة النصف من شعبان .

« كُلُّ » بنصب اللام (أمرٍ حكيمٍ) أي : مُحْكَم . قال ابن عباس : يُكتَب من أُمِّ الكتاب في ليلة القَدْر ماهو كائن في السنة من الخير والشرِّ والأرزاق والآجال ، حتى الحاج ، وإنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى . وعلى ماروي عن عكرمة أن ذلك في ليلة النصف من شعبان ، والرواية عنه بذلك مضطربة قد خولف الراوي لها ، فروي عن عكرمة أنه قال : في ليلة القَدْر ، وعلى هذا المفسرون [١] .

قوله تعالى : (أمراً من عندنا) قال الأخفش : « أمراً » و « رحمةً » منصوبان على الحال ؛ المعنى : إنّا أنزَلْناه آمرين أمراً وراحمين رحمة . قال الزجاج : ويجوز أن يكون منصوباً بـ « يُفْرَقُ » بمنزلة يُفْرَقُ فَرْقاً ، لأن « أمراً » بمعنى « فَرْقاً » . قال الفراء : ويجوز أن تُنصب الرحمة بوقوع « مرسِلين » عليها ، فتكون الرحمة هي النبي ﷺ . وقال مقاتل : « مرسِلين » بمعنى منزِلين هذا القرآن ، أنزلناه رحمةً لِمَن آمن به . وقال غيره : « أمراً من عندنا » أي : إنا نأمر بنَسخ مايُنسخ من اللوح [٢] (إنّا كنّا مُرْسِلين) الأنبياء ، (رحمةً) منّا بخَلْقنا (ربِّ السموات) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « ربُّ » بالرفع . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « ربِّ » بكسر الباء . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (بَلْ هُمْ) يعني الكفار (في شكٍّ) مما جئناهم به (يَلعبون) يهزؤون به .

(١) قال ابن كثير : والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح عن الليث عن عقيل عن الزهري : أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس قال : إن رسول الله ﷺ قال : « تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لَيَنكِح ويولد له وقد أخرج اسمه في الموتى » قال : فهو حديث مرسل ، ومثله لايعارض به النصوص . اهـ .

(٢) عبارة الطبرسي في « مجمع البيان » والشوكاني في « فتح القدير » : إنا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ .

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ . إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾

(فارتقِبْ) أي : فانتظر (يومَ تأتي السماءُ بدخانٍ مبينٍ) اختلفوا في هذا الدخان ووقته على ثلاثة أقوال .

أحدها : [أنه] دخان يجيء قبل قيام الساعة ، فروي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الدُّخان يجيء فيأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزّكام »[1] . وروى عبد الله بن أبي مليكة قال : غدوتُ على ابن عباس ذاتَ يوم ، فقال : ما نمتُ الليلة حتى أصبحتُ ، قلت : لم ؟ قال : طلع الكوكب ذو الذَّنَب ، فخشيتُ أن يطرق الدخان[2] ، وهذا المعنى مروي عن علي ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، والحسن .

---

(١) ذكره الطبري بنحوه عن عبد الله بن مسعود موقوفاً عليه من رواية أبي الضحى عن مسروق قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً وهو مضطجع بيننا ، فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن إن قاصّاً عند أبواب كندة يقصّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام . . . الخ .

(٢) « الطبري » : ١١٣/٢٥ ، قال ابن كثير : وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن ابن عمر عن سفيان عن عبد الله بن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما . . . فذكره ، قال : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن ، قال : وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها التي أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) —

والثاني : أن قريشاً أصابهم جوع ، فكانوا يرون بينهم وبين السماء دخاناً من الجوع ؛ فروى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث مسروق ، قال : كنا عند عبد الله ، فدخل علينا رجل ، فقال : جئتُكَ من المسجد وتركتُ رجلاً يقول في هذه [الآية] « يوم تأتي السماءُ بدخانٍ مُبينٍ » : يغشاهم يومَ القيامة دخان يأخذ بأنفاسهم حتى يصيبَهم منه كهيئة الزكام ؛ فقال عبد الله : من عَلِم علماً فليَقُل به ، ومن لم يَعْلَم فليَقُل : الله أعلم ، إنما كان [هذا] لأن قريشاً لمّا استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنيِّ يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعل الرجلُ ينظُر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فقالوا : (ربَّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون) ،

أي : بيِّن واضح يراه كل أحد ، قال : وعلى ما فسَّر به ابن مسعود رضي الله عنه (أي في الحديث الذي بعد هذا من رواية البخاري ومسلم عن مسروق) إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد . اهـ .

قال الشوكاني في « فتح القدير » : قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح (يريد بذلك سند رواية ابن أبي حاتم) ، وكذا صححه السيوطي ، ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية ، قال : وقد عرَّفناك أنه لامنافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يتراءى لقريش من الجوع ، وبين كون الدخان من آيات الساعة وعلاماتها وأشراطها ، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف بذلك ، وليس فيها أنه سبب نزول الآية ، فلا حاجة بنا إلى التطويل بذكرها ، والواجب التمسك بما ثبت في « الصحيحين » وغيرهما أن دخان قريش عند الجهد والجوع هو سبب النزول ، قال : وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذي هو من أشراط الساعة ، كابن كثير في « تفسيره » وغيره ، قال : وهكذا يندفع قول من قول : إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة ، متمسكاً بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال : كان يوم فتح مكة دخان ، وهو قول الله : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) ، قال : فان هذا لا يعارض ما في « الصحيحين » على تقدير صحة إسناده ، مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضي الله عنه ظن من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية ، قال : ولهذا لم يصرح بأنه سبب نزولها . اهـ .

فقال الله تعالى : (إِنَّا كاشِفو العذابِ قليلاً إنكم عائدون) ، فكشف عنهم ، ثم عادوا إلى الكفر ، فأُخذوا يومَ بدر ، فذلك قوله : (يومَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبرى)[1] ، وإلى نحو هذا ذهب مجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن السائب ، ومقاتل .

والثالث : أنه يوم فتح مكة لمّا حُجبت السماءُ بالغبرة ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (هذا عذابٌ) أي : يقولون : هذا عذاب .

(ربَّنا اكشِفْ عنّا العذاب) فيه قولان . أحدهما : الجوع . والثاني : الدخان (إنّا مؤمِنون) بمحمد ﷺ والقرآن .

(أنّى لهم الذّكرى) أي : من أين لهم التذكُّر والاتّعاظ بعد نزول هذا البلاء ، (و) حالهم أنه (قد جاءهم رسول مبين) أي : ظاهر الصِّدق ؟ !

(ثم تولَّوْا عنه) أي : أعرضوا ولم يقبلوا قوله (وقالوا مُعَلَّم مجنونٌ) أي : هو معلَّم يعلِّمه بشر مجنون بادعائه النُّبوَّة ؛ قال الله تعالى : (إنّا كاشفو العذابِ قليلاً) أي : زماناً يسيراً . وفي العذاب قولان .

أحدها : الضُّرُّ الذي نزل بهم كُشف بالخِصب ، هذا على قول ابن مسعود . قال مقاتل : كشفه إلى يوم بدر .

والثاني : أنه الدخان ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (إنكم عائدون) فيه قولان أحدهما : إلى الشرك ، قاله ابن مسعود . والثاني : إلى عذاب الله ، قاله قتادة .

---

(١) ذكره البخاري بألفاظ مختلفة : ٨/٣٩٤ ، ٤٣٠ ، ٤٤٠ ، ورواه مسلم أيضاً ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٦/٢٨ ، وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، وأبي نعيم والبيهقي معاً في « الدلائل » .

قوله تعالى : (يومَ نبطِشُ البطشةَ الكبرى) وقرأ الحسن ، وابن يعمر ، وأبو عمران : « يومَ نُبطَشُ » بنون مرفوعة وفتح الطاء « البطشةُ » بالرفع . قال الزجاج : المعنى : واذكر يومَ نبطِش ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله : « منتقِمون » ، لأن مابعد « إنّا » لايجوز أن يعمل فيما قبلها .

وفي هذا اليوم قولان .

أحدهما : يوم بدر ، قاله ابن مسعود ، وأُبيُّ بن كعب ، وأبو هريرة ، وأبو العالية ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : يوم القيامة ، قاله ابن عباس ، والحسن . والبَطْش : الأخذ بقوَّة .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ، وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ . فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ . وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ . كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد فتنّا) أي : ابتلينا (قبلَهم) أي : قبلَ قومك (قومَ فرعون) بارسال موسى إليهم (وجاءهم رسولٌ كريمٌ) وهو موسى بن عمران .

وفي معنى « كريم » ثلاثة أقوال . أحدها : حسن الخُلُق ، قاله مقاتل .

والثاني : كريم على ربّه ، قاله الفراء . والثالث : شريفٌ وسيطُ النسب ، قاله أبو سليمان .

قوله تعالى : (أن أدّوا) أي : بأن أدّوا (إليَّ عبادَ الله) وفيه قولان .

أحدهما : أدّوا إليَّ ما أدعوكم إليه من الحق باتّباعي ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس . فعلى هذا ينتصب « عبادَ الله » بالنداء . قال الزجاج : ويكون المعنى : أن أدّوا إليَّ ما آمُركم به ياعباد الله .

والثاني : أرسِلوا معي بني إسرائيل ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والمعنى : أطلِقوهم من تسخيركم ، وسلّموهم إليَّ .

(وأن لاتَعْلُوا على الله) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : لاتفتروا عليه ، قاله ابن عباس . والثاني : لاتعتوا عليه[1] ، قاله قتادة . والثالث : لاتعظّموا عليه ، قاله ابن جريج (إنّي آتيكم بسلطان مبين) أي : بحجة تدل على صدقي .

فلمّا قال هذا تواعدوه بالقتل فقال : (وإنّي عُذْتُ بربّي وربّكم أن ترجُمونِ) وفيه قولان .

أحدهما : أنه رجم القول ، قاله ابن عباس ؛ فيكون المعنى : أن يقولوا: شاعر أو مجنون .

والثاني : القتل ، قاله السدي .

(وإن لم تؤمِنوا لي فاعتزلونِ) أي : فاتركوني لامعي ولا عليَّ ، فكفروا ولم يؤمنوا ، (فدعا ربَّه أنَّ هؤلاء) قال الزجاج : من فتح « أنَّ » ، فالمعنى : بأن هؤلاء ؛ ومن كسر ، فالمعنى : قال : إن هؤلاء ، و « إنَّ » بعد القول مكسورة . وقال المفسرون : المجرمون هاهنا : المشركون .

---

(١) كذا الأصل : « لاتعتوا » بتاءين ، والذي في الطبري عن قتادة : « لاتبغوا » .

فأجاب اللهُ دعاءه، وقال : (فأسْرِ بعبادي ليلاً) يعني بالمؤمنين (إنكم متَّبَعونَ) يتبعكم فرعون وقومه؛ فأعلمهم أنهم يتبعونهم، وأنه سيكون سبباً لغرقهم.

(واتْرُكِ البحر رَهْواً) أي : ساكناً على حاله بعد أن انفرق لك، ولا تأمره أن يرجع كما كان حتى يدخُلَه فرعونُ وجنوده. والرَّهْو : مشيٌ في سُكون.

قال قتادة : لمّا قطع موسى عليه السلام البحر، عطف يضرب البحر بعصاه ليلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده، فقيل [له] : « واترك البحر رَهْواً »، أي كما هو ـ طريقاً يابساً [1].

قوله تعالى : (إنهم جُنْدٌ مُغْرَقون) أخبره الله عز وجل بغرقهم ليَطْمَئِنَّ قلبُه في ترك البحر على حاله.

(كم تَرَكوا) أي : بعد غرقهم (مِنْ جَنّاتٍ) وقد فسرنا الآية في (الشعراء : ٥٧). فأما « النَّعمة » فهو العيش اللَّيِّن الرغد. وما بعد هذا قد سبق بيانه [يس : ٥٥] إلى قوله : (وأوْرَثْناها قوماً آخَرين) يعني بني إسرائيل.

(فما بَكَتْ عليهم السماءُ) أي : على آل فرعون وفي معناه ثلاثة أقوال.

أحدها : أنه على الحقيقة؛ روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما مِنْ مُسْلِمٍ إلّا وله في السماء بابان، باب يصعَدُ فيه عمله، وباب ينزل منه

---

(١) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون) وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لمّا جاوز هو وبنو إسرائيل البحر أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لايخاف دركاً ولا يخشى. اهـ.

رزقه ، فإذا مات بكيا عليه » وتلا ﷺ هذه الآية [١] . وقال علي رضي الله عنه : إن المؤمن إذا مات بكى عليه مُصَلاّه من الأرض ومَصْعَد عمله من السماء [٢] ، وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض مُصَلّى ولا في السماء مَصْعَد عمل ، فقال الله تعالى : « فما بَكَتْ عليهم السماء والأرض » ، وإلى نحو هذا ذهب ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل . وقال ابن عباس : الحُمرة التي في السماء : بكاؤها . وقال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً ، فقيل له : أوَتبكي ؟ قال : وما للأرض لاتبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟! وما للسماء لاتبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النحل [٣] ؟! .

والثاني : أن المراد : أهل السماء وأهل الأرض ، قاله الحسن ، ونظير هذا قوله تعالى : (حتى تَضَعَ الحربُ أوزارَها) [محمد : ٤] ، أي : أهل الحرب .

والثالث : أن العرب تقول إذا أرادت تعظيمَ مَهلِكِ عظيمٍ : أظلمت الشمسُ له ، وكَسَفَ القمرُ لفقده ، وبكتْه الرِّيحُ والبرقُ والسماءُ والأرضُ ، يريدون المبالغة في وصف المصيبة ، وليس ذلك بكذب منهم ، لأنهم جميعاً

---

(١) رواه الترمذي في « سننه » : ٢/١٥٨ من حديث موسى بن عبيدة عن يزيد بن أبان الرّقاشي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال الترمذي : هذا حديث غريب لانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، وموسى بن عبيدة ، ويزيد بن أبان الرّقاشي يضعّفان في الحديث . والحديث ذكره السيوطي في « الدر » : ٦/٣٠ ، وزاد نسبته لابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » ، وأبي يعلى ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الحلية » ، والخطيب عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » : ٦/٣١ من رواية ابن المبارك ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا ، وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع عن علي رضي الله عنه .

(٣) أورده السيوطي في « الدر » : ٦/٣٠ من رواية عبد بن حميد ، وأبي الشيخ في « العظمة » عن مجاهد بنحوه .

متواطئون عليه ، والسّامِعُ له يَعرِف مذهبَ القائل فيه ؛ ونِيَّتُهم في قولهم: أظلمت الشمسُ : كادت تُظلِم ، وكَسَفَ القمرُ : كاد يَكسِف ، ومعنى « كاد » : هَمَّ أن يَفعَل ولم يفعل ؛ قال ابن مُفَرِّغ يرثي رجلاً :

الرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَهُ والبَرْقُ يَلْمَعُ في غَمامَهْ (١)

وقال الآخر :

الشَّمْسُ طالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكاسِفَةٍ
تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ والْقَمَرا (٢)

أراد : الشمسُ طالعةٌ تبكي عليه ، وليست مع طلوعها كاسفةً النجومَ والقمرَ ، لأنها مُظْلِمةٌ ، وإنما تَكْسِفُ بضوئها ، فنُجومُ الليل باديةٌ بالنهار ، فيكون معنى الكلام : إن الله لمّا أهلك قوم فرعون لم يَبْكِ عليهم باكٍ ، ولم يَجْزَعْ جازعٌ ، ولم يوجد لهم فَقْدٌ ، هذا كلُّه كلامُ ابن قتيبة .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ . وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَافِيهِ بَلَؤٌا مُبِينٌ . إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ . إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ . فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ

(١) البيت ليزيد بن مُفَرِّغ الحِمْيَرِيّ ، وهو في « مشكل القرآن » : ١٢٨ ، و « الأضداد » للأنباري : ٤٢٤ ، و « الأغاني » : ١٨/١٨٧ .

(٢) البيت لجرير يرثي عمر بن عبد العزيز ، ديوانه : ٣٠٤ ، و « مشكل القرآن » : ١٢٨ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » و « التاج » : بكى . ورواية البيت في الديوان :

فالشَّمْسُ كاسِفَةٌ لَيْسَتْ بِطالِعَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ والقَمَرا

مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ . وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ . مَاخَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لايَعْلَمُونَ . إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ . يَوْمَ لايُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (من العذاب المُهِينِ) يعني قتل الأبناء واستخدام النساء والتعب في أعمال فرعون ، (إنه كان عالياً) أي : جبَّاراً .

(ولقد اخْتَرْناهم) يعني بني إسرائيل (على عِلْمٍ) عَلِمه اللهُ فيهم على عالَمِي زمانهم ، (وآتيناهم من الآيات) كانفراق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المَنِّ والسَّلْوى ، إلى غير ذلك (مافيه بلاءٌ مُبِينٌ) أي : نِعمة ظاهرة .

ثم رجع إلى ذِكْر كفار مكة ، فقال : (إنَّ هؤلاءِ لَيقُولون إنْ هي إلّا مَوْتَتُنا الأُولى) يعنون التي تكون في الدنيا (وما نحن بِمُنْشَرِين) أي : بمبعوثِين ، (فائتوا بآبائنا) أي : ابعثوهم لنا (إن كنتم صادقين) في البعث . وهذا جهل منهم من وجهين .

أحدهما : أنهم قد رأوا من الآيات مايكفي في الدلالة ؛ فليس لهم أن يتنطّعوا .

والثاني : أن الإعادة للجزاء ؛ وذلك في الآخرة ، لا في الدنيا .

ثم خوَّفهم عذابَ الأُمَم قَبْلَهم ، فقال : (أَهُمْ خَيْرٌ) أي : أشَدُّ وأقوى (أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ) ؟! أي : ليسوا خيراً منهم . روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أدري تُبَّعاً ، نبيّ ، أو غير نبيّ »[1] . وقالت

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٤٨ : رواه الثعلبي من طريق عبد الرزاق ، ـــ

عائشة : لاتسُبُّوا تُبَّعاً فانه كان رجلاً صالحاً ، ألا ترى أن الله تعالى ذَمَّ قومَه ولم يذُمَّه [١] . وقال وهب : أسلَم تُبَّع ولم يُسْلِم قومُه ، فلذلك ذُكر قومه ولم يُذكر . وذكر بعض المفسرين أنه كان يعبدُ النار ، فأسلم ودعا قومَه ـ وهم حِمْيَر ـ إلى الإسلام ، فكذَّبوه .

فأمّا تسميته بـ « تُبَّع » فقال أبو عبيدة : كل ملِك من ملوك اليمن كان يسمّى : تُبَّعاً ، لأنه يَتْبَع صاحبَه ، فموضعُ « تُبَّع » في الجاهلية موضعُ الخليفة في الإسلام وقال مقاتل : إنما سمِّي تُبَّعاً لكثرة أتباعه ، واسمه : ملكيكرب [٢] . وإنما ذكر قوم تُبَّع ، لأنهم كانوا أقربَ في الهلاك إلى كفار مكة من غيرهم . وما بعد هذا قد تقدم [الأنبياء : ١٦ ، الحجر : ٨٥] إلى قوله تعالى : (إنَّ يومَ الفَصْل) وهو يوم يَفْصِلُ اللهُ عز وجل بين العباد (ميقاتُهم) أي : ميعادهم (أجمعين) يأتيه الأوَّلون والآخِرون .

(يومَ لايُغْني مولىً عن مولىً شيئاً) فيه قولان .

أحدهما : لايَنْفَع قريبٌ قريباً ، قاله مقاتل . وقال ابن قتيبة : لايُغْني وليٌّ عن وليِّه بالقرابة أو غيرها .

ــ عن معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : والمعروف بهذا الاسناد « ما أدري ألتبع هو ، أم لا ؟ وما أدري أعزير نبي ، أم لا ؟ » أخرجه أبو داود ، والحاكم ، لكن قال : « ذو القرنين » بدل « عزير » قال : قال الدارقطني : تفرد به عبد الرزاق ، وغيره أرسله . اهـ .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » : ٢/٤٥٠ عن عائشة رضي الله عنها وصححه ، ووافقه الذهبي . قال ابن كثير : وكأنه ـ والله أعلم ـ كان كافراً ثم أسلم وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عليه السلام ، وحج البيت في زمن الجرهميين وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة ، وعظمه وأكرمه ثم عاد إلى اليمن . اهـ .

(٢) الذي في القرطبي : وقال الكلبي : تبع : هو أبو كرب أسعد بن ملكيكرب .

والثاني : لايَنْفَع ابنُ عمٍّ ابنَ عمّه ، قاله أبو عبيدة .

(ولا هُمْ يُنْصَرون) أي ، لا يُمْنَعون من عذاب الله ، (إلاّ مَنْ رَحِمَ اللهُ) وهم المؤمنون ، فانه يشفع بعضهم في بعض .

﴿ إنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأثيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إنَّكَ أنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إنَّ هذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ . إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ . كَذٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ . لَايَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . فَإنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . فَارْتَقِبْ إنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾

(إنَّ شجرَة الزَّقُّوم) قد ذكرناها في (الصافات : ٦٢) . و « الأثيم » : الفاجر ؛ وقال مقاتل : هو أبو جهل . وقد ذكرنا معنى « المُهْل » في (الكهف : ٢٩) .

قوله تعالى : (يَغْلِي في البُطونِ) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « يغلي » بالياء ؛ والباقون : بالتاء . فمن قرأ [« تغلي »] بالتاء ، فلتأنيث الشجرة ؛ ومن قرأ بالياء ، حمله على الطعام قال أبو علي الفارسي : ولا يجوز أن يُحْمَل الغَلْيُ على المُهْل ، لأن المهْل ذُكِر للتشبيه في الذَّوْب ، وإنما يغلي ماشُبِّه به (كغَلْيِ الحميم) وهو الماء الحارُّ إذا اشتَدَّ غَليانُه .

قوله تعالى : (خُذوه) أي : يقال للزبانية : خذوه (فاعْتِلُوه) وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، ويعقوب : بضم التاء ؛ وكسرها الباقون ؛ قال ابن قتيبة : ومعناه : قودوه بالعُنف ، يقال : جيء بفلان يُعْتَلُ إلى السلطان ، و « سواء الجحيم » : وسط النار . قال مقاتل : الآيات في أبي جهل يضربه المَلَك من خُزّان جهنم على رأسه بمِقمعة من حديد فتنقُب عن دماغه ، فيجري دماغُه على جسده ، ثم يصُبُّ المَلَك في النَّقْب ماءً حميماً قد انتهى حرُّه ، فيقع في بطنه ، ثم يقول [له] المَلَك : (ذُقْ) العذاب (إنَّكَ أنتَ العزيز الكريم) هذا توبيخ له بذلك ؛ وكان أبو جهل يقول : أنا أعزُّ قريش وأكرمُها . وقرأ الكسائي : « ذُقْ أنَّكَ » بفتح الهمزة ؛ والباقون : بكسرها . قال أبو علي : من كسرها ، فالمعنى : أنت العزيز في زعمك ، ومن فتح ، فالمعنى : بأنَّكَ .

فان قيل : كيف سُمّي بالعزيز وليس به ؟!

فالجواب من ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه قيل ذلك استهزاءً به ، قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل .

والثاني : أنت العزيز [الكريم] عند نفسك ، قاله قتادة .

والثالث : أنت العزيز في قومك ، الكريم على أهلك ، حكاه الماوردي .

ويقول الخزّان لأهل النار : (إنّ هذا ما كنتم به تَمْتَرون) أي : تَشُكّون في كونه .

ثم ذكر مستقرَّ المتَّقين فقال : (إنَّ المُتَّقِينَ في مَقامٍ أمينٍ) قرأ نافع ، وابن عامر : « في مُقام » بضم الميم ؛ والباقون : بفتحها . قال الفراء : المَقام ، بفتح الميم : المكان ، وبضمها : الإقامة .

قوله تعالى : (أمينٍ) أي : أمِنوا فيه الغِيَر والحوادث . وقد ذكرنا

« الجَنَّات » في (البقرة : ٢٥) و [ذكرنا] معنى « العُيون » ومعنى « متقابِلِين » في (الحجر : ٤٥ ، ٤٧) وذكرنا « السُّندُس والإستبرق » في (الكهف : ٣١) .

قوله تعالى : (كذلك) أي : الأمر كما وَصفْنا (وزوَّجْناهم بِحُورٍ عِينٍ) قال المفسرون : المعنى : قَرَنّاهم بِهِنّ ، وليس من عقد التزويج . قال أبو عبيدة : المعنى : جعلْنا ذكور أهل الجنة أزواجاً (بحور عِينٍ) من النساء ، تقول للرجل : زوِّج هذه النَّعل الفرد بالنَّعل الفرد ، أي : اجعلها زَوْجاً ، والمعنى : جعلْناهم اثنين اثنين . وقال يونس : العرب لاتقول : تزوَّج بها ، إنما يقولون : تزوَّجها . ومعنى « وزَوَّجْناهم بِحُورٍ عينٍ » : قَرَنّاهم . وقال ابن قتيبة : يقال : زوَّجتُه امرأة ، وزوَّجتُه بامرأة . وقال أبو علي الفارسي : والتنزيل على ماقال يونس ، وهو قوله تعالى : (زَوَّجْناكها) [الأحزاب:٣٧] ، وما قال : زَوَّجْناكَ بها .

فأمّا الحُور ، فقال مجاهد : الحُور : النساء النقيّات البياض . وقال الفراء : الحَوْراء : البيضاء من الإبل ؛ قال : وفي « الحُور العِين » لغتان : حُور عِين ، وحِير عِين ، وأنشد :

أزمانَ عيناء سرور المسير وحَوْراء عيناء مِنَ العِينَ الحِير

وقال أبو عبيدة : الحوراء : الشديدة بياض بياض العَيْن ، الشديدة سواد سوادها . وقد بيَّنّا معنى « العِين » في (الصافات : ٤٨) .

قوله تعالى : (يَدْعُونَ فيها بكل فاكهة آمِنين) فيه قولان . أحدها : آمنين من انقطاعها في بعض الأزمنة . والثاني : آمنين من التُّخَم والأسقام والآفات .

قوله تعالى : (إلّا المَوْتَةَ الأُولى) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بمعنى « سوى » ، فتقدير الكلام : لايذوقون في الجنة الموت

سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا ؛ ومثله : (ولا تَنْكِحوا مانَكَحَ آباؤكم من النّساء إلّا ماقد سَلَف) [النساء : ٢٢] ، وقوله : (خالدين فيها مادامتِ السمواتُ والأرضُ إلّا ماشاء ربُّكَ) [هود : ١٠٧] أي : سوى ماشاء لهم ربُّك من الزيادة على مقدار الدنيا ، هذا قول الفراء ، والزجاج .

والثاني : أن السُّعداء حين يموتون يصيرون إلى الرَّوح والرَّيحان وأسباب من الجنة يَرَوْنَ منازلهم منها ، وإذا ماتوا في الدنيا، فكأنهم ماتوا في الجنة ، لاتصالهم بأسبابها ، ومشاهدتهم إيّاها ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن « إلّا » بمعنى « بَعْد » ، كما ذكرنا في أحد الوجوه في قوله : (إلّا ماقد سَلَفَ) [النساء : ٢٢] ، وهذا قول ابن جرير [1] .

قوله تعالى : (فَضْلاً مِنْ ربِّك) أي : فعل اللهُ ذلك بهم فَضْلاً منه [2] .

(فإنَّما يَسَّرْناه) أي : سهَّلْناه ، والكناية عن القرآن (بلسانك) أي : بلغة العرب (لعلَّهم يَتذكَّرونَ) أي : لكي يتَّعِظوا فيُؤْمِنوا ، (فارْتَقِبْ)

---

(١) قال ابن كثير : وقوله : (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) هذا استثناء يؤكد النفي ، فانه استثناء منقطع ، ومعناه : أنهم لايذوقون فيها الموت أبداً ، كما ثبت في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلاً من ربك) يقول تعالى ذكره : ووقى هؤلاء المتقين ربُّهم يومئذ عذاب النار ، تفضلاً يامحمد من ربك عليهم ، وإحسانه منه إليهم بذلك ، ولم يعاقبهم بجرم سلف منهم في الدنيا ، قال : ولولا تفضّله عليهم بصفحه لهم عن العقوبة لهم على ماسلف منهم من ذلك ، لم يَقِهم عذاب الجحيم ، ولكن كان ينالهم ويصيبهم ألمه ومكروهه . اهـ .

أي : انْتَظِرْ بهم العذاب (إنَّهم مُرْتَقِبُونَ) هلاكك[١] ؛ وهذه عند أكثر المفسرين منسوخة بآية السيف ، وليس بصحيح .

★ ★ ★

(١) قال ابن كثير : ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ مُسَلِّياً له وواعداً له بالنصر ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك (فارتقب) أي : انتظر (إنهم مرتقبون) أي : فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلوُّ الكلمة في الدنيا والآخرة ، فانهـا لك ولاخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتَّبعكم من المؤمنين . اهـ .

سورة الجاثية

وتسمّى سورة الشريعة

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكيّة، وهو قول الحسن، [وعكرمة]، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. وقال مقاتل: هي مكيّة كلها. وحكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: هي مكيّة إلا آية، وهي قوله: (قُلْ للذين آمنوا يَغْفِروا) [الجاثية: ١٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ . وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ . اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (حمٓ . تنزيلُ الكتاب) قد شرحناه في أول (المؤمن) .

قوله تعالى : (وفي خَلْقِكم) أي : من تراب ثم من نُطْفة إلى أن يتكامل خَلْق الإنسان (وما يَبُثُّ مِنْ دابَّة) أي : وما يُفرِّق في الأرض من جميع ما خلق على اختلاف ذلك في الخَلْق والصُّوَر (آياتٌ) تدُلُّ على وحدانيَّته . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « آياتٌ » رفعاً « وتصريفِ الرِّياح آياتٌ » رفعاً أيضاً . وقرأ حمزة ، والكسائي : بالكسر فيهما . والرِّزق هاهنا بمعنى المطر .

قوله تعالى : (تلك آياتُ الله) أي : هذه حُجج الله (نتلوها عليك بالحق فبأيِّ حديثٍ بَعْدَ الله) أي : بعد حديثه (وآياته) يؤمِن هؤلاء المشركون ؟ !

قوله تعالى : (وَيْلٌ لكل أفّاكٍ أثيمٍ) روى أبو صالح عن ابن عباس أنها نزلت في النضر بن الحارث [1] . وقد بيَّنّا معناها في (الشعراء : ٢٢٢) ، والآية التي تليها مفسَّرة في (لقمان : ٧) .

---

(١) قال البغوي : (ويل لكل أفّاك أثيم) كذّاب صاحب إثم ، يعني النضر بن الحارث . —

قوله تعالى : (وإذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شيئاً) قال مقاتل : معناه : إذا سمع . وقرأ ابن مسعود : « وإذا عُلِّمَ » برفع العين وكسر اللام وتشديدها .

قوله تعالى : (اتَّخَذَها هُزُواً) أي : سَخِر منها ، وذلك كفعل أبي جهل حين نزلت : (إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم، طعامُ الأثيمِ)[الدخان : ٤٣ ، ٤٤] فدعا بتمر وزُبْد ، وقال : تَزَقَّموا فما يَعِدُكم محمد إلّا هذا . وإنما قال : (أولئك) لأنه ردَّ الكلام إلى معنى « كُلّ » .

(مِنْ ورائهم جهنَّمُ) قد فسَّرناه في (إبراهيم : ١٦)(ولا يُغْني عنهم ما كسَبوا شيئاً) من الأموال ، ولا ماعبدوا من الآلهة .

قوله تعالى : (هذا هُدىً) يعني القرآن (والذين كفَروا) به ، (لهم عذابٌ من رِجْزٍ أليمٌ) قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : « أليمٌ » بالرفع على نعت العذاب وقرأ الباقون : بالكسر على نعت الرّجز . والرّجز بمعنى العذاب ، وقد شرحناه في (الأعراف : ١٣٤) .

قوله تعالى : (جميعاً منه) أي : ذلك التسخير منه لا مِنْ غيره ، فهو مِنْ فضله . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وابن عباس ، وأبو مجلز ، وابن السميفع ، وابن محيصن ، والجحدري : « جميعاً مِنَّةً » بفتح النون وتشديدها وتاء منصوبة منوّنة . وقرأ سعيد بن جبير : « مَنُّهُ » بفتح الميم ورفع النون والهاء مشددة النون .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَايَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ . وَلَقَدْ آتَيْنَا

—— وقال الآلوسي : والآية نزلت في أبي جهل ، وقيل في النضر بن الحارث ، وكان يشتري حديث الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن ، قال : لكنها عامة كما هو مقتضى « كلّ » ، ويدخل من نزلت فيه دخولاً أولياً . اهـ .

بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ . هٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّآتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَايَحْكُمُونَ . وَخَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ الذين آمنوا يَغفِروا ..) [الآية] في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أنهم نزلوا في غَزاة بني المصطاق على بئر يقال لها : « المريسيع » ، فأرسل عبدُ الله بن أُبيّ غلامَه ليستقيَ الماء ، فأبطأ عليه ، فلمّا أتاه قال له : ماحبسك ؟ قال : غلام عمر ، ماترك أحداً يستقي حتى ملأ قُرَبَ النبيّ ﷺ وقُرَبَ أبي بكر ، وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : مامثلُنا ومَثلُ هؤلاء إلّا كما قيل : سمّن كلبك يأكلك ، فبلغ قولُه عمر ، فاشتمل سيفَه يريد التوجّه إليه ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس [1] .

---

(١) ذكر سبب النزول هذا الآلوسي بدون سند ، قال : قيل : إن النبي ﷺ وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق . . . الخ .

والثاني : [أنها] لمّا نزلت : (مَنْ ذا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حسناً) [البقرة : ٢٤٥] قال يهوديٌّ بالمدينة يقال له فنحاص : احتاج ربُّ محمد ، فلمّا سمع بذلك عمر ، اشتمل [على] سيفه وخرج في طلبه ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية ، فبعث النبيُّ ﷺ في طلب عمر ، فلمّا جاء ، قال : « ياعمر ، ضَعْ سيفَك » وتلا عليه الآية ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس (١) .

والثالث : أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذىً شديدٍ من المشركين قبل أن يؤمَروا بالقتال ، فشكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، قاله القرظي ، والسدي (٢) .

والرابع : أن رجلاً من كفار قريش شتم عمر بن الخطاب ، فهمَّ عمر أن يبطش به ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل (٣) .

ومعنى الآية : قُلْ للذين آمنوا : اغفروا ، ولكن شبّه بالشرط والجزاء ، كقوله : (قُلْ لعباديَ الذين آمَنوا يُقيموا الصلاة) [إبراهيم : ٣١] ، وقد مضى بيان هذا .

وقوله : (للذين لايَرْجُونَ) أي : لا يَخافون وقائع الله في الأُمم الخالية ، لأنهم لايؤمنون به ، فلا يخافون عقابه . وقيل : لايَدْرُون أنْعَمَ اللهُ عليهم ، أم لا . وقد سبق بيان معنى « أيّام الله » في سورة (إبراهيم : ٥) .

---

(١) الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٥ .

(٢) ذكره البغوي في « تفسيره » عن القرظي والسدي بدون سند ، وقال : ثم نسختها آية القتال . وكذلك ذكره الخازن بدون سند ، ولم يعزه لأحد .

(٣) ذكره البغوي عن ابن عباس ومقاتل بدون سند ، وكذلك ذكره الخازن بدون سند .

فصل

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية منسوخة، لأنها تضمَّنت الأمر بالإعراض عن المشركين. واختلفوا في ناسخها على ثلاثة أقوال.

أحدها: [أنه] قوله: (فاقتلوا المشركين)[1] [التوبة: ٥]، رواه معمر عن قتادة.

والثاني: أنه قوله في (الأنفال: ٥٧): (فإمَّا تثقفنَّهم في الحرب)، وقوله في (براءة: ٣٦): (وقاتلوا المشركين كافَّةً)، رواه سعيد عن قتادة.

والثالث: [أنه] قوله: (أُذِن للذين يقاتَلون بأنَّهم ظُلِموا) [الحج: ٣٩]، قاله أبو صالح.

قوله تعالى: (ليَجْزِيَ قَوْماً) وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: « لِنَجْزِيَ » بالنون « قوماً » يعني الكفار، فكأنه قال: لانكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن.

وما بعد هذا قد سبق [الاسراء: ٧] إلى قوله: (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتابَ) يعني التوراة (والحُكْمَ) وهو الفهم في الكتاب، (ورَزَقْناهم من الطَّيِّبات) يعني المَنَّ والسَّلوى (وفضَّلْناهم على العالَمِين) أي: عالَمي زمانهم.

(وآتيناهم بيِّناتٍ من الأمر) فيه قولان.

أحدهما: بيان الحلال والحرام، قاله السدي.

والثاني: العِلْم بمبعث النبي ﷺ وشواهد نبوَّته، ذكره الماوردي.

وما بعد هذا قد تقدم بيانه [آل عمران: ١٩] إلى قوله:

(١) في الأصل: (اقتلوا المشركين) بدون فاء.

(ثُمَّ جَعَلْنـاكَ على شريعة من الأَمر) سبب نزولها أن رؤساء قريش دعَوا رسولَ الله ﷺ إلى مِلـَّة آبائه ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس [١] .

فأمّا قوله : (على شريعةٍ) فقال ابن قتيبة : [أي] على مِلـَّة ومذهب ، ومنه يقال : شَرَعَ فلان في كذا : إذا أخَذ فيه ، ومنه « مَشارِعُ الماء » وهي الفُرَض التي شرع فيها الوارد [٢] .

قال المفسرون : ثم جعلناك بعد موسى على طريقة من الأَمر ، أي : من الدِّين (فاتَّبِعْها) [٣] . و (الذين لايَعلمون) كفار قريش .

(إنَّهم لن يُغْنُوا عنك) أي : لن يَدْفَعوا عنك عذاب الله إن اتَّبعتَهم ، (وإنَّ الظالمين) يعني المشركين [٤] . (واللهُ وليُّ المُتَّقِينَ) الشركَ . والآية التي بعدها [مفسَّرة] في آخر (الأَعراف : ٢٠٣) .

---

(١) قال البغوي : وذلك أنهم كانوا يقولون له : ارجع إلى دين آبائك فانهم كانوا أفضل منك ، فقال الله جل ذِكره : (إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً) ، وكذلك قال الخازن . قال القرطبي : (ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون) قال ابن عباس : نزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه . وقال الآلوسي : (ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون) أي : آراء الجهال التـابعة للشهوات ، قال : والمراد بهم مايعم كل ضالّ ، وقيل : هم جهل قريظة والنضير ، وقيل : رؤساء قريش كانوا يقولون له ﷺ : ارجع إلى دين آبائك .

(٢) قال في « اللسان » : شَرَعَ الوارد شَرْعاً وشُروعاً : تناول الماء بفيه .

(٣) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذِكره لنبيه محمد ﷺ : (ثم جعلناك) يامحمد من بعد الذي آتينـا بني إسرائيل الذين وصفتُ لك صفتهم (على شريعة من الأمر) يقول : على طريقة وسُنَّة ومنهاج من أمرنا الذي أمرْنا به مَن قبلك من رسلنـا (فاتبعها) يقول : فاتَّبع تلك الشريعة التي جعلناها لك (ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون) يقول : ولا تتبع مادعاك إليه الجاهلون بالله الذين لايعرفون الحق من الباطل فتعمل به فتهلك إن عملت به . اهـ .

(٤) قال ابن كثير : (وإن الظالمين بعضهم أوليـاء بعض) أي : وما تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً ، لأنهم لايزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً . اهـ .

(أَمْ حَسِبَ الذين اجْتَرَحُوا السَّيِّئات) سبب نزولها أن كفار مكة قالوا للمؤمنين : إنّا نُعطى في الآخرة مثلما تُعْطَون من الأجر ، قاله مقاتل [١]. والاستفهام هاهنا استفهام إنكار . و « اجترحوا » بمعنى اكتسبوا .

(سواءً مَحياهم ومَماتُهم) قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وزيد عن يعقوب : « سواءً » نصباً ؛ وقرأ الباقون : بالرفع . فمن رفع ، فعلى الابتداء ؛ ومن نصب ، جعله مفعولاً ثانياً ، على تقدير : أن نجعل مَحياهم ومماتَهم سواءً ؛ والمعنى : إن هؤلاء يَحْيَون مؤمنين ويموتون مؤمنين ، وهؤلاء يَحْيَون كافرين ويموتون كافرين ؛ وشتّانَ ماهم في الحال والمآل (ساء ما يَحْكُمونَ) أي : بئس مايَقْضُون [٢] .

ثم ذكر بالآية التي تلي هذه أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أي : للحق والجزاء بالعدل ، لئلاّ يظُنَّ الكافرُ أنه لايُجزى بكفره .

---

(١) قال البغوي والخازن : نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين : لئن كان ماتقولون حقاً لنفضلنّ عليكم في الآخرة كما فضّلنا عليكم في الدنيا . وقال الآلوسي : والآية وإن كانت في الكفار على مانقل عن « البحر » ، وهو ظاهر ماروي عن الكلبي من أن عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا لعليٍّ كرّم الله تعالى وجهه ، وحمزة رضي الله عنه ، والمؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولئن كان ماتقولون حقاً لَحالُنا أفضلُ من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا ، فنزلت الآية : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات . . .) الخ ، قال : وهي متضمنة للردّ عليهم على جميع أوجهها ، كما يعرف بأدنى تدبر يستنبط منها تباين حالَي المؤمن العاصي والمؤمن الطائع . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) يقول تعالى ذكره : أم ظن الذين اجترحوا السيئات من الأعمال في الدنيا وكذّبوا رسل الله وخالفوا أمر ربهم وعبدوا غيره ، أن نجعلهم في الآخرة كالذين آمنوا بالله وصدّقوا رسله وعملوا الصالحات فأطاعوا الله وأخلصوا له العبادة دون ماسواه من الأنداد والآلهة ؟ ! كلاّ ما كان الله ليفعل ذلك ، لقد ميّز بين الفريقين ، فجعل حزب الايمان في الجنة ، وحزب الكفر في السعير . اهـ .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ . وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (أفرأيتَ مَنِ اتَّخذَ إلٰهه هواه) قد شرحناه في (الفرقان : ٤٣) . وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في الحارث بن قيس السهمي [1] .

قوله تعالى : (وأضلَّه اللهُ على عِلْم) أي : على عِلْمه السابق فيه أنه

---

(١) ذكر سبب النزول هذا القرطبي بدون سند ، قال : قال مقاتل : نزلت في الحارث ابن قيس السهمي أحد المستهزئين ، لأنه كان يعبد ماتهواه نفسه . اهـ . وقال الآلوسي : والآية نزلت على ماروي عن مقاتل في الحارث بن قيس السهمي ، كان لايهوى شيئاً إلا ركبه ، قال : وحكمها عام ، قال : وفيها من ذمّ اتباع هوى النفس مافيها . اهـ .

لايهتدي [١] (وَخَتَم على سمْعه) أي : طَبَع عليه فلم يسمع الهُدى (و) على (قَلْبه) فلم يعقل الهُدى وقد ذكرنا الغشاوة والختم في (البقرة : ٧) .

(فمَن يهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ؟ !) أي : مِنْ بعْدِ إضلاله إيّاه (أفلا تذكّرونَ) فتعْرِفوا قُدرته على مايشاء [٢] ؟ ! . وما بعد [هذا] مفسَّر في سورة (المؤمنون : ٣٧) [٣] إلى قوله : (وما يُهْلِكُنا إلّا الدَّهْرُ) أي : اختلاف الليل والنهار (وما لهم بذلك مِنْ عِلْمٍ) أي : ماقالوه عن عِلْم ، إنّما قالوه شاكّين فيه . ومن أجل هذا قال نبيّنا عليه الصلاة والسلام : « لاتَسُبّوا الدّهْر فانَّ الله هو الدَّهْر » [٤] ، أي : هو الذي يُهْلِكُكم ، لا ماتتوهّمونه من مرور الزمان . وما بعد هذا ظاهر ، وقد تقدم بيانه [البقرة : ٢٨ ، الشورى : ٧] إلى قوله : (يَخْسَرُ المُبطِلونَ) يعني المكذّبين الكافرين أصحابَ الأباطيل ؛

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وأضله الله على علم) يقول تعالى ذكره : وخذله عن محجة الطريق وسبيل الرشاد في سابق علمه على علم منه بأنه لايهتدي ولو جاءته كل آية . اهـ .

(٢) قال ابن جرير : وقوله : (فمن يهديه من بعد الله ؟ !) يقول تعالى ذكره : فمن يوفّقه لاصابة الحق وإبصار محجة الرشد بعد إضلال الله إياه ؟ ! (أفلا تذكّرون) أيها الناس فتعلموا أنّ من فعل الله به ماوصفنا ، فلن يهتديَ أبداً ، ولن يجد لنفسه ولياً مرشداً ؟ ! . اهـ .

(٣) في الأصل : « المؤمن » .

(٤) رواه بهذا اللفظ مسلم في « صحيحه » : ١٧٦٣/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال الامام النووي في « شرح مسلم » : أي لاتسبوا فاعل النوازل ، فانكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على الله تعالى ، لأنه هو فاعلها ومنزلها ، قال : وأما الدهر الذي هو الزمان ، فلا فعل له ، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى ، قال : ومعنى « فان الله هو الدهر » أي : فاعل النوازل والحوادث وخالق الكائنات ، والله أعلم . اهـ . وقال ابن كثير : قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ : « لاتسبوا الدهر فان الله هو الدهر » : كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة ، قالوا : ياخيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ، ويسبونه ، قال : وإنما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنهم إنما سبّوا الله عز وجل ـــ

والمعنى : يظهر خسرانُهم يومئذ . (وتَرَى كُلَّ أُمَّة) قال الفراء : ترى أهل كل دين (جاثيةً) قال الزجاج : أي : جالسة على الرُّكَب ، يقال : قد جثا فلان جُثُوّاً : إذا جلس على ركبتيه ، ومثلُه : جذا يَجْذو . والجُذُوُّ أشد استيفازاً من الجُثُوِّ ، لأن الجُذُوَّ : أن يجلس صاحبه على أطراف أصابعه . قال ابن قتيبة : والمعنى أنها غير مطمئنّة .

قوله تعالى : (كُلُّ أمَّةٍ تُدْعَى إلى كتابها) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كتابها الذي فيه حسناتها وسيّئاتها ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه حسابها [1] ، قاله الشعبي ، والفراء ، وابن قتيبة .

والثالث : كتابها الذي أنزل على رسوله ، حكاه الماوردي .

ويقال لهم : (اليومَ تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون) .

(هذا كتابُنا) وفيه ثلاثة أقوال أحدها : أنه كتاب الأعمال الذي تكتبه الحَفَظة ، قاله ابن السائب . والثاني : اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل . والثالث : القرآن ، والمعنى أنهم يقرؤونه فيدلُّهم ويُذكِّرُهم ، فكأنه يَنْطِق عليهم ، قاله ابن قتيبة .

ـــ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، قال ابن كثير : هذا أحسن ماقيل في تفسيره ، وهو المراد ، والله أعلم . اهـ . وللحديث ألفاظ أخر ، منها مارواه أحمد في « المسند » والبخاري ومسلم في « صحيحيهما » وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلّب ليله ونهاره » .

(١) في الأصل : « حسناتها » والتصويب من « غريب القرآن » .

قوله تعالى : (إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كنتم تعملون) أي : نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم ، أي : بكَتْبها وإثباتها . وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ ، من اللوح المحفوظ ، تَسْتَنْسِخُ الملائكةُ كلَّ عامٍ مايكون من أعمال بني آدم ، فيجدون ذلك موافقاً مايعملونه . قالوا : والاستنساخ لايكون إلّا مِنْ أصلٍ . قال الفراء : يرفع المَلَكان العملَ كلَّه ، فيُثْبِتُ اللهُ منه مافيه ثواب أو عقاب ، ويطرح منه اللَّغو . وقال الزجاج : نستنسخ ماتكتبه الحَفَظة ، ويثبت عند الله عز وجل .

قوله تعالى : (في رحمته) قال مقاتل : في جنَّته .

قوله تعالى : (أفَلَمْ تَكُنْ آياتي) فيه إضمار ، تقديره : فيقال لهم ألم تكن آياتي ، يعني آيات القرآن (تُتْلَى عليكم فاستَكْبَرتم) عن الإيمان بها (وكنتم قَوْماً مجرمين ؟!) قال ابن عباس : كافرين .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالساعَةُ لارَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَانَدْرِي مَالسَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّآتُ مَاعَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ . وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا وَمَأْوٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَايُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ . فَلِلّٰهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وإذا قيل إنَّ وعْدَ الله) بالبعث (حَقٌّ) أي : كائن (والساعةُ) قرأ حمزة : « والساعةَ » بالنصب « لارَيْبَ فيها » أي : كائنة بلا شك (قلتُم ماندري ماالسّاعةُ) أي : أنكرتموها (إنْ نَظُنُّ إلّا ظنّاً) أي : مانعلم ذلك إلا ظنّاً وحدْساً ، ولا نستيقن كونها .

وما بعد هذا قد تقدم [الزمر : ٤٨] إلى قوله : (وقيل اليومَ نَنْساكم) أي : نترككم في النار (كما نسيتم لقاء يومكم هذا) أي : كما تركتم الإيمانَ والعملَ للقاء هذا اليوم [1] .

(ذلكم) الذي فعلْنا بكم (بأنّكم اتّخذتم آياتِ الله هُزُواً) أي : مهزوءاً بها (وغرّتكم الحياةُ الدُّنيا) حتى قلتم : إنه لابَعْثَ ولا حساب (فاليومَ لايُخْرَجُونَ) وقرأ حمزة ، والكسائي : « لايَخْرُجُونَ » بفتح الياء وضم الراء . وقرأ الباقون : [« لايُخْرَجُونَ »] بضم الياء وفتح الراء (منها) أي : من النار (ولا هم يُسْتَعْتَبُونَ) أي : لايُطلب منهم أن يَرْجِعوا إلى طاعة الله عز وجل ، لأنه ليس بحين توبة ولا اعتذار .

قوله تعالى : (وله الكِبرياء) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : السُّلطان ، قاله مجاهد . والثاني : الشَّرَف ، قاله ابن زيد . والثالث : العَظَمة ،

---

(١) ثبت في « صحيح مسلم » : ٢٢٧٩/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : « ألم أكرمْكَ وأسوِّدْكَ ؟ ! (أي أجعلك سيّداً على غيرك) وأزوّجْكَ ، وأسخّرْ لك الخيل والابل ، وأذَرْكَ ترأسُ (أي تكون رئيس القوم) وتربَعُ ؟ ! (أي : تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة ، أي أخذتَ ربع أموالهم . ومعناه : ألم أجعلك رئيساً مطاعاً) ؟ ! فيقول : بلى ، قال : فيقول : أفظَنَنْتَ أنّك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فاني أنساك كما نسيتني (أي : أمنعك الرحمة كما امتنعت من طاعتي) » .

قاله يحيى بن سلام ، والزجاج [1] .

★ ★ ★

(١) قال ابن كثير : (وله الكبرياء في السموات والأرض) قال : قال مجاهد : يعني السلطان ، أي : هو العظيم الممجَّد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه ، قال : وقد ورد في الحديث الصحيح « يقول الله تعالى : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منها أسكنته ناري » . ثم قال في تتمة الآية : (وهو العزيز) أي الذي لايغالَب ولا يمانَع (الحكيم) في أقواله وأفعاله وشرعه وقدَره تعالى وتقدس لا إله إلا هو . اهـ .

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . مَاخَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمَّىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَاتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوَاتِ إِيتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

فصل في نزولها

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكيَّة ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والجمهور . وروي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : فيها آية مدنيَّة ، وهي قوله : (قُلْ أَرأيتُم إن كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ)[الأحقاف : ١٠] . وقال مقاتل : نزلت بمكة غير آيتين : قوله : (قُلْ أَرأيتُم إن كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ) [الأحقاف : ١٠] وقوله : (فاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) [الأحقاف : ٣٥] نزلتا بالمدينة . وقد تقدم تفسير فاتحتها [المؤمن ، الحجر : ٨٥]

إلى قوله : (وأجَلٍ مُسَمّىً) وهو أجَل فَنـاء السموات والأرض ، وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : (قل أرأيتم) مفسَّر في (فاطر : ٤٠) إلى قوله : (إيتوني بكتاب) ، وفي الآية اختصار ، تقديره : فان ادَّعَوْا أن شيئاً من المخلوقات صنعةُ آلهتهم ، فقل لهم : إيتوني بكتاب (مِنْ قَبْلِ هذا) أي : مِنْ قَبْلِ القرآن فيه برهانُ ماتدَّعون من أن الأصنام شركاء الله ، (أو أثارةٍ مِنْ عِلْمٍ) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الشيء يثيره مستخرجه ، قاله الحسن .

والثاني : بقيَّة مِنْ عِلْمٍ تُؤثَر عن الأوَّلِين ، قاله ابن قتيبة ، وإلى نحوه ذهب الفراء ، وأبو عبيدة .

والثالث : علامة مِنْ عِلْم ، قاله الزجاج [١] .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين ، وأيوب السختياني ، ويعقوب : « أثَرَةٍ » بفتح الثاء ، مثل شجرة . ثم ذكروا في معناها ثلاثة أقوال .

أحدهـا : أنه الخَطّ ، قاله ابن عباس ؛ وقـال : هو خَط كانت العرب تخُطـه في الأرض ، قال أبو بكر بن عيّاش : الخَطّ هو العِيافة .

والثاني : أو عِلْم تأثُرونه عن غيركم ، قاله مجاهد .

والثالث : خاصَّة مِنْ عِلْم ، قاله قتادة .

وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وابن يعمر : « أثْرَةٍ » بسكون الثاء من غير ألف بوزن نَظْرَةٍ [٢] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : الأثارة : البقية من علم ، قال : لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب . اهـ .

(٢) قال ابن جرير : والقراءة الـتي لا أستجيز غيرهـا (أو أثارة مِنْ عِلْمٍ) بالألف ، لاجماع قرّاء الأمصار عليها . اهـ .

وقال الفراء : قرئت « أثارةٍ » و « أثرَةٍ » ، وهي لغات ، ومعنى الكل : بقيَّة مِنْ عِلْم ، ويقال : أو شيء مأثور من كتب الأولين ، فمن قرأ « أثارةٍ » فهو المصدر ، مثل قولك : السماحة والشجاعة ، ومن قرأ « أثرَةٍ » فانه بناه على الأثَر ، كما قيل : قتَرة ، ومن قرأ « أثْرَةٍ » فكأنه أراد مثل قوله : « الخَطْفَة » [الصافات : ١٠] و « الرَّجْفَة » [الأعراف : ٧٨] .

وقال اليزيدي : الأثارة : البقيَّة ؛ والأثَرَة ، مصدر أثرَه يأثُرُه ، أي : يذكُره ويَرويه ، ومنه : حديثٌ مأثور .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (مَنْ لَا يستجيبُ له) يعني الأصنام [1] (وهم عن دعائهم غافلون) لأنها جماد لاتسمع ، فاذا قامت القيامة صارت الآلهة أعداءً لعابديها في الدنيا [2] . ثم ذكر [بما] بعد هذا أنهم يسمُّون القرآن سِحْراً وأن محمداً افتراه .

---

(١) وأول الآية : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة) . قال ابن جرير : يقول تعالى ذِكره : وأيُّ عبد أضل من عبد يدعو من دون الله آلهةً (لايستجيب له إلى يوم القيامة) يقول : لايجيب دعاءه أبداً ، لأنها حجر أو خشب أو نحو ذلك .

(٢) قال ابن جرير : وقوله : (وهم عن دعائهم غافلون) يقول تعالى ذِكره : وآلهتهم التي ـــ

قوله تعالى : (فلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً) أي : لاتقدرون على أن تَرُدُّوا عني عذابَه ، أي : فكيف أفتري مِنْ أجلكم وأنتم لاتقدرون على دفع عذابه عنّي ؟! (هو أعلمُ بما تُفيضونَ فيه) أي : بما تقولون في القرآن وتخوضون فيه من التكذيب والقول بأنه سِحْر (كفى به شهيداً بيني وبينكم) أن القرآن جاء مِنْ عندِ الله (وهو الغفور الرحيم) في تأخير العذاب عنكم . وقال الزجاج : إنما ذكر هاهنا الغُفران والرَّحمة ليُعْلِمَهم أنَّ من أتى ما أتيتُم ثم تاب فان الله تعالى غفور له رحيم به .

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَايُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إنْ أَتَّبِعُ إلَّا مَايُوحَى إلَيَّ وَمَا أَنَا إلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ . قُلْ أرَأَيْتُمْ إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ عَلَى مِثْلِه فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إنَّ اللهَ لايَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل ما كنتُ بِدْعاً من الرُّسُل) أي : ما أنا بأوَّل رسول [1] . والبِدْع والبديع من كل شيء : المبتدأ (وما أدري مايُفْعَلُ بِي ولا بِكُم) وقرأ ابن يعمر ، وابن أبي عبلة : « مايَفْعَلُ » بفتح الياء ثم فيه قولان .

ـــ يدعونهم عن دعائهم إياهم في غفلة ، لأنها لاتسمع ولا تنطق ولا تعقل ، قال : وإنما عنى بوصفها بالغفلة تمثيلها بالانسان الساهي عما يقال له ، إذ كانت لاتفهم مما يقال لها شيئاً ، كما لايفهم الغافل عن الشيء ماغفل عنه ، قال : وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم وقبح اختيارهم في عبادتهم من لايعقل شيئاً ولا يفهم ، وتركهم عبادة مَن جميع مابهم من نعمته ، ومَن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الجوائح والمصائب . اهـ .

(١) قال ابن كثير : أي لست بأول رسول طرق العالم ، بل قد جاءت الرسل من قبلي ، فما أنا بالأمر الذي لانظير له حتى تستنكروني وتستبعدون بعثتي إليكم ، فانه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم . اهـ .

أحدهما : أنه أراد بذلك مايكون في الدنيا . ثم فيه قولان .

أحدهما : [أنه] لمـّا اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ ، رأى في المنام أنه هاجر إلى أرضٍ ذاتِ نخلٍ وشجرٍ وماء ، فقصَّها على أصحابه ، فاستبشَروا بذلك لِما يلقَون من أذى المشركين . ثم إنهم مكثوا بُرهة لايرَوْن ذلك ، فقالوا : يارسول الله متى نُهاجِر إلى الأرض التي رأيتَ ؟ فسكت رسولُ الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : « وما أدري مايُفعَلُ بِي ولا بِكُم » ، يعني لا أدري ، أخرُجُ إلى الموضع الذي رأيتُه في منامي أم لا ؟ ثم قال : « إنما هو شيء رأيتُه في منامي ، وما (أتَّبع إلّا مايوحَى إليَّ) » ، رواه أبو صالح عن ابن عباس (١) وكذلك قال عطية : ما أدري هل يتركني بمكة أو يُخرجني منها .

والثاني : ما أدري هل أُخرَج كما أُخرِج الأنبياءُ قبلي ، أو أُقتَل كما قُتِلوا ، ولا أدري مايُفعَل بكم ، أتعذَّبونَ أم تؤخَّرونَ ؟ أتُصدِّقونَ أم تُكذِّبونَ ؟ قاله الحسن .

والقول الثاني : أنه أراد مايكون في الآخرة (٢) . روى ابن أبي طلحة عن

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٥ هكذا بدون سند عن أبي صالح عن ابن عباس . وكذلك ذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند ، والله أعلم .

(٢) قال ابن كثير : /قال أبو بكر الهذلي عن الحسن البصري في قوله تعالى : (وما أدري مايفعل بي ولا بكم) قال : أما في الآخرة ، فمعاذ الله ، وقد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدري مايفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرَج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتَل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمَوْن بالحجارة ؟ قال : وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير الطبري ، وإنه لايجوز غيره ، قال : ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ ، فانه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتّبعه ، وأما في الدنيا ، فلم يدر ماكان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى مـــاذا ، أيؤمنون ، أم يكفرون فيعذّبون فيستأصلون بكفرهم ؟ ا هـ .

ابن عباس قال : لمّا نزلتْ هذه الآية ، نزل بعدها (لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ ماتقدَّم مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّر) [الفتح : ٢] وقال : (لِيُدْخِلَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنّات . . .) الآية [الفتح : ٥] فأُعلم مايُفْعَل به وبالمؤمنين [١] . وقيل : إن المشركين فرحوا عند نزول هذه الآية وقالوا : ما أمرُنا وأمرُ محمد إلّا واحد ، ولولا أنه ابتدع مايقوله لأخبره الذي بعثه بما يفعل به ، فنزل [٢] قوله : (لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ . . .) الآية [الفتح : ٢] ، فقال الصحابة : هنيئاً لك يارسول الله ، فماذا يُفْعَل بنا ؟ فنزلت : (لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جنّاتٍ . . .) الآية [الفتح : ٥] [٣] ؛ وممن ذهب إلى هذا القول أنس ، وعكرمة ، وقتادة . وروي عن الحسن ذلك .

قوله تعالى : (قُلْ أرأيتُم إنْ كان مِنْ عِنْدِ اللهِ) يعني القرآن (وكَفَرْتُم به وشَهِدَ شاهدٌ مِنْ بني إسرائيل) وفيه قولان .

أحدهما : أنه عبد الله بن سلام ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

والثاني : أنه موسى بن عمران عليه السلام ، قاله الشعبي ، ومسروق .

فعلى القول الأول يكون ذكر المثل صلة ، فيكون المعنى : وشهد شاهد من بني إسرائيل عليه ، أي : على أنه من عند الله ، (فآمن) الشاهد ، وهو ابن سلام (واستَكْبَرتُم) يامعشر اليهود .

وعلى الثاني يكون المعنى : وشَهِد موسى على التوراة التي هي مِثْل القرآن

---

(١) رواه بنحوه مختصراً الطبري : ٢٦/٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٨/٦ بنحوه ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنها .

(٢) في الأصل : فنزلت .

(٣) هكذا ذكره البغوي والخازن بدون سند ، وذكره بنحوه مختصراً أحمد في « المسند » والبخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

أنها من عند الله ، كما شهد محمد على القرآن أنه كلام الله ، « فآمن » مَنْ آمن بموسى والتوراة « واستكبرتم » أنتم يامعشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن .

فان قيل : أين جواب « إنْ » ؟ قيل : هو مُضْمَر ؛ وفي تقديره ستة أقوال . أحدها : أن جوابه : فَمَنْ أَضَلُّ منكم ، قاله الحسن . والثاني : أن تقدير الكلام : وشَهِد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثله فآمن ، أتؤمنون ؛ قاله الزجاج . والثالث : أن تقديره : أتأمنون عقوبة الله ؛ قاله أبو علي الفارسي . والرابع : أن تقديره : أفما تهلكون ؛ ذكره الماوردي . والخامس : مَن المُحِقُّ منّا ومنكم ومَن المُبْطِل ؛ ذكره الثعلبي . والسادس : أن تقديره : أليس قد ظَلَمْتُمْ ؛ ويدُلُّ على هذا المحذوف قوله : (إنَّ الله لايَهْدِي القومَ الظالمين) ، ذكره الواحدي .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَاسَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ . وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ . إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أُولٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَاعَمِلُوا

وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقال الذين كفَرَوا للذين آمَنوا . . .) الآية ، في سبب نزولها خمسة أقوال .

أحدها : أن الكفـار قالوا : لو كان دين محمد خيراً ماسبقَنـا إليه اليهودُ ، فنزلت هذه الآية ، قاله مسروق .

والثاني : أن امرأة ضعيفة البَصر أسلمتْ ، وكان الأشراف من قريش يهزؤون بها ويقولون : واللهِ لو كان ماجاء به محمد خيراً ماسبقتْنـا هذه إليه ، فنزلت هذه الآية ، قـاله أبو الزناد .

والثالث : أن أبا ذر الغفاري أسلم واستجاب به قومه إلى الإسلام ، فقـالت قريش : لو كان خيراً ماسبقونا إليه ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو المتوكل .

والرابع : أنه لمـّا اهتدت مُزَيْنَةُ وجُهَيْنَةُ وأسلمتْ ، قالت أسَد وغَطَفان : لو كان خيراً ماسبقنـا إليه رِعـاءُ الشّاء ، يعنون مُزَيْنَةَ وجُهَيْنَةَ ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب .

والخامس : أن اليهود قالوا : لو كاد دين محمد خيراً ماسبقْتمونا إليه ، لأنه لاعِلْمَ لكم بذلك ، ولو كان حَقّاً لدخَلْنا فيه ، ذكره أبو سليمان الدمشقي وقال : [هو قول مَنْ يقول : إن الآية نزلت بالمدينة ؛ ومن قال : هي مكية ، قال] : هو قول المشركين . فقد خرج في « الذين كفروا » قولان . أحدهما : أنهم المشركون . والثاني : اليهود .

وقوله : (لو كان خيراً) أي : لو كان دين محمد خيراً (ماسبَقونا إليه) .

فمن قال : هم المشركون ، قال : أرادوا : إنّا أعزّ وأفضل ؛ ومن قال : هم اليهود ، [قال] : أرادوا : لأنّا أعلم .

قوله تعالى : (وإذْ لَمْ يَهتدُوا به) أي : بالقرآن (فسيقولون هذا إفْكٌ قديم) أي : كذب متقدّم ، يعنون أساطير الأولين .

(ومِنْ قَبْلِهِ كتابُ موسى) أي : مِنْ قَبْلِ القرآن التوراةُ . وفي الكلام محذوف ، تقديره : فلَمْ يهتدوا ، لأن المشركين لم يهتدوا بالتوراة .

(إماماً) قال الزجاج : هو منصوب على الحال (ورحمةً) عطف عليه (وهذا كتابٌ مُصَدِّقٌ) المعنى : مصدِّقٌ للتوراة (لساناً عربيّاً) منصوب على الحال ؛ المعنى : مصدِّقٌ لِما بينَ يديه عربيّاً ؛ وذكر « لساناً » توكيداً ، كما تقول : جاءني زيد رجلاً صالحاً ، تريد : جاءني زيدٌ صالحاً .

قوله تعالى : (لِيُنْذِرَ الذين ظَلَمُوا) قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « لِيُنْذِرَ » بالياء . وقرأ نافع ، وابن عامر ، ويعقوب : « لِتُنْذِرَ » بالتاء . وعن ابن كثير كالقراءتين . و « الذين ظلموا » المشركون (وبُشرى) أي : وهو بُشرى (للمُحْسِنِينَ) وهم الموحِّدون يبشّرهم بالجنة .

وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [فصلت : ٣٠] إلى قوله : (بوالدَيْه حُسْناً) وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « إحساناً » بألف .

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « كَرْهاً » بفتح الكاف ؛ وقرأ الباقون : بضمها . قال الفراء : والنحويّون يستحبّون الضّمّ هاهنا ، ويكرهون الفتح ، للعلّة التي بيّنّاها عند قوله : (وهُوَ كُرْهٌ لكم) [البقرة : ٢١٦] . قال الزجاج : والمعنى : حملتْه على مشقّة (ووضعتْه) على مشقّة[١] .

(١) قال ابن كثير : (حملته أمه كرها) أي : قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً ـــ

(وفِصالُه) أي : فِطامُه . وقرأ يعقوب : « وفَصْلُهُ » بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف (ثلاثون شهراً) [١] . قال ابن عباس : « ووضعتْه كُرْهاً » يريد به شِدَّةَ الطَّلْق . واعلم أن هذه الُمدَّة ُقدِّرتْ لأقلِّ الحَمْل وأكثرِ الرَّضاع ؛ فأمّا الأشُدّ ، ففيه أقوال قد تقدَّمت ؛ واختار الزجاج أنه بلوغ ثلاث وثلاثين سنة ، لأنه وقت كمال الإنسان في بدنه وقوَّته واستحكام شأنه وتمييزه [٢] . وقال ابن قتيبة : أشُدُّ الرجُل غير أشُدِّ اليتيم ، لأن أشُدَّ الرجُل : الاكتهال والحُنْكَةُ وأن يشتدَّ رأيُه وعقلُه ، وذلك ثلاثون سنة ، ويقال : ثمان وثلاثون سنة ، وأشُدُّ الغُلام : أن يشتدَّ خَلْقُه ويتناهى نَبَاتُه [٣] . وقد ذكرنا بيان الأَشُد في (الأنعام : ١٥٣) وفي (يوسف : ٢٢) وهذا تحقيقه . واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ثلاثة أقوال .

أحدها : [أنها] نزلتْ في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وذلك أنه صَحِبَ رسولَ الله ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة وهم يريدون الشام في تجارة ، فنزلوا منزلاً فيه سِدْرَة ، فقعد رسولُ الله ﷺ في ظِلِّها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين ، فقال [له] : مَن الرَّجُل الذي في ظِلِّ السِّدْرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ،

ـــ من وحم وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة (ووضعته كرها) أي : بمشقة أيضاً من الطلق وشدته . اهـ .

(١) (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) قال ابن كثير : وقد استدل عليٌّ رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان (وفصاله في عامين) وقوله تبارك وتعالى : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) على أن أقلَّ مدة الحمل ستة أشهر ، قال : وهو استنباط قوي صحيح ، قال : ووافقه عليه عثمان رضي الله عنه وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم . اهـ .

(٢) (حتى إذا بلغ أشده) قال ابن كثير : أي : قوي وشب وارتجل (وبلغ أربعين سنة) أي : تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه . اهـ .

(٣) في النسخة الاستنبولية : بنيانه ، والذي في « اللسان » و « التاج » : وينتهي شبابه .

فقال : هذا واللهِ نبيٌّ ، وما استَظَلَّ تحتَها أحدٌ بعد عيسى إلّا محمدٌ نبيُّ الله ، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق ، فكان لايفارِق رسولَ الله ﷺ في أسفاره وحضره ، فلمّا نُبِّىء رسولُ الله ﷺ ـ وهو ابن أربعين سنة وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة ـ صدّق رسولَ الله ﷺ ، فلمّا بلغ أربعين سنة قال : ربِّ أوْزِعْني أن أشكُرَ نِعمتَكَ التي أنعمت عليَّ ، رواه عطاء عن ابن عباس [1] ، وبه قال الأكثرون ؛ قالوا : فلما بلغ أبو بكر أربعين سنة،دعا الله عز وجل بما ذكره في هذه الآية، فأجابه الله ، فأسلم والداه وأولادُه ذكورُهم وإناثُهم ، ولم يجتمع ذلك لغيره من الصحابة .

والقول الثاني : أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وقد شرحنا قصته في سورة (العنكبوت : ٨) ، وهذا مذهب الضحاك ، والسدي [2] .

والثالث : أنها نزلت على العموم ، قاله الحسن . وقد شرحنا في سورة (النمل : ١٩) معنى قوله : (أوزعني) .

قوله تعالى : (وأن أعمل صالحاً ترضاه) قال ابن عباس : أجابه الله ـ يعني أبا بكر ـ فأعتق تسعةً من المؤمنين كانوا يُعذَّبون في الله عز وجل ، ولم يُرِدْ شيئاً من الخير إلّا أعانه اللهُ عليه ، واستجاب له في ذُرّيته فآمنوا ، (إنّي تُبْتُ إليك) أي : رَجَعْتُ إلى كل ماتُحِبُّ [3] .

---

(١) هكذا ذكره الواحدي بتمامه في « أسباب النزول » : ٢١٦ من رواية عطاء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بدون سند . وقال السيوطي في « الدر » ٦/٤٠ : أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه (ووصينا الانسان بوالديه حسناً) إلى قوله : (وعْدَ الصدق الذي كانوا يوعدون) .

(٢) قال البغوي : قال السدي والضحاك : نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وقال الخازن : قيل : نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص . وانظر الجزء السادس من كتابنا هذا صفحة (٢٥٧) .

(٣) قال ابن كثير : (إني تبت إليك وإني من المسلمين) قال : وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدّد التوبة والانابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها . اهـ .

قوله تعالى : (أُولئك الذين نَتقبَّل عنهم أحسنَ ماعَمِلوا ونتجاوز عن سيِّئاتهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « يُتَقَبَّلُ » « ويُتَجَاوَزُ » بالياء المضمومة فيهما . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف : « نَتَقَبَّلُ » « ونَتَجَاوَزُ » بالنون فيهما . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو رجاء ، وأبو عمران الجوني : « يَتَقَبَّلُ » « ويَتَجَاوَزُ » بياء مفتوحة فيهما ، يعني أهل هذا القول والأحسن بمعنى الحَسَن .

(في أصحاب الجنة) أي : في جملة من يُتجاوز عنهم ، وهم أصحاب الجنة . وقيل : « في » بمعنى « مع » .

(وَعْدَ الصِّدْقِ) قال الزجاج : هو منصوب ، لأنه مصدر مؤكِّد لما قَبْله ، لأن قوله : « أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عنهم » بمعنى الوعد ، لأنه وعدهم القبول بقوله : « وَعْدَ الصِّدْقِ » ، يؤكِّد ذلك قوله : (الذي كانوا يُوعَدون) أي : على ألسنة الرُّسل في الدنيا [1] .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ

---

(١) قال ابن كثير : قال الله عز وجل : (أولئك الذين نتقبَّل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيِّئاتهم في أصحاب الجنة) أي : هؤلاء المتصفون بما ذكرنا ، التائبون إلى الله ، المنيبون إليه ، المستدركون مافات بالتوبة والاستغفار ، هم الذين نتقبَّل عنهم أحسن ماعملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم ، فنغفر لهم الكثير من الزَّلل ، ونتقبَّل منهم اليسير من العمل « في أصحاب الجنة » أي : هم في جملة أصحاب الجنة ، قال : وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأناب ، ولهذا قال تعالى : (وَعْدَ الصدق الذي كانوا يوعدون) . اهـ .

وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ . وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

قوله تعالى : (والذي قال لوالدَيْه أُفٍّ لكما) قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي . وأبو بكر عن عاصم : « أُفِّ لكما » بالخفض من غير تنوين . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : بفتح الفاء . وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم : « أُفٍّ » بالخفض والتنوين . وقرأ ابن يعمر : « أُفٌّ » بتشديد الفاء مرفوعة منوَّنة . وقرأ حميد ، والجحدري : « أُفّاً » بتشديد الفاء وبالنصب والتنوين . وقرأ عمرو بن دينار : « أُفُّ » بتشديد الفاء وبالرفع من غير تنوين . وقرأ أبو المتوكل ، [وعكرمة] ، وأبو رجاء : « أُفْ لكما » بإسكان الفاء خفيفة . وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران : « أُفِّيْ » بتشديد الفاء وياء ساكنة مُمالة . وروي عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قَبْلَ إسلامه ، كان أبواه يدعُوَانه إلى الإسلام ، وهو يأبى ، وعلى هذا جمهور المفسّرين . وقد روي عن عائشة أنها كانت تُنْكِر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن ، وتَحْلِفُ على ذلك وتقول : لو شئتُ لسمَّيتُ الذي نزلتْ فيه . قال الزجاج : وقول من قال : إنها نزلت في عبد الرحمن ، باطل بقوله : (أولئك الذين حقّ عليهم القَوْلُ) ، فأعلَمَ اللهُ أن هؤلاء لا يؤمنون ، وعبد الرحمن مؤمن ؛ والتفسير الصحيح أنها نزلت في الكافر العاقّ . وروي [عن] مجاهد أنها نزلت في عبد الله بن أبي بكر ، وعن

الحسن [أنها] نزلت في جماعة من كفار قريش قالوا ذلك لآبائهم [١] .

قوله تعالى : (وقد خَلَتِ القُرونُ مِنْ قَبْلِي) [٢] فيه قولان . أحدهما : مضت القُرون فلم يرجع منهم أحد ، قاله مقاتل . والثاني : مضت القُرون مكذِّبة بهذا ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (وهما يستغيثان اللهَ) أي : يَدعُوَان اللهَ له بالهدى ، ويقولان له : (ويلك آمِن) أي : صدِّق بالبعث ، (فيقول ماهذا) الذي تقولان (إلّا أساطيرُ الأوَّلِين) وقد سبق شرحها [الأنعام:٢٥] .

قوله تعالى : (أولئك) يعني الكفار (الذين حَقَّ عليهم القولُ) أي : وجب عليهم قضاء الله أنهم من أهل النار (في أُمم) أي : مع أُمم . فذكر اللهُ تعالى في الآيتين قَبْلَ هذه مَنْ بَرَّ والدَيْه وعَمِل بوصيّة الله عز وجل ، ثم ذكر مَنْ لم يَعْمَل بالوصيّة ولم يُطِعْ ربَّه ولا والدَيْه ، (إنهم كانوا خاسرِين) وقرأ ابن السميفع ، وأبو عمران : « أنَّهم » بفتح الهمزة .

ثم قال : (ولكلٍّ دَرَجاتٌ ممّا عَمِلوا) أي : منازل ومراتب بحسب ما اكتسبوه من إيمان وكفر ، فيتفاضل أهلُ الجنة في الكرامة ، وأهل النار في

(١) قال ابن كثير : (والذي قال لوالديه أفٍّ لكما) : هذا عامٌّ في كل من قال هذا ، قال : ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما ، فقوله ضعيف ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه ، قال : وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما ، قال : وفي صحة هذا نظر ، والله تعالى أعلم ، قال : وقال ابن جرير عن مجاهد : نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما ، قاله ابن جريج ، وقال آخرون : عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما ، وهذا أيضاً قول السدي ، قال : وإنما هذا عامٌّ في كل مَن عق والديه وكذب بالحق فقال لوالديه : أفٍّ لكما ، عقهما . اهـ .

(٢) وأول الآية : (والذي قال لوالديه أفٍّ لكما أتعدانني أن أُخرَج) أي : أن أُبعث (وقد خلت القرون من قبلي) .

العذاب (وليُوفِّيَهُمْ أعمالَهم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو : « وليُوفِّيَهُمْ » بالياء ، وقرأ الباقون : بالنون ؛ أي : جزاء أعمالهم .

قوله تعالى : (ويومَ يُعْرَضُ) المعنى : واذكُرْ لهم يومَ يُعْرَض (الذين كفَروا على النّار أذْهَبْتُمْ) أي : ويقال لهم : أذهبتم ، قرأ ابن كثير : [« آذْهَبْتُمْ » بهمزة مطوّلة [1] . وقرأ] ابن عامر : « أأذهبتم » بهمزتين . وقرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « أذْهَبْتُمْ » على الخبر ، وهو توبيخ لهم . قال الفراء والزجاج : [العرب] توبّخ بالألف وبغير الألف ، فتقول : أذْهَبْتَ وفعلت كذا ؟ ! و : ذهبتَ ففعلت ؟ ! قال المفسرون : والمراد بطيّباتهم : ما كانوا فيه من اللّذّات مشتغلين بها عن الآخرة مُعرِضين عن شُكرها . ولمّا وبّخهم اللهُ بذلك ، آثر النبيُّ ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم اجتنابَ نعيم العيش ولذّته ليتكامل أجرُهم ولئلا يُلهيَهم عن مَعادهم . وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على خَصَفة وبعضُه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوّة ليفاً ، فقال : يارسول الله : أنتَ نبيُّ الله وصفوتُه ، وكسرى وقيصر على سُرُر الذّهب وفُرُش الدّيباج والحرير ؟ ! فقال ﷺ : «ياعمر ، إن أولئك قوم عُجِّلت لهم طيّباتُهم ، وهي وشيكة الانقطاع ، وإنّا أُخِّرتْ لنا طيّباتُنا » [2] . وروى جابر بن عبد الله قال : رأى عمر بن الخطاب لحماً معلّقاً في يدي ، فقال : ماهذا ياجابر ؟ فقلت : اشتهيت لحماً فاشتريتُه ، فقال : أوَكلّما اشتهيت

---

(١) قال في « إتحاف فضلاء البشر » : وقرأ ابن كثير والداجوني عن هشام من طريق النهرواني ورويس بهمزتين محققة فمسهّلة مع عدم الفصل .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » من حديث ابن عباس رضي الله عنها وقال : صحيح على شرط مسلم ، ورواه ابن ماجه في « سننه » بنحوه من حديث ابن عباس أيضاً بإسناد صحيح ، وابن حبان في « صحيحه » من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بنحوه .

اشتريت ياجابر ؟! أما تخاف هذه الآية : « أذْهَبْتُم طيِّباتكم في حياتكم الدُّنيا »[١] .

وروي عن عمر أنه قيل له : لو أمرتَ أن نصنع لك طعاماً ألين من هذا ، فقال : إني سمعت الله عيَّر أقواماً فقال : « أذْهَبْتُمْ طيِّباتكم في حياتكم الدُّنيا » .

قوله تعالى : (تَسْتَكْبِرونَ في الأرض) أي : تتكبَّرون عن عبادة الله والإيمان به .

﴿ وَاذْكُرْ أخَا عادٍ إذْ أنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا اللهَ إنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا أجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . فَلَمَّا رَأوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ ألِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأمْرِ رَبِّهَا فَأصْبَحُوا لَا يُرَى إلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (واذْكُرْ أخا عادٍ) يعني هوداً (إذ أنذَرَ قومَه بالأحقاف) قال الخليل : الأحقاف : الرِّمال العظام وقال ابن قتيبة : واحد الأحقاف : حِقْف ، وهو من الرَّمْل : ما أشرَفَ من كُثبانه واستطال وانحنى . وقال ابن جرير : هو ما استطال من الرَّمْل ولم يبلُغ أن يكون جَبلاً .

واختلفوا في المكان الذي سمِّي بهذا الاسم على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه جبل بالشام ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

---

(١) ذكره بنحوه البغوي والخازن من رواية جابر بن عبد الله عن عمر بدون سند .

والثاني : أنه وادٍ ، ذكره عطية . وقال مجاهد : هي أرض . وحكى ابن جرير أنه وادٍ بين عُمان ومَهْرة . وقال ابن إسحاق : كانوا ينزِلون مابين عُمان وحَضْرَمَوْت ، واليمن كلّه .

والثالث : أن الأحقاف : رمال مشرِفة على البحر بأرض يقال لها : الشِّحْر ، قاله قتادة [١] .

قوله تعالى : (وقد خَلتِ النُّذُرُ) أي : قد مضت الرُّسُل مِنْ قَبْلِ هود ومِنْ بَعده بإنذار أُممها (ألّا تعبُدوا إلّا اللهَ) ؛ والمعنى : لم يُبعَث رسولٌ قَبْلَ هود ولا بعده إلّا بالأمر بعبادة الله وحده . وهذا كلام اعترض بين إنذار هود وكلامه لقومه . ثم عاد إلى كلام هود فقال : (إنّي أخافُ عليكم) .

قوله تعالى : (لِتأفِكَنا) أي : لِتَصْرِفَنا عن عبادة آلهتنا بالإفك .

قوله تعالى : (إنّما العِلْمُ عِنْدَ اللهِ) أي : هو يَعْلَم متى يأتيكم العذاب .

(فلمّا رأوْه) يعني مايوعَدون في قوله : « بما تَعِدُنا » (عارِضاً) أي : سحاب يعرُض من ناحية السماء . قال ابن قتيبة : العارض : السحاب . قال المفسرون : كان المطر قد حُبِس عن عاد ، فساق اللهُ إليهم سحابةً سوداء ، فلمّا رأوها فرحوا و (قالوا هذا عارضٌ مُمْطِرُنا) ، فقال لهم هود : (بل هو مااستَعْجَلْتم به) ، ثم بيّن ما هو فقال : (ريح فيها عذابٌ أليمٌ) ، فنشأت الرّيح من تلك السحابة ، (تُدمِّر كُلَّ شيء) أي : تُهْلِك كلَّ شيء مَرَّت به من الناس والدوابّ والأموال . قال عمرو بن ميمون : لقد كانت الرّيح تحتمل الظّعينة فترفعُها حتى تُرى كأنها جرادة ، (فأصبحوا) يعني عاداً (لا يُرَى إلّا مَساكِنُهم)

(١) قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تبارك وتعالى أخبر أن عاداً أنذرهم أخوهم هودٌ بالأحقاف ، قال : والأحقاف ماوصفت من الرمال المستطيلة المشرفة . اهـ .

قرأ عاصم ، وحمزة : « لا يُرَى » برفع الياء « إلاَّ مَساكِنُهم » برفع النون . وقرأ علي ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وقتادة ، والجحدري : « لا تُرَى » بتاء مضمومة . وقرأ أبو عمران ، وابن السميفع : « لا تَرَى » بتاء مفتوحة « إلاَّ مسكنَهم » على التوحيد . وهذا لأن السُّكَّان هلكوا ، فقيل : أصبحوا وقد غطَّتهم الرِّيح بالرَّمْل فلا يُرَوْن .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَاحَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

ثم خوَّف كفّار مكّة ، فقال عز وجل : (والقد مكَّنّاهم فيما إنْ مكَّنّاكم فيه) في « إنْ » قولان .

أحدها : أنهـا بمعنى « لَمْ » ، فتقديره : فيما لم نمكِّنكم فيه ، [قاله [1] ابن عباس ، وابن قتيبة . وقال الفراء : هي بمنزلة « ما » في الجحد ، فتقدير الكلام : في الذي لم نمكِّنكم فيه] .

والثاني : أنها زائدة ؛ والمعنى : فيما مكَّنّاكم فيه ، وحكاه ابن قتيبة أيضاً .

---

(١) في الأصل : قال ، والتصويب من كتب التفسير .

ثم أخبر أنه جعل لهم آلات الفهم، فلم يتدبَّروا بها ، ولم يتفكـَّروا فيما يدلـُّهم على التوحيد قال المفسرون : والمراد بالأفئدة : القلوب ؛ وهذه الآلات لم تردّ عنهم عذابَ الله [1].

ثم زاد كفـَّارَ مكة في التخويف ، فقال : (ولقد أهلـَكنا ما حولـَكم من القُرى) كديار عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من الأمم المُهلـَكة (وصرَّفنـا الآياتِ) أي : بيَّنـَّاها (لعلـَّهم) يعني أهل القُرى (يَرجِعونَ) عن كفرهم. وهاهنا محذوف ، تقديره : فما رَجَعوا عن كفرهم .

(فلولا) أي : فهلاّ (نَصَرَهم) أي : منعهم من عذاب الله (الذين اتـَّخَذوا مِنْ دون الله قُرباناً آلهةً ؟!) يعني الأصنام التي تقرَّبوا بعبادتها إلى الله على زعمهم ؛ وهذا استفهام إنكار ، معناه : لم ينصروهم (بل ضلـُّوا عنهم) أي : لم ينفعوهم عند نزول العذاب (وذلك) يعني دعاءَهم الآلهةَ (إفكُهـم) أي : كذبهم . وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وابن يعمر ، وأبو عمران : « وذلك أفـَّكَهم » بفتح الهمزة وقصرها وفتح الفاء وتشديدها ونصب الكاف . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن عباس ، وأبو رزين ، والشعبي ، وأبو العـالية ، والجحدري : « أفَكـَهم » بفتح الهمزة وقصرها ونصب الكاف والفاء [وتخفيفها] . قال ابن جرير : أي : أضلـَّهم . وقال الزجاج : معناهـا : صرَفهم عن الحق فجعلهم ضُلاّلاً . وقرأ ابن مسعود ،

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : ولقد مكنّا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها مالم نعطكم مثله ولا قريباً منه ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيءٍ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) أي : وأحاط بهم العذاب والنـَّكال الذي كانوا يكذّبون به ويستبعدون وقوعه ، أي : فاحذروا أيها المخاطَبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة . اهـ .

وأبو المتوكل: «آفِكُهم» بفتح الهمزة ومدّها وكسر الفاء وتخفيفها ورفع الكاف، أي: مُضِلُّهم.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى: (وإذ صَرَفْنا إليك نَفَراً من الجِنِّ) وبَّخ اللهُ عز وجل بهذه الآية كُفّارَ قريش بما آمنتْ به الجِنُّ. وفي سبب صرفهم إلى النبي ﷺ ثلاثة أقوال.

أحدها: أنهم صُرِفوا إليه بسبب ما حدث من رجمهم بالشُّهُب. روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث ابن عباس قال: انطلَق رسولُ الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلتْ عليهم الشُّهُب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حِيل بيننا وبينَ خبر السماء وأُرسلتْ علينا الشُّهُب، قالوا: ما ذاك إلاّ من شيء حدث، فاضرِبوا مشارق الأرض ومغاربَها فانظروا ماهذا الأمر، فمرَّ النَّفرُ الذين توجَّهوا نحو تِهامة بالنبيِّ ﷺ وهو بـ «نَخْلَةَ»[1] وهو يصلِّي بأصحابه صلاة الفجر، فلمّا سمعوا

---

(١) موضع بين مكة والطائف، وهي التي ينسب إليها «بطن نخلة». قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: ووقع في رواية مسلم «بنخل» بلا هاء، والصواب إثباتها. اهـ.

القرآن تسمَّعوا له ، فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجَعوا إلى قومهم « فقالوا إنّا سَمِعْنا قرآناً عَجَباً . يَهدي إلى الرُّشْد » [الجن : ١ - ٢] فأنزل اللهُ على نبيّه « قُلْ أُوحِيَ إليَّ أنه استَمَعَ نَفَرٌ من الجِنِّ » [الجن:١] [١] .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجن ، ولا رآهم ، وإنما أتَوْه وهو بـ « نخلة » فسمعوا القرآن .

والثاني : أنهم صُرِفوا إليه ليُنْذِرهم ، وأُمِر أن يقرأ عليهم القرآن ، هذا مذهب جماعة ، منهم قتادة . وفي أفراد مسلم من حديث علقمة قال : قلت لعبد الله : من كان منكم مع النبيِّ ﷺ ليلةَ الجن ؟ فقال : ما كان منّا معه أحد ، فقدْناه ذاتَ ليلة ونحن بمكة ، فقلنا : اغتيل رسولُ الله ﷺ أو استُطير ، فانطلقْنا نطلبه في الشِّعاب ، فلقِيناه مُقبِلاً من نحو حِراء ، فقلنا : يا رسول الله ، أين كنتَ ؟ لقد أشفقنا عليك ، وقلنا له : بِتْنا الليلةَ بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قوم حين فَقَدْناكَ ، فقال : « إنه أتاني داعي الجن ، فذهبت أُقرِئهم القرآن » ، فذهبَ بنا ، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم [٢] . وقال قتادة : ذُكِر لنا أن رسول الله ﷺ قال : « إنّي أُمِرْتُ أن أقرأ على الجن ، فأيُّكم يَتبعُني ؟ » فأطرقوا ، ثم استتبعهم فأطرقوا ، ثم استتبعهم الثالثةَ فأطرقوا ، فأتبعه عبد الله بن مسعود ، فدخل نبيُّ الله ﷺ شِعْباً يقال له : « شِعْبُ الحَجون » ، وخطَّ على عبد الله خطّاً ليُثبته به ، قال : فسمعت لغطاً شديداً حتى خِفْتُ على نبيِّ الله ﷺ ، فلمّا رجَع قلت : يانبي الله ، ما اللغط

(١) رواه البخاري : ٢/٢١٠ ، و ٨/٥١٣ ، ومسلم : ١/٣٣١ ، والحديث أورده السيوطي في « الدر » : ٦/٢٧٠ ، وزاد نسبته لأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، والحاكم ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبي نعيم ، والبيهقي في « الدلائل » عن ابن عباس رضي الله عنهما

(٢) رواه مسلم : ١/٣٣٢ ورواية المصنف له عن مسلم بالمعنى . والحديث رواه أيضاً أحمد في « المسند » رقم (٤١٤٩) . وأورده السيوطي في « الدر » وزاد نسبته لعبد بن حميد ، والترمذي

الذي سمعتُ ؟ قال : « اجتَمعوا إليّ في قتيل كان بينهم ، فقضيت بينهم بالحق » [١] .

والثالث : أنهم مَرُّوا به وهو يقرأ ، فسمعوا القرآن . فذكر بعض المفسرين أنه لمّا يئس من أهل مكة أن يجيبوه ، خرج إلى الطائف ليدعوَهم إلى الإسلام ـ وقيل : ليلتمس نصرهم ـ وذلك بعد موت أبي طالب ، فلمّا كان ببطن نخلة قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر ، فمرّ به نفرٌ من أشراف جنِّ نصيبين ، فاستمعوا القرآن . فعلى هذا القول والقول الأول ، لم يعلم بحضورهم حتى أخبره الله تعالى ؛ وعلى القول الثاني ، علِمَ بهم حين جاؤوا [٢] . وفي المكان الذي سمِعوا فيه تلاوةَ النبيِّ ﷺ قولان . أحدها : الحَجون ، وقد ذكرناه عن ابن مسعود ، وبه قال قتادة . والثاني : بطن نخلة ، وقد ذكرناه عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

وأما النَّفَر ، فقال ابن قتيبة : يقال : إن النَّفَر مابين الثلاثة إلى العشرة . وللمفسرين في عدد هؤلاء النَّفَر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم كانوا سبعة ، قاله ابن مسعود ، وزِرُّ بن حبيش ، ومجاهد ، ورواه عكرمة عن ابن عباس .

---

(١) هذه الرواية مرسلة ، رواها ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة .

(٢) هذا الخبر من رواية ابن إسحق عن يزيد بن رومان عن محمد بن كعب القرظي . قال ابن كثير بعد أن سرد كثيراً من الروايات حول هذا الموضوع : فهذه الطرق كلها تدلّ على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً ، فتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وشرع الله تعالى لهم على لسانه ماهم محتاجون إليه في ذلك الوقت ، قال : وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه . قال : وأما ابن مسعود رضي الله عنه ، فانه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، قال : وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة ، قال : هذه طريقة البيهقي ، قال : وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره ، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى ، والله أعلم .

والثاني : تسعةٌ ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : اثني عشر ألفاً ، روي عن عكرمة ، ولا يصح ، لأن النَّفَر لا يُطلَق على الكثير .

قوله تعالى : (فلمّا حَضَروه) أي : حضروا استماعه ، و (قُضِيَ) يعني : فُرِغَ من تلاوته (ولَّوا إلى قومهم مُنْذِرِينَ) أي : محذِّرين عذاب الله عز وجل إن لم يؤمِنوا .

وهل أنذَروا قومَهم مِنْ قِبَل أنفُسِهم ، أم جعلَهم رسولُ الله رُسُلاً إلى قومهم ؟ فيه قولان .

قال عطاء : كان دِينُ أولئك الجِنِّ اليهوديةَ ، فلذلك قالوا : (مِنْ بَعْدِ موسى) .

قوله تعالى : (أجيبوا داعيَ اللهِ) يعنون محمداً ﷺ . وهذا يدُلُّ على أنه أُرسِلَ إلى الجن والإنس [١] .

قوله تعالى : (يَغْفِرْ لكم مِنْ ذُنوبكم) « مِنْ » هاهنا صلة [٢] .

---

(١) قال ابن كثير : فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والانس حيث دعاهم إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة (الرحمن) ، قال : ولهذا قال : (أجيبوا داعي الله وآمنوا به) .

(٢) وتتمة الآية : (ويُجِرْكم من عذاب أليم) أي : ويقيكم من عذابه الأليم ، قال ابن كثير : وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحيهم أن يُجاروا من عذاب النار يوم القيامة ، ثم قال : والحق أن مؤمنيهم كمؤمني الانس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف ، قال : وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عز وجل : (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانٌّ) قال : وفي هذا الاستدلال نظر ، قال : وأحسن منه ــ

قوله تعالى : (فليس بِمُعْجِزٍ في الأرض) [١] أي : لا يُعْجِزُ اللهَ تعالى (وليس له مِنْ دونِه أولياءُ) أي : أنصار يمنعونه من عذاب الله تعالى (أولئك) الذين لا يجيبون الرُّسل (في ضلالٍ مُبينٍ) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

ثم احتجَّ على إحياء الموتى بقوله : (أَوَلَمْ يَرَوْا . . .) إلى آخر الآية . والرُّؤية هاهنا بمعنى العِلْم [٢] .

(ولَمْ يَعْيَ) أي : لم يَعْجِزْ عن ذلك ؛ يقال : عَيَّ فلانٌ بأمره ، إذا لم يهتد له ولم يقدر عليه . قال الزجاج : يقال : عَيِيتُ بالأمر ، إذا لم تعرف وجهه ، وأعيَيْتُ ، إذا تعبتَ .

ـــ قوله جل وعلا : (ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان) فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، قال : وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الانس فقالوا : « ولا بشيء من آلائك ربنا نكذّب فلك الحمد » فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاءٍ لا يحصل لهم . اهـ .

(١) وأول الآية : (ومن لا يُجِبْ داعيَ الله) .

(٢) قال ابن كثير : يقول تعالى : أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة ، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ، أن الله الذي خلق السموات والأرض (ولم يعي بخلقهن) أي : ولم يكترثه خلقهن ، بل قال لها كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائعة مجيبة خائفة وجلة ، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟

قوله تعالى : (بقادرٍ) قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة مؤكِّدة . وقال الفراء : العرب تُدخل الباء مع الجحد، مثل قولك : ما أظنُّك بقائم ، وهذا قول الكسائي ، والزجاج . وقرأ يعقوب : « يَقْدِرُ » بياء مفتوحة مكان الباء وسكون القاف ورفع الراء من غير ألف . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (كما صَبَرَ أُولُو العَزْم) أي : ذوو الحَزْم والصَّبْر ؛ وفيهم عشرة أقوال .

أحدها : أنهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ، وابن السائب .

والثاني : نوح ، وهود ، وإبراهيم ، ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، قاله أبو العالية الرياحي .

والثالث : أنهم الذين لم تُصِبْهم فتنةٌ من الأنبياء ، قاله الحسن .

والرابع : أنهم العرب من الأنبياء ، قاله مجاهد ، والشعبي .

والخامس : أنهم إبراهيم ، وموسى ، وداود، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد، صلى الله عليهم وسلم ، قاله السدي .

والسادس : أن منهم إسماعيل ، ويعقوب ، وأيُّوب ، وليس منهم آدم ، ولا يونس ، ولا سليمان ، قاله ابن جريج .

والسابع : أنهم الذين أُمروا بالجهاد والقتال ، قاله ابن السائب ، وحكي عن السدي .

والثامن : أنهم جميع الرُّسل ، فان الله لم يَبْعَثْ رسولاً إلاّ كان من أُولي العزم ، قاله ابن زيد ، واختاره ابن الأنباري ، وقال : « مِنْ » دخلتْ للتجنيس لا للتبعيض ، كما تقول : قد رأيتُ الثياب من الخَزِّ والجِباب من القَزِّ .

والتاسع : أنهم الأنبياء الثمانية عشر المذكورون في سورة (الأنعام : ٨٣ ـ ٨٦) ، قاله الحسين بن الفضل .

والعاشر : أنهم جميع الأنبياء إلاّ يونس ، حكاه الثعلبي [١] .

قوله تعالى : (ولا تَسْتَعْجِلْ لهم) يعني العذاب . قال بعض المفسرين : كان النبيُّ ﷺ ضَجِر بعض الضَّجَر ، وأحبَّ أن ينزل العذاب بمن أبى من قومه ، فأُمِر بالصَّبْر .

قوله تعالى : (كأنَّهم يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدونَ) أي : من العذاب (لَمْ يَلْبَثُوا) في الدنيا (إلاّ ساعةً مِنْ نَهارٍ) لأن مامضى كأنه لم يكن وإن كان طويلاً . وقيل : لأن مقدار مَكْثهم في الدُّنيا قليلٌ في جَنْب مَكْثهم في عذاب الآخرة . وهاهنا تم الكلام . ثم قال : (بلاغٌ) أي : هذا القرآن ومافيه من البيان بلاغٌ عن الله إليكم .

وفي معنى وَصْفِ القرآنِ بالبلاغ قولان .

أحدهما : أن البلاغ بمعنى التبليغ .

والثاني : أن معناه : الكفاية ، فيكون المعنى : ما أخبرناهم به لهم فيه كفايةٌ وغِنىً .

وذكر ابن جرير وجهاً آخر ، وهو أن المعنى : لَمْ يَلْبَثُوا إلاّ ساعةً من نهار ، ذلك لُبْث بلاغ ، أي : ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى آجالهم ، ثُمَّ حُذفتْ « ذلك لُبْث » اكتفاء بدلالة ما ذُكِر في الكلام عليها .

---

(١) قال ابن كثير : وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ ، قال : قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي (الأحزاب) و (الشورى) .

وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران : « بَلِّغْ » بكسر اللام وتشديدها وسكون الغين من غير ألف .

قوله تعالى : (فهل يُهْلَكُ) وقرأ أبو رزين ، وأبو المتوكل ، وابن محيصن : « يَهْلِكُ » بفتح الياء وكسر اللام ، أي : عند رؤية العذاب (إلاّ القَوْمُ الفاسقونَ) الخارجون عن أمر الله عز وجل ؟! [1] .

★ ★ ★

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (فهل يُهلَكُ إلا القوم الفاسقون) يقول تعالى ذكره : فهل يهلك اللهُ بعذابه إذا أنزله إلا القومَ الذين خالفوا أمره وخرجوا عن طاعته وكفروا به ؟! قال : ومعنى الكلام : وما يهلك اللهُ إلا القوم الفاسقين . اهـ .

سورة محمّد

صلى الله عليه وسلم

وفيها قولان .

أحدهما : [أنها] مدنيَّة ، قاله الأكثرون ، منهم مجاهد ، ومقاتل وحُكي عن ابن عباس وقتادة أنها مدنيَّة ، إلا آية منها نزلت عليه بعد حجّه حين خرج من مكة وجعل ينظُر إلى البيت ، وهي قوله : (وكأيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هي أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ) [محمد : ١٣] .

والثاني : أنها مكيَّة ، قاله الضحاك ، والسدي .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ . فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ

فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾

قوله تعالى : (الذين كَفَرُوا) أي : بتوحيد الله (وصَدُّوا) الناس عن الإيمان به ، وهم مشركو قريش ، (أَضَلَّ أعمالَهم) أي : أبطلها ، ولم يجعل لها ثواباً ، فكأنَّها لم تكن ؛ وقد كانوا يُطْعِمُون الطَّعامَ ، ويَصِلون الأرحام ، ويتصدّقون ، ويفعلون مايعتقدونه قُرْبَةً .

(والذين آمَنوا وعملوا الصالحات) يعني أصحاب محمد رسول الله ﷺ .

(وآمَنوا بما نُزِّل على محمد) وقرأ ابن مسعود : « نَزَّلَ » بفتح النون والزّاي وتشديدها . وقرأ أُبيّ بن كعب ، ومعاذ القارىء : « أُنْزِلَ » بهمزة مضمومة مكسورة الزّاي . وقرأ أبو رزين ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران : « نَزَلَ » بفتح النون والزّاي وتخفيفها ، (كَفَّر عنهم سيِّئاتِهم) أي : غفرها لهم (وأَصْلَحَ بالَهم) أي : حالَهم ، قاله قتادة ، والمبرّد .

قوله تعالى : (ذلك) قال الزجاج : معناه : الأمرُ ذلك ، وجائز أن يكون : ذلك الإضلال ، لاتّباعهم الباطل ، وتلك الهداية والكفّارات باتّباع المؤمنين الحقّ ، (كذلك يَضْرِبُ اللهُ للناس أمثالَهم) أي : كذلك يبيّن أمثال حسنات المؤمنين وسيّئات الكافرين كهذا البيان .

قوله تعالى : (فضَرْبَ الرِّقابِ) إغراء ؛ والمعنى : فاقتُلوهم ، لأن الأغلب في موضع القتل ضربُ العُنق [1] (حتى إذا أثخنتموهم) أي : أكثرتم فيهم

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى مايعتمدونه في حروبهم مع المشركين : (فاذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرِّقاب) أي : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف . اه .

القتل (فشُدُّوا الوَثاقَ) يعني في الأَسر ؛ وإنما يكون الأَسر بعد المبالغة في القتل . و « الوَثاق » اسم من الإيثاق ؛ تقول : أوثقتُه إيثاقاً ووَثاقاً ، إذا شددتَ أسره لئلا يُفْلِت (فامّا مَنّاً بَعْدُ) قال أبو عبيدة : إمّا أن تَمُنُّوا ، وإمّا أن تفادوا ؛ ومثلُه : سَقْياً ، ورَعْياً ، وإنما هو سُقِيتَ ورُعِيتَ . وقال الزجاج : إمّا مَنَنْتُم عليهم بعد أن تأسِروهم مَنّاً ، وإمّا أطلقتُموهم بِفِداء .

فصل

وهذه الآية مُحكَمة عند عامّة العلماء . وممَّن ذهب إلى أنّ حُكم المَنِّ والفداء باقٍ لم يُنسَخ : ابنُ عمر ، ومجاهدٌ ، والحسنُ ، وابنُ سيرين ، وأحمدُ ، والشافعيُّ . وذهب قوم إلى نسخ المَنِّ والفداء بقوله : (فاقتُلوا المشركين حيثُ وجدتموهم[1]) ، وممن ذهب إلى هذا ابن جريج ، والسدي ، وأبو حنيفة . وقد أشرنا إلى القولين في (براءة : ٥) .

قوله تعالى : (حتَّى تَضَعَ الحربُ أوزارَها) قال ابن عباس : حتى لا يبقى أحد من المشركين . وقال مجاهد : حتى لا يكون دِينٌ إلاّ دِين الإسلام . وقال سعيد بن جبير : حتى يَخرُجَ المسيح . وقال الفراء : حتى لا يبقى إلاّ مُسْلِم أو مُسالِم . وفي معنى الكلام قولان .

أحدها : حتى يضعَ أهلُ الحرب سلاحَهم ؛ قال الأعشى :

وَأَعْدَدْتُ لِلحَرْبِ أَوْزَارَهَا : رِمَاحاً طِوَالاً وَخَيْلاً ذُكُورَا[2]

(١) في الأصل : « اقتلوا » بدل « فاقتلوا » .

(٢) ديوانه : ٩٩ ، و « غريب القرآن » : ٤٠٩ ، و « القرطبي » : ٢٢٩/١٦ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : وزر .

وأصل « الوِزْرِ » ما حملته ، فسمّى السلاح « أوزاراً » لأنه يُحمل ، هذا قول ابن قتيبة .

والثاني : حتى تضعَ حربُكم وقتالُكم أوزارَ المشركين وقبائح أعمالهم بأن يُسلِموا ولا يعبُدوا إلاّ الله ، ذكره الواحدي .

قوله تعالى : (ذلك) أي : الأمر ذلك الذي ذَكَرْنا (ولو يشاء اللهُ لانتَصَر منهم) بإهلاكهم أو تعذيبهم بما شاء (ولكنْ) أمركم بالحرب (لِيَبْلُوَ بعضَكم ببعض) فيُثيب المؤمن ويُكرمه بالشهادة ، ويُخزي الكافر بالقتل والعذاب .

قوله تعالى : (والذين قُتِلُوا) قرأ أبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « قُتِلُوا » بضم القاف وكسر التاء ؛ والباقون : « قاتَلُوا » بألف .

قوله تعالى : (سيَهدِيهم) فيه أربعة أقوال . أحدها : يَهديهم إلى أرشد الأمور ، قاله ابن عباس . والثاني : يحقّق لهم الهداية ، قاله الحسن . والثالث: إلى مُحاجّة منكَر ونكير . والرابع : إلى طريق الجنة ، حكاهما الماوردي .

وفي قوله : (عرّفها لهم) قولان .

أحدهما : عرّفهم منازلهم فيها فلا يستدِلّون عليها ولا يُخطِئونها ، هذا قول الجمهور ، منهم مجاهد ، وقتادة ، واختاره الفراء ، وأبو عبيدة .

والثاني : طيّبها لهم ، رواه عطاء عن ابن عباس . قال ابن قتيبة : وهو قول أصحاب اللغة ، يقال : طعامٌ معرّف ، أي : مطيّب .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، وابن محيصن : « عرَفَها لهم » بتخفيف الراء[1] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذِكره : سيوفّق الله تعالى ذِكره للعمل بما يرضى ويحبُّ هؤلاء الذين قاتلوا في سبيله (ويصلحُ بالهم) ويصلح أمرهم وحالهم في الدنيا والآخرة ـــ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ . إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ . وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

قوله تعالى : (إن تنصُروا اللهَ) أي : تنصُروا دينه ورسوله (ينصُرْكم) على عدوّكم (ويثبِّتْ أقدامَكم) عند القتال . وروى المفضل عن عاصم : « ويُثْبِتْ » بالتخفيف .

(والذين كَفَروا فتَعْساً لهم) قال الفراء : المعنى : فأتْعَسَهم اللهُ ، والدُّعاء قد يجري مجرى الأمر والنهي . قال ابن قتيبه : هو من قولك : تَعَسْتُ ،

—— (ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم) يقول : ويدخلهم الله جنته عرَّفها وبيَّنها لهم ، قال : حتى إن الرجل ليأتي منزله منها إذا دخلها كما كان يأتي منزله في الدنيا لايشكل عليه ذلك . اهـ . وروى البخاري في « صحيحه » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار ، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذّبوا ونُقّوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا » .

أي : عَثَرْتُ وسَقَطْتُ . وقال الزجاج : التَّعْسُ في اللغة : الانحطاط والعُثُور .
وما بعد هذا قد سبق بيانه [الكهف : ١٠٥ ، يوسف : ١٠٩] إلى قوله : (دمَّر اللهُ عليهم) أي : أهلكهم [اللهُ] [١] (وللكافرين أمثالُها) أي : أمثالُ تلك العاقبة .

(ذلك) الذي فعله بالمؤمنين من النصر ، وبالكافرين من الدَّمار (بأنَّ اللهَ مَوْلَى الذين آمَنوا) أي : وليُّهم .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (ويأكُلون كما تأكُل الأنْعامُ) [٢] أي : إن الأنْعام تأكُل وتَشرب ، ولا تَدري ما في غدٍ ، فكذلك الكفار لايلتفتون إلى الآخرة . و « المَثْوَى » : المَنزِل .

(وكأيِّن) مشروح في (آل عمران : ١٤٦) [٣] . والمراد بقريته : مكة ؛ وأضاف القوة والإخراج إليها ، والمراد أهلُها ، ولذلك قال : (أهلَكْناهم) .

قوله تعالى : (أفَمَن كان على بيِّنة من ربِّه) فيه قولان . أحدهما : أنه رسول الله ﷺ ، قاله أبو العالية . والثاني : أنه المؤمن ، قاله الحسن .

وفي « البيِّنة » قولان . أحدهما : القرآن ، قاله ابن زيد . والثاني : الدِّين ، قاله ابن السائب .

(كمَنْ زُيِّن له سوءُ عمله) يعني عبادة الأوثان ، وهو الكافر (واتَّبَعوا أهواءهم) بعبادتها [٤] .

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : (أفلم يسيروا) يعني المشركين بالله المكذِّبين لرسوله (في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمَّر الله عليهم) أي : عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم .

(٢) وأول الآية : (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) .

(٣) وأول الآية : (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك) .

(٤) يقول تعالى : (أفمن كان على بينة من ربه) أي : على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه ـــ

﴿ مَثَلُ الْجنَّةِ الَّتي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فيهَا أَنْهارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾

(مَثَلُ الجَنَّةِ التي وعد المتقون) أي : صِفَتُها ، وقد شرحناه في (الرعد : ٣٥) . و « المتَّقُون » عند المفسرين : الذين يتَّقون الشِّرك . و « الآسِن » المتغيِّر الرِّيح ، قاله أبو عبيدة ، والزجاج . وقال ابن قتيبة : هو المتغير الرِّيح والطَّعم ، و « الآجِن » نحوه . وقرأ ابن كثير : « غيرِ أسِنٍ » بغير مد . وقد شرحنا قوله (لَذَّةٍ للشَّارِبِينَ) في (الصافات : ٤٦) .

قوله تعالى : (من عسلٍ مُصَفًّى) أي : من عسل ليس فيه عكر ولا كدر كعسل أهل الدنيا .

قوله تعالى : (كَمَنْ هو خالدٌ في النار) قال الفراء : أراد : مَنْ كان في هذا النعيم ، كمن هو خالد في النار ؟! [1] .

قوله تعالى : (ماءً حميماً) أي : حارّاً شديد الحرارة . و « الأمعاء » جميع ما في

ـــ بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة (كمن زين له سوء عمله واتّبعوا أهواءهم) ؟ ! أي : ليس هذا كهذا ، كقوله تعالى : (أفمن يعلم أنمــا أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) ؟ ! ، وكقوله : (لايستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) . اهـ .

(١) قال ابن كثير : ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس مَن هو في الدرجات كمن هو في الدركات . اهـ .

البطن من الحوايا [١] .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ . فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم مَنْ يَسْتَمِعُ إليكَ) يعني المنافقين . وفيما يستمعون قولان . أحدها : أنه سماع خُطبة رسول الله ﷺ يومَ الجمعة . والثاني : سماع قوله على عموم الأوقات . فأمّا (الذين أوتوا العلم)، فالمراد بهم : علماء الصحابة .

قوله تعالى : (ماذا قال آنفاً) قال الزجاج : أي : ماذا قال الساعة ، وهو من قولك : استأنفتُ الشيء : إذا ابتدأته ، وروضة أُنُف : لم تُرْعَ ، أي : لها أوّل يُرْعى ؛ فالمعنى : ماذا قال في أوّل وقت يَقْرُبُ منّا . وحُدّثنا عن أبي عمر غلامِ ثعلب أنه قال : معنى « آنفاً » مُذْ ساعة . وقرأ ابن كثير ، في بعض الروايات عنه : « أَنِفاً » بالقصر ، وهذه قراءة عكرمة ، وحميد ، وابن محيصن . قال أبو علي : يجوز أن يكون ابن كثير توهّم ، مثل حاذِر وحَذِر ، وفاكِه وفَكِه .

وفي استفهامهم قولان . أحدها : لأنّهم لم يَعْقِلوا ما يقول ، ويدُلّ عليه باقي الآية . والثاني : أنهم قالوه استهزاءً .

قوله تعالى : (والذين اهْتَدَوْا) فيهم قولان . أحدها : أنهم المسلمون ،

---

(١) قال ابن جرير : وقوله : (وسقوا ماءً حميا فقطّع أمعاءهم) يقول تعالى ذِكره : وسُقي هؤلاء الذين هم خلود في النار ماءً قد انتهى حرّه ، فقطّع ذلك الماء من شدة حرّه أمعاءهم . اهـ .

قاله الجمهور . والثاني : قومٌ من أهل الكتاب كانوا على الإيمان بأنبيائهم وبمحمد ﷺ ، فلمّا بُعث محمدٌ ﷺ آمنوا به ، قاله عكرمة .

وفي الذي زادهم ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الله عز وجل والثاني : قول الرسول . والثالث : استهزاء المنافقين زاد المؤمنين هُدىً ، ذكرهن الزجاج . وفي معنى الهُدى قولان . أحدهما : أنه العِلْم . والثاني : البصيرة .

وفي قوله : (وآتاهم تقواهم) ثلاثة أقوال . أحدها : ثواب تقواهم في الآخرة ، قاله السدي . والثاني : اتّقاء المنسوخ والعمل بالناسخ ، قاله عطية . والثالث : أعطاهم التقوى مع الهُدى ، فاتَّقَوْا معصيته خوفاً من عقوبته ، قاله أبو سليمان الدمشقي [١] .

و (ينظُرونَ) بمعنى ينتظِرون ، (أن تأتِيَهم) وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو الأشهب ، وحميد : « إنْ تَأْتِهم » بكسر الهمزة من غير ياء بعد التاء . والأشراط : العلامات ؛ قال أبو عبيدة : الأشراط : الأعلام ، وإنما سمّي الشُّرَط ـ فيما نَرى ـ لأنهم أعلموا أنفُسهم . قال المفسرون : ظُهور النبيِّ ﷺ من أشراط الساعة ، وانشقاقُ القمر والدخانُ وغير ذلك [٢] .

---

(١) قال ابن كثير : (والذين اهتدوا زادهم هدىً) أي : والذين قصدوا الهداية ، وفّقهم الله تعالى لها ، فهداهم إليها ، وثبّتهم عليها ، وزادهم منها (وآتاهم تقواهم) أي : ألهمهم رشدهم . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل الذين أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين ، قال : وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله ، قال : ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليس بعده نبي . اهـ .

وروى البخاري في « صحيحه » ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا ، بالوسطى والتي تليها : « بعثت أنا والساعة كهاتين » .

(فأنّى لهم) أي : فمن أين لهم (إذا جاءتهم) الساعة (ذِكْراهم)؟!
قال قتادة : أنّى لهم أن يَذَّكَّروا ويتوبوا إذا جاءت ؟!

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾

قوله تعالى : (فاعْلَمْ أنه لا إله إلاّ اللهُ) قال بعضهم : اثْبُتْ على عِلْمك ، وقال قوم : المراد بهذا الخطاب غيره ؛ وقد شرحنا هذا في فاتحة (الأحزاب) .
وقيل : إنه كان يَضيق صدرُه بما يقولون ، فقيل له : اعْلَمْ أنه لا كاشفَ لما بكَ إلاّ اللهُ .

فأمّا قوله ؛(واستَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) فانه كان يَستغفر في اليوم مائة مرة [١] ، وأُمِر أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات إكراماً لهم لأنه شفيعٌ مُجابٌ [٢] .

(١) روى مسلم في « صحيحه » عن الأغرّ بن يسار المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » والمراد بالغين : أن يفتر عن الذكر الذي من شأنه أن يداوم عليه ، فاذا فتر عنه لأمرٍ ما عدَّ ذلك ذنباً فاستغفر منه . وروى البخاري في « صحيحه » عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك مااستطعت ، أعوذ بك من شر ماصنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فانه لايغفر الذنوب إلا أنت » قال : « ومن قالها في النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » .

(٢) روى أحمد في « مسنده » من حديث شعبة عن عاصم الأحول قال : سمعت ـــ

(واللهُ يَعْلَمُ متقلَّبَكم ومَثْواكم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مُتقلَّبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة ، وهو معنى قول ابن عباس .

والثاني : مُتقلَّبكم في أصلاب الرجال إلى أرحام النساء ، ومقامكم في القبور ، قاله عكرمة .

والثالث : « مُتقلَّبكم » بالنهار و « مثواكم » أي : مأواكم بالليل ، قاله مقاتل [1] .

قوله تعالى : (ويقول الذين آمَنوا لولا نُزِّلَتْ سُورةٌ) قال المفسرون : سألوا ربَّهم أن يُنزل سُورةً فيها ثواب القتال في سبيل الله ، اشتياقاً منهم إلى الوحي وحِرصاً على الجهاد ، فقالوا : « لولا » أي : هلا ؛ وكان أبومالك الأشجعي يقول : « لا » هاهنا صلة ، فالمعنى : لو أُنزلتْ سورة ، شوقاً منهم إلى الزيادة في العِلْم ، ورغبةً في الثواب والأجر بالاستكثار من الفرائض .

وفي معنى « مُحكَمة » ثلاثة أقوال . أحدها : أنها التي يُذْكَر فيها القتال ، قاله قتادة . والثاني : أنها التي يُذْكَر فيها الحلال والحرام . والثالث : التي لامنسوخ فيها ، حكاهما أبو سليمان الدمشقي .

ومعنى قوله : (وذُكِرَ فيها القتالُ) أي : فُرِضَ فيها الجهاد .

وفي المراد بالمرض قولان . أحدهما : النفاق ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والجمهور والثاني : الشكّ ، قاله مقاتل .

عبد الله بن سرجس قال : أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه ، فقلت : غفر الله لك يارسول الله ، فقال ﷺ : « ولك » فقلت (أي شعبة) : أستغفر لك ؟ قال : نعم ولكم ، وقرأ : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) » . قال ابن كثير : ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم الاحول به .

(١) والقول الثالث أولى كما قال ابن كثير .

قوله تعالى : (ينظُرونَ إليك) أي : يَشْخَصون نحوك بأبصارهم ينظرون نظراً شديداً كما ينظُر الشاخص ببصره عند الموت ، لأنهم يكرهون القتال ، ويخافون إن قعدوا أن يتبيَّن نفاقُهم .

(فأَوْلَى لهم) قال الأصمعي : معنى قولهم في التهديد : « أوْلَى لكَ » أي : وَلِيَكَ وقارَبَك ما تَكره . وقال ابن قتيبة : هذا وَعيدٌ وتهديد ، تقولُ للرجُل ـ إذا أردتَ به سوءاً ، فَفَاتَكَ ـ أوْلَى لكَ ، ثم ابتدأ ، فقال : (طاعَةٌ وقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . . .) . وقال سيبويه والخليل : المعنى : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثل . وقال الفراء : الطاعةُ معروفةٌ[1] في كلام العرب ، إذا قيل لهم : افعلوا كذلك ، قالوا : سَمعٌ وطاعةٌ ، فوصف [اللهُ] قولَهم قبل أن تنزل السُّورة أنهم يقولون : سمعٌ وطاعة ، فاذا نزل الأمر كرهوا . وأخبرني حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : قال الله تعالى : (فأولى) ، ثم قال : (لهم) أي : للذين آمنوا منهم (طاعةٌ) ، فصارت « أَوْلَى » وعيداً لِمَن كَرِهها ، واستأنف الطاعة بـ « لهم » ؛ والأول عندنا كلام العرب ، وهذا غير مردود ، يعني حديث أبي صالح . وذكر بعض المفسرين أن الكلام متصل بما قبله ؛ والمعنى : فأَوْلَى لهم أن يُطيعوا وأن يقولوا معروفاً بالإجابة .

قوله تعالى : (فاذا عَزَمَ الأمْرُ) قال الحسن : جَدَّ الأمْرُ . وقال غيره : جَدَّ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه في الجهاد ، ولَزِمَ فرضُ القتال ، وصار الأمر معروفاً عليه . وجواب « إذا » محذوف ، تقديره : فاذا عَزَمَ الأمْرُ نَكَلُوا ؛ يدُلُّ على المحذوف (فلَوْ صَدَقُوا اللهَ) أي : في إيمانهم وجهادهم (لكان خَيْراً لهم) من المعصية والكراهة .

---

(١) في الاصلين : مرفوعة .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا . إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ . فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

قوله تعالى : (فهل عَسَيْتُمْ إن توليتم) في المخاطَب بهذا أربعة أقوال .
أحدها : المنافقون ، وهو الظاهر . والثاني : منافقو اليهود ، قاله مقاتل . والثالث : الخوارج ، قاله بكر بن عبد الله المزني . والرابع : قريش ، حكاه جماعة منهم الماوردي .

وفي قوله : (تولَّيتم) قولان .

أحدها : أنه بمعنى الإعراض . فالمعنى : إن أعرضتم عن الإسلام (أن تُفسِدوا في الأرض) بأن تعودوا إلى الجاهلية يقتل بعضكم بعضاً ، ويُغير بعضكم على بعض ، ذكره جماعة من المفسرين .

والثاني : أنه من الولاية لأمور الناس ، قاله القرظي . فعلى هذا يكون معنى « أن تُفسِدوا في الأرض » : بالجَوْر والظُّلم .

وقرأ يعقوب : « وتَقْطَعوا » بفتح التاء والطاء وتخفيفها وسكون القاف[1] .
ثم ذمَّ من يريد ذلك بالآية التي بعد هذه .

---

(١) أي : وتقطعوا الأرحام.قال ابن كثير : وهذا نهي عن الافساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل قد أمر الله تعالى بالاصلاح في الأرض ، وصلة الأرحام ، وهو الاحسان إلى ـــ

وما بعد هذا قد سبق [النساء : ٨٢] إلى قوله : (أَمْ على قُلوب أقفالُها) « أَمْ » بمعنى « بَلْ » ، وذِكْر الأقفال استعارة ، والمراد أن القلب يكون كالبيت المُقفَل لا يَصِلُ إليه الهُدى . [قال مجاهد] : الرّان أيسرُ من الطَّبْع ، والطَّبْع أيسرُ من الإقفال ، والإقفال أشَدُّ ذلك كُلِّه . وقال خالد بن معدان : ما مِنْ آدميٍّ إلّا وله أربعُ أعيُنٍ ، عَيْنان في رأسه لِدُنياه وما يُصْلِحه من معيشته ، وعَيْنان في قَلْبه لِدِينه وما وَعَد اللهُ من الغَيْب ، فاذا أراد اللهُ بعبد خيراً أبصرتْ عيناه اللتان في قلبه ، وإذا أراد به غير ذلك طمس عليهما ، فذلك قوله : « أَمْ على قُلوبٍ أقفالُها »[1] .

قوله تعالى : (إنَّ الذين ارتَدُّوا على أدبارهم) أي : رجَعوا كُفّاراً ؛ وفيهم قولان . أحدهما : أنهم المنافقون ، قاله ابن عباس ، والسدي ، وابن زيد . والثاني : أنهم اليهود ، قاله قتادة ، ومقاتل (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى) أي : مِنْ بَعْدِ ما وَضَحَ لهم الحقُّ . ومن قال : هم اليهود ، قال : مِنْ بَعْدِ أن

ـــ الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال ، قال : وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة . اهـ . روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه » وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله » . وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ؟ قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذاك لك » ثم قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا إن شئتم : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) » .

(١) رواه الطبري : ٢٦/٥٧ وفي سنده ضعف .

تبيّن لهم وصفُ رسولِ الله ﷺ ونعتُه في كتابهم . و (سَوَّلَ) بمعنى زيَّن .
(وأمْلَى لهم) قرأ أبو عمرو ، وزيد عن يعقوب : « وأُمْلِيَ لهم » بضم الهمزة وكسر اللام وبعدها ياء مفتوحة . وقرأ يعقوب إلاّ زيداً ، وأبان عن عاصم كذلك ، إلاّ أنهما أسكنا الياء . وقرأ الباقون بفتح الهمزة واللام . وقد سبق معنى الإملاء [آل عمران: ١٧٨ ، الأعراف : ١٨٣] .

قوله تعالى : (ذلك) قال الزجاج : المعنى : الأَمْـرُ ذلك ، أي : ذلك الإضلال بقولهم (للذين كَرِهوا ما نَزَّلَ الله) وفي الكارهين قولان .

أحدهما : أنهم المنافقون ، فعلى هذا في معنى قوله : (سنُطيعُكم في بعض الأَمْر) ثلاثة أقوال . أحدها : في القُعود عن نُصرة محمد ﷺ ، قاله السدي . والثاني : في المَيْل إليكم والمظاهرة على محمد ﷺ . والثالث : في الارتداد بعد الإيمان ، حكاهما الماوردي .

والثاني : أنهم اليهود ، فعلى هذا في الذي أطاعوهم فيه قولان . أحدهما : في أن لا يصدِّقوا شيئاً من مقالة رسول الله ﷺ ، قاله الضحاك . والثاني : في كتْم ماعَلِموه من نُبوَّته ، قاله ابن جريج [1] .

(واللهُ يَعْلَمُ إسرارَهم) قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص عن عاصم ، والوليد عن يعقوب : بكسر الألف على أنه مصدر أسْرَرْتُ ؛ وقرأ الباقون : بفتحها على أنه جمع سِرٍّ ، والمعنى أنه يَعْلَم ما بين اليهود والمنافقين من السِّرِّ .

---

(١) قال ابن كثير : أي : مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل ، قال : وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف مايبطنون ، ولهذا قال الله عز وجل : (والله يعلم إسرارهم) أي : مايسرُّون وما يخفون ، والله مطّلع عليه وعالم به ، كقوله تبارك وتعالى : (والله يكتب مايبيّتون) . اهـ .

قوله تعالى : (فكيف إذا توفَّتْهم الملائكةُ) ؛ أي : فكيف يكون حالُهم حينئذ؟ وقد بيَّنَّا في (الأنفال : ٥٠) معنى قوله : (يَضْرِبونَ وجوهَهم وأدبارَهم) .

قوله تعالى : (وكَرِهوا رِضْوانَه) أي : كَرِهوا ما فيه الرِّضوان ، وهو الإيمان والطاعة .

﴿ أمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أعْمَالَكُمْ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أخْبَارَكُمْ . إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أعْمَالَهُمْ . يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أعْمَالَكُمْ . إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾

قوله تعالى : (أمْ حَسِبَ الذين في قُلوبهم مَرَضٌ) أي : نفاق (أنْ لن يُخْرِجَ اللهُ أضغانَهم) قال الفراء : أي لن يُبْدِيَ اللهُ عداوتَهم وبُغْضَهم لمحمد ﷺ . وقال الزجاج : أي : لن يُبْدِيَ عداوتَهم لرسوله ﷺ ويُظْهِرَهُ على نفاقهم[1] .

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ؟) أي : أيعتقد المنافقون أن الله لايكشف أمرهم لعباده المؤمنين ؟ ! بل سيوضح أمرهم ويجلّيه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، قال : وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة (براءة) فبيَّن فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالّة على نفاقهم ، قال : ولهذا كانت تسمى « الفاضحة » ، قال : والأضغان جمع ضغن ، وهو مافي النفوس من الحسد والحقد للاسلام وأهله والقائمين بنصره . اهـ .

﴿ ولو نشاء لأَرَيْناكهم ﴾ أي : لعرَّفْناكهم ، تقول : قد أَرَيْتُكَ هذا الأمر ، أي : قد عرَّفْتُكَ إيّاه ، المعنى : لو نشاء لجَعَلْنا على المنافقين علامة ، وهي السِّيماء ﴿ فلَعَرَفْتَهم بِسِيماهم ﴾ أي : بتلك العلامة ﴿ ولَتَعْرِفَنَّهم في لَحْنِ القَوْلِ ﴾ أي : في فحوى القَوْل ، فدلَّ بهذا على أن قول القائل وفعله يدُلُّ على نِيَّته . وقولُ الناس : قد لَحَنَ فلانٌ ، تأويله : قد أخذ في ناحية عن الصواب ، وعَدَلَ عن الصواب إليها ، وقول الشاعر :

مَنْطِقٌ صائِبٌ وتَلْحَنُ أحْيا نًا، وخَيْرُ الحديثِ ما كانَ لَحْنا [1]

تأويله : خير الحديث من مثل هذه ما كان لا يعرفه كلُّ أحد ، إنما يُعْرَفُ قولها في أنحاء قولها . قال المفسرون : ولَتَعْرِفَنَّهم في فحوى الكلام ومعناه ومقْصَده ، فإنهم يتعرَّضون بتهجين أمرك والاستهزاء بالمسلمين . قال ابن جرير : ثم عرَّفه اللهُ إيّاهم .

قوله تعالى : ﴿ ولَنَبْلُوَنَّكم ﴾ أي : ولَنُعامِلَنَّكم معامَلَةَ المُخْتَبِر بأن نأمرَكم بالجهاد ﴿ حتَّى نَعْلَمَ ﴾ العِلْم الذي هو عِلْم وجود ، وبه يقع الجزاء ؛ وقد شرحنا هذا في (العنكبوت : ٣) .

قوله تعالى : ﴿ ونَبْلُوَ أخبارَكم ﴾ أي : نُظْهِرها ونَكْشِفها بإباء من يأبى القتال ولا يَصْبِر على الجهاد . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « ولَيَبْلُوَنَّكم » بالياء « حتى يَعْلَمَ » بالياء « ويَبْلُوَ » بالياء فيهن . وقرأ معاذ القارىء ،

---

(١) البيت لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري ، وهو في « البيان والتبيين » : ١٤٧/١ ، و« الأمالي » : ٥/١ ، و« الصحاح » و« اللسان » و« التاج » : لحن . قال في « اللسان » : تأويله : وخير الحديث من مثل هذه الجارية ما كان لا يعرفه كلُّ أحد ، إنما يُعرفُ أمرها في أنحاء قولها .

وأيوب السختياني : « أخيارِكم » بالياء جمع « خير »[(١)].

قوله تعالى : (إن الذين كفروا . .) [الآية][(٢)] اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها في المُطْعِمِين يومَ بدر ، قاله ابن عباس[(٣)].

والثاني : أنها نزلت في الحارث بن سويد ، ووحوح الأنصاري ، أسلما ثم ارتدّا ، فتاب الحارث ورجع إلى رسول الله ﷺ ، وأبى صاحبه أن يَرْجِع حتى مات ، قاله السدي .

والثالث : أنها في اليهود ، قاله مقاتل .

والرابع : أنها في قريظة [والنضير] ، ذكره الواحدي[(٤)].

قوله تعالى : (ولا تُبْطِلوا أعمالكم)[(٥)] اختلفوا في مُبْطِلها على أربعة أقوال . أحدها : المعاصي والكبائر ، قاله الحسن . والثاني : الشَّكّ والنِّفاق ، قاله عطاء . والثالث : الرِّياء والسُّمعة ، قاله ابن السائب . والرابع : بالمَنّ[(٦)]، وذلك

---

(١) قال في « اللسان » : ورجلٌ خَيِّرٌ وخَيْرٌ ، مشدد ومخفف ، وامرأة خَيِّرَةٌ وخَيْرَةٌ ، والجمع أخيارٌ وخِيارٌ .

(٢) وتمامها : « وصَدُّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسولَ من بَعْدِ ماتبيَّن لهم الهُدى لن يضُرّوا الله شيئاً وسيُحبِطُ أعمالَهم » .

(٣) ذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند .

(٤) قال ابن كثير : يخبر تعالى عمن كفر وصدّ عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقّه وارتدّ عن الايمان من بعد ماتبيَّن له الهدى ، أنه لن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه ، ويخسرها يوم معادها ، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ماتقدم من عمله الذي عقّبه بردته مثقال بعوضة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية ، كما أن الحسنات يذهبن السيئات . اهـ .

(٥) والآية بتمامها : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) .

(٦) قال الشوكاني في « فتح القدير » : والظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال كائناً ما كان من غير تخصيص بنوع معيَّن . اهـ .

أن قوماً من الأعراب قدِموا على رسول الله ﷺ فقالوا : أتيناك طائعين ، فلنا عليك حق ، فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله : « يَمُنُّونَ عليكَ أن أسْلَموا » [الحجرات : ١٧] ، هذا قول مقاتل [١] . قال القاضي أبو يعلى : وهذا يدُلُّ على أن كُلَّ مَنْ دخل في قُرْبَة لم يَجُزْ له الخُروج منها قبل إتمامها ، وهذا على ظاهره في الحج ، فأمّا في الصلاة والصيام ، فهو على سبيل الاستحباب [٢] .

﴿ فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أعْمَالَكُمْ . إنَّمَا الحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أمْوَالَكُمْ . إنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أضْغَانَكُمْ . هَاأنْتُمْ هَؤلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الغَنِيُّ وَأنْتُمُ الفُقَرَاءُ وَإنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لايَكُونُوا أمْثَالَكُمْ ﴾

قوله تعالى : (فلا تَهِنُوا) أي : فلا تَضْعُفوا (وتَدْعوا إلى السَّلْم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « إلى السَّلْم » بفتح السين ؛ وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر السين ، والمعنى : لاتَدْعُوا الكفار إلى الصلح ابتداءاً . وفي هذا دلالة على أنه لايجوز طلب الصُّلح من المشركين ، ودلالة على أن النبي ﷺ لم يدخل مكة صلحاً ، لأنه نهاه عن الصُّلح .

(١) ذكره البغوي عن مقاتل بدون سند .

(٢) روى أحمد والبيهقي بسند جيد عن أم هانىء رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ شرب شراباً ، فناولها لتشرب ، فقالت : إني كنت صائمة ، ولكني كرهت أن أرد سؤرك ، فقال : « إن كان قضاءً من رمضان ، فاقضي يوماً مكانه ، وان كان تطوعاً ، فان شئت فاقضي ، وان شئت فلا تقضي » .

قوله تعالى : (وأنتم الأعْلَوْنَ) أي : أنتم أعزُّ منهم، والحُجَّة لكم، وآخرُ الأمر لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات [1] (والله معكم) بالعَوْن والنُّصرة (ولن يَتِرَكُمْ) قال ابن قتيبة : أي : لن يَنْقُصَكم ولن يَظْلِمَكم، يقال : وَتَرْتَني حقِّي، أي : بَخَسْتَنيه . قال المفسرون : المعنى : لن يَنْقُصَكم من ثواب أعمالكم شيئاً .

قوله تعالى : (ولا يَسألكم أموالكم) [2] أي : لن يَسألَكُموها كُلَّها .

قوله تعالى : (فيُحْفِكُم) قال الفراء : يُجْهِدكم . وقال ابن قتيبة : يُلِحّ عليكم بما يوجبه في أموالكم (تبخلوا) ، [يقال : أحْفاني بالمسألة وألْحَف : إذا ألحَّ . وقال السدي : إن يسألكم جميعَ ما في أيديكم تبخلوا] .

(ويُخْرِجْ أضغانكم) وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وابن يعمر : « ويُخْرَج » بياء مرفوعة وفتح الراء « أضغانُكم » بالرفع . وقرأ أُبيُّ بن كعب، وأبو رزين، وعكرمة، وابن السميفع، وابن محيصن، والجحدري : « وتَخْرُج » بتاء مفتوحة ورفع الراء « أضغانُكم » بالرفع . وقرأ ابن مسعود، والوليد عن

---

(١) قال ابن كثير : (فلا تهنوا) أي : لا تضعفوا عن الأعداء (وتدعوا إلى السَّلْم) أي : إلى المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوَّتكم وكثرة عددكم وعُددكم، قال : ولهذا قال : (فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون) أي : في حال علوِّكم على عدوكم، قال : فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جمع المسلمين، ورأى الامام في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ حين صدَّه كفار قريش عن مكة ودَعوْه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك . اهـ .

(٢) والآية بتمامها : (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجورَكم ولا يسألكم أموالكم) .

يعقوب : « ونُخْرِج » بنون مرفوعة وكسر الراء « أضغانَكم » بنصب النون، أي : يُظهر بُغضَكم وعداوتكم لله ولرسوله ﷺ ؛ ولكنه فرض عليكم يسيراً .

وفيمن يضاف إليه هذا الإخراج وجهان .

أحدهما : إلى الله عز وجل . والثاني : البخل ، حكاهما الفراء . وقد زعم قوم أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة ، وليس بصحيح ، لأنّا قد بيّنّا أن معنى الآية : إنْ يسألكم جميعَ أموالكم ؛ والزكاة لاتنافي ذلك .

قوله تعالى : (ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقوا في سبيل الله) يعني ما فرض عليكم في أموالكم (فمنكم من يَبْخَلُ) بما فُرض عليه من الزكاة (ومَنْ يَبْخَلْ فإنما يَبْخَلُ عن نَفْسه) أي : على نفسه بما ينفعُها في الآخرة (واللهُ الغنيُّ) عنكم وعن أموالكم (وأنتم الفقراءُ) إليه وإلى ماعنده من الخير والرحمة (وإن تتولَّوا) عن طاعته (يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غيرَكم) أطوعُ له منكم (ثُمَّ لايكونوا أمثالَكم) بل خيراً منكم . وفي هؤلاء القوم ثمانية أقوال .

أحدها : أنهم العجم ، قاله الحسن . وفيه حديث يرويه أبو هريرة قال : لمّا نزلت « وإن تتولَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غيرَكم » كان سلمان إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا [1] : يارسول الله ، مَنْ هؤلاء الذين إذا تولّينا استُبْدِلوا بنا ؟ فضرب رسولُ الله ﷺ [يدَه] على مَنكِب سلمان ، فقال : « هذا وقومُه ، والذي نفسي بيده ، لو أن الدّين معلّق بالثريّا لتناوله رجال من فارس » [2] . والثاني : فارس والروم ، قاله

(١) في الاصل : فقال .

(٢) رواه ابن جرير الطبري : ٢٦/٦٦ ، وفي سنده مسلم بن خالد المخزومي المعروف بالزنجي ، قال الحافظ ابن حجر عنه في « التقريب » : فقيه صدوق كثير الأوهام ، وذكره ـــ

عكرمة . والثالث : من يشاء من جميع الناس ، قاله مجاهد . والرابع : يأتي بخلق جديد غيركم ، وهو معنى قول قتادة . والخامس : كندة والنخع ، قاله ابن السائب . والسادس : أهل اليمن ، قاله راشد بن سعد ، وعبد الرحمن بن جبير ، وشريح ابن عبيد . والسابع : الأنصار ، قاله مقاتل . والثامن : أنهم الملائكة ، حكاه الزجاج وقال : فيه بُعْدٌ [لأنه] لايقال للملائكة « قَوْمٌ » ، إنما يقال ذلك

ـــ ابن كثير في التفسير من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم ، وقال : تفرد به مسلم بن خالد الزنجي ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم ، والله أعلم . ورواه الترمذي في « سننه » : ١٥٨/٢ وفي سنده جعفر بن عبد الله بن نجيح ، قال الحافظ ابن حجر عنه في « التقريب » : ضعيف . وأورده السيوطي في « الدر » : ٦٧/٦ ، وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والطبراني في « الأوسط » والبيهقي في « الدلائل » عن أبي هريرة رضي الله عنه . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٥٢ : رواه الترمذي ، وابن حبان ، والحاكم ، والطبري ، وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ، وله طرق عنه وعن غيره . ورواه البخاري في « صحيحه » : ٤٩٢/٨ ، ومسلم : ١٩٧٢/٤ بسبب نزول سورة (الجمعة) ، ولفظه عند مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت سورة (الجمعة) فلما قرأ : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال رجل : مَنْ هؤلاء يارسول الله ؟ فلم يراجعه النبي ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، قال : وفينا سلمان الفارسي ، قال : فوضع النبي ﷺ يده على سلمان ثم قال : « لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء » قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : وفي بعض طرق الحديث عند أبي نعيم عن أبي هريرة أن ذلك كان عند نزول قوله تعالى : (وإن تتولَّوا يستبدل قوماً غيركم) قال : ويحتمل أن يكون ذلك صدر عند نزول كل من الآيتين (يريد آية سورة « الجمعة » وآية سورة « محمد ») . اه . والحديث رواه مسلم في « صحيحه » دون سبب النزول عن أبي هريرة بلفظ : « لو كان الدّين عند الثريا لذهب به رجل من فارس (أو قال : من أبناء فارس) حتى يتناوله » . ورواه أحمد في « المسند » عن أبي هريرة بلفظ : « لو كان العلم معلقاً بالثريا لتناوله ناس من أولاد فارس » وفي سنده شهر بن حوشب ، وهو صدوق كثير الارسال والأوهام كما قال عنه الحافظ ابن حجر في « التقريب » .

للآدميّين ؛ قال : وقد قيل : إن تولّى أهلُ مكّةَ استبدَلَ اللهُ بهم أهلَ المدينة ، وهذا [معنى] ماذكرْنا عن مقاتل[1] .

★ ★ ★

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله تعالى ذِكره : (وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم) يقول تعالى ذِكره : وإن تتولّوا أيها الناس عن هذا الدين الذي جاءكم به محمد ﷺ فترتدّوا راجعين عنه (يستبدل قوماً غيركم) ، يقول : يهلككم ، ثم يجيء بقوم آخرين غيركم بدلاً منكم ، يصدّقون به ، ويعملون بشرائعه (ثم لا يكونوا أمثالكم) ، يقول : ثم لايبخلوا بما أمروا به من النفقة في سبيل الله ، ولا يضيّعون شيئاً من حدود دينهم ، ولكنهم يقومون بذلك كلّه على ما يؤمرون به . اهـ .

سورة الفتح

وهي مدنيّةٌ كُلُّها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً . لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً . وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾

قوله تعالى : (إِنَّا فَتَحْنا لك فَتْحاً مُبِيناً ..) [الآية] سبب نزولها أنه لمّا نزل قوله : (وما أدري مايُفْعَلُ بِي ولا بِكُم) [الاحقاف : ٩] قال اليهود : كيف نتَّبع رجُلاً لايَدري مايُفْعَل به ؟! فاشتدَّ ذلك على رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس [١] .

وفي المراد بالفتح أربعة أقوال .

أحدها : أنه كان يومَ الحديبية ، قاله الأكثرون . قال البراء بن عازب : نحن نَعُدُّ الفتح بَيْعةَ الرِّضْوان [٢] . وقال الشعبي : هو فتح الحديبية ، غُفِر له

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢١٧ من رواية عطاء عن ابن عباس بدون سند .

(٢) روى البخاري في « صحيحه » ٧/٣٤٠ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « تعدُّون ـــ

ماتقدَّم من ذَنْبه وما تأخَّر ، وأُطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهَدْيُ مَحِلَّه ، وظَهرت الرُّومُ على فارس ، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس قال الزهري : لم يكن فتحٌ أعظمَ من صُلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكَّن الإسلامُ في قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خَلْقٌ كثير وكَثُر بهم سواد الإسلام قال مجاهد : يعني بالفتح ماقضى اللهُ له من نحر الهَدْي

—— أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية » .

وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : قوله : « ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان » يعني قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) قال : وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم ، والتحقيق أنه يختلف ذلك باختلاف المراد من الآيات ، فقوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) المراد بالفتح هنا : الحديبية ، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين ، لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب ، وتمكن من يخشى الدخول في الاسلام والوصول الى المدينة من ذلك ، كما وقع لخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وغيرهما ، ثم تبعته الأسباب بعضها بعضاً الى أن كمل الفتح .

ثم قال : وأما قوله تعالى في هذه السورة : (وأثابهم فتحاً قريباً) فالمراد بها فتح خيبر على الصحيح ، لأنها هي التي وقعت فيها المغانم الكثيرة للمسلمين ، قال : وقد روى أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كراع الغميم وقد جمع الناس قرأ عليهم : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ...) الآية ، فقال رجل : يا رسول الله ، أو فتح هو ؟ قال : « أي والذي نفسي بيده إنه الفتح » ، ثم قسمت خيبر على أهل الحديبية ، قال : وروى سعيد بن منصور باسناد صحيح عن الشعبي في قوله : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) قال : صلح الحديبية ، وغفر له ما تقدم وما تأخر ، وتبايعوا بيعة الرضوان ، وأطعموا نخيل خيبر ، وظهرت الروم على فارس ، وفرح المسلمون بنصر الله . قال : وأما قوله تعالى : (فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) فالمراد الحديبية . وأما قول الله تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح) وقوله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح » فالمراد به فتح مكة باتفاق ، قال : فبهذا يرتفع الاشكال وتجتمع الأقوال بعون الله تعالى . اهـ .

بالحديبية وحَلْق رأسه . وقال ابن قتيبة : « إنّا فَتَحْنا لك فتحاً مُبيناً » أي : قضَيْنا لك قضاء عظيماً ، ويقال للقاضي : الفتّاح . قال الفراء : والفتح قد يكون صُلحاً ، ويكون أخْذَ الشيء عَنْوَةً ، ويكون بالقتال . وقال غيره : معنى الفتح في اللغة : فتح المنغلق ، والصُّلح الذي جُعل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذِّراً حتى فتحه الله تعالى .

الإشارة إلى قصة الحديبية (١)

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ رأى في النَّوم كأن قائلاً يقول [له] : لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء اللهُ آمنين ، فأصبح فحدَّث الناس برؤياه ، وأمرهم بالخروج للعُمرة (٢) ؛ فذكر أهلُ العِلْم بالسِّيَرِ أنَّه خرج واستنفر أصحابَه للعمرة ، وذلك في سنة ست ، ولم يخرج بسلاح إلّا السيوف في القُرُب . وساق هو وأصحابُه البُدْنَ ، فصلَّى الظُّهر بـ« ذي الحُلَيْفة » ، ثم دعا بالبُدْنِ فجُلِّلَتْ ، ثم أشعرها وقلَّدها ، وفعل ذلك أصحابه ، وأحرم ولبَّى ، فبلغ المشركِينَ خروجُه ، فأجمع رأيُهم على صدِّه عن المسجد الحرام ،

(١) الحُدَيْبِيَة : قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، سميت ببئر عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها ، أو بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع ، وبين الحديبية ومكة مرحلة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل .

(٢) قال الواحدي : قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في المدينة قبل أن يخرج الى الحديبيـة كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصّروا ، فأخبر بذلك أصحابه ، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذاك ، فلما رجعوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة ، قال المنافقون : والله ما حلقنا ، ولا قصّرنا ، ولا دخلنا المسجد الحرام ، فأنزل الله هذه الآية . اهـ .

وخرجوا حتى عسكروا بـ« بَلْدَح »[١]، وقدَّموا مائتي فارس إلى كُراع الغميم، وسار رسولُ الله ﷺ حتى دنا من الحديبية؛ قال الزجاج: وهي بئر، فسمّي المكان باسم البئر؛ قالوا: وبينها وبين مكة تسعة أميال، فوقفت يَدَا راحلته، فقال المسلمون: حَلْ حَلْ[٢] يزجرونها، فأبَتْ، فقالوا: خَلأَتِ القصْواءُ[٣]- والخِلاء في النّاقة مثل الحِران في الفَرَس- فقال: « ماخَلأَتْ، ولكن حَبَسها حابِسُ الفيلِ، أما واللهِ لايسألوني خُطّةً فيها تعظيمُ حُرْمَةِ اللهِ إلّا أعطيتُهم إيّاها »، ثم جرَّها فقامت، فولّى راجعاً عَوْده على بَدْئه حتى نزل على ثَمَدٍ من أثماد الحديبية قليلِ الماء[٤]، فانتزع سهماً من كنانته فغرزه فيها، فجاشت لهم بالرَّواء[٥]، وجاءه بُدَيْل بن ورقاء في ركب فسلَّموا وقالوا: جئناك من

---

(١) قال في « معجم البلدان »: « بلدح » آخره حاء مهملة والدال قبله: وادٍ قبل مكة من جهة المغرب.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح »: حل حل، بفتح المهملة وسكون اللام: كلمة تقال للناقة إذا تركت السَّيْر. قال الخطابي: إن قلت: « حل » واحدة، فالسكون، وإن أعدتها، نوَّنتَ في الأولى، وسكَّنت في الثانية. قال: حكى غيره السكون فيها والتنوين، كنظيره في: « بخٍ بخٍ » يقال: حَلْحَلْتُ فلاناً: إذا أزعجته عن موضعه. اهـ.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: القصواء، بفتح القاف بعدها مهملة ومدّ: اسم ناقة رسول الله ﷺ، وزعم الداودي أنها كانت لا تسبق، فقيل لها: القصواء، لأنها بلغت من السبق أقصاه.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » الثَّمَد: حفيرة فيها ماءٌ مثمود، أي قليل، قال: وقوله « قليل الماء » تأكيد لدفع توهم أن يراد لغة من يقول: إن الثمد: الماء الكثير. قال: وقيل: الثمد: ما يظهر من الماء في الشتاء ويذهب في الصيف.

(٥) قال في « اللسان »: وماءٌ رَواء، ممدود مفتوح الراء، أي: عَذب.

عند قومك وقد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ، يُقسمون ، لا يُخلّون بينك وبين البيت حتى نُبيد خَضْراءَهم[1] ، فقال رسول الله ﷺ : « لَمْ نأتِ لقتال أحَد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدّنا عنه قاتلْناه » ، فرجَع [بديل] فأخبر قريشاً ، فبعثوا عروة بن مسعود ، فكلّمه بنحو ذلك ، فأخبر قريشاً ، فقالوا : نَرُدُّه مِن عامنا هذا ، ويَرْجِع مِن قابِل فيَدْخُل مكة ويطوف بالبيت ، فأرسل رسولُ الله ﷺ عثمانَ بن عفان ، قال : « اذْهَبْ إلى قريش فأخْبِرْهم أنّا لَمْ نأتِ لقتالِ أحَدٍ ، وإنما جئنا زُوّاراً لهذا البيت ، معنا الهدي ننحره وننصرف ، فأتاهم فأخبرهم ، فقالوا : لا كان هذا أبداً ، ولا يَدخُلها العامَ ، وبَلَغَ رسولَ الله ﷺ أنَّ عثمان قد قُتل ، فقال : « لا نَبْرَحُ حتى نُناجِزَهم » ، فذاك حين دعا المسلمين إلى بيعة الرّضوان ، فبايعهم تحت الشجرة[2] .

وفي عددهم يومئذ أربعة أقوال .

أحدها : ألف وأربعمائة ، قاله البراء ، وسلمة بن الأكوع ، وجابر ، ومعقل بن يسار .

والثاني : ألف وخمسمائة ، روي عن جابر أيضاً ، وبه قال قتادة .

والثالث : ألف وخمسمائة وخمس وعشرون ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والرابع : ألف وثلاثمائة ، قاله عبد الله بن أبي أوفى . قال : وضَرَبَ يومئذ رسولُ الله ﷺ بشماله على يمينه لعثمان ، وقال : إنه ذهب في حاجة الله ورسوله ،

(١) قال في « اللسان » : وقولهم : أباد الله خضراءهم ، أي سوادهم ومُعْظَمَهم .

(٢) حديث قصة الحديبية ، ذكره أهل السِّيَر ، وهو في « مسند أحمد » ، و « صحيح البخاري » وأبي داود ، والنسائي ، وابن جرير ، وغيرهم مختصراً ومطوّلاً ، بألفاظ مختلفة ، وانظر « صحيح البخاري » ٢٤١/٥ ، و ٣٤٨/٧ ، و « البداية والنهاية » لابن كثير ١٧٣/٤ و « الدر المنثور » ٧٦/٦ ، و « تفسير ابن كثير » ١٩٤/٤ .

وَجعلَت الرُّسُل تختلف بينهم ، فأجمعوا على الصُّلح ، فبعثوا سهيل بن عمرو في عِدَّة رجال ، فصالحه كما ذكرنا في (براءة : ٧) ، فأقام بالحديبية بضعة عشر يوماً ، ويقال : عشرين ليلة ، ثم انصرف ، فلمّا كان بـ « ضَجْنَان »[1] نزل عليه : « إنّا فَتَحْنا لك فَتْحاً مُبيناً » ، فقال جبريل : يَهنيك يارسول الله ، وهنّأه المسلمون .

والقول الثاني : أن هذا الفتح فتح مكة ، رواه مسروق عن عائشة ، وبه قال السدي . وقال بعض مَن ذَهب إلى هذا : إنما وُعِد بفتح مكة بهذه الآية .

والثالث : أنه فتح خيبر ، قاله مجاهد ، والعوفي وعن أنس بن مالك كالقولين .

والرابع : أنه القضاء له بالإسلام ، قاله مقاتل . وقال غيره : حَكَمْنا لك باظهار دِينك والنُّصرة على عدوِّك .

قوله تعالى : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ) قال ثعلب : اللام لام « كي » ، والمعنى : لكي يجتمع لك [مع] المغفرة تمام النِّعمة في الفتح ، فلمّا انضمَّ إلى المغفرة شيء حادِثٌ ، حَسُنَ معنى « كي » ، وغَلِط من قال : ليس الفتح سببَ المغفرة .

قوله تعالى : (ماتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ) قال ابن عباس : والمعنى : « ماتقدَّم » في الجاهلية ، و « ما تأخَّر » مالم تعلمه ، وهذا على سبيل التأكيد ، كما تقول : فلان يَضْرِب من يلقاه ومن لايلقاه .

قوله تعالى : (ويُتِمَّ نِعمتَه عليك) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن ذلك في الجنة . والثاني : أنه بالنُّبُوَّة والمغفرة ، رويا عن ابن عباس . والثالث : بفتح مكة والطائف وخيبر ، حكاه الماوردي . والرابع : باظهار دِينك على سائر الأديان ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (ويَهْدِيَكَ صراطاً مستقيماً) أي : ويُثبِّتك عليه ؛ وقيل :

---

(١) قال في « معجم البلدان » : ضَجنان : جبل بناحية تهامة .

ويهدي بك ، (وَيَنْصُرَكَ اللهُ) على عدوّك (نَصْراً عزيزاً) قال الزجاج : أي : نصراً ذا عزٍّ لايقع معه ذلٌّ [١] .

﴿ هُوَ الَّذي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ، لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً . وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال كغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبرّ والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الاطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة ، قال : ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل » ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظّمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها » قال : فلما أطاع اللهَ في ذلك وأجاب الى الصلح قال الله تعالى له : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك) أي : في الدنيا والآخرة (ويهديك صراطاً مستقيماً) أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم (وينصرك الله نصراً عزيزاً) أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على أعدائك ، كما جاء في الحديث الصحيح : « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله عز وجل إلا رفعه الله تعالى » . اهـ .

شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾

قوله تعالى : (هو الذي أنزل السَّكينة) أي : السُّكون والطُّمأنينة (في قلوب المؤمنين) لئلاَّ تنزعج قلوبُهم لِما يَرِد عليهم ، فسلَّموا لقضاء الله ، وكانوا قد اشتد عليهم صَدُّ المشركين لهم عن البيت ، حتى قال عمر : علامَ نُعطي الدَّنيَّة في ديننا ؟ فقال رسولُ الله ﷺ : « أنا عَبْدُ الله ورسوله ، لن أُخالِف أمره ولن يُضَيِّعني »[1] ، ثم أوْقَعَ اللهُ الرِّضى بما جرى في قلوب المسلمين ، فسلَّموا وأطاعوا .

(لِيَزدادوا إيماناً) وذلك أنه كلَّما نزلت فريضة زاد إيمانُهم .

(ولله جُنودُ السموات والأرض) يريد أن جميع أهل السموات والأرض مُلْكٌ له ، لو أراد نُصرة نبيِّه بغيركم لفَعَل ، ولكنه اختاركم لذلك ، فاشكُروه .

قوله تعالى : (لِيُدْخِلَ المؤمنين . .) [الآية] سبب نزولها أنه لمّا نزل قوله : « إنّا فَتَحْنا لك » قال أصحابُ رسول الله ﷺ : هنيئاً لك يارسول الله بما أعطاك الله ، فما لَنا ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله أنس بن مالك[2] . قال مقاتل :

---

(١) رواه أحمد في « المسند » بهذا اللفظ ، ورواه البخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير بمعناه .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ، والبخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، ورواه الواحدي في « أسباب النزول » ٢١٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٧٠/٦ ، وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « المعرفة » عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

فلمّا سمع عبد الله بن أُبيّ بذلك، انطلق في نَفَرٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ما لَنا عند الله؟ فنزلت: (ويُعذِّبَ المنافقين . . .) الآية .

قال ابن جرير: كُرِّرت اللامُ في « ليُدْخِلَ » على اللام في « ليَغْفِرَ »، فالمعنى: إنّا فتحنا لك ليَغْفِرَ لك اللهُ ليُدْخِلَ المؤمنين، ولذلك لم يُدخِل بينهما واو العطف، والمعنى: ليُدْخِل وليُعذِّب.

قوله تعالى: (عليهم دائرةُ السَّوْء)[1] قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: بضم السين؛ والباقون: بفتحها.

قوله تعالى: (وكان ذلك) أي: ذلك الوَعْد بادخالهم الجنة وتكفير سيّئاتهم (عِنْدَ الله) أي: في حُكْمه (فوزاً عظيماً) لهم؛ والمعنى: أنه حكم لهم بالفَوْز، فلذلك وعدهم إدخال الجنة.

قوله تعالى: (الظانّين بالله ظَنَّ السَّوْء) فيه خمسة أقوال.

أحدها: أنهم ظنّوا أن لله شريكاً. والثاني: أن الله لاينصُر محمداً وأصحابه. والثالث: أنهم ظنّوا به حين خرج إلى الحديبية أنه سيُقْتَل أو يُهْزَمُ ولا يعود ظافراً. والرابع: أنهم ظنّوا أنهم ورسول الله ﷺ بمنزلة واحدة عند الله. والخامس: ظنّوا أن الله لايبعث الموتى. وقد بيَّنّا معنى « دائرة السَّوء في (براءة: ٩٨).

وما بعد هذا قد سبق بيانه [الفتح: ٤، الاحزاب: ٤٥] إلى قوله: (لِيُؤْمِنوا

---

(١) هذه الفقرة من الآية الكريمة تتمة لقوله تعالى: (الظانين بالله ظن السَّوء) الذي سيأتي بعد قليل، وكان حق المؤلف أن يذكرها في محلها، ولعله ذكرها هنا ليتكلم عن الخلاف في قراءتها فقط، لأنه لم يرد أن يفسرها في محلها حيث قال: وقد بينا معنى (دائرة السوء في (براءة) ».

بالله ورسوله) قرأ ابن كثير » وأبو عمرو : « لِيُؤْمِنوا » بالياء « ويُعزِّروه ويُوقِّروه ويُسبِّحوه » كلّهن بالياء ؛ والباقون : بالتاء ؛ على معنى : قل لهم : إنّا أرسلناك، لتؤمنوا وقرأ عليّ بن أبي طالب : وابن السميفع : « ويُعَزّزوه » بزاءين . وقد ذكرنا في (الأعراف : ١٥٧) معنى « ويُعَزِّروه » عند قوله : (وعزّروه ونصروه) .

قوله تعالى : (ويوقّروه) أي : يعظّموه ويبجّلوه . واختار كثير من القرّاء الوقف هاهنا ، لاختلاف الكناية فيه وفيما بعده .

قوله تعالى : (ويسبّحوه) هذه الهاء ترجع إلى الله عز وجل [1] . والمراد بتسبيحه هاهنا : الصلاةُ له . قال المفسرون : والمراد بصلاة البُكرة : الفجر ، وبصلاة الأصيل : باقي الصلوات الخمس .

قوله تعالى : (إن الذين يبايعونك) يعني بَيْعة الرّضوان بالحديبية . وعلى ماذا بايعوه ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنهم بايعوه على الموت ، قاله عبادة بن الصامت .

والثاني : على أن لايفِرّوا ، قاله جابر بن عبد الله . ومعناهما متقارب ، لأنه أراد : على أن لاتفرّوا ولو متّم . وسمّيت بَيْعة ، لأنهم باعوا أنفُسهم من الله بالجنة ، وكان العَقْد مع رسول الله ﷺ ، فكأنهم بايَعوا اللهَ عز وجل ، لأنه ضَمِن لهم الجنة بوفائهم .

(يَدُ الله فَوْقَ أيديهم) فيه أربعة أقوال .

أحدها : يد الله في الوفاء فوق أيديهم . والثاني : يد الله في الثواب فوق أيديهم . والثالث : يد الله عليهم في المنّة بالهداية فوق أيديهم بالطاعة ، ذكر هذه

(١) وذكر ابن جرير عن قتادة أن في بعض القراءات : « ويسبّحوا الله بكرة وأصيلاً » .

الأقوال الزجاج . والرابع : قوّة الله ونصرته فوق قوّتهم ونصرتهم ، ذكره ابن جرير ، وابن كيسان .

قوله تعالى : (فمَنْ نكَثَ) أي : نقض ما عقده من هذه البيْعة (فانَّما ينْكُثُ على نفْسه) أي : يرجع ذلك النَّقْضُ عليه (ومن أوفى بما عاهَدَ علَيْهُ اللهَ)[١] من البيْعة (فسنُؤْتيه) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبان عن عاصم : « فسنُؤْتيه » بالنون . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : بالياء (أجْراً عظيماً) وهو الجنة . قال ابن السائب : فلم ينكُث العهد منهم غير رجل واحد يقال له : الجدّ بن قيس ، وكان منافقاً[٢] .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً . وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً . وَلِلّهِ مُلْكُ السَّماواتِ

---

(١) قال الآلوسي في « روح المعاني » : قرأ الجمهور « عليه » بكسر الهاء كما هو الشائع ، وضمها حفص هنا . ثم قال : وحسن الضم في الآية ، للتوصل به الى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام . اهـ .

(٢) ونقل الزمخشري في « الكشاف » نحوه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، والذي في « صحيح مسلم » ٣/١٤٨٣ عن جابر : فبايعناه ، غير جدّ بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره ، ولأبي يعلى : بايعناه كلنا الا الجدّ بن قيس ، فانه اختبأ تحت بطن بعيره ، فهذا ليس فيه أنه بايع ونكث ، بل فيه أنه لم يبايع أصلاً .

وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾

قوله تعالى : (سيقول لك المُخلَّفون من الأعراب) قال ابن إسحاق : لما أراد العمرة استنفر مَنْ حَوْلَ المدينة من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه، خوفاً من قومه أن يَعْرِضوا له بحرب أو بصَدٍّ ، فتثاقل عنه كثير منهم ، فهم الذين عنى الله بقوله : « سيقول لك المُخلَّفون من الأعراب » ، قال أبو صالح [عن ابن عباس] : وهم غفار ومزينة وجهينة وأشجع والدِّيل وأسلم . قال يونس النحوي : الدِّيل في عبد القيس ساكن الياء . والدُّول من حنيفة ساكن الواو ، والدُّئِل في كنانة رهط أبي الأسود الدُّؤَلي[1] . فأمّا المخلَّفون، فانهم تخلَّفوا مخافة القتل . (شَغَلَتْنا أموالُنا وأهلونا) أي : خِفْنا عليهم الضَّيْعة (فاستَغْفِرْ لنا) أي : ادْعُ [اللهَ] أنْ يَغفِر لنا تخلُّفنا عنك (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) أي : مايبالون استغفرتَ لهم أم لم تستغفر لهم .

قوله تعالى : (فمَنْ يَمْلِكُ لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضَرّاً) قرأ حمزة، والكسائي ، وخلف : « ضُرّاً » بضم الضاد ؛ والباقون : بالفتح . قال أبو علي : « الضَّرّ » بالفتح : خلاف النفع ، وبالضم : سوء الحال ، ويجوز أن يكونا لغتين كالفَقْر والفُقْر ، وذلك أنهم ظنّوا أن تخلُّفهم يدفع عنهم الضَّرّ ، ويعجِّل لهم النفع بسلامة أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله تعالى أنه إن أراد بهم شيئاً ، لم يَقْدِر أحد على دفعه [عنهم] ، (بل كان الله بما تعملون خبيراً) من تخلُّفهم وقولهم عن المسلمين أنهم سيهلكون ، وذلك قوله : (بَلْ ظَنَنْتُمْ) أي : توهّمتم (أنْ

(١) قال أبو العباس المبرّد : الدُّؤَلي مضمومة الدال مفتوحة الواو من الدُّئِل بضم الدال وكسر الياء : وهو دابة .

لن يَنْقَلِبَ الرَّسولُ والمؤمنون إلى أهليهم) أي لا يَرْجِعون إلى المدينة ، لاستئصال العدوِّ إيّاهم ، (وزُيِّن ذلك في قُلوبكم) وذلك من تزيين الشيطان .

قوله تعالى : (وكنتم قوماً بوراً) قد ذكرناه في (الفرقان : ١٨) .

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَايَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (سيقول المُخلَّفون) الذين تخلَّفوا عن الحديبية (إذا انطلقتم إلى مَغانِمَ) وذلك أنهم لمّا انصرفوا عن الحديبية بالصُّلح وعَدَهم اللهُ فَتْحَ خيبر ، وخصَّ بها من شَهِد الحديبية فانطلقوا إليها ، فقال هؤلاء المخلَّفون : (ذَرونا نتَّبِعْكم) ، قال الله تعالى : (يريدون أن يبدِّلوا كلامَ الله) وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « أن يبدِّلوا كَلِمَ الله » بكسر اللام .

وفي المعنى قولان .

أحدهما : أنه مواعيد الله بغنيمة خيبر لأهل الحديبية خاصة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أمْرُ الله نبيَّه أن لايسير معه منهم أحد ، وذلك أن الله وعده وهو بالحديبية أن يفتح عليه خيبر ، ونهاه أن يسير معه أحد من المتخلِّفين ، قاله مقاتل .

وعلى القولين : قصدوا أن يجيز لهم رسول الله ﷺ مايخالِف أمْرَ الله ، فيكون تبديلاً لأمره .

قوله تعالى : (كذلكم قال اللهُ مِنْ قَبْلُ) فيه قولان .

أحدها : قال : إن غنائم خيبر لِمَن شَهِد الحديبية ، وهذا على القول الأول .
والثاني : قال : لن تتّبعونا ، وهذا قول مقاتل .
(فسيقولون بل تحسُدوننا) أي : يمنعُكم الحسد من أن نُصيب معكم الغنائم .

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً . لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾

قوله تعالى : (ستُدْعَون إلى قَوْم) المعنى : إن كنتم تريدون الغزو والغنيمه فستُدْعَون إلى جهاد قوم (أُولي بأسٍ شديدٍ)

وفي هؤلاء القوم ستة أقوال .

أحدها : أنهم فارس ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ابن أبي رباح ، وعطاء الخراساني ، وابن أبي ليلى ، وابن جريج في آخرين . والثاني : فارس والروم ، قاله الحسن ، ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد . والثالث : أنهم أهل الأوثان ، رواه ليث عن مجاهد . والرابع : أنهم الروم ، قاله كعب . والخامس : أنهم هوازن وغطفان ، وذلك يوم حنين ، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة . والسادس : بنو حنيفة يوم اليمامة ، وهم أصحاب مسيلمة الكذّاب ، قاله الزهري ، وابن السائب ، ومقاتل [1] . قال مقاتل : خلافةُ أبي بكر في هذه بيِّنةٌ مؤكدة .

---

(١) قال ابن كثير : اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون اليهم ، الذين هم أولي

وقال رافع بن خديج : كنّا نقرأ هذه الآية ولا نَعْلَم مَنْ هُمْ حتى دُعي أبو بكر إلى قتال بني حنيفة ، فعَلِمنا أنهم هُمْ. وقال بعض أهل العِلْم : لايجوز أن تكون هذه الآية إلّا في العرب ، لقوله : (تُقاتِلونهم أو يُسْلِمُونَ) ، وفارس والروم إنما يقاتَلون حتى يُسْلِموا أو يؤدُّوا الجزية . وقد استدلَّ جماعةٌ من العلماء على صِحَّة إمامة أبي بكر وعمر بهذه الآية ، لأنه إن أُريدَ بها بنو حنيفة ، فأبو بكر دعا إلى قتالهم ، وإن أُريدَ بها فارس والروم ، فعمر دعا إلى قتالهم ، والآية تُلزِمهم اتباع طاعة من يدعوهم ، وتتوعَّدهم على التخلُّف بالعقاب . قال القاضي أبو يعلى : وهذا يدُلُّ على صِحَّة إمامتهما إذا كان المتولِّي عن طاعتهما مستحقاً للعقاب [1] .

قوله تعالى : (فإن تُطيعوا) قال ابن جريج : فإن تُطيعوا أبا بكر وعمر ، (وإن تتولَّوا) عن طاعتهما (كما تولَّيتم) عن طاعة محمد ﷺ في المسير إلى الحديبية . وقال الزجاج : المعنى : إن تُبتم وتركتم نفاقكم وجاهدتم ، يؤتكم اللهُ أجراً حسناً ، وإن تولَّيتم فأقمتم على نفاقكم ، وأعرضتم عن الإيمان والجهاد كما تولَّيتم على عهد رسول الله ﷺ يعذِّبكم عذاباً أليماً [2] .

بأس شديد على أقوال ، ثم قال : وعن مجاهد : هم رجال أولو بأس شديد ، قال : ولم يعين فرقة ، وبه يقول ابن جريج ، وهو اختيار ابن جرير . اهـ .

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (تقاتلونهم أو يسلمون) يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم ، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ، ولكم النصرة عليهم ، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار .

(٢) قال ابن كثير : (فإن تطيعوا) أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدُّوا الذي عليكم فيه (يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبلُ) يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم (يعذبكم عذاباً أليماً) .

قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرجٌ) قال المفسرون : عذرَ اللهُ أهل الزَّمانة الذين تخلَّفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية [١] .

قوله تعالى : (يُدْخِلْه جنّاتٍ) [٢] قرأ نافع ، وابن عامر : « نُدْخِلْه » و « نُعذِّبْه » بالنون فيهما ؛ والباقون : بالياء .

﴿ لَقدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً . وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً . وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً . وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً . سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً . وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾

---

(١) قال ابن كثير : ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد ، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر ، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول ، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ . اهـ .

(٢) والآية بتمامها : (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ومن يتولَّ يعذبه عذاباً أليماً) وذلك ترغيب في الجهاد وطاعة الله ورسوله ، وأن من نكل عن الجهاد وأقبل على المعاش يعذبه عذاباً أليما في الدنيا بالمذلّة ، وفي الآخرة بالنار .

ثم ذكر الذين أخلصوا نيَّتهم وشَهِدوا بَيْعة الرّضوان بقوله : (لقد رضِيَ اللهُ عن المؤمِنين) وقد ذكرنا سبب هذه البَيْعة آنفاً [١] . وإنما سمّيتْ بَيْعةَ الرّضوان، لقوله : (لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤمنين إذ يُبايعونك تحت الشجرة) روى إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه ، قال : بينما نحن قائلون زمن الحديبية ، نادى منادي رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البَيْعةَ ، البيعةَ ، نَزَل روح القُدُس ، قال : فثُرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سَمُرة ، فبايَعْناه [٢] . وقال عبد الله بن مغفّل : كان رسول الله ﷺ تحت الشجرة يبايع الناس ، وإنّي لأرفع أغصانَها عن رأسه [٣] . وقال بكير بن الأشج : كانت الشجرة بفجٍّ نحو مكة [٤] . قال نافع : كان الناس يأتون تلك الشجرة فيصلّون عندها ، فبلغ ذلك عمرَ بن الخطاب ، فأوعدهم فيها ، وأمر بها فقُطِعتْ [٥] .

قوله تعالى : (فعَلِمَ ما في قُلوبهم) أي : من الصّدق والوفاء ، والمعنى : علِم أنهم مُخلِصون (فأنزل السّكينة عليهم) يعني الطمأنينة والرّضى حتى

---

(١) انظر الصفحة (٤٢٠) .

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٢٦/٨٦ وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، وعند مسلم ٣/١٤٨٦ من حديث مولى سلمة بن الاكوع قال : قلت لسلمة : على أي شيءٍ بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال : على الموت . والسمر : وزان رَجُل وسبع : شجر الطلح ، وهو نوع من العضاه ، الواحدة : سَمُرة .

(٣) رواه الطبري ٢٦/٩٣ ، ٩٤ وإسناده حسن ، وهو في مسلم ٣/١٤٨٥ بمعناه من حديث معقل بن يسار .

(٤) رواه الطبري : ٢٦/٨٦ عن بكير بن الأشج أنه بلغه أن الناس بايعوا رسول الله ﷺ على الموت ، فقال رسول الله ﷺ : « على ما استطعتم » والشجرة التي بويع تحتها بفج نحو مكة .

(٥) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٧/٣٤٥ رواه ابن سعد باسناد صحيح .

بايَعوا على أن يقاتِلوا ولا يَفِرُّوا (وأثابهم) أي : عوَّضهم على الرِّضى بقضائه والصَّبر على أمره (فَتْحاً قريباً) وهو خيبر ، (ومَغانِمَ كثيرةً يأخذونها) أي : من خيبر ، لأنها كانت ذات عقار وأموال . فأمّا قوله بعد هذا : (وعَدَكم اللهُ مَغانِمَ كثيرة تأخذونها) فقال المفسرون : هي الفُتوح التي تُفْتَح على المسلمين إلى يوم القيامة .

(فعجَّل لكم هذه) فيها قولان . أحدها : أنها غنيمة خيبر ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والجمهور . والثاني : أنه الصُّلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، رواه العوفي عن ابن عباس [1] .

قوله تعالى : (وكَفَّ أيديَ الناس عنكم) فيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم اليهود همُّوا أن يغتالوا عيال المسلمين الذين خلّفوهم في المدينة ، فكفَّهم اللهُ عن ذلك ، قاله قتادة .

والثاني : أنهم أسد وغطفان جاؤوا لينصروا أهل خيبر ، فقَذَفَ اللهُ في قلوبهم الرُّعب ، فانصرفوا عنهم ، قاله مقاتل . وقال الفراء : كانت أسد وغطفان [مع أهل خيبر ، فقصدهم رسول الله ﷺ فصالحوه وخلّوا بينه وبين خيبر . وقال غيرها : بل همَّت أسد وغطفان] باغتيال [أهل] المدينة ، فكفَّهم اللهُ عن ذلك .

والثالث : أنهم أهل مكة كفَّهم اللهُ بالصُّلح ، حكاها الثعلبي وغيره .

---

(١) قال ابن جرير : وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد ، وهو أن الذي أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب : المغانم الكثيرة من مغانم خيبر ، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها . اهـ .

في قوله : « عنكم » قولان . أحدهما : أنه على أصله ، قاله الأكثرون .
والثاني : عن عيالكم ، قاله ابن قتيبة ، وهو مقتضى قول قتادة .

(ولِتَكون آيةً للمؤمنين) في المشار إليها قولان .

أحدهما : أنها الفَعْلة التي فَعَلها بكم من كَفِّ أيديهم عنكم كانت آيةً للمؤمنين ، فعَلِموا أن الله تعالى متولِّي حراستهم في مَشهدهم ومَغيبهم .

والثاني : أنها خيبر كان فتحها علامةً للمؤمنين في تصديق رسول الله ﷺ فيما وعدهم به .

قوله تعالى : (ويَهْدِيَكم صراطاً مستقيماً) فيه قولان .

أحدهما : طريق التوكُّل عليه والتفويض إليه ، وهذا على القول الأول .

والثاني : يَزيدكم هُدىً بالتصديق بمحمد ﷺ فيما جاء به من وعد الله تعالى بالفتح والغنيمة .

قوله تعالى : (وأُخرى) المعنى : وعدكم الله مَغانمَ أُخرى ؛ وفيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها ما فُتح للمسلمين بعد ذلك . روى سماك الحنفي عن ابن عباس « وأُخرى لَمْ تَقْدِروا عليها » قال : ما فتح لكم من هذه الفتوح ، وبه قال مجاهد .

والثاني : أنها خيبر ، رواه عطية ، والضحاك عن ابن عباس ، وبه قال ابن زيد .

والثالث : فارس والروم ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الحسن ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

والرابع : مكة ، ذكره قتادة ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : (قد أَحاط اللهُ بها) فيه قولان . أحدهما : أحاط بها عِلْماً

أنها ستكون من فُتوحكم . والثاني : حَفِظها لكم ومَنَعها من غيركم حتى فتحتموها .

قوله تعالى : (ولو قاتلكم الذين كفروا) هذا خطاب لأهل الحديبية ، قاله قتادة ؛ والذين كفروا مشركو قريش . فعلى هذا يكون المعنى : لو قاتلوكم يومَ الحديبية (لولَّوُا الأدبار) لِما في قلوبهم من الرُّعب (ثم لايجدون ولياً) لأن الله قد خذلهم . قال الزجاج : المعنى : لو قاتلك من لم يقاتِلْك لنُصِرْتَ عليه ، لأن سُنَّة الله النُّصرةُ لأوليائه . و « سُنَّةَ الله » منصوبة على المصدر ، لأن قوله : « لولَّوُا الأدبار » معناه : سَنَّ اللهُ عز وجل خِذلانهم سُنَّةً . وقد مَرَّ مِثلُ هذا في قوله : (كتابَ اللهِ عليكم) [النساء : ٢٤] ، وقوله : (صُنْعَ اللهِ) [النمل : ٨٨] .

قوله تعالى : (وهُو الذي كَفَّ أيديَهم عنكم) روى أنس بن مالك أن ثمانين رجلاً من أهله مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلِّحين يريدون غِرَّة [1] النبي ﷺ وأصحابه ، فأخذهم سِلماً [2] ، فاستحياهم ، وأنزل الله

---

(١) الغِرَّة : هي الغفلة ، أي : يريدون أن يصادفوا منه ومن أصحابه غفلة عن التأهُّب لهم ليتمكَّنوا من غدرهم والفتك بهم .

(٢) قال الامام النووي في « شرح مسلم » ١٢/١٨٧ : « سلما » ضبطوه بوجهين . أحدهما : سَلَمًا ، والثاني : سَلْماً ، قال الحميدي : ومعناه : الصلح . قال القاضي في « المشارق » : هكذا ضبطه الأكثرون ، قال فيه وفي الشرح : والرواية الأولى أظهر . والمعنى : أسرهم . والسلم : الأسر . وجزم الخطابي بفتح اللام والسين ، قال : والمراد به : الاستسلام والاذعان ، كقوله تعالى : (وألقوا إليكم السَّلَم) أي : الانقياد ، وهو مصدر يقع على الواحد والاثنين والجمع ، قال ابن الأثير : هذا هو الأشبه بالقصة ، فانهم لم يؤخذوا صلحاً ، وإنما أخذوا قهراً ، وأسلموا أنفسهم عجزاً ، قال : وللقول الآخر وجه ، وهو أنه لما لم يجر معهم قتال ، بل عجزوا عن دفعهم والنجاة منهم ، فرضوا بالاسر ، فكأنهم قد صولحوا على ذلك . اه .

هذه الآية [١] . وروى عبد الله بن مغفَّل قال : كنّا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة ، فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم ، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « هل جئتم في عهد ؟ » أو « هل جعل لكم أحد أماناً ؟ » قالوا : اللهم لا ، فخلّى سبيلهم ، ونزلت هذه الآية [٢] . وذكر قتادة أن رسول الله ﷺ بعث خَيْلاً ، فأتَوه باثني عشر فارساً من الكفار ، فأرسلهم [٣] ، وقال مقاتل : خرجوا يقاتِلون رسولَ الله ﷺ ، فهزمهم النبي ﷺ بالطَّعن والنَّبل حتى أدخلهم بيوت مكة . قال المفسرون : ومعنى الآية : إن الله تعالى ذكر مِنَّته إذ حجز بين الفريقين فلم يقتتلا حتى تم الصلح بينهم .

وفي بطن مكة ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الحديبية ، قاله أنس . والثاني : وادي مكة ، قاله السدي . والثالث : التنعيم ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

فأمّا « مكة » فقال الزجاج : « مكة » لاتنصرف لأنها مؤنَّثة ، وهي معرفة ، ويصلُح أن يكون اشتقاقها كاشتقاق « بكة » ، والميم تُبدل من الباء ، يُقال : ضَرْبة لازم ، ولازب ، ويصلُح أن يكون اشتقاقها من قولهم : امْتَكَّ الفَصيل ما في ضرع النّاقة : إذا مَصَّ مَصّاً شديداً حتى لايُبْقي فيه شيئاً ، فيكون سمِّيتْ

(١) رواه مسلم ١٤٤٢/٣ ، والطبري ٩٤/٢٦ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٧٥/٦ ، وزاد نسبته لأحمد ، وعبد حميد ، وأبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبري ٩٤/٢٦ وإسناده حسن ، والحاكم ٤٦٠/٢ وصححه ، والواحدي في « أسباب النزول » ٢١٨ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٧٨/٦ وزاد نسبته لأحمد ، والنسائي ، وأبي نعيم في « الدلائل » ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه .

(٣) « الطبري » ٩٤/٢٦ وهو مرسل ، وذكره السيوطي في « الدر » ٧٥/٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد عن قتادة .

بذلك لشدَّة الازدحام فيها ؛ قال : والقول الأول أحسن . وقال قطرب : مكة من تَمَكَّكْتُ المُخَّ : إذا أكلته . وقال ابن فارس : تمكَّكْتُ العظم : إذا أخرجتَ مُخَّه ؛ والتمكُّكُ : الاستقصاء ؛ وفي الحديث : « لاتُمَكِّكوا على غُرَمائكم »(١) .

وفي تسمية « مكة » أربعة أقوال .

أحدها : لأنها مَثابَةٌ يؤمُّها الخَلْقُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ ، وكأنها هي التي تجذِبُهم إليها ، وذلك من قول العرب : امْتَكَّ الفَصيلُ ما في ضَرْعِ النَّاقة .

والثاني : أنها سمِّيتْ (مكة) من قولك : بَكَكْتُ الرجُل : إذا وضَعْتَ منه وَرَدَدْتَ نَخْوتَه(٢) ، فكأنها تَمُكُّ مَنْ ظلم فيها،أي : تُهلكه وتُنْقِصه،وأنشدوا:

يامَكَّةُ ، الفاجِرَ مُكِّي مَكَّا ولا تَمُكِّي مَذْحِجاً وعَكَّا(٣)

والثالث : [أنها] سمِّيتْ بذلك لجَهْد أهلها .

والرابع : لقِلَّة الماء بها .

وهل مكة وبكة واحد ؟ قد ذكرناه في (آل عمران : ٩٦) .

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ أن أظفركم عليهم) أي : بهم ؛ يقال : ظَفِرْتُ بفلان ، وظَفِرْتُ عليه .

قوله تعالى : (وكان اللهُ بِما تعملون بصيراً) قرأ أبو عمرو : [« يعملون »] بالياء ؛ والباقون : بالتاء .

---

(١) هذا الحديث ذكره ابن الأثير في « النهاية » في غريب الحديث ، ولم نره في كتب الحديث .

(٢) كانت العبارة في الاصل هكذا (مَكَكْتُ الرجل : إذا أردت نخوته) وقد صوبناها كما ترى نقلاً عن المصنف كما أثبته في الجزء الاول الصفحة (٤٢٧) عن اليزيدي وقطرب ، ومن كتب اللغة .

(٣) الرجز غير منسوب في « اللسان » و « التاج » : مكك .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾

قوله تعالى : (هُمُ الذين كفَروا) يعني أهل مكة (وصدُّوكم عن المسجد الحرام) أن تطوفوا به وتحلّوا من عُمرتكم (والهَدْيَ) قال الزَّجاج : أي : وصدُّوا الهدي (معكوفاً) أي : محبوساً (أن يبلُغَ) أي : عن أن يبلُغَ (مَحِلَّه) قال المفسرون : « مَحِلّه » منْحَره ، وهو حيث يَحِلُّ نَحْرُه (ولولا رجالٌ مؤمِنون ونساء مؤمنات) وهم المستَضعفون بمكة (لم تعْلَموهم) أي : لم تعرفوهم (أن تطؤُوهم) بالقتل . ومعنى الآية : لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات بالقتل ، وتُوقِعوا بهم ولا تعرفونهم ، (فتُصيبَكم منهم مَعَرَّةٌ) وفيها أربعة أقوال . أحدها : إثم ، قاله ابن زيد . والثاني : غُرم الدِّيَة ، قاله ابن إسحاق . والثالث : كفّارة قتل الخطأ ، قاله ابن السائب . والرابع : عيب بقتل مَنْ هو على دينكم ، حكاه جماعة من المفسرين . وفي الآية محذوف ، تقديره : لأدخلتُكم من عامكم هذا ؛ وإنما حُلْتُ بينكم وبينهم (ليُدْخِلَ اللهُ في رحمته) أي : في دينه (من يشاء) من أهل مكة ، وهم الذين أسلموا بعد الصُّلح (لو تزيَّلوا) قال ابن عباس : لو تفرَّقوا . وقال ابن قتيبة ، والزجاج : لو تميَّزوا .

قال المفسرون : لو انماز المؤمنون من المشركين (لعذّبْنا الذين كفروا) بالقتل والسَّبْي بأيديكم . وقال قوم : لو تزيَّل المؤمنون من أصلاب الكُفَّار لعذّبْنا الكفار . وقال بعضهم : قوله : « لعذّبْنا » جواب لكلامين ، أحدهما : « لولا رجال » ، والثاني : « لو تزيَّلوا » وقوله : (إذ جعَل) من صلة قوله : (لعذّبْنا) . والحميَّة : الأنَفَة والجَبَريَّة . قال المفسرون : وإنما أخذتْهم الحمية حين أراد رسول الله ﷺ دخول مكة ، فقالوا : يدخلون علينا [وقد قتلوا] أبناءنا وإخواننا فتتحدَّث العربُ بذلك ! واللهِ لايكون ذلك ، (فأنزَلَ اللهُ سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) فلم يَدخُلْهم مادخل أولئك فيخالفوا الله في قتالهم . وقيل : الحميَّةُ ماتداخل سهيلَ بن عمرو من الأنَفَة أن يكتُب في كتاب الصلح ذِكْر « الرحمن الرحيم » وذِكْر « رسول الله » ﷺ .

قوله تعالى : (وألزَمَهم كَلِمةَ التَّقوى) فيه خمسة أقوال .

أحدها : « لا إله إلا الله » ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن زيد في آخرين ، وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ [1] ؛ فعلى هذا يكون معنى : « ألزَمَهم » : حَكَمَ لهم بها ، وهي التي تَنفي الشِّرك .

---

(١) روى الترمذي في « سننه » ١٥٩ : قال : حدثنا الحسن بن قَزَعة البصري ، حدثنا سفيان بن حبيب عن شعبة عن ثوير بن أبي فاختة عن أبيه عن الطفيل بن أُبيّ بن كعب عن أبيه عن النبي ﷺ : (وألزمهم كلمة التقوى) قال : « لا إله إلا الله » ، قال الترمذي : هذا حديث غريب لانعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة ، قال : وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه . اهـ . وثوير بن أبي فاختة ضعيف ، ورواه الطبري ١٠٤/٢٦ بنفس السند ، وذكره السيوطي في « الدر » ٨٠/٦ وزاد نسبته لعبد الله بن أحمد في « زوائد المسند » ، والدارقطني في « الأفراد » ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الأسماء ـــ

والثاني : «لا إله الله والله أكبر» ، قاله ابن عمر . وعن علي بن أبي طالب كالقولين .

والثالث : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له له المُلك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » ، قاله عطاء بن أبي رباح .

والرابع : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، قاله عطاء الخراساني .

والخامس : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، قاله الزهري .

فعلى هذا يكون المعنى أنه لمّا أبى المشركون أن يكتُبوا هذا في كتاب الصُّلح ، ألزمه اللهُ المؤمنين (وكانوا أحقّ بها) من المشركين (و) كانوا (أهلَها) في عِلْم الله تعالى .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

قوله تعالى : (لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرُّؤيا بالحق) قال المفسرون : سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان أُري في المنام قبل خروجه إلى الحديبية قائلاً يقول له : (لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام) إلى قوله : (لاتَخافونَ) ورأى كأنه هو وأصحابه يدخُلون مكة وقد حَلَقوا وقصَّروا ، فأخبر بذلك أصحابَه ففرِحوا ، فلمّا خرجوا إلى الحديبية حَسِبوا أنهم يدخُلون مكة في عامهم ذلك ، فلمّا رجعوا

ــــ والصفات » ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً ، وذكر السيوطي أيضاً من رواية ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، ومن رواية ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه مرفوعاً .

ولم يدخُلوا قال المنافقون : أين رؤياه التي رأى ؟ ! فنزلت هذه الآية [1] ، فدخلوا في العام المقبل .

وفي قوله : (إنْ شاء اللهُ) ستة أقوال .

أحدها : أن « إن » بمعنى « إذ » ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه استثناء من الله ، وقد علِمه ، والخلْق يستثنون فيما لا يَعلَمون ، قاله ثعلب ؛ فعلى هذا يكون المعنى أنه علِم أنهم سيدخُلونه ، ولكن استثنى على ما أُمر الخلْق به من الاستثناء .

والثالث : أن المعنى : لتدخُلُنّ المسجد الحرام إن أمركم اللهُ به ، قاله الزجاج .

والرابع : أن الاستثناء يعود إلى دخول بعضهم أو جميعهم ، لأنه عَلِم أن بعضهم يموت ، حكاه الماوردي .

والخامس : أنه على وجه الحكاية لما رآه النبيُّ ﷺ في المنام أن قائلاً يقول : « لَتَدْخُلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » ، حكاه القاضي أبو يعلى .

---

(١) روى سبب النزول هذا البغوي والخازن هكذا بغير سند . ورواه الطبري ٢٦/١٠٧ من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) الى آخر الآية ، قال : قال لهم النبي ﷺ : « إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلّقين رؤوسكم ومقصرين ، فلما نزل بالحديبية ، ولم يدخل ذلك العام ، طعن المنافقون في ذلك فقالوا: أين رؤياه ؟ فقال الله : (لقد صدق الله رسولَه الرؤيا بالحق) فقرأ حتى بلغ (ومقصّرين لا تخافون) إني لم أره يدخلها هذا العام ، وليكُنْ ذلك » .

وروى الطبري أيضاً من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله : (الرؤيا بالحق) قال : أري بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلّقين ، فقال أصحابه حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد ﷺ . وذكره السيوطي في « الدر » ٦/٨٠ وزاد نسبه للفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والبيهقي في « الدلائل » عن مجاهد .

والسادس : أنه يعود إلى الأمن والخوف، فأمّا الدّخول، فلا شكّ فيه، حكاه الثعلبي [١] .

قوله تعالى : (آمنين) من العَدُوِّ (محلِّقين رؤوسكم ومقصِّرين) من الشَّعر [٢] (لاتَخافونَ) عدُوّاً .

(فعَلِم ما لم تَعلَموا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عَلِم أن الصَّلاح في الصُّلح . والثاني : أن في تأخير الدّخول صلاحاً . والثالث : فعلم أن يفتح عليكم خيبر قبل ذلك .

قوله تعالى : (فجَعَلَ مِنْ دون ذلك فتحاً قريباً) فيه قولان .

أحدهما : فتح خيبر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، وابن زيد ، ومقاتل .

والثاني : صلح الحديبية ، قاله مجاهد ، والزهري ، وابن إسحاق . وقد بيَّنّا كيف كان فتحاً في أول السورة .

وما بعد هذا مفسر في (براءة : ٣٣) إلى قوله [٣] : (وكفى بالله شهيداً) وفيه قولان .

---

(١) قال ابن كثير : (إن شاء الله) هذا لتحقيق الخبر وتوكيده ، وليس هذا من الاستثناء في شيء .

(٢) قال ابن كثير : وقوله : (محلقين رؤوسكم ومقصرين) حال مقدرة ، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين ، وإنما كان هذا في ثاني الحال ، كان منهم من حلق رأسه ، ومنهم من قصره . اهـ . وقد روى مسلم في « صحيحه » ٢/٩٤٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اغفر للمحلّقين » قالوا : يارسول الله ! والمقصرين ، قال : « اللهم اغفر للمحلقين » قالوا : يارسول الله والمقصرين ، قال : « اللهم اغفر للمحلقين » قالوا : يارسول الله والمقصرين « قال : « والمقصرين » .

(٣) قال ابن كثير : (فعلم ما لم تعلموا) أي : فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة ـــ

أحدها : أنه شَهِدَ له على نَفْسه أنه يُظْهِره على الدِّين كُلّه، قاله الحسن.

والثاني : كفى به شهيداً أن محمداً رسوله ، قاله مقاتل .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾

قوله تعالى : (محمدٌ رسولُ الله) وقرأ الشعبي ، وأبو رجاء ، وأبو المتوكل ، والجحدري : « محمداً رسولَ الله » بالنصب فيهما. قال ابن عباس : شَهِد له بالرِّسالة .

قوله تعالى : (والذين معه) يعني أصحابه والأشدّاء : جمع شديد . قال الزجاج : والأصل : أشْدِدَاءُ ، نحو نصيب وأنصباء ، ولكن الدّالَين تحركتا ، فأُدغمت الأولى في الثانية ، [ومثله] (مَنْ يَرْتَدَّ منكم) [المائدة : ٥٤] .

قوله تعالى : (رُحَماءُ بينَهم) الرُّحَماء جمع رحيم ، والمعنى أنهم يُغْلِظون على الكفار ، ويَتوادُّون بينَهم [1] (تَراهم رُكَّعاً سُجَّداً) يَصِفُ كثرة

—— في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم (فجعل من دون ذلك) أي: قبل دخولكم الذي وُعدتم به في رؤيا النبي ﷺ (فتحاً قريباً) وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين . اهـ .

(١) قال ابن كثير : وهذه صفة المؤمنين ، أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار رحيماً برّاً بالأخيار ، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن ، كما قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) ——

صلاتهم (يبتغون فَضْلاً من الله) وهو الجنة (ورِضواناً) وهو رضى الله عنهم. وهذا الوصف لجميع الصحابة عند الجمهور [١] وروى مبارك بن فضاله عن الحسن البصري أنه قال : « والذين معه » أبو بكر « أشداء على الكفار » عمر « رحماء بينهم » عثمان « تراهم رُكَّعاً سُجَّداً » عليّ بن أبي طالب « يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » طلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد وسعيد وأبو عبيدة [٢] .

قوله تعالى : (سِيماهم) أي : علامتهم (في وُجوههم) ، وهل هذه العلامة في الدنيا ، أم في الآخرة ؟ فيه قولان .

أحدهما : في الدنيا . ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها السَّمْت الحسن ، قاله ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة ؛ وقال في رواية مجاهد : أما إنه ليس بالذي ترون ، ولكنه سيما الإسلام وسَمْتُه وخُشوعُه ، وكذلك قال مجاهد : ليس بِنَدَبِ التراب في الوجه ، ولكنه الخُشوع والوَقار والتواضع .

والثاني : أنه نَدَى الطَّهور وثَرَى الأرض ، قاله سعيد بن جبير . وقال أبو العالية : لأنهم يسجُدون على التراب لا على الأثواب . وقال الأوزاعي : بلغني أنه ماحمَلَتْ جباهُهم من الأرض .

ـــ وقال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقال ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبَّك ﷺ بين أصابعه ، قال : وكلا الحديثين في الصحيح .

(١) قال ابن كثير : وقوله سبحانه وتعالى : (تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً) وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالاخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل ، وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ، وهو أكبر من الأول ، كما قال جل وعلا : (ورضوان من الله أكبر) . اهـ .

(٢) اللغة لاتحتمل هـــذا التأويل ، وليس مع الحسن نقل يثبت عن رسول الله ﷺ ومبارك بن فضالة الراوي عن الحسن موصوف بالتدليس .

والثالث : أنه السُّهوم[١] ، فإذا سهم وجه الرجُل من الليل أصبح مُصفاراً .

قال الحسن البصري : « سيماهم في وجوههم » : الصُّفرة ؛ وقال سعيد بن جبير : أثر السهر ؛ وقال شمر بن عطية : هو تهيُّج في الوجه من سهر الليل .

والقول الثاني : أنها في الآخرة[٢] . ثم فيه قولان .

أحدهما : أن مواضع السجود من وجوههم يكون أشدّ وجوههم بياضاً يوم القيامة ، قاله عطية العوفي ، وإلى نحو هذا ذهب الحسن ، والزهري . وروى العوفي عن ابن عباس قال : صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة .

والثاني : أنهم يُبعثون غُرّاً محجَّلين من أثر الطَّهور[٣] ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى : (ذلك مَثَلُهم) أي : صِفَتُهم ؛ والمعنى أن صفة محمد ﷺ وأصحابه (في التوراة) هذا .

فأما قوله : (ومَثَلُهم في الإنجيل) ففيه ثلاثة أقوال .

---

(١) قال في « اللسان » : السُّهام والسَّهام : الضُّمر وتغير اللون وذُبول الشَّفَتين . سَهَمَ ، بالفتح ، يَسْهَمُ سُهاماً وسُهوماً ، وسَهُمَ أيضاً ، بالضم ، يَسْهُمُ سُهوماً فيهما ، وسُهِمَ يُسْهَمُ ، فهو مَسْهومٌ : إذا ضَمُرَ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك الصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبرنا أن سيما هؤلاء القوم الذي وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود ، قال : ولم يخصَّ ذلك على وقت دون وقت ، قال : وإذ كان ذلك كذلك ، فذلك على كل الأوقات ، فكان سيماهم الذي كانوا يعرفون به في الدنيا أثر الإسلام ، وذلك خشوعهُ وهديهُ وزُهدُه وسَمْتُه ، وآثار أداء فرائضه وتطوّعه ، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يعرفون به ، وذلك الغُرَّةُ في الوجه ، والتحجيل في الايدي والأرجل من أثر الوضوء وبياض الوجوه من أثر السجود . اهـ .

(٣) روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أمتي يأتون يوم القيامة غرّاً محجَّلين من أثر الوضوء » واللفظ لمسلم .

أحدها : أن هذا المَثَل المذكور أنه في التوراة هو مَثَلُهم في الإِنجيل . قال مجاهد : مَثَلُهم في التوراة والإِنجيل واحد .

والثاني : أن المتقدِّم مَثَلُهم في التوراة فأمّا مَثَلُهم في الإِنجيل فهو قوله : (كزرعٍ) ، وهذا قول الضحاك ، وابن زيد (١) .

والثالث : أن مَثَلَهُم في التوراة والإِنجيل كزرع ، ذكر هذه الأقوال أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (أَخْرَجَ شَطْأَهُ) وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : [« شَطَأَهُ » بفتح الطاء والهمزة . وقرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « شطْأه » بسكون الطاء . وكلهم يقرأ بهمزة مفتوحة . وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو العالية ، وابن أبي عبلة] : « شَطَاءَهُ » بفتح الطاء [وبالمد] والهمزة وبألف . قال أبو عبيدة : أي : فِراخه يقال : أشطأ الزَّرعُ فهو مُشْطِىء : إذا أفرخ (فآزره) أي : ساواه ، وصار مثل الأُمّ . وقرأ ابن عامر : « فأَزَرَهُ » مقصورة الهمزة مثل فَعَلَهُ . وقال ابن قتيبة : آزره : أعانه وقوّاه (فاستغلظ) أي : غَلُظ (فاستوى على سُوقِهِ) وهي جمع « ساق » ، وهذا مَثَلٌ ضربه اللهُ عز وجل للنبيِّ ﷺ إذ خرج وحده ، فأيَّده بأصحابه ، كما قوّى الطَّاقة من الزَّرع بما نبت منها حتى كَبُرتْ (٢) وغَلُظت واستحكمت . وقرأ ابن كثير : « على سُؤْقه » مهموزة ؛ والباقون : بلا همزة . وقال قتادة : في الإِنجيل : سيَخرُج قومٌ ينبُتون نبات الزَّرع (٣) .

(١) وهو الذي اختار ابن جرير الطبري وابن كثير وغيرهما .

(٢) كذا الاصل ، وفي « غريب القرآن » : حتى كثُرتْ .

(٣) قال ابن كثير : أي : فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيَّدوه ونصروه ، فهم معه كالشطء مع الزرع .

وفيمن أُريدَ بهذا المَثَل قولان .

أحدهما : أن أصل الزَّرع : عبد المطلب « أخرج شطأه » : أخرج محمداً ﷺ (فآزره) : بأبي بكر (فاستغلظ) : بعمر (فاستوى) : بعثمان (على سوقه) : عليّ بن أبي طالب ، رواه سعيد ابن جبير عن ابن عباس [1] .

والثاني : أن المراد بالزَّرع : محمد [2] ﷺ « أخرج شطأه » : أبو بكر « فآزره » : بعمر « فاستغلظ » : بعثمان « فاستوى على سوقه » : بعليّ (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) : يعني المؤمنين « لِيَغِيظَ بهم الكُفّار » وهو قول عمر لأهل مكة : لا يُعْبَدُ اللهُ سِرّاً بعد اليوم ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، ومبارك عن الحسن .

قوله تعالى : (لِيَغِيظَ بهم الكُفّار) أي : إنَّما كثَّرهم وقوَّاهم لِيَغيظ بهم الكُفّار . وقال مالك بن أنس : من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية . وقال ابن إدريس : لا آمَنُ أن يكونوا قد ضارعوا الكُفّار ، يعني الرّافضة ، لأن الله تعالى يقول : « لِيَغِيظَ بهم الكُفّار » [3] .

---

(١) هذا تأويل بعيد ، وليس تفسيراً لظاهر لفظ القرآن ، وقد ذكر مثل هذا المعنى السيوطي في « الدر » ٦/٨٣ من رواية ابن مردويه ، والخطيب ، وابن عساكر عن ابن عباس ، والله أعلم بصحته ، وكذلك الخبر الذي بعد هذا من رواية الضحاك عن ابن عباس ، ومبارك عن الحسن ، والأولى في ذلك أن يكون هذا مثلاً لأصحاب رسول الله ﷺ في الانجيل على العموم ، ولا شك أن هؤلاء أفضل من غيرهم ، فهم داخلون بطريق الأولى .

(٢) في الأصل : « محمداً » .

(٣) ولا يجوز لمسلم أن يطعن في الصحابة رضوان الله عليهم ، أو يتعرض لهم بسوء ، أو يضمر في قلبه بغضاً لأحد منهم ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً مابلغ مدَّ أحدهم ، ولا نصيفه » وروى مسلم عن أبي بردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « أصحابي أمنة لأمتي ، فاذا ذهب أصحابي أتاهم ما يوعدون » ، أي من الفتن .

قوله تعالى : (وَعَدَ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً) قال الزجاج : في « مِنْ » قولان .

أحدهما : أن يكون تخليصاً للجنس من غيره ، كقوله : (فاجتَنِبوا الرِّجْسَ من الأوْثان) [الحج : ٣٠] ، ومثله أن تقول : أنْفِقْ من الدَّراهم ، أي : اجعل نفقتك من هذا الجنس . قال ابن الأنباري : معنى الآية : وَعَدَ اللهُ الذين آمَنوا من هذا الجنس ، أي : من جنس الصحابة .

والثاني : أن يكون [هذا] الوعْدُ لِمن أقام منهم على الايمان والعمل الصالح [١] .

★ ★ ★

(١) قال ابن كثير في تتمة الآية : (مغفرة) أي لذنوبهم ((وأجراً عظيماً) أي ثواباً جزيلاً ، ورزقاً كريماً ، قال : ووعد الله حقٌ وصدق ، لا يخلف ولا يبدّل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم ، فهو في حكمهم ، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد فعل . اهـ .

سورة الحجرات

وهي مدنيّة بإجماعهم

روى ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن الله أعطاني السَّبْع الطُّوَل [1] مكان التوراة، وأعطاني المِئين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزَّبور المَثاني، وفضلني ربِّي بالمفصَّل [2]. أمّا السَّبْع الطُّوَل فقد ذكرناها [«عند قوله»] [3]:

---

(١) السَّبْع الطُّوَل، بضم الطاء وفتح الواو، جمع «الطولى» مثل «الكُبَر» و«الكُبرى». قال ابن جرير الطبري: والسبع الطُّوَل: «البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس» في قول سعيد بن جبير، قال: وإنما سميت هذه السور: السبع الطول، لطولها على سائر سور القرآن. اهـ. وقال ابن كثير: قال سعيد ابن جبير: بيَّن فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس بيَّن الامثال والخبر والعِبَر. اهـ.

(٢) أخرجه البغوي في «التفسير» بإسناد الثعلبي عن ثوبان رضي الله عنه، وفيه ضعف، ورواه أحمد في «المسند» ١٠٧/٤، و«الطبري» ١٠٠/١ عن واثلة بن الاسقع رضي الله عنه من طريق أبي داود الطيالسي عن أبي العوام عن قتادة عن أبي المليح عن واثلة، وإسناده صحيح. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٥٨/٧ من حديث واثلة، وقال: رواه أحمد، والطبراني بنحوه.

(٣) زيادة ليست في الأصل.

(ولقد آتيناكَ سَبْعاً من المَثاني) [الحجر : ٨٧] . وأمّا المئون ، فقال ابن قتيبة : هي ماولي الطُّوَل ، وإنما سُمِّيت بالمِئين ، لأن كل سورة تزيد على مائة آية أو تُقاربها ، والمَثاني : ما وَلِي المِئين من السُّوَر التي دون المائة ، كأن المِئين مَبَادٍ ، وهذه مَثَانٍ ، وأمّا المُفَصَّلُ ، فهو مايلي المَثاني من قِصَار السُّوَر ، وإنما سُمِّيت مُفَصَّلاً لِقِصَرِها وكثرة الفُصُول فيها بسطر : بسم الله الرحمن الرحيم .

وقد ذكر الماوردي في أول تفسيره في المُفَصَّل ثلاثة أقوال . أحدها : أنه من أول سورة (محمد) إلى آخر القرآن ، قاله الأكثرون . والثاني : من سورة (قاف) إلى آخره ، حكاه عيسى بن عمر عن كثير من الصحابة . والثالث : من (الضحى) إلى آخره ، قاله ابن عباس (١) .

---

(١) قال ابن كثير في أول سورة (ق) هذه السورة هي أول الحزب المفصّل ، وقيل : من (الحجرات) ، قال : وأما ما يقوله العوام : إنه من (عم) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء ـ رضي الله عنهم ـ المعتبرين فيما نعلم ، قال : والدليل على أن هذه السورة (يعني سورة « ق ») هي أول المفصل ، مارواه أبو داود في « سننه » ، « باب تحزيب القرآن » ثم قال : حدثنا مسدَّد ، أخبرنا قرّان (الأصل : قراب وهو خطأ) بن تمام ـ ح ـ وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الاشج ، حدثنا أبو خالد ، ثنا سليمان بن حيان ، وهذا لفظه عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى ، عن عثمان ابن عبد الله بن أوس عن جده ، قال عبد الله بن سعيد : حدثنيه أوس بن حذيفة ، ثم اتفقا ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبّة له ، قال مسدد : وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف ، قال : كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا ، قال أبو سعيد : قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، فأكثر ما يحدثنا ﷺ مالقي من قومه قريش ، ثم يقول ﷺ : « لاسواء (في ابن كثير : « لاأساء » وفي « تهذيب السنن » ، « لا أنسى » وكلاهما خطأ) وكنا مستضعفين مستذلين ، ـــ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ

ـــ قال مسدد : بمكة ـ فلما خرجنا الى المدينة كانت الحرب سجالاً بينا وبينهم ، نُدال عليهم ، ويُدالون علينا ، فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت علينا الليلة ، قال ﷺ : « إنه طرأ عليّ حزبي من القرآن ، فكرهت أن أجيء حتى أتمه » قال أوس (يعني بن حذيفة) سألت أصحاب رسول الله ﷺ : كيف يحزّبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، واحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده . قال ابن كثير : ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي خالد الاحمر به . قال : ورواه الامام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الله بن عبد الرحمن ـ هو ابن يعلى الطائفي ـ به . ثم قال ابن كثير : اذا علم هذا ، فاذا عددت ثمانياً وأربعين سورة ، فالتي بعدهن سورة (ق) بيانه : « ثلاث » : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، « وخمس » : المائدة ، والانعام ، والاعراف ، والانفال ، وبراءة . « وسبع » : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وابراهيم ، والحجر ، والنحل . « وتسع » : سبحان ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والانبياء ، والحج ، والمؤمنون ، والنور ، والفرقان . « واحدى عشرة » : الشعراء ، والنمل ، والقصص ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، وآلم والسجدة ، والاحزاب ، وسبأ ، وفاطر ، ويس . « وثلاث عشرة » : الصافات ، وص ، والزمر ، وغافر ، وحـم السجدة ، وحم عسق ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والاحقاف ، والقتال ، والفتح ، والحجرات . ثم بعد ذلك الحزب المفصل ، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم ، قال : فتعين أن أوله سورة (ق) وهو الذي قلنا ، ولله الحمد والمنة . اهـ .

بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (يا أيُّها الذين آمَنوا لا تُقَدِّموا بين يَدَيِ الله ورسولِه) في سبب نزولها أربعة أقوال ،

أحدها : أن رَكْباً من بني تميم قَدِموا على رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر : أمِّرِ القعقاعَ بنَ معبد ، وقال عمر : أمِّرِ الأقرعَ بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردتَ إلا خِلافي ، وقال عمر : ما أردتُ خلافَك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتُهما ، فنزل قوله : « يا أيُّها الذين آمَنوا لا تُقَدِّموا بين يَدَيِ الله ورسولِه » إلى قوله : « ولَوْ أنَّهم صَبَروا » ، فما كان عمر يُسْمِع رسولَ الله ﷺ [بعد هذه الآية] حتى يستفهمه ، رواه عبد الله بن الزبير [(١)] .

والثاني : أن قوماً ذَبحوا قبل أن يُصَلِّي رسولُ الله ﷺ يومَ النَّحر ، فأمرهم رسولُ الله ﷺ أن يُعيدوا الذَّبح ، فنزلت هذه الآية ، قاله الحسن [(٢)] .

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ٨/٤٥٤ عن عبد الله بن الزبير رضي عنه ، باب : (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) ما دون قوله : « فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ حتى يستفهمه » فانه ذكره في الباب الذي قبله من سورة الحجرات ٨/٤٥٢ باب : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . . .) الآية من حديث ابن أبي مليكة ، ثم قال : قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، يريد بذلك قوله تعالى : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . . .) الآية . والحديث ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢١٨ بسنده ، دون قول ابن الزبير : « فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ حتى يستفهمه » وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٨٣ بنحوه من رواية البخاري ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه .

(٢) ذكره الطبري عن الحسن بغير سند ٢٦/١١٧ وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٨٤ : وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن المنذر عن الحسن .

والثالث : أنها نزلت في قوم كانوا يقولون : لو أنزَلَ اللهُ فيَّ كذا وكذا! فكَرِه اللهُ ذلك ، وقدَّم فيه ، قاله قتادة (١) .

والرابع : [أنها] نزلت في عمرو بن أميّة الضَّمْري ، وكان قد قتل رجُلين من بني سليم قبل أن يستأذن رسولَ الله ﷺ ، قاله ابن السائب (٢) . وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لا تقولوا خلاف الكتاب والسُّنَّة (٣) . وروى العوفي عنه قال : نُهوا أن يتكلَّموا بين يَدَيْ كلامه (٤) . وروي عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية قالت : لا تصوموا قبل أن يصومَ نبيُّكم (٥) . ومعنى الآية على جميع الأقوال . لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقولَ رسول الله ﷺ أو يفعل . قال ابن قتيبة : يقال فلانٌ يُقَدِّم بين يَدَيِ الإمام وبين يَدَي أبيه ، أي : يُعجِّل بالأمر والنهي دونه .

فأمّا « تُقدِّموا » فقرأ ابن مسعود ، وأبو هريرة ، وأبو رزين ، وعائشة ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وعكرمة ، والضحاك وابن سيرين ، وقتادة ، وابن يعمر ، ويعقوب : بفتح التاء والدال ؛ وقرأ الباقون : بضم التاء وكسر الدال . قال الفراء :

---

(١) رواه الطبري ٢٦/١١٧ عن قتادة ، وذكره السيوطي في « الدر » ٦/٨٤ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

(٢) ذكره الآلوسي بمعناه بغير سند ولم يعزه لاحد .

(٣) رواه الطبري ٢٦/١١٦ وذكره السيوطي في « الدر » ٦/٨٤ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الحلية » عن ابن عباس رضي الله عنها .

(٤) « الطبري » ٢٦/١١٦ وذكره السيوطي في « الدر » ٦/٨٤ وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنها .

(٥) ذكره السيوطي في « الدر ٦/٨٤ من رواية الطبراني في « الأوسط » وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها .

كلاهما صواب ، يقال : قَدَّمْتُ ، وتَقَدَّمْتُ ؛ وقال الزجاج : كلاهما واحد ؛ فأمّا « بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِهِ » فهو عبارة عن الأمام ، لأن ما بين يَدَيِ الإنسان أمامَه ؛ فالمعنى : لا تَقَدَّموا قُدّام الأمير .

قوله تعالى : (لا تَرْفَعوا أصواتَكم) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن أبا بكر وعمر رفعا أصواتهما فيما ذكرناه آنفاً في حديث ابن الزبير، وهذا قول ابن أبي مليكة [1] .

والثاني : [أنها] نزلت في ثابت بن قيس بن شمَّاس ، وكان جَهْوَرِيَّ الصَّوت ، فربما كان إذا تكلَّم تأذَّى رسولُ الله ﷺ بصوته ، قاله مقاتل [2] .

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ٨/٤٥٢ باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...) الآية ، من حديث نافع عن ابن أبي مليكة قال : كادَ الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ، قال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم . . .) الآية ، قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، ولم يذكر ذلك عن أبيه ، يعني أبا بكر . اهـ . وفي رواية الترمذي : وما ذكر ابن الزبير جده ، وفي رواية الطبري : وما ذكر ابن الزبير جده ، يعني أبا بكر . اهـ . والحديث أورده السيوطي في « الدر » ٦/٨٤ وزاد نسبته لابن المنذر ، والطبراني عن ابن أبي مليكة .

(٢) رواه الواحدي في « أسباب النزول » ٢١٨ بغير سند ، ولم يعزُه لأحد . وحديث ثابت بن قيس بن شماس رواه البخاري في « صحيحه » ٨/٤٥٤ من حديث موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يارسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌّ ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال موسى (يعني بن أنس) فرجع —

قولهتعالى : (ولا تَجهروا له بالقَوْلِ) فيه قولان .

أحدهما : أن الجهر بالصَّوت في المخاطبة ، قاله الأكثرون .

والثاني : لا تَدْعوه باسمه : يا محمد ، كما يدعو بعضُكم بعضاً ، ولكن قولوا : يا رسول الله ، ويا نبيَّ الله ، وهو معنى قول سعيد بن جبير ، والضحاك ، ومقاتل .

قولهتعالى : (أن تَحبَطَ) قال ابن قتيبة : لئلا تَحبَطَ . وقال الأخفش : مَخافة أن تَحبَطَ . قال أبو سليمان الدمشقي : وقد قيل معنى الاحباط هاهنا : نقص المَنْزِلة ، لا إسقاط العمل من أصله كما يسقط بالكفر .

قولهتعالى : (إن الذين يَغُضُّونَ أصواتَهم) قال ابن عباس : لمّا نزل قوله : « لا ترفعوا أصواتكم » تألَّى أبو بكر أن لا يكلِّم رسولَ الله ﷺ إلاّ كأخي السِّرار ، فأنزل اللهُ في أبي بكر : « إنَّ الذين يَغُضُّون أصواتَهم » ، والغَضْ : النَّقْص[1] كما بيَّنَّا عند قوله : (قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا) [النور : ٣٠] .

—— إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة » . ورواه مسلم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأورده السيوطي في « الدر » ٨٤/٦ وزاد نسبته لأحمد ، وأبي يعلى في « معجم الصحابة » ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه والبيهقي في « الدلائل » عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢١٩ عن ابن عباس بغير سند ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر قال : لما نزل (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) قلت : يا رسول الله آليت ألاّ أكلمك إلا كأخي السّرار حتى ألقى الله ، قال : وأخرجه الحاكم والبيهقي في « المدخل » من حديث أبي هريرة قال : لما نزلت (الذين يغضون . .) الآية ، قال أبو بكر : والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله عز وجل ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

(أولئك الذين امْتَحَنَ اللهُ قلوبَهم) قال ابن عباس : أخلصها (للتقوى) من المعصية . وقال الزجاج : اختبر قلوبهم فوجدهم مُخلصين ، كما تقول : قد امتحنت هذا الذهب والفضة ، أي : اختبرتها بأن أذبتهما حتى خَلَصا ، فعلمت حقيقة كل واحد منهما . وقال ابن جرير : اختبرها بامتحانه إيّاها ، فاصطفاها وأخلصها للتّقوى .

﴿ إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إنَّ الذين ينادونك مِنْ وراءِ الحُجُرات) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن بني تميم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فنادَوْا على الباب : يا محمد اخرُج إلينا ، فانَّ مَدْحَنا زَيْن وإن ذَمَّنا شَيْن ، فخرج وهو يقول : « إنما ذلكم الله » ، فقالوا : نحن ناس مَن بنى تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال : « ما بالشعر بُعِثْتُ ولا بالفخار أُمِرْتُ ، ولكن هاتوا » ، فقال الزبرقان بن بدر لشابّ منهم : قُمْ فاذكُر فَضْلك وفَضْل قومك ، فقام فذكر ذلك ، فأمر رسولُ الله ﷺ ثابتَ بن قيس ، فأجابه ، وقام شاعرُهم ، فأجابه حسان ، فقال الأقرع بن حابس : والله ما أدري ما هذا الأمر؟! تكلَّم خطيبُنا فكان خطيبُهم أحسنَ قولاً ، وتكلَّم شاعرُنا فكان شاعرُهم أشعرَ ، ثم دنا فأسلم ، فأعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم ، وارتفعت الأصوات وكثر اللَّغَط عند رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ، هذا قول جابر بن عبد الله في آخرين [1] . وقال ابن اسحاق : نزلت في جُفاة بني تميم ، وكان فيهم الأقرع

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٠ مطولاً ، من رواية معلّى بن عبد الرحمن عن —

ابن حابس ، وعيينة بن حصن ، والزبرقان بن بدر ، [وقيس بن عاصم المنقري] ، وخالد بن مالك ، وسويد بن هشام ، وهما نهشليّان ، والقعقاع بن معبد ، وعطاء ابن حابس ، ووكيع بن وكيع [١] .

والثاني : أن رسول الله ﷺ بعث سريّة إلى بني العنبر ، وأمّر عليهم عيينة بن حصن الفزاري ، فلمّا علِموا بذلك هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة ، فجاء رجالُهم يَفْدون الذّراري ، فقَدِموا وقت الظهيرة ورسولُ الله ﷺ قائل ، فجعلوا ينادون يا محمد اخْرُج إلينا ، حتى أيقظوه ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس [٢] .

والثالث : أن ناساً من العرب قال بعضهم لبعض : انطلِقوا بنا إلى هذا الرجُل ، فان يكن نبيّاً نكن أسعد الناس به ، وإن يكن ملِكاً نعش في جناحه ، فجاؤوا ، فجعلوا ينادون يامحمد ، يامحمد ، فنزلت هذه الآية ، [قاله زيد بن أرقم] [٣] .

فأمّا « الحجرات » فقرأ أُبيْ بن كعب ، وعائشة ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، ومجاهد وأبو العالية ، وابن يعمر ، [وأبو جعفر ، وشيبة] : بفتح الجيم ؛ وأسكنها أبو رزين ، وسعيد بن المسيب ، وابن أبي عبلة ؛ وضمها الباقون . قال الفراء : وجه

ـــ عبد الحميد بن جعفر عن عمر بن الحكم عن جابر بن عبد الله ، وفي سنده معلى بن عبد الرحمن الواسطي ، ضعفه الدارقطني وغيره ، وقال ابن عدي : أرجو أنه لابأس به .

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢١٩ عن محمد بن إسحاق بغير سند .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » أخرجه ابن مردويه من رواية إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، وهو اسناد تالف .

(٣) رواه الطبري ١٢١/٢٦ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٨٦/٦ وزاد نسبته لابن راهويه ، ومسدد ، وأبي يعلى ، والطبراني ، وابن أبي حاتم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

الكلام أن تُضمَّ الحاء والجيم ، وبعض العرب يقول : الحُجُرات والرُّكبات ، وربما خفَّفوا فقالوا : « الحُجْرات » ، والتخفيف في تميم ، والتثقيل في أهل الحجاز . وقال ابن قتيبة : واحد الحُجُرات حُجرة ، مثل ظُلْمة وظُلُمات . قال المفسرون : وإنما نادَوا من وراء الحُجرات ، لأنهم لم يعلموا في أيِّ الحُجَر رسولُ الله .

قوله تعالى : (ولو أنَّهم صبَروا حتى تخرُجَ إليهم لكان خيراً لهم) قال الزجاج : أي : لكان الصَّبر خيراً لهم . وفي وجه كونه خيراً لهم قولان .

أحدهما : لكان خيراً لهم فيما قَدِموا له من فداء ذراريهم ، فلو صَبَروا خلَّى سبيلهم بغير فداء ، قاله مقاتل .

والثاني : لكان أحسنَ لآدابهم في طاعة الله ورسوله ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (واللهُ غفورٌ رحيمٌ) أي : لمن تاب منهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَافَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إن جاءكم فاسقٌ بنبإٍ فتبيَّنوا) نزلت في الوليد بن عقبة ، بعثه رسولُ الله ﷺ إلى بني المصطلق ليَقْبِض صدقاتهم ، وقد كانت بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ، فسار بعضَ الطريق ، ثم خاف فرجع فقال : إنهم قد منعوا

الصدقة وأرادوا قتلي ، فصرف رسولُ الله ﷺ البَعْثَ إليهم ، فنزلت هذه الآية [١] . وقد ذكرتُ القصد في كتاب « المُغني » وفي « الحدائق » مستوفاة ، وذكرتُ معنى « فتبيَّنوا » في سورة (النساء : ٩٤) ، والنَّبأ : الخبر ، و « أنْ » بمعنى « لئلاَّ » ، والجهالة هاهنا : أن يجهل حال القوم ، (فتُصْبِحوا على مافَعَلْتم) من إصابتهم بالخطأِ (نادمين) .

ثم خوَّفهم فقال : (واعلَموا أن فيكم رسولَ اللهَ) أي : إن كَذَبتموه أخبره اللهُ فافتُضِحتُم ، ثم قال : (لو يُطيعُكم في كثيرٍ من الأمر) أي : ممّا تخبرونه فيه بالباطل (لَعَنِتّم) أي : لوَقَعتُم في عَنَتٍ . قال ابن قتيبة : وهو الضَّرر والفساد . وقال غيره : هو الإثم والهلاك وذلك أن المسلمين لمّا سَمِعوا أن أولئك القوم قد كَفَروا قالوا : ابْعَثْ إليهم يارسولَ الله واغزُهُم واقتُلهم ؛ ثم خاطب المؤمنين فقال : (ولكنَّ الله حَبَّب إليكم الإيمان) إلى قوله : (والعِصيانَ) ، ثم عاد إلى الخبر عنهم فقال : (أولئك هم الرّاشدون)

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٢ بغير سند ، ورواه الطبري من حديث أم سلمة ، وفي سنده موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، ورواه أحمد في « المسند » من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : رواه ابن اسحاق ، والطبراني من حديث أم سلمة ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف . قال : ونحوه رواه أحمد والطبراني أيضاً من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي . وأخرجه ابن مردويه من طريق عبد الله ابن عبد القدوس عن الأعمش عن موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن جابر . قال الحافظ ابن كثير : وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق ، قال : ومن أحسنها مارواه الامام أحمد في « مسنده » من رواية ملك بني المصطلق وهو الحارث بن ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها ، ثم قال : وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبي ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة ، والله أعلم .

أي : المهتدون إلى محاسن الأمور ، (فَضْلاً من الله) قال الزجاج : المعنى : ففعل بكم ذلك فضلاً ، أي : للفضل والنّعمة .

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخرى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإنْ طائفتان . . .) الآية ، في سبب نزولها قولان .

أحدها : ماروى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك قال : قيل لرسول الله ﷺ : لو أتيتَ عبدَ الله بن أُبيّ ، فركب حماراً وانطلق معه المسلمون يمشون ، فلمّا أتاه النبيُّ ﷺ ، قال : إليكَ عنّي ، فوالله لقد آذاني نَتَن حمارك ، فقال رجل من الأنصار : واللهِ لحمارُ رسولِ الله أطيبُ ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابُه ، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنّعال ، فبلغنا أنه أُنزلت فيهم « وإن طائفتان ... » الآية [1] . وقد أخرجا جميعاً من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ خرج يعود سعد بن عبادة ، فمرَّ بمجلس فيهم عبدُ الله بن أُبيّ ، وعبدُ الله بن رواحة ، فخمّر ابنُ أُبيّ وجهه بردائه ، وقال : لا تغبّروا علينا ، فذكر الحديث ، وأن

(١) رواه البخاري ٢١٨/٥ ، ومسلم ١٤٢٤/٣ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٩٠/٦ ، والحديث رواه أيضاً أحمد في « المسند » وابن جرير الطبري في « التفسير » وذكره السيوطي في « الدر » ٩٠/٤ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

المسلمين والمشركين واليهود استبُّوا[1] . وقد ذكرت الحديث بطوله في « المغني » و « الحدائق » . وقال مقاتل : وقف رسولُ الله ﷺ على الأنصار وهو على حمار له ، فبال الحمار ، فقال عبد الله بن أُبيّ : أف ، وأمسك على أنفه ، فقال عبد الله بن رواحة : واللهِ لَهُوَ أطيبُ ريحاً منك ، فكان بين قوم ابن أُبيّ وابن رواحة ضرب بالنّعال والأيدي والسَّعَف ، ونزلت هذه الآية .

والقول الثاني : أنها نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مُمارَاة في حقّ بينهما ، فقال أحدهما : لآخذنّ حقي عَنوة ، وذلك لكثرة عشيرته ، ودعاه الآخر ليحاكمه إلى رسول الله ﷺ ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ، قاله قتادة [2] . وقال مجاهد : المراد بالطائفتين : الأوس والخزرج ؛ اقتتلوا بالعصي بينهم . وقرأ أُبيّ بن كعب ، وابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « اقتتلا » على فعل اثنين مذكَّرين . وقرأ أبو المتوكل الناجي ، وأبو الجون ، وابن أبي عبلة : « اقتتلتا » بتاء وألف بعد اللام على فعل اثنين مؤنثتين . وقال الحسن وقتادة والسدي (فأصلِحوا بينهما) بالدعاء إلى حكم كتاب الله عز وجل والرضى بما فيه لهما وعليهما (فان بغت إحداهما) طلبت ماليس لها ، ولم ترجع إلى الصلح ، (فقاتِلوا التي تبغي حتى تفيء) أي : تَرْجِع (إلى أمر الله) أي : إلى طاعته في الصلح الذي أمر به .

---

(١) رواه البخاري ٨/١٧٣ ، ومسلم ٣/١٤٢٤ .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » ٦ / ٩٠ من رواية عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة قال : ذُكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مماراة . . . الخ .

قوله تعالى : (وأقسِطوا) أي : اعدلوا في الإصلاح بينهما [١] .

قوله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) قال الزجاج : إذا كانوا متفقين في دينهم رجَعوا باتفاقهم إلى أصل النسب ، لأنهم لآدم وحواء ، فاذا اختلفت أديانهم افترقوا في النسب [٢] .

قوله تعالى : (فأصلحوا بين أخويكم) قرأ الأكثرون : [« بين أخويكم »] بياء على التثنية . وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، ومعاوية ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، [وقتادة] ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة ، ويعقوب : « بين إخوتكم » بتاء مع كسر الهمزة على الجمع . وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والشعبي ، وابن سيرين : « بين إخوانكم » بالنون وألف قبلها . قال قتادة : ويعني بذلك الأوس والخزرج .

---

(١) وتتمة الآية (إن الله يحب المقسطين) أي : إن الله يحب العادلين في أحكامهم ، القاضين بين خلقه بالقسط اهـ وهو العدل ، وروى مسلم في « صحيحه » ١٤٥٨/٣ عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا » .

(٢) قال ابن كثير ، (إنما المؤمنون أخوة) أي الجميع إخوة في الدين ، كما قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » ، وفي الصحيح « والله في عون العبد ما كان في عون أخيه » ، وفي « الصحيح » أيضاً : « إذ دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك بمثله » ، والأحاديث في هذا كثيرة قال : وفي « الصحيح » ، « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . وفي « الصحيح » أيضاً : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه ﷺ . اهـ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (لا يَسْخَر قومٌ من قوم) هذه الآية نزلت على ثلاثة أسباب ؛ فأما أولها إلى قوله تعالى : (خيراً منهم) فنزلت على سبب ، وفيه قولان .

أحدهما : أن ثابت بن قيس بن شمَّاس جاء يوماً يريد الدُّنُوَّ من رسول الله ﷺ ، وكان به صمم ، فقال لرجل بين يديه : افسح ، فقال له الرجل : قد أصبتَ مجلساً ، فجلس مُغْضَباً ، ثم قال للرجل : من أنت ؟ قال : أنا فلان . فقال ثابت : أنت ابن فلانة !! فذكر أُمّاً له كان يعيَّر بها في الجاهلية ، فأغضى الرجل ونَكَسَ رأسَه ، ونزل قوله تعالى : (لا يَسْخَر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) ، قاله أبو صالح عن ابن عباس [١] .

والثاني : أن وفد تميم استهزؤوا بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ لما رأوا من رثاثة حالهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك ومقاتل [٢] .

وأما قوله تعالى : (ولا نساءٌ من نساء) فنزلت على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٣ بغير سند ولم يعزه لأحد . وذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند . وقال الحافظ بن حجر في « تخريج الكشاف » ذكره الثعلبي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند .

(٢) ذكره البغوي والخازن عن الضحاك بغير سند . وأورده السيوطي في « الدر » ٩١/٦ من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل .

أحدها : أن نساء رسول الله ﷺ عيَّرن أمَّ سَلَمة بالقِصَر ، فنزلت هذه [الآية] ، قاله أنس بن مالك [١] . وزعم مقاتل أن عائشة استهزأت من قِصَر أمِّ سلَمة .

والثاني : أن امرأتين من أزواج رسول الله ﷺ سَخِرتا من أم سلمة زوجِ رسول الله ﷺ ، وكانت أم سلمة قد خرجت ذات يوم وقد ربطت أحد طرفي جلبابها على حَقْوها ، وأرخت الطرف الآخر خلفها ، ولا تعلم ، فقالت إحداهما للأخرى : انظُري ما خَلْفَ أم سلمة كأنه لسان كلب ، قاله أبو صالح عن ابن عباس [٢] .

والثالث : أن صفيَّة بنت حُيَيّ بن أخطب أتت رسولَ الله ﷺ فقالت : إن النساء يعيِّرنني ويقُلن : يا يهودية بنت يهوديَّين ، فقال رسول الله ﷺ : « هلاّ قُلْتِ : إن أبي هارون ، وإن عمّي موسى ، وإن زوجي محمد ، فنزلت هذه الآية ، رواه عكرمة عن ابن عباس [٣] .

وأما قوله تعالى : (ولا تَلْمِزوا أنفُسكم ولا تَنابزوا بالألقاب) فنزلت على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة ولهم ألقاب يُدْعَون بها ، فجعل الرجل يدعو الرجل بلقَبه ، فقيل له : يا رسول الله : إنهم يكرهون هذا ، فنزل

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » عن أنس بن مالك بغير سند ، وكذلك البغوي والخازن .

(٢) ذكره الآلوسي بغير سند ولم يعزه لأحد .

(٣) ذكره البغوي والخازن في « التفسير » والواحدي في « أسباب النزول » عن عكرمة عن ابن عباس بلا سند .

قوله تعالى : « ولا تَنابزوا بالألقاب » ، قاله أبو جبيرة بن الضحاك [١] .

والثاني : أن أبا ذر كان بينه وبين رجل منازعة ، فقال له الرجل : يا ابن اليهودية ، فنزلت : « ولا تَنابزوا بالألقاب » ، قاله الحسن .

والثالث : أن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي كلام ، فقال له : يا أعرابي ، فقال له عبد الله : يا يهودي ، فنزلت فيهما « ولا تَلمزوا أنفُسَكم ولا تَنابزوا بالألقاب » قاله مقاتل .

وأمّا التفسير ، فقوله تعالى : (لا يَسخر قومٌ من قوم) أي : لا يستهزىء غنيٌّ بفقير ، ولا مستور عليه ذنبُه بمن لم يُستَر عليه ، ولا ذو حَسَب بلئيم الحَسَب ، وأشباه ذلك ممّا يتنقّصه به ، عسى أن يكون عند الله خيراً [منه] . وقد بيَّنّا في (البقرة : ٥٤) أن القوم اسم الرجال دون النساء ، ولذلك قال : « ولا نساء من نساء » و « تَلمِزوا » بمعنى تَعيبوا ، وقد سبق بيانه [التوبة : ٥٨] . والمراد بالأنفُس هاهنا : الإخوان . والمعنى : لا تَعيبوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم . والتنابز : التفاعل من النَّبْز ، وهو مصدر ، والنَّبَز الاسم . والألقاب جمع لقب ، وهو اسم يُدعى به الانسان سوى الاسم الذي سمّي به . قال ابن قتيبة : « ولا تَنابزوا بالألقابَ » أي : لا تتداعَوْا بها . و « الألقاب » و « الأنْباز » واحد ، ومنه

---

[١] رواه الترمذي ٢/١٥٩ وقال : حديث حسن ، ورواه الطبري ١٦/١٣٢ ، والواحدي في « أسباب النزول » ، وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٩١ وزاد نسبته لأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في « الأدب المفرد » ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، والبغوي في « معجمه » ، وابن حبان ، والشيرازي في « الألقاب » ، والطبراني ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » عن أبي جبيرة بن الضحاك .

الحديث : « نَبْزُم الرافضة » أي : لقبُهم [١] . وللمفسرين في المراد بهذه الألقاب أربعة أقوال .

أحدها : تعيير التائب بسيئات قد كان عملها ، رواه عطية العوفي عن ابن عباس [٢] .

والثاني : أنه تسميته بعد إسلامه بدينه قبل الإسلام ، كقوله لليهودي إذا أسلم : يا يهودي ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً [٣] ، وبه قال الحسن ، وسعيد ابن جبير ، وعطاء الخراساني ، والقرظي .

والثالث : أنه قول الرجل للرجل : يا كافر ، يا منافق ، قاله عكرمة [٤] .

والرابع : أنه تسميته بالأعمال السيئة ، كقوله : يا زاني ؛ يا سارق ، يا فاسق ، قاله ابن زيد [٥] . قال أهل العلم : والمراد بهذه الألقاب : ما يكرهه المنادَى به ، أو يُعَدُّ ذمّاً له . فأمّا الألقاب التي تكسب حمداً وتكون صدقاً ، فلا تُكره ، كما قيل لأبي بكر : عتيق ، ولعمر : فاروق ، ولعثمان : ذو النورين ، ولعلي : أبو تراب ،

---

(١) قال ابن قتيبة في « غريب القرآن » : ومنه قيل في الحديث : « قوم نَبْزُهم الرافضة » أي لقبُهم ، قال الفقيه شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي في مقدمة كتابه « الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة » أخرج الدارقطني عن علي عن النبي ﷺ : « سيأتي من بعدي قوم لهم نبز يقال لهم : الرافضة . . . » الحديث ، ولم نعثر عليه ، والله أعلم بصحته .

(٢) « الطبري » ١٣٣/٢٦ .

(٣) ذكره الطبري ١٣٣/٢٦ عن الحسن ، وذكره السيوطي في « الدر » ٩١/٦ من رواية عبد الرزاق عن الحسن .

(٤) « الطبري » ١٣٢/٢٦ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٩١/٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن المنذر عن عكرمة .

(٥) « الطبري » ١٣٣/٢٦ .

ولخالد : سيف الله ، ونحو ذلك . وقوله : (بئسَ الاسمُ الفُسوق) أي : تسميتُه فاسقاً أو كافراً وقد آمن ، (ومن لم يَتُب) من التَّنابُز (فأولئك هم الظالمون) وفيه قولان .

أحدهما : الضارُّون لأنفُسهم بمعصيتهم ، قاله ابن عباس . والثاني : هم أظلم من الذين قالوا لهم ذلك ، قاله ابن زيد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (اجتنبوا كثيراً من الظَّنِّ) قال ابن عباس : نهى اللهُ تعالى المؤمنَ أن يظُنَّ بالمؤمن شرّاً . وقال سعيد بن جبير : هو الرجل يسمع من أخيه كلاماً لا يريد به سوءاً أو يدخُل مَدخلاً لا يريد به [سوءاً] [١] ، فيراه أخوه المسلم فيظُن به سوءاً . وقال الزجاج : هو أن يظُن بأهل الخير سوءاً . فأمّا أهل السوء والفسق ، فلنا أن نظُنَّ بهم مِثْل الذي ظهر منهم . قال القاضي أبو يعلى : هذه الآية تدل على أنه لم يُنْه عن جميع الظَّنِّ ؛ والظَّنُّ على أربعة أضرب . محظور ، ومأمور به ، ومباح ، ومندوب إليه ، فأمّا المحظور ، فهو سوء الظن بالله تعالى ، والواجب : حُسْنُ الظن بالله [٢] ، وكذلك سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرُهم العدالةُ محظور [٣] ، وأما الظن المأمور به ، فهو ما لم ينصب عليه

---

(١) زيادة ليست في الأصلين .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » ٤/٢٢٠٦ عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » .

(٣) روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ــــ

دليل يوصل إلى العِلْم به ، وقد تُعُبِّدنا بتنفيذ الحُكم فيه ، والاقتصار على غالب الظن ، وإجراء الحُكم عليه واجب ، وذلك نحو ما تُعُبِّدنا به من قبول شهادة العُدول ، وتحرِّي القِبلة ، وتقويم المستهلَكات ، وأروش الجنايات التي لم يَرِدْ بمقاديرها توقيف ، فهذا وما كان من نظائره قد تُعُبِّدنا فيه بأحكام غالب الظنون . فأمّا الظن المباح ، فكالشّاكِّ في الصلاة إذا كان إماماً ، أمره النبيُّ ﷺ بالتحرِّي والعملِ على ما يَغْلِب في ظنّه ، وإن فعله كان مباحاً ، وإن عَدَلَ عنه إلى البناء على اليقين كان جائزاً وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ظَنَنْتُم فلا تحقّقوا » ، [1] ، وهذا من الظن الذي يَعرِض في قلب الإنسان في أخيه فيما يوجب الرِّيبة ، فلا ينبغي له أن يحقّقه . وأما الظن المندوب إليه ، فهو إحسان الظن بالأخ المسلم يُنْدَب إليه ويُثاب عليه . فأمّا ما روي في الحديث : « احترِسوا من الناس بسوء الظن » [2] ، فالمراد : الاحتراس بحفظ المال ، مثل أن يقول : إن تركت بابي مفتوحاً خشيت السُّرّاق .

—— قال : « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ، ولا تحسَّسوا ولا تجسَّسوا ، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً » .

(١) ذكره ابن كثير في « التفسير » من رواية الطبراني ، ولفظه بتمامه : « ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة ، والحسد ، وسوء الظن » فقال رجل : وما يذهبن يارسول الله ممن هن فيه ؟ قال ﷺ : « إذا حسدت فاستغفر ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فأمضِ » ، وأورده الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٨/٧٨ وقال : رواه الطبراني ، وفيه اسماعيل بن قيس الأنصاري ، وهو ضعيف .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » وابن عدي من حديث بقية بن الوليد عن معاوية بن يحيى عن سليمان بن سليم عن أنس مرفوعاً ، قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٨/٨٦ : بقية بن الوليد مدلس ، وبقية رجاله ثقات ، وقال الحافظ المناوي في « فيض القدير » : قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : خرجه الطبراني في « الأوسط » من طريق أنس ، وهو ——

قوله تعالى : (إِنَّ بعض الظَّنِّ إثم) قال المفسرون : هو ما تكلم به مما ظنَّه من السُّوء بأخيه المسلم ، فان لم يتكلَّم به فلا بأس ، وذهب بعضهم إلى أنه يأثم بنفس ذلك الظن وإن لم يَنْطِق به .

قوله تعالى : (ولا تَجَسَّسوا) وقرأ أبو رزين ، والحسن ، والضحاك ، وابن سيرين ، وأبو رجاء ، وابن يعمر : بالحاء . قال أبو عبيدة : التجسس والتحسس واحد ، وهو التَّبحُّث ، ومنه الجاسوس . وروي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال : التجسس ، بالجيم : البحث عن عورات الناس ، وبالحاء : الاستماع لحديث القوم . قال المفسرون : التجسس : البحث عن عيب المسلمين وعوراتهم ؛ فالمعنى : لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه ليطَّلع عليه إذ ستره الله . وقيل لابن مسعود : هذا الوليد ابن عقبة تقطر لحيته خمراً ، فقال : إنا نُهينا عن التجسس ، فان يَظهرْ لنا شيء نأخذْه به .

قوله تعالى : (ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً) أي : لا يتناول بعضُكم بعضاً بظَهر الغَيْب بما يَسوؤُه . وقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ سئل ما الغيبة ؟ قال : « ذِكْرُكَ أخاك بما يكره » . قال : أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول . قال : « إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه »[1] .

ـــ من رواية بقية بالعنعنة ، عن معاوية بن يحيى وهو ضعيف ، فله علتان . قال : وصح من قول مطرف ، أخرجه مسدد . وقال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » : رواه أحمد في « الزهد » ، والبيهقي في « السنن » وغيرهما ، كلاهما من قول مطرف بن الشخير أحد التابعين . اهـ والحديث مخالف للأحاديث الصحيحة التي يأمر فيها النبي ﷺ المسلمين بأن لا يسيئوا الظن باخوانهم ، منها قوله ﷺ في الحديث الذي تقدم : « إياكم والظن ... » الحديث ، ولا تستقيم المعاملة مع الناس على إساءة الظن بهم .

(١) رواه أبو داود في « سننه » رقم (٤٨٧٤) والترمذي في « جامعه » ٢/١٥ وقال : ـــ

ثم ضَرَبَ اللهُ للغيبة مثلاً ، فقال : (أيُحِبُّ أحدُكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتاً) وقرأ نافع « ميِّتاً » بالتشديد . قال الزجاج : وبيانه أن ذِكرك بسوءٍ مَنْ لم يَحْضُر ، بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لايُحِسُّ بذلك . قال القاضي أبو يعلى : وهذا تأكيد لتحريم الغيبة ، لأن أكل لحم المسلم محظور ، ولأن النفوس تَعافُه من طريق الطَّبع ، فينبغي أن تكون الغِيبة بمنزلته في الكراهة .

قوله تعالى : (فكَرِهتموه) وقرأ الضحاك ، وعاصم الجحدري : « فكُرِّهتموه » برفع الكاف وتشديد الراء . قال الفراء : أي : وقد كرهتموه فلا تفعلوه ، ومن قرأ « فكُرِّهتموه » أي : فقد بُغِّض إليكم ، والمعنى واحد . قال الزجاج : والمعنى : كما تكرهون أكل لحمه ميتاً ، فكذلك تجنَّبوا ذِكْره بالسُّوء غائباً .

قوله تعالى : (واتَّقوا الله) أي : في الغِيبة (إن الله توّابٌ) على من تاب (رحيمٌ) به .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

— هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن جرير ١٣٧/٢٦ . وأورده السيوطي في « الدر » ٩٤/٦ وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه . ورواه مسلم في « صحيحه » ٢٠٠١/٤ ولفظه : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه » . أي : قلت فيه البهتان ، وهو الباطل .

قوله تعالى : (يا أيُّها النَّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : نزلت في ثابت بن قيس وقولِه في الرجل الذي لم يفسح له : أنت ابن فلانة ، وقد ذكرناه عن ابن عباس في قوله : (لا يسخرْ قومٌ من قوم) [الحجرات : ١١] (١) .

والثاني : أنه لمّا كان يوم الفتح أمر رسولُ الله ﷺ بلالاً فصَعِد على ظهر الكعبة فأذَّن ، وأراد أن يُذِلَّ المشركين بذلك ، فلمّا أذَّن ، قال عتاب بن أسِيد : الحمدُ لله الذي قبض أسيداً قبل اليوم ، وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسودِ مؤذِّناً ؟! وقال سهيل بن عمرو : إن يَكْرَهِ اللهُ شيئاً يغيِّره ، وقال أبو سفيان : أمّا أنا فلا أقول شيئاً ، فانّي إن قُلتُ شيئاً لَتَشْهَدَنَّ عليَّ السماء ، ولَتُخْبِرَنَّ عنّيَ الأرض ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل (٢) .

والثالث : أن عبداً أسود مرض فعاده رسولُ الله ﷺ ، ثم قُبض فتولّى غسله وتكفينه ودفنه ، فأثَّر ذلك عند الصحابة ، فنزلت هذه الآية ، قاله يزيد ابن شجرة (٣) . فأمّا المراد بالذَّكَر والأُنثى ، فآدم وحوّاء . والمعنى : إنكم تتساوَوْن في النسب ؛ وهذا زجر عن التفاخر بالأنساب . فأمّا الشُّعوب ، فهي جمع شَعْب . وهو الحيُّ العظيم ، مثل مضر وربيعة ، والقبائل دونها ، كبَكر من ربيعة ، وتميم من

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٣ بلا سند ، ولم يعزه لأحد ، وذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بلا سند أيضاً . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : ذكره الثعلبي ومن قبله عن ابن عباس بغير سند .

(٢) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٤ عن مقاتل .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٥٩ : هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.

مضر ، هذا قول الجمهور من المفسرين وأهل اللغة . وروى عطاء عن ابن عباس قال : يريد بالشعوب : الموالي ، وبالقبائل : العرب . وقال أبو رزين : الشعوب : أهل الجبال الذين لا يَعْتَزُون لأحد ، والقبائل : قبائل العرب . وقال أبو سليمان الدمشقي : وقد قيل : إن القبائل هي الأصول ، والشعوب هي البُطون التي تتشعَّب منها ، وهذا ضد القول الأول .

قوله تعالى : (لِتَعارفوا) أي : ليَعْرِفَ بعضُكم بعضاً في قُرب النسب وبُعده . قال الزجاج : المعنى : جعلناكم كذلك لتَعارفوا ، لا لتَفاخروا . ثم أعلمهم أن أرفعهم عنده منزلةً أتقاهم وقرأ أُبَيُّ بن كعب . وابن عباس ، والضحاك ، وابن يعمر ، وأبان عن عاصم : « لِتَعْرِفوا » باسكان العين وكسر الراء من غير ألف . وقرأ مجاهد ، وأبو المتوكل ، وابن محيصن : « لِتَّعارَفوا » بتاء واحدة مشددة وبألف مفتوحة الراء مخففة . وقرأ أبو نهيك ، والأعمش : « لِتتعرَّفوا » بتاءين مفتوحة الراء وبتشديدها من غير ألف .

قوله تعالى : (إنَّ أكرمكم) وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، ومجاهد ، وأبو الجوزاء : « أنَّ » بفتح الهمزة قال الفراء : من فتح « أنَّ » فكأنه قال : لتعارفوا أنَّ الكريمَ التَّقيُّ ، ولو كان كذلك لكانت « لِتَعْرِفوا » ، غير أنه يجوز « لِتَعارفوا » على معنى : ليعرِف بعضُكم بعضاً أن أكرمكم عند الله اتقاكم »[1] .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أي : إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى ، لا بالأحساب . قال : وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ ، فقد روى البخاري في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » وروى مسلم في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » وروى أبو داود في « سننه » والترمذي وحسنه عن أبي هريرة ـــ

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنّا) قال مجاهد : نزلت في أعراب بني أسد ابن خزيمة . ووصف غيره حالهم ، فقال : قَدِموا المدينةَ في سنة مُجْدِبة ، فأظهروا

— رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية (كبرها ونخوتها) وفخرها بالآباء ، مؤمن تقي ، وفاجر شقي ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب ، ليَدَعَنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفسها النتن » .

وروى أحمد في « المسند » بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ياأيها الناس ألا أن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » ثم قال ابن كثير في تتمة الآية : (إن الله عليم خبير) أي عليم بكم ، خبير بأموركم ، فيهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من يشاء ، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله ، قال : واستدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء الى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ، ولا يشترط سوى الدين ، لقوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) قلت : ويؤيده الحديث المرفوع « إذا أتاكم من ترضَون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم ، وهو حديث حسن .

الإسلام ولم يكونوا مؤمنين ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلَوا أسعارهم ، وكانوا يَمُنُّون على رسول الله ﷺ فيقولون : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولَمْ نُقاتِلْك ، فنزلت فيهم هذه الآية [(١)] . وقال السدي : نزلت في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار [وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة (الفتح) وكانوا يقولون : آمنا بالله ، ليأمنوا على أنفُسهم] ، فلمّا استُنفروا إلى الحديبية تخلّفوا ، فنزلت فيهم هذه الآية [(٢)] . وقال مقاتل : كانت منازلهم بين مكة والمدينة ، فكانوا إذا مرّت بهم سريّة من سرايا رسول الله ﷺ قالوا : آمنا ، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم ، فلمّا سار رسول الله ﷺ إلى الحديبية استنفرهم فلم يَنْفِروا معه .

قوله تعالى : (قُلْ لَمْ تؤْمِنوا) أي : لَمْ تصدّقوا (ولكن قولوا أسلمنا) قال ابن قتيبة : أي : استَسلمنا من خوف السيف ، وانقَدْنا . قال الزجاج : الإسلام : إظهار الخُضوع والقَبول لِما أتى به رسولُ الله ﷺ ، وبذلك يُحقَن الدَّم ، فان كان معه اعتقاد وتصديق بالقلب ، فذلك الإيمان ، فأخرَجَ اللهُ هؤلاء من الإيمان بقوله : (ولمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلوبكم) أي : لَمْ تُصدِّقوا ، إنما أسلمتم تعوُّذاً من القتل . وقال مقاتل : « ولمّا » بمعنى « ولم » يدخُل التصديقُ في قلوبكم [(٣)] .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » والبغوي والخازن في « التفسير » بلا سند .

(٢) ذكره البغوي والخازن عن السدي بغير سند ، ولم يعزواه لأحد .

(٣) قال ابن كثير : يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الاسلام ادَّعَوا لأنفسهم مقام الايمان ، ولم يتمكّن الايمان في قلوبهم بعدُ (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) قال : وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الايمان أخص من الاسلام ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، قال : ويدل عليه ـــ

قوله تعالى : (وإن تُطيعوا اللهَ ورسولَه) قال ابن عباس : إن تُخلِصوا الإيمان (لا يألِتْكُم) قرأ أبو عمرو : « يألِتْكُم » بألف وهمز ؛ وروي عنه بألف ساكنة مع ترك الهمزة : وقرأ الباقون : « يَلِتْكُم » بغير ألف ولا همز . فقراءة أبي عمرو من ألَتَ يألِتُ ، وقراءة الباقين من لاتَ يَليتُ ، قال الفراء : وهما لغتان ، قال الزجاج : معناهما واحد . والمعنى : لا ينقُصكم . وقال أبو عبيدة : فيها ثلاث لغات : ألَتَ يألِتُ ، تقديرها : أفَكَ يأفِكُ ، وألاتَ يُليتُ ، تقديرها : أقال يُقيلُ ، ولاتَ يَليتُ ، قال رؤبة :

وليلةٍ ذاتِ نَدىً سَرَيْتُ ولم يَلِتْني عن سُراها لَيْتُ[1]

قوله تعالى : (مِنْ أعمالكم) أي : من ثوابها . ثم نعت الصادقين في إيمانهم بالآية التي تلي هذه[2] . ومعنى : (يَرتابوا) يَشُكّوا . وإنما ذكر الجهاد ، لأن الجهاد مع رسول الله ﷺ كان فرضاً في ذلك الوقت ، (أولئك هم الصادقون) [في إيمانهم فلمّا نزلت هاتان الآيتان أتوا رسولَ الله ﷺ يحلفون أنهم مؤمنون صادقون] فنزلت [هذه الآية] .

قوله تعالى : (قُلْ أتُعلِّمون اللهَ بدينكم) و « علَّم » بمعنى « أعلم » ، ولذلك دخلت الباء في قوله : « بدينكم » والمعنى : أتُخبرون [اللهَ] بالدِّين الذي أنتم عليه ؟! ،

— حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الاسلام ، ثم عن الايمان ، ثم عن الاحسان ، فترقى من الأعم الى الأخص ثم للأخص منه . اهـ .

(١) الرجز في « مجاز القرآن » : ٢/٢٢١ ، و « الطبري » : ١٥/٢ و ٢٦/١٤٣ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : ليت .

(٢) وهي قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

أي : هو عالِمٌ بذلك لا يحتاج إلى إخباركم ؛ وفيهم نزل قوله تعالى : (يَمُنُّون عليك أن أسْلموا) قالوا : أسْلَمْنا ولم نُقاتِلْكَ [1] [والله أعلم] .

* * *

(١) قال الحافظ السيوطي في « الدر » ٦/١٠٠ : أخرج ابن المنذر ، والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى أن ناساً من العرب قالوا : يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأنزل الله (يمنون عليك أن أسلموا ...) الآية ، قال الحافظ الهيثمي في « المجمع » ٧/١١٢ رواه الطبراني في « الكبير » و « الأوسط » وفيه الحجاج بن أرطاة وهو ثقة ، ولكنه مدلس ، وبقية رجاله رجال الصحيح . وذكره ابن كثير عن البزار من طريق أبي عون عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، ثم قال : قال البزار : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه ، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبد الله غير هذا الحديث . وذكره السيوطي في « أسباب النزول » من رواية النسائي والبزار وابن مردويه عن ابن عباس ، ومن رواية سعيد بن منصور وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن سعيد بن جبير ، ومن رواية ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن . والله أعلم اهـ .

تم – بعون الله تعالى وتوفيقه – الجزء السابع من كتاب

« زاد المسير في علم التفسير » للامام ابن الجوزي

ويليه الجزء الثامن ، وأوله

تفسير سورة « ق »